

د. عائض القرني

مجالس الأدب

العبيكان
Obékan

ح) مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله

مجالس الأدب./ عائض بن عبدالله القرني. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٥٦٢ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٦-٥٩٣-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١. الأدب العربي - مجموعات ٢- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ٦٨٨٥ / ١٤٣٠

رقم الإيداع: ٦٨٨٥ / ١٤٣٠

ردمك: ٦-٥٩٣-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

العبيكان
Obaykan

التوزيع: مكتبة

الرياض- العليا- تقاطع طريق الملك فهد مع العربية

هاتف ٤٦٥٤٢٤-٤٦٥٤٢٩ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب. ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناسر
Obaykan للناسر

الرياض- شارع العليا العام- جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

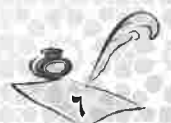
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناسر.



مُخْتَصَرَاتُ الْكِتَابِ

الموضوع	الصفحة
سرعة البداهة	٧
خشبة الموت	١٥
شعر السجون	٢٥
الشعر والكرم	٣٥
قصائد قتلت أصحابها	٤٥
قصائد سارت بها الركبان	٥٥
املؤوا فمه دراً	٦٧
مدائح نبوية	٧٧
علو الهمة	٨٧
المنظومات	٩٥
العلماء والشعر	١٠٥
الرجاء	١١٥
الشيب والهرم	١٢٣
الفرج بعد الشدة	١٣١
الوطن	١٤١
الوقت	١٤٩
ساعة الصفر	١٥٩
الصديق	١٦٩
العلم	١٧٧
العيون في الشعر	١٨٧
قصة وقصيدة	١٩٧

٢٠٧	 كلمة الحب
٢١٧	 الجليس الصالح
٢٢٧	 الحكمة
٢٣٧	 المجد
٢٤٧	 بر الوالدين
٢٥٥	 محمد إقبال
٢٦٥	 النهاية
٢٧٥	 الشعر والزهد
٢٨٥	 البخل
٢٩٣	 الفراقيات
٣٠٧	 الوعظ
٣٢٥	 الكتاب
٣٣٧	 العدو الصديق
٣٥١	 الناجح محسود
٣٦٥	 أهل العزم
٣٨١	 شمس الشعر
٣٩٧	 المتنبي في الميزان
٤١١	 حكم ودرر
٤٢٥	 الكلمة الأخيرة
٤٣٩	 زائر الليل
٤٥٣	 الرأي قبل الشجاعة
٤٦٩	 شعر الشكوى
٤٨٣	 ليل الشعراء
٤٩٧	 مقابلة مع المتنبي
٥٢٥	 الشعر والعيون
٥٣٩	 المتنبي والخروج على النص
٥٥٣	 عمر الفتى الثاني



سرعة البداهة

سرعة البداهة في الرجل موهبة من الله عز وجل
يمنحها من يشاء، وخاصة إذا سُخِّرَتْ في الخير.

ومن مواقف سرعة البداهة ما ذكره أهل
الأدب أن أحد الشعراء دخل على الأمير المَهْلَبِي
في العراق، وكان المَهْلَبِي الوزير مَهِيئاً غَضُوباً
عَبُوساً، فدخل عليه الشاعر وقت المساء، وأراد
أن يقول: كيف أمسيت أيها الأمير؟ فغلط الشاعر
من الرهبة وخوف الموقف، فقال: كيف أصبحت
أيها الأمير؟ فقال: هذا مساء أو صباح؟ فأطرق
الشاعر قليلاً، ثم رفع رأسه وقال:

صَبَّحْتُهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي: مَاذَا الصَّبَاحُ؟ وَظَنَّ ذَاكَ مِزَاحًا
فَأَجَبْتُهُ: اشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرْنِي حَتَّى تَبَيَّنْتَ الْمَسَاءَ صَبَاحًا

وعلى هذا كانت أجوبة علي بن أبي طالب أبي الحسن، إذ يقولون: كان من أسرع الناس جواباً؛ لسرعة بدهاته. «قَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَمَّاذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَاجْتَلَفُوا عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَنَا وَأَمْثَالِي، وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ. قَالَ: أَنْتَ خَيْرُ النَّاسِ. فَقَالَ: أَنَا فَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ وَدُونَ مَا تَقُولُ». وَ«قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةُ الشَّمْسِ يَوْمًا. قِيلَ لَهُ: كَمْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْشِ؟ قَالَ: دَعْوَةُ مُسْتَجَابَةٍ». وأهل الأدب يذكرون أن أبا العلاء المعري ذهب إلى الشريف الرضي في مجلسه، وكان الشريف الرضي لا يحب المتنبّي، والمتنبّي هو شيخ أبي العلاء المعري، فوقف عنده، وذكر شعر المتنبّي، فهوّن الشريف الرضي شعر المتنبّي ومن استشهاده ومن قوة شاعريته، فقال: أيها الأمير، لا تَهَوَّنْ من شعر المتنبّي؛ لو لم يكن له إلا قصيدة:

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْضَرْتَ أَنْتِ وَهْنٌ مِنْهُ أَوَاهِلُ
لكفى.

قال الأمير: أخرجوه من مجلسي. فقال الناس للأمير الشريف الرضي: ما قال أبو العلاء سوءاً قال: بلى، هو استشهد بهذه القصيدة مع العلم أن للمتنبّي أحسن منها، لكن قصده آخر القصيدة، وهو قوله:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

فانظر كيف استحضر القصيدة سريعاً، وانتزع هذا البيت؟! وهذا من أجمل الأبيات، فإذا ذمك إنسان قليل قدر، فهو دلالة على سمو قدرك، وارتفاع كعبك في المكارم.



ثم ذكروا أن أبا جعفر المنصور كان من الأذكىاء وصاحب أدب، ذهب إلى مدينة الرسول ﷺ وهو ملك، فقال: من يطلعنا على آثار الصحابة رضي الله عنهم، وعلى أسماء بيوت المهاجرين والأنصار؟ فأتوا بشيخ كبير - بالأجرة - مُطَوِّفٍ، وقال له أبو جعفر: أخبرني - فقط - باسم صاحب البيت، ولا تُكثِر علي. وذلك لأنه لا يحتمل كثرة الكلام، فأخذه من الصباح إلى المساء، يقول: هذا بيت عمر ابن الخطاب، هذا بيت عثمان، هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت حسان بن ثابت رضي الله عنهم. ونسوا أن يعطوه الأجرة، وفي اليوم الثاني طلب الشيخ، فقال: اتتوني بالشيخ علي. فأتوا به، فأخذ يدل أبا جعفر ويصف له البيوت، حتى أتى إلى بيت الأحوص الأنصاري الشاعر، فقال: هذا - يا أمير المؤمنين - بيت الأحوص الأنصاري الشاعر الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أَتَعَزَّلُ أَثَرُ الْعِدَى وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ
إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصَّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لَأَمِيلُ

فوجم أبو جعفر، وتعجب لماذا استشهد الرجل بهذه الأبيات؟ فقال: أكملوا القصيدة. فأكملوا القصيدة، فإذا في آخرها:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ الْكَلَامِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قال: ما أعطيتموه الأجرة؟ قالوا: لا. قال: الآن هو يطلب الأجرة في القصيدة والاستشهاد، وهذا من هذا.

ثم إن أبا تمام من أشهر الشعراء بلا شك ويأتي بعد المتنبّي، وقف عند المعتمد ينشده قصيدته التي يقول في مطلعها:

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَأْسِ نَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ

إلى أن يقول:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

فقام الطبيب الكندي- وكان الفيلسوف وكان حاضراً- فقال: ما زدت على أن وصفت أمير المؤمنين بأجلاف العرب! فوجم قليلاً أبو تمام ثم ورد الأبيات:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَا وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فحُمدَ فِعْلُهُ في ذلك، فقال الطبيب الفيلسوف: هذا لا يعيش طويلاً. وفعلاً مات أبو تمام وعمره (٤٦ سنة)؛ قال: لأن عقله يأكل جسمه. فدائماً الأذكاء تجد عندهم من الاندفاع، ومن حدة خاطر، وجودة الرأي ما يؤثر على أجسامهم في الغالب.

وذكروا- أيضاً- أن أحد الوزراء كان في مجلس، فقال لأحد الشعراء: من يكمل لي بيت شعر يبدأ بكلمة وينتهي بنفس الكلمة؟ قالوا: أعطنا الكلمة أيها الوزير. قال: سَمِسِمَة. فقال الشاعر الأول:

سَمِسِمَةٌ فِي الْعِلْمِ تُحْمَدُ بِهَا وَاحْمَدُ لِمَنْ أُعْطِيَ وَلَوْ سَمِسِمَةٌ

أي: اطلب علامة تُحمد، وتشكر فيها في العلم، واحمد الله عز وجل ولو أعطاك سمسمه. وفي الآخر قال: ملامه. فقال الثاني:

مَلَامَةٌ الْوُكْسَاءِ فِي خَدْرِهَا الْأُمُّ مِنْ حُرٍّ أَتَى مَلَامَةٌ

اللامه: الجارية الغبية في خدرها، أشد بخلًا وأشد ملامه من الحر الذي يأتي ملامه: أي: ما يلام عليه من الأفعال الشنيعة:

وَالْمَخُ كَمَالِ الْفَضْلِ حَتَّى تُرَى قَاضٍ يُدِيرُ الْحُكْمَ فِي الْمَحْكَمَةِ

قال: أجم. فقال:

أَلْجَمُ جِمَاحِ النَّفْسِ عَنْ غِيَّهَا فَغِيَّهَا يُذْهَبُ بِالْجُمُجْمَةِ



سرعة البدهة

وهكذا، وهذا من سرعة البدهة التي تحضر لبعض الشعراء، وهي موهبة، فمن سخرها في الخير أُجِرَ على ذلك.

وقرأت في (سفينة الأدب والتاريخ) أن أحد الأعيان والوجهاء كان مشهوراً بأكل الربا، وهو يعرف: السحت. وكان كذوباً، فدعا أناساً من الأدباء وبعض الأعيان للغداء، وفُرشَت المائدة أمامهم، وجلس عندهم - وهو لا يتغدى - ويحدث لهم بقصص من الأوهام والخيالات والخرافات وهم يأكلون، فهم يرون أن أكلهم من الربا وهو يتكلم بالكذب، ثم صاح بأحد الأدباء، فقال: كيف أنتم يا فلان؟ قال الأديب: سمّاعون للكذب، أكّالون للسحت. وهذا في كتاب الله عزّ وجلّ يقوله عزّ وجلّ عن أعدائه اليهود: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وهذا من سرعة البدهة التي لا تتأتى لكل أحد.

قرأت أن أحد القادة المشهورين مرّ في مدينة بسرداب، والسرداب مثل الشارع الضيق. وفي أحد جنبات السرداب جزار ولا يعلم أن القائد الشجاع سوف يمر، وكان قد ذبح شاة، وأراد أن يرمي ببقية الشاة، مثل: الكراع، والرأس. وعليها دم، ويريد أن يرميها في الشارع، ولم يعلم أن هذا القائد يمر بموكبه في هذه اللحظة، فمر، فرمى، فوقع بعض الدم على جسم هذا القائد وعلى ثيابه وعلى عمامته، وكان بطاشاً ظلوماً غشوماً، وأراد أن يبطش به، فقال أحد الأدباء وكان معه: أيها القائد، يقول أبو الطيب:

لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

قال: عفوت عنه؛ لأجل هذا البيت. وهذه من قصيدة مشهورة لأبي الطيب، مطلعها:

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ عَرَضاً نَظَرْتُ وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ

ومنها:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ



إلى أن يقول:

لَا يَسْلُمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُّ

أي: إن المجد العالي يحتاج إلى نضال وإلى كفاح وإلى مدافعة، حتى إلى تضحيات بالغير؛ ليستقيم الأمر، لكن انظر إلى استشهاد هذا الأديب في هذه المناسبة، حتى أعتق هذا الجزار من القتل، أو من الأذى.

وذكر الإمام العلامة الكبير ابن حزم الظاهري، قال: كان أبي مُستشاراً في الديوان عند أحد ملوك الأندلس، قال: فأتى عدوّ له يراجع أبي في مسألة، فكتب خطاباً لأبي، وكتب في الخطاب- وهذا من قلة الحيلة وقلة الذكاء- قول أبي الطيب:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرْأَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

فأنت تحتاج إلى هذا الوزير، وتريد أن تراجع في أمر، فتكتب هذا البيت الذي مقصوده: إننا مضطرون لك وأنت عدو لنا، لكننا حملتنا الضرورة والحاجة لأن نصانعك، وما كان ينبغي أن نفعل ذلك. فمن ذكاء والد ابن حزم أن قلب اللفظ، فقال:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرْأَنْ يَرَى صَدِيقًا لَهُ مَا مِنْ عَدَاوَتِهِ بُدُّ

أي: إنك كنت صديقاً قبل، لكنك اضطررتنا الآن، وأغضبتنا إلى أن نجعلك عدواً بالغصب والقوة. وهذا يفعله بعض الناس من الهَوَج، بأن يستخدم بعض العبارات التي لا تجدي، وقد تكلفه روحه، أو تكلفه موقفه أو مصلحته، حتى إن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]. أي: يختارون من العبارات اللينة الموفقة التي تدعو إلى الوفاق، وإلى المسامحة، أحسن من اختيار العبارات التي تُزعج.

ومن هذا الباب أن امرأة كانت مارة في مجلس في الكوفة، وفيها قوم يظهر أنهم من بني نُمير، فنظروا إليها، فالتفت إليهم، فقالت: قاتلكم الله يا نُمير، أنتم لا أخذتم بقول الله عز وجل ولا بقول جرير، فإلهه عز وجل يقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَلْبُسِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وجرير يقول:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

انظر لها كيف استخدمت الأمرين، واستشهدت في الحال المناسب بهذا الاستشهاد المناسب في وقته! وهذا من الذكاء المفرط.

ذكر الذهبي عن أبي مسلم الخراساني القائد المشهور، وهو من القادة الكبار، الذي نقل دولة بني أمية إلى بني العباس. وكان من الذكاء على نحو عجيب، قُتِلَ وَعُمِّرُهُ (٣٩ سنة) كان يخطب بالناس في يوم الجمعة، وعليه عمامة سوداء، فقام أحد الناس - وهذا طُفْلِي متعجل - وقال في المسجد: لماذا تلبس السواد، وقد نهينا عن لبس السواد؟ والسواد هو شعار الدولة العباسية، فالتفت أبو مسلم إلى الرجل وقال - وهو مرتجل وما قطع كلامه: حدثني فلان، عن فلان، عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ». وقال: يا غلام، اضرب عنقه. فقتله أمام الناس وأتى بالحديث، فعجب الناس من سرعة بداهته، وحفظه للحديث وهو قائد عسكري وقائد سياسي، وأمر بالقتل في الحال!

ومن هذا الباب ينبغي - أيضاً - ألا تُستخدم سرعة البداهة في النيل من الناس والتعرض لهم والإضرار بهم؛ لأن من عنده جرأة في الحديث أحياناً إذا لم يكن عنده تقوى، ولم يكن عنده وازع ديني أسرع بالكلام فيما يشتهي، ولذلك كانت سرعة بداهة الأخيار والأبرار فيما يرفع وفيما يُقيم، وأذكر من المعاصرين أحد العلماء، ذهب إلى دولة من الدول - وهي دولته، لكن منعه من الدخول فيها؛ لأمر سياسي - فوصل المطار وأمر أن يُعاد من المطار، وأن يخرج خارج الوطن، فلما

رجع إلى أصحابه قالوا: كيف وجدت المدينة التي ذهبت إليها؟ قال: مُلئت حرساً شديداً وشُهْباً. وهذا من أسلوب القرآن الكريم.

وعلى سبيل اختيار الألفاظ حدثني أحد الأدباء في الرياض أنه قرأ أن هتلر لما اتجهت جيوشه إلى بلغراد، متجهة إلى موسكو، وفي تلك المدة ألقى خطاباً عالمياً أذيع على العالم، فطلب أن تُختار له كلمة من الكتب السماوية: القرآن، أو الإنجيل، أو التوراة، تملأ الجو والمكان والزمان، وكان عندهم هناك أديب عراقي لاجئ في ألمانيا، فأتاه الخبر، فقال: أرى أن هتلر يبدأ خطابه الليلة بقوله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ﴾ [القمر: ١]. هذا الكلام الذي يملأ الجو ويملأ المكان ويملأ الزمان، فبدأ بهذا الخطاب، ولذلك أسلوب القرآن عجيب، حتى الجن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. فهم ذهلوا وعجبوا، حتى الجن سمعوا هذا الكتاب، فقالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجباً. فإذا عَلِمَ هذا، فهذه بعض المواقف الشعرية، وقد قرأت أن بعض الأدباء كان جالساً، فأقبل عالم - وبعض العلماء يرى عدم القيام، وهذا رأي من المذاهب - فقام الأديب له، فقال العالم: اجلس، لا يجوز القيام. وهذا على مذهبه، فقال الأديب الشاعر:

قِيَامِي - وَالإِلَه - إِلَيْكَ حَقٌّ وَتَرَكُ الْحَقِّ مَا لَا يَسْتَقِيمُ
وَهَلْ رَجُلٌ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ يَرَاكَ تَسِيرُ إِلَيْهِ وَلَا يَقُومُ

فانظر كيف حضر له مثل هذا المعنى، ومثل هذه الأبيات في هذا المكان، والمواقف في ذلك كثيرة ولكن السلف الصالح - ذَكَرُوا عَنْهُمْ - أنهم ما كانوا يستخدمون مثل هذا؛ لأنهم يخشون أن يكون شيء من المباهاة، حتى يقول الحسن: أترك بعض الكلام؛ خشية الْعُجْب. أي: يترك بعض الاختيارات والاستشهادات؛ خشية من العجب. وبعضهم يتركه خشية من العين، فإن إياساً القاضي كان من أذكى الناس، ولذلك كان يُخشى عليه من العين؛ لتسديده في القضاء، وتسديده في الإجابة. ومن أكثر من كان يجيب شريك القاضي؛ قال له رجل: من عندنا خرج العلم. أي: من الكوفة. قال: ثم لم يعد إليكم أبداً.

خشبة الموت

عند الأدباء مصطلح اسمه: خشبة الموت.
وهي النهاية للإنسان، أو الصلب له، أو القتل
أمام الجماهير. وعادة ما يُفعل لمن كان ذا مكانة
أو مشهوراً أو زعيماً أو جواداً أو بطلاً، ومن سادة
مَنْ قُيِّلَ به وصُلِبَ أمام العالم عبد الله بن الزبير
«ابن حواري الرسول ﷺ، صلبه الحجاج الظالم،
حتى مرت أسماء بنت أبي بكر «وكانت عمياء،
وأخبروها أن ابنها مصلوب، فقالت: «أَمَا أَنْ لِهَذَا
الْفَارِسِ أَنْ يَتَرَجَّلَ». ومرت التاريخ برواياته على من
صُلِبُوا، ومن أشهرهم وأكثرهم اعتباراً في الأمة،

وذيوعاً في التاريخ ابن بقية الوزير، وكان وزيراً عباسياً ذا كرم ونجدة ومروءة، حتى إنه تكفل لمن يحفظ القرآن بجائزة ثمينة ببغداد، وكان ينفق على العلماء ويُطعم المساكين، ومرَّ جَدَّبٌ في بغداد وقحط، فأخذ الأضحية من ماله وجعلها لأهل بغداد، وقد آتاه الله مالاً، لكن ليس كل إنسان آتاه الله مالاً يكون جواداً، ولكن إذا اجتمع الجود والمال فهو الكمال، وهذا الذي حصل لابن بقية، وكان الملك في تلك المدة عضد الدولة فن خسرو الديلمي، وكان باطشاً قوياً وهو من جبابرة الملوك، وهو المقصود الذي مدحه المتنبي بقوله في قصيدة طويلة:

فِدَاكَ لَكَ مِنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ	فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَ
أَرْوَحُ وَقَدْ خَتَمْتَ عَلَى فُؤَادِي	بِحُبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سِوَاكَ
إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودِ	تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

عضد الدولة مدحه المتنبي - أيضاً - في قصيدة أخرى، واسمه فَنَّ خسرو يقول:

فَمَا يُسَمَّى كَفَنُخْسَرُو مُسَمًّى وَلَا يُكْنَى كَفَنُخْسَرُو كَانِي

يقول: لا يسمَّى بمثل اسمك أحد، ولا يُكنى بمثلك أحد.

الشاهد أن هذا الملك غضب وأصابته الغيرة من الوزير ابن بقية؛ لما يمتاز به من كرم وجود وغيرهما من الصفات الطيبة، فاحتال عليه، حتى وضعوه للفيلة في بغداد وقُتِلَ وصُلِبَ، في ليل بطيء النجوم، ليل صعب على أهل بغداد وعلى أهل العراق، وجاء الخبر في الصباح مع الأذان: قُتِلَ ابن بقية مع الأذان وهو مصلوب عند باب الطاق. وباب الطاق مدخل بغداد، وهناك خشبة الموت صُلِبَ عليها ابن الوزير مُسَمَّرَ اليدين ونصفه الأعلى عارٍ، والرياح تلعف وجهه، وهو منتصب كأنه علم وكأنه عمود، وجاء الخبر أبا الحسن الأنباري المحدث والمفسر الأديب في المسجد، فقال لطلابه: قوموا بنا؛ وفاءً للذمة وإعادة الحق والخير لفاعله

عَشِيَّةُ الْمَوْتِ

ومسديه ابن بقية، فذهب ووقف أمام الجثمان وإذا بابن بقية على حاله، والناس مصطفىون أمام ابن بقية، هذا يدعو وهذا يبكي وهذا يشير بيده وهذا يترحم عليه، وهذا ينظم قصيدة، فسَلَّمَ أبو الحسن الأنباري، والتفت إلى ابن بقية وهو مصلوب مقتول، فقال:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقُّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ

فَحَوَّلَ السَّلْبِيَّاتِ إِلَى إِيْجَابِيَّاتِ وَالْخَسَائِرِ إِلَى أَرْبَاحِ، فقال: حتى موتك مميز، فما مت مثل الناس وما دفنوك، أي إنك رفضت أن تُدْفَنَ إلا أن تكون علوًّا في الجو، مثل حياتك يوم أن كانت قوية مرتفعة عالية.

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقُّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ - حَوْلَكَ - حِينَ قَامُوا وَفُودَ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ

كأنهم يريدون أن يأخذوا الصلوات والأعطيات، مزدحمين، مثلما ازدحموا عند قصرِكَ في حياتك.

كَأَنَّكَ وَقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ

حَتَّى إِنْ يَدِيهِ لَمَا كَانَتَا مَسْمَرَتَيْنِ يَقُولُ: كَأَنَّكَ أَنْتَ الْآنَ تُحْيِينَا وَتَحْتَضِنُنَا وَتَرْحَبُ بِنَا.

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ؛ اخْتِفَاءً كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

ويقول: هم ما دفنوك في التراب؛ لأن القبر لا يتسع لمكارمك، ولا لجودك.

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ يُوَارَوْا فِيهِ تِلْكَ الْمَكْرُمَاتِ
أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاظُوا عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَّاتِ

يقول: الرياح صارت أكفاناً لك، وتُصَبِّحُ عليك، وتُمسِّي عليك بالخيرات، ثم

يقول:



لِعِظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيتُ تُرْمَى بِحُرَاسٍ وَحُفَاطٍ تُقَاتِ

يقول: أنت عظيم مهيب؛ حتى وأنت ميت يخافونك والعسكر حولك، إذ كان العسكر حوله، حتى لا ينزلوا جثمانه من على الخشبة. فسبحان الله! هؤلاء يحرسونك ويخافونك، حتى وأنت ميت.

وَتُوقَدُ حَوْلَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
وَمَا لَكَ تُرْبَةً فَأَقُولُ تُسْقَى لِأَنَّكَ نَصَبٌ هَطَلِ الْهَاطَلَاتِ

يقول: لو أنهم دفنوك في التراب لقلت: سقى الله ترابك الغيث. كيف لا تربة توارى فيها؟! لأنك نصب هطل الهاطلات، اقتربت من السحاب.

عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْدُو بِتَبْرِيكِ غَوَادٍ رَائِحَاتِ

ثم يقول: والله إني مقصر في حقك. أو بعد هذه القصيدة تقصير يا ابن الأنباري؟!

وَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ قِيَامَ حَقٍّ عَلَيْنَا بِالْحُقُوقِ الْوَاجِبَاتِ
مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي وَنَحْتُ بِهَا خِلَافَ النَّائِحَاتِ

إلى آخرها، وهي اثنان وعشرون بيتاً، وما قيل مثلها في المراثي، وفرّ بعد هذه القصيدة إلى ملك حلب، وأرسل عضد الدولة للبحث عن ابن الأنباري، فما وجدوا غير هذه القصيدة، فقال: اقرؤوا عليّ القصيدة - وعضد الدولة هو القاتل - فقرؤوا عليه هذه القصيدة، فسالت دموعه، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لوددت أني قُتِلْتُ وَصُلِبْتُ، وقيل في هذه القصيدة. لأنها مما يخلده الدهر قوة وبلاغة وأداءً، هذه القصيدة التي يسميها:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقُّ؛ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ

عن شيبه الموت

وَأَعْظَمُ فَنِّ أَثَرٍ فِيهِ الْعَرَبُ هُوَ فَنُّ الرِّثَاءِ، وَكُتِبُوا فِيهِ أَحْسَنُ شَيْءٍ، حَتَّى يَقُولَ
جَرِيرٌ: لَوْ تَرَكْنِي الْفَرَزْدَقُ لَأَبْكَيْتُ الْعُجُوزَ عَلَى شَبَابِهَا.

فَمَا بَكَى الْعَرَبُ، مِثْلَمَا بَكَوا الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ، وَبَكَوا الشَّيْبَ إِذَا فَقَدُوا الشَّبَابَ،
أَوْ بَكَوا الشَّبَابَ إِذَا دَلَفَ عَلَيْهِمُ الشَّيْبُ.

وَأَبُو تَمَامٍ مِنَ الْمَجِيدِينَ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، ذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدَ
بْنَ حَمِيدِ الطُّوسِيِّ الْبَطْلَ كَانَ مُجَاهِدًا فِي عَهْدِ الْمَعْتَصِمِ، جَاهَدَ جِهَةَ الرُّومِ
وَحَضَرَ الْمَعْرَكَةَ وَقَادَ الْجَيْشَ، وَقَالَ: أَحْمُوا ظَهْرِي. فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَحْمُونَ ظَهْرَهُ
وَأَخَذَ يَسْتَبْسِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُقَاتِلُ وَتَتَكَسَّرُ السُّيُوفُ فِي يَدِهِ، وَفِي الْآخِرِ أَتَتْهُ
كُتَيْبَةُ وَشَاكُوهُ بِالرَّمَاكِ، وَلَمْ يَفِرْ وَلَوْ خُطُوةً، فَوَقَعَ أُسِيرًا بَعْدَمَا أَصْبَحَتْ ثِيَابُهُ كُلُّهَا
حُمْرًا مِنَ الدَّمِ، فَأَتَى الْخَبَرَ أَبَا تَمَامٍ فَقَالَ قَصِيدَتَهُ، حَتَّى إِنْ الْمَعْتَصِمَ لَمَا سَمِعَ
قَصِيدَتَهُ قَالَ: مَا مَاتَ مِنْ قِيلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ، وَمَا زَالَ حَيًّا. فَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

كَذَا فَلْيَجِلْ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ^(١)
تُوفِّيَتْ الْأَمْالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

أَي: لَا تَتَأَمَّلُوا شَيْئًا، فَقَدْ انْتَهَتْ الطَّلِبَاتُ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ شَجَاعًا، وَلَمْ
يَعُدْ لِلْمَسَافِرِينَ رَغْبَةً فِي أَنْ يَسَافِرُوا لِأَحَدٍ يَطْلُبُونَ الْجُودَ فَقَدْ تَوَفَّى مُحَمَّدٌ، فَلَا
تَسَافِرُوا.

فَتَى كُلَّمَا فَاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ دَمَا ضَحِكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

ثم يقول في المعركة:

تَرَدَّى ثِيَابُ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضَرُ

(١) قوله: كذا. أطلقها مدوية في الفضاء، تملأ الزمان والمكان.

أي: في الجنة. صارت حمراء بالدم وبعد ساعة مع الغروب وإذا هوفي جنة النعيم، فتسأل الله أن يغفر لكل أموات المسلمين.

ثَوَى طَاهِرَ الْأَرْدَانِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ غَدَاةَ ثَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَّهَا قَبْرُ

يقول: لما ثوى كل بقعة وكل أرض تقول: يا ليتته دُفِنَ فِيَّ. ثم يقول:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ صَعْبًا فَرَدَّهُ عَلَيْهِ حِفَاطُ الْمَرِّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَاثُ الذَّلَّ حَتَّى كَانَهُ هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْهَوْنِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا: مِنْ تَحْتَ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ

أي: في المعركة. إلى أن يقول:

لَقَدْ مَاتَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ مِيتَةٌ تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ قَاتَهُ النَّصْرُ

هذه هي المراثي التي يقدمها العرب، حينما يرثون جواداً أو خيراً، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بعدما يقدم تاريخاً مجيداً من العمل الصالح، من الكرم ومن البر ومن الحلم ومن نفع الآخرين، فيكتسب هذا الشئاء، حتى إن المتنبي يقول:

ذَكَرُ الْفَتَى عُمَرُ الْثَانِي، وَحَاجَّتُهُ مَا قَاتَهُ وَخُضُوعُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا من أجمل ما قاله المتنبي في قصيدته التي يقول لأبي شجاع فيها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

ثم يقول في القصيدة:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُقْتَحِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالُ

فهنا يقول: إن قيمة الإنسان وعمره الثاني، كما يقول ابن دريد:

وَأِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى



عَشِيَّةُ الْمَوْتِ

أنت - أصلاً - بعد موتك حديث، والله عز وجل لما أهلك أهل سبأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩]. أصبح أحاديث في الأماكن، فإما أن تكون له أحدى طيبة أو أحدى سيئة - أجاركم الله - فحاول أن يكون لك ذكر حسن عند جيرانك وإخوانك وأصدقائك؛ لأنه كما في الحديث الشريف: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ». ومن شهد له المؤمنون بالخير فهو خيرٌ ومن شهدوا له بالسوء فهو سيئ، حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. هذا وهو نبي معصوم مرسل من عند الله عز وجل، يقول: يا رب، أسألك أن يكون لي ذكر حسن عند الناس، فيذكروني بالخير. لأنهم إذا ذكروك بالخير دعوا لك واحتفوا بك وصار لك وفي ذريتك تاريخ ومجد، وهذا يكسبه الإنسان بعمله الصالح وبعلمه النافع ببذله وعطاءه وأخلاقه ورعاية صدره، وبمروءته وبشيمه، وما ذلك على الله بعزيز إذا وفق الله عز وجل العبد إلى ذلك.

نعود إلى المراثي التي رثي بها الناس، وهي كثيرة - على كل حال - ومن بعض المقطوعات التي قيلت في الرثاء:

يَا لَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

ومثل سلم بن سعيد بن قتيبة أحد أحفاد قتيبة بن مسلم القائد المشهور حفيد قاضي خراسان، وكان كريماً جواداً منفقاً مبادراً، توفي فقال أحد الشعراء فيه:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحٌ
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَاصِحُ
وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَقَدْ كَانَ - أَحْيَانًا - تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ
سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغَضُّ فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ

إلى آخر ما قاله، وهي من أجمل ما قيل في هذا الأدب الذي ذكره هذا الشاعر المجيد من الشعراء.



ورُثي الخلفاء والأئمة والعلماء، ومن أحسن ما قيل في ذلك الباب قيس بن عاصم سيد حلما العرب، الذي وفد على رسول الله ﷺ، وفيما يُروى في السيرة أنه رضي الله عنه لما قال: «أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِينًا تُدْفَنُ مَعَهُ وَأَنْتَ مَيِّتٌ، وَيُدْفَنُ مَعَكَ وَهُوَ حَيٌّ وَهُوَ عَمَلُكَ، يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَ الْعِزَّةِ ذِلَّةٌ وَمَعَ الْغِنَى فَقْرٌ وَمَعَ الْقُوَّةِ ضَعْفٌ». لما تُوفِّي قيس يقول شاعر بني تميم:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ - قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ -
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسَتْهُ مِنْكَ نِعْمَةً
إِذَا زَارَ عَنْ قُرْبِ بِلَادِكَ سَلَمَا
وَمَا كَانَ قَيْسُ مُؤْتَهُ مَوْتَ وَاحِدٍ
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

بالمناسبة لما توفي عبد الملك بن مروان حضر أبناؤه الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. يقول ابن خلدون: «الناس على دين ملوكهم في الغالب وعلى دين خلفائهم». لأن مسيرة الوليد أنه كان معمارياً مهتماً بالعمار وهو الذي وسع المساجد، فاشتغل الناس بالعمار، وأما سليمان فكان مشغولاً بالموائد، يحب الطعام والشراب كثيراً، فاشتغل الناس بالأكل والشراب، وأما هشام فكان صاحب دواب فغلا سعر الحيوانات والدواب في ذلك الوقت، وعمر بن عبد العزيز كان زاهداً ورعاً عالماً، فاشتغل الناس بالعلم وزهدوا بالدنيا، فالشاهد أنهم أتوا يدفنون عبد الملك، فقال هشام:

وَمَا كَانَ قَيْسُ مُؤْتَهُ مَوْتَ وَاحِدٍ
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

قال ابنه الوليد ولي العهد: كذبت - قاتلك الله - بل أبقى لك الله ما يسوؤك. يعني تعريضاً بأخيه ولي العهد. فقصدي من هذا أن المراثي قد تقدم في سجل الأموات، متى ما أحسن هذا الميت عمله، وبالمقابل فمنهم من يُسب وهو ميت، ولذلك ينبغي أن يكون الأدب رسالة حق، وأن يُقدم، لا رسالة لكسب عرض من الدنيا. ولا يكون فيه تزوير شهادة فيها مقت، إنما يكون الإنسان صادقاً في شعره

غشية الموت

صادقاً في قوله، صادقاً في كلامه، أذكر أن نزار قباني الشاعر المعاصر قال يرثي أحد الزعماء لما مات، فقال فيه قصيدة من أجمل ما قيل:

وَذَكَرَكَ عُصْفُورٌ مِنَ الْقَلْبِ يَنْقُرُ	فَبُعْدَكَ لَوْعَةٌ وَرَوْضُكَ أَخْضَرُ
سَكِرْنَا كَمَا الصُّوفِيُّ بِالْحُبِّ يَسْكُرُ	مَلَأْنَا لَكَ الْأَقْدَاحَ - يَا مَنْ بِحُبِّهِ -
وَشَاخَتْ لِيَالِينَا وَمَا كُنْتَ تَحْضُرُ	شَهِدْنَا وَفَكَّرْنَا وَشَابَتْ دُمُوعُنَا
وَمَا كُنْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوَى تَتَأَخَّرُ	تَأَخَّرْتَ عَنْ وَعْدِ الْهَوَى - يَا حَبِيبَنَا -
يُفْسِرُ مَاذَا وَالْهَوَى لَا يُفْسِرُ	أُحِبُّكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبُوتِي



شعر السجونة

أقدار من الله عز وجل يُقَدِّرُهَا على بعض الناس،
فيدخلون السجن، والسجن بيت الوحدة، فالإنسان
في السجن لا هو ميت فيُنْعَى ولا هو حي فيُرجى، قد
دخله زعماء وعلماء وأدباء وحكماء، كلُّ عبَّر بطريقته،
وأفضل من دخله يوسف عليه السلام فإنه من شدة الكرب في
السجن يقول لمن معه: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾
[يوسف: ٤٢]، أي: لا تنسنا من الشفاعة عند الملك؛ فإننا
تعبنا من السجن. هذا هو معنى الكلام، فهذا من شدة
السجن، والرسول صلى الله عليه وسلم هَدَدَ به من الكفار ﴿لِيُثَبِّتُوكَ
أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ويثبتوك، أي:
يسجنوك.

وأذكر أن البرامكة ممن نكب نكبة ساحقة ماحقة في التاريخ العباسي، لما عدا عليهم هارون الرشيد - سامحه الله - ووضعهم في السجن، حتى يقول يحيى ابن خالد البرمكي (أحدهم) لما رأى السجن واقفاً عند الباب، وكانوا قبل في قصور وفي نعيم، وكانت الدنيا تحييهم، وكانت الجماهير تحتشد عندهم، وكان الذهب يُصبّ على أقدامهم، ثم وُضع في غرفة مغلقة، فقال يتمثل بهذه الأبيات:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا	فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ	عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
وَنَفْرَحُ بِالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا	إِذَا مَا تَحَدَّثْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّؤْيَا
فَإِنْ حَسُنَتْ كَانَتْ بَطِينًا مَجِيئُهَا	وَإِنْ قَبِحَتْ لَمْ تَنْتَظِرْ وَأَتَتْ سَعِيَا

فليس عندهم وكالات أنباء ولا مجلات ولا صحف ولا صديق ولا زيارة.

فهذا من التشاؤم، ومثل هذا التشاؤم ذكر الجاحظ في كتابه (البغال) أن أحد الأمراء هناك أهل بغداد، فقالوا: هنيئاً لك أنك في العراق أميراً. فقال: أنتم لا تعرفون الإمارة؛ هي صولات وجولات وفزعات، فإذا أتى البغل يرسله الخليفة بخبر، إما بعزل أو بنكال رجف قلبي حتى تبلغ القلوب الحناجر. فيقول هو في القصيدة:

إِذَا مَا بَرِيدُ الْحَيِّ أَقْبَلَ نَحُونَا	لِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا
فَإِنْ كَانَ شَرًّا سَارَ يَوْمًا وَلَيْلَةً	وَإِنْ كَانَ خَيْرًا قَصَدَ السَّيْرَ أَرْبَعَا

ومثل ذلك الزبيري في اليمن؛ فإنه سُجِنَ يوم الثورة على إمام اليمن وخرج من السجن إلى باكستان، خرج منتصراً؛ فالزبيري أديب مسلم صاحب رسالة، وله كلمات قوية في الأدب والشعر، حتى إنه يقول:

خَرَجْنَا مِنَ السَّجْنِ شَمُّ الْأَنْوْفِ	كَمَا تَخْرُجُ الْأَسَدُ مِنْ غَابِهَا
نَمُرُّ عَلَى شَفَرَاتِ السُّيُوفِ	وَنَأْتِي الْمَنِيَّةَ مِنْ بَابِهَا

شعر السجون

خرج مباشرة وركب من باب المندب؛ حتى لا يقبض عليه جنود الإمام وحراسه مرة ثانية، ثم وصل إلى باكستان، وقال في إذاعة باكستان يخاطب الشعب اليمني:

الشَّاعِرِيَّةُ فِي رَوَائِعِ سِحْرِهَا أَنْتَ الَّذِي سَوَّيْتَهَا وَصَنَعْتَهَا
أَنْتَ الَّذِي بِسَنَّاكَ قَدْ عَطَّرْتَهَا وَأَشَعَّتَهَا بَيْنَ الْوَرَى وَأَذَعْتَهَا
أَبْعَدْتَنِي عَنْ أُمَّةٍ أَنَا صَوْتُهَا أَلْ عَالِي فَلَوْ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعْتَهَا
مَا قَالَ قَوْمِي: آهٍ؛ إِلَّا جِئْتَنِي وَكَوَيْتَ أَحْشَائِي بِهَا وَلَسَعْتَهَا
عَذَّبْتَنِي وَصَهَرْتَنِي لِيَقُولَ عَنكَ لَكَ النَّاسُ هَذِي آيَةٌ أَبْدَعْتَهَا

وسُجِنَ أبو العتاهية؛ ذلك أنه تاب إلى الله من أن يقول الشعر، فحلف المهدي الخليفة العباسي: لتشعرن. فقال: والله ما أقول الشعر. فقال: والله لتقولن الشعر. وذاك خليفة وملك، يقول ابن الوردي في مثله:

أَحْذَرِ السُّلْطَانَ وَأَحْذَرِ بَطْشَهُ لَا تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ

فقال: احبسوه. فقال: فدخلت الحبس فدهِشْتُ من خوف الحبس. ووجد شيخاً كبيراً في قصة طويلة، يقول في الحبس - وهي رسالة إلى الخليفة:-

أَمَّا -وَاللَّهِ- إِنَّ الظُّلْمَ شُوْمٌ وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظُّلُومُ
إِلَى الدِّيَانِ يَوْمَ الْحُشْرِ نَمُضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

وهذا يُذَكِّرُنِي بامرأة اعتدى عليها ابن الفرات الوزير العباسي؛ أخذ مزرعتها وأخذ بيبتها ظلماً وبُهتاناً فشكته إلى الله، فقال: ادعي في الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير تُستجاب فيه الدعوة، استهزاءً وسخرية، فأخذت هي الثلث الأخير شهراً، فسَلَطَ الله عليه الخليفة، فقطع يده وأهانته وعزله، ومرَّت به وهو يُجلد بالسياط، فقالت: جزاك الله خيراً؛ جربنا الثلث الأخير ووجدناه أحسن ما يكون والدليل كما ترى. أصبح تحت السياط، ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ
وَقَاضِيَ الْأَرْضِ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ
لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فأبو العتاهية سُجِنَ، يقول: انتظر؛ فسوف تأتيك الأمور. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فالأيام دُولٌ:

هِيَ الْإَيَّامُ وَالْغَيْرُ
وَأَمَرُ اللَّهِ يُنْتَظَرُ
أَتَيْأَسُ أَنْ تَرَى فَرَجًا؟
فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ؟

فهو عَزَّ وَجَلَّ سريع الفرج. وقد أنشدوا في ذلك كثيراً.

لكن مقصودي السجن، وما قال الشعراء فيه، وهو شعر السجون، وكيف تحدثوا في تلك المسألة التي يحل بها الإنسان؛ لأن عقارب الساعة تتوقف في السجن، وكأن الزمن يتوقف، وما ترى إلا الجدران أربعة، تنتهي أخبار الأهل والأسرة والآمال، تصبح الحياة ساكنة صامتة.

فهذا ابن الزبير سجن ابن الحنفية، وابن الزبير كان يُسمى: العائد بالبيت. عائد بالله عائد بالبيت العتيق؛ لأنه تحصن فيه من الحجاج، حين نوى قتله في الفتنة المعروفة.

ابن الزبير سجن ابن الحنفية في سجن عارم، وسجن عارم هو غرفة اتخذها عبد الرحمن بن عوف سجناً لمولى له، سجنه أسبوعين في الغرفة فسُمِّيَ سجن عارم.

المهم أن ابن الزبير سجن ابن الحنفية في هذا السجن، فقال كثير عزة في ذلك، مخاطباً ابن الزبير:

تُحَدِّثُ مَنْ لَا قِيَتَ أَنْكَ عَائِدُ
بَلِ الْعَائِدُ الْمَظْلُومُ فِي سِجْنِ عَارِمِ

يقول لابن الزبير: لا تغتر؛ لأنك سجت محمد بن الحنفية (ابن علي)؛ كيف تحدث الناس أنك عائد بالبيت من الحجّاج، مع أن العائد هو ابن الحنفية (ابن علي).

وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا جَمَالٌ لِأَهْلِهَا وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضَرْبَةٍ لَازِمٍ
لِكُلِّ زَمَانٍ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَنْتَهِي وَيُضِيحُ مَا لَاقَيْتَ حُلْمًا لِحَالِمٍ

والآن ذهبوا إلى الواحد الأحد؛ الساجن والمسجون والباطح والمبطوح والجالد والمجلود والقاتل والمقتول، حتى يحكم بينهم عزّ وجلّ في محكمة العدل الإلهية، يوم لا حاكم إلا الله، ولا قاضي إلا الله عزّ وجلّ.

ومن الملوك الأدباء المعتمد بن عباد صاحب الأدب وصاحب البيان، صاحب الشعر، صاحب إقبال الدولة، أخذه ابن تاشفين بعدما غلب عليه وسمله وسجنه في سجن أغمات، حتى إنه في أيام أبهة الملك كانت زوجته نذرت أن تمشي على الكافور، فأمر أن يُطَيَّنَ لها طين ويُتَبَت بالكافور والمسك فتمشي عليه، وذلك من الأبهة والترف، وأُخذ فيما بعد وسُجِن في سجن، وأتت بناته يوم العيد، وقد أصبحن فقيرات حسيرات ينسجن بالأجرة، فأتين يزرنه في السجن - وهو الملك نفسه والآن مسجون - ورأى من شق الباب وإذا ببناته فقيرات حسيرات حافيات، فكاد قلبه ينخلع، وقال قصيدة من ضمنها ما يخاطب فيه نفسه:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا فَزَارَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتٍ مَأْسُورًا
تَرَى بَنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ بِالْيَةِ يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْمِيرًا
يَمْشِينَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَ وَكَافُورًا

وهذه سنة الله عزّ وجلّ في تغيير الأحوال، وخاصة على أهل الظلم، فإن الظلم - كما يقول ابن خلدون - مؤذن بخراب العمران وهلاك الدول، انظر لهذا كيف تحول الحال إلى ذلك، وهذا حال الدنيا، حتى إن الحافظ ابن كثير ذكر الخلفاء؛ فتراك

تجد الأمين يُقتل ويقتله المأمون، وابن المعتز يُغتال في ليلة، والقاهر الخليفة العباسي تُسمل عيناه فيصبح أعمى، ويُضرب أحدهم بالدبابيس ويُقتل الوزراء، مثل: ابن الجراح، وابن أبي إسرائيل، وابن بقية الذي صُلب وقال فيه الأنباري: علوُّ في الحياة وفي الممات. قال ابن كثير: وهذه هي حال الدنيا وتقلبها بأهلها. كما قال الأول:

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا أَبْكْتَ غَدًا قُبْحًا لَهَا مِنْ دَارٍ

ولذلك، فإن أحد الشعراء لما رثى ابنه يقول:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ^(١) وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوَا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ غَيْرَ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ

فليس هناك ما يمكن أن يعود له الإنسان إلا الإيمان بالله عز وجل، إلا الركون له عز وجل والتوكل عليه، فهذه من أخبار السجن.

وبعضهم رحب بالسجن وجعله نعمة وحمد الله على ذلك، حتى إن الإمام المروزي سُجِنَ، فقالوا له: ما أخبارك في السجن؟ قال: سقطت عني الحقوق - أي: حقوق الإخوان، من الزيارة والعيادة والهدية، فلا يُطالبك أحد - ورأيت النواهب ومررت بي العجائب، وخبرت التجارب، وذقت المصائب.

حتى إن بعضهم يقول: «نعم السجن؛ فإنك فيه تراجع نفسك، وينكسر فيه ظهر عُجْبِكَ، ويذهب كِبَرُكَ، وتذكر بيت الوحدة وهو بيت القبر».

لأن السجن أشبه شيء بالقبر، فهو حسن لمن وجهه في ذلك، وممن سُجِنَ ابن تيمية شيخ الإسلام الحافظ أبو العباس، فإنه لما دخله اشتغل في المسائل الشرعية، ووضعوا دونه الباب، فقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بَسُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ

(١) أي: الدنيا.



وَلَظِهْرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ» [الحديد: ١٣]. ثم قال: «ماذا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أتى سرت فهي معي؛ أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة وسجني خلوة». ثم قال: «المأسور من أسرته هواه». أي: إن المسجون من سجنه هواه، وليس المسجون من سجن بين الجدران، فهو قد حوّل السجن إلى مدرسة وإلى جامعة للتأليف والتسبيح والعبادة والذكر ومراجعة القرآن وتدبر الآيات البينات، وكان يكتب الرسائل ويرسلها من السجن إلى الآفاق، ويفتي المسلمين، حتى إن فتاويه جاءت في ثلاثين مجلداً أو أكثر، كُتِبَتْ في السجن، فأرسل علماً كثيراً.

ويقولون: إن أحد الشعراء الشعبيين سجنه أحد الأمراء، فقال:

أَنَا يَا كَرَى مِثْلَكَ حَبَّ الْعُلَا شَجَعَان يَرَاهِمُ ابْرَاسِهِ مَا يُخَافُ الْيَمَانِيَّةَ
أَنَا بَعْتُ رَاسِي مِنْ أَمَحْمَدٍ وَلَدَ عَدْنَانَ قَبِضْتُ التِّمْنَ وَاللَّهِ يَشْهَدُ عَلَى النَّيَّةِ

فالناس مجمعون على أن السجن فيه هذا وذاك، فمن تقبل النكبة، مثل السجن بنفس ضيقة وبتشاؤم ضاقت عليه الدنيا وشعر أنه في أضيق من ثقب الإبرة، وأخذ العويل وأخذ الانهزام والإحباط والهم والغم، ومن أخذ السجن على أنه بيت للعبادة وبيت للخلوة وبيت لمراجعة النفس كان بعكس ذلك.

حتى إن الإمام أحمد - لما سُجِنَ (وعمره ٣٦ سنة) - جعلها لمراجعة القرآن وذكره عز وجل وتلاوة كتابه وقيام الليل، حتى يقول الإمام أحمد: إنه لما سُجِنَ، سُجِنَ معه رجل عظيم اسمه عَجِيف. قال: يا إمام أحمد، فِيمَ سُجِنْتُ؟ قال: في السَّنة؛ أقول لهم: القرآن غير مخلوق. فيقولون: مخلوق. قال: اصبر يا أحمد، أنا سُجِنْتُ في شُرْب الخمر سبع مرات. يشرب ويُسَجَن ويبطحونه ويضربونه ويرجع ويشرب، فكان صامداً إلى آخر قطرة، قال الإمام أحمد: فشَدَّ قلبي. أي: قَوَّاني. قال: ولما خرجت من السجن ذهبوا بي. ينقلونه إلى سجن آخر فلقية أعرابي، فقال: أنت

أبو عبد الله؟ قال: نعم. قال: يا أبا عبد الله، اصبر؛ إنما تُقتل بالسيف من هنا، وتدخل الجنة من هنا. قال: فربط على قلبي.

بعض الكلمات مؤثرة، يقول أبو العتاهية: لما سُجِنْتُ فِي السَّجْنِ سَلِمْتُ عَلَى رَجُلٍ شَيْخٍ كَبِيرٍ فِي السِّنِّ، أَبْيَضَ الثَّوْبُ أَبْيَضَ اللَّحْيَةِ، قُلْتُ: فِيمَ سُجِنْتَ أَنْتَ؟ قَالَ: فِيمَ سُجِنْتَ يَا أبا العتاهية؟ قَالَ: قُلْتُ: حَلَفْتُ أَلَا أَقُولُ شِعْراً وَحَلَفَ الْمَهْدِيُّ الْخَلِيفَةُ أَنْ أَقُولَ الشَّعْرَ. قَالَ: سَوْفَ تَقُولُ الشَّعْرَ وَتَخْرُجُ. قُلْتُ: وَأَنْتَ، فِيمَ سُجِنْتَ؟ قَالَ: أَخْفَيْتُ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِنَ عَلِيٍّ أَبِي طَالِبٍ. طَالِبُوهُ بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَيْتِ النَّبَوَةِ وَطَلَبَنِي الْخَلِيفَةُ الْمَهْدِيُّ أَنْ أَظْهَرَهُ، فَحَلَفْتُ بِاللَّهِ مَا أَخْبَرُ بِهِ. قُلْتُ: أَنْتَ مَا تُخْبِرُ بِهِ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَخْبَرُ بِهِ وَلَوْ قَتَلُونِي، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ بَيْنَ جُلْدِي وَعَظْمِي مَا أَخْبَرْتُ بِهِ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: آتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَخَصَمِي مُحَمَّدٌ ﷺ، لَا، بَلْ آتَى وَخَصَمِي الْمَهْدِيُّ. قُلْتُ: لِمَا قُلْتَ الْبَيْتَيْنِ:

هِيَ الْأَيَّامُ وَالْغَيْرُ وَأَمَرُ اللَّهِ يُنْتَظَرُ
أَتِيَأْسُ أَنْ تَرَى فَرَجاً؟ فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدْرُ؟

قال: قم بنا نصل ركعتين. قال: والله ما انتهينا من الركعتين وسلمنا إلا والباب يُفتح، وإذا العسكر يقولون: المهدي يريدكم. قال: فدخلنا عليه بالدور. فدخل الشيخ، فقال له المهدي: تخبر بفلان عندك؟ قال: والله لو كان بين عظمي وجلدي ما أخبرتك به. قال: ولم؟ قال: تأتي خصمي أنت، ولا يأتي خصمي محمد ﷺ. قال: فقتله. واني أرى الرأس مفصلاً عن الجثة. قال: وأنت يا أبا العتاهية؟ قال: أنا أنشد الشعر.

فأنشد الشعر وانطلق، وهو يقول:

نُحِ عَلَى نَفْسِكَ - يَا مَنْ - كَيْنَ - إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمُ - مِزْتَ مَا عُمَرَ نُوْحُ

لَطَفَ اللَّهُ بِنَا إِنْ نَ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
كُلُّ بَطَّاحٍ مِنَ النَّاسِ لَهُ يَوْمٌ بِطُوحُ

ومات بعدها المهدي، وكان هو يُعرض به في القصيدة، فيقول: لو بطحتنا
فسيأتيك يوم تُبَطِّحُ فيه.

هذه رسائل أدبية من السجن، وهناك كتاب (أدب السجون) ممن سجن
حتى من الشعراء العالميين ومن الزعماء والعلماء والمصلحين والناجين،
وغيرهم من العصاة- نسال الله العافية- فهو تربية وتهذيب وكفارة وردع، وقد
ذَكَرَ السجن في القرآن في قصة يوسف، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتُكَ أَوْ يَقْتُلُكَ
أَوْ يُخْرِجُكَ﴾، «وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُسْجُونِينَ» أي: إنا نسجنك فنحبس دعوتك عن
الناس. فالله عز وجل المسؤول وحده أن يوفقنا وإياكم وأن يجعلنا من المقبولين
عنده، وأن يزيدنا وإياكم رشداً وسداداً.

وبالمناسبة، فقد قرأت كتاب (رحلتي الطويلة للحرية) لـ (نيلسن مانديلا)
الذي سُجن (٢٧ سنة) وقد صور غرفته التي كان مسجوناً فيها وسريته، وصمد
وكان على شراب الذرة، حتى ألف هذا التراث وبنى هذا المجد.



الشعر والكرم

عند الترمذي: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِّنَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِّنَ النَّاسِ،
وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِّنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِّنَ الْجَنَّةِ
بَعِيدٌ مِّنَ النَّاسِ». وقد ضرب العرب أروع
الأمثلة في الكرم، سواء قبل الإسلام أم بعد
الإسلام، قبل الإسلام فيه الرياء والسمعة
والشهرة وحب الثناء، وبعد الإسلام طلب
الأجر من الله ﷻ وإسداء الخير والنفع
للناس، لكن الكريم عيوبه تُغطى.

يُغَطِّي بِالسَّمَاحَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

ومن أكرمهم على الإطلاق قبل الإسلام حاتم الطائي، وكان في جبال أجا وسلمى في حائل، حتى يقول لغلامه في ظلمة الليل لما اشتد برد الصحراء:

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ إِذَا أَتَى ضَيْفٌ فَأَنْتَ حُرٌّ
وَالْبَرْدُ - يَا فُلَانُ - بَرْدٌ صِرٌّ

فيقول: تعال بضيف وأنا أعتقك. أي كرم هذا؟! وأي جود لو كان في الإسلام!؟

وفي الحماسة لأبي تمام بيتان من الشعر من أجمل ما قيل على الإطلاق، هما لحاتم الطائي يصف نفسه بالكرم والبذل، وأنه يحب الخير، وأنه يؤثر الآخرين على نفسه، يقول:

أَمَّا الَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ وَيُخَيِّ الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمٌ
لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبُطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى مَخَافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقَالَ: لَتِيمٌ

وله في ذلك أمثال، لكن معنا هذان البيتان اللذان يقول فيهما ما معناه: والله الذي لا إله إلا هو إن الله ليعلم أنني أجوع أنا وأتحمل الجوع وأذوق مرارة الجوع وإنني أؤثر غيري: جاري وضيبي؛ حتى لا يقال: إني بخيل يوماً ما من الأيام. حتى إنه يعطيك درساً في الكرم في الرحلة، والسيارة التي تشارك غيرك بأن يركب معك، فيقول:

إِذَا كُنْتُ رَبًّا لِلْقُلُوصِ (١) فَلَا تَدْعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ
أَنْخَهَا فَارْكِبْهُ، فَإِنْ حَمَلَتْكُمَا فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبْ

(١) القلوص: الناقة.

يقول: أنخ الناقة؛ فإن تحمل اثنين فاجعله معك، وإن كانت لا تستطيع فاركب مرة وتنزل أنت ويركب هو، وهكذا.

هذا هو الكرم والجود الذي ضُرب مثلاً لحاتم وأمثاله، حتى إن بعض الصحابة رضي الله عنهم والتابعين اجتمعوا عند الحجر الأسود في ليلة ظلماء يسمرون في عهد عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وابن عباس رضي الله عنهم فقالوا: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ الْآنَ؟». فاختلفوا. وقيل: إن ابن عمر «كان جالساً وابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهم، قال واحد منهم: أكرمهم عبد الله بن جعفر الطيار. وقال الثاني: عُرابة الأوسي أكرم. وقال الثالث: بل قيس بن سعد بن عبادة أكرم. قال كبيرهم من شيوخ قريش: كلُّ يذهب إلى صاحبه ويأتيه بهيئة فقير ومسكين، فينظر ما يعطيه، ونأتي ونلتقي بعد مدة في هذا المكان ونرى أيهم أفضل. فذهب الذي يريد عبد الله بن جعفر فلبس أسماً بالية وملابس ممزقة، وتعرض له وإذا عبد الله بن جعفر خارج من المدينة يريد دمشق، فلقيه في الطريق، قال: من أنت؟ قال: رجل مسكين انقطعت بي الحبال وقصدت الله، ثم قصدتك. وكان عبد الله بن جعفر على فرس ومعه سيف وأدواته ودراهم فقال: أنا خرجت من المدينة من ليلتين، ولو كنت زرتني في المدينة لوجدت ما يسرك، لكن الآن خذ الفرس بما عليه بدراهم وهذا السيف، وأنا سوف أنتظر تحت هذه الشجرة والناس يعرفونني وسوف يمر الركب. قال: كيف آخذ؟ قال: واللّٰه لتأخذن؛ أنا من قوم إذا وهبنا لا نعود في الهبة، وسوف يمر السيارة والمسافرون ويعرفونني وأنتقل معهم. فأخذ الرجل الفرس والسيف وما عليه من شيء ومن الدراهم ومشى، وأما الذي قصد قيس بن سعد بن عبادة فكان في المدينة وأبوه سعد ابن عبادة صحابي رضي الله عنه، وقيس هذا من أكرم الناس وكان قائداً لعلي رضي الله عنه على مصر، فأتى الرجل في الظهيرة وهونائم فطرق الباب، فخرجت الجارية فقالت: سيدي نائم، ولكن هذه ألف دينار، ولا توقظ سيدي. فذهب.

هذه جارية فكيف إذا كان هو؟

ثم ذهب الذي أراد عرابة الأوسي فوجده شيخاً كبيراً أعمى، ذهب إلى المسجد، يعتمد على اثنين من الموالي من خدامه، قال: أنا قصدتك بعد الله وأنا منقطع ولا مال لي. فقال عرابة الأوسي- وهو أنصاري أصلاً-: والله إن الحاجات ما أبقت لي شيئاً إلا هذين الخادمين، فخذهما لك، فقد تخلصت منهما. قال: فأخذتهما، فوالله إنه تركهما وإنه ليلتمس الطريق ويعتمد على الجدران، حتى وصل إلى المسجد.

فعادوا إلى الصحابة والتابعين رضي الله عنهم فأخبروهم بذلك فقالوا: عبد الله بن جعفر كريم ومن كرمه أنه أعطى وهو مسافر منقطع، وقيس بن سعد كريم والدليل أن جاريته أعطت فكيف لو قام هو؟ لكن أكرمهم عرابة الأوسي؛ لأنه مدين وليس عنده إلا هذان الخادمان، ومع ذلك أعطاهما وبقي يتلمس الجدار وهو أعمى حتى وصل إلى المسجد، فيقول الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عُرَابَةٌ بِأَيْمِينِ
حتى إن أبا تمام يقول:
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيَتَّقِيَ اللَّهَ سَائِلُهُ

وعلى هذا البحر قصيدة لزهير يقول فيها:

هُوَ أُنْبَحِرُ مِنْ أَيِّ النُّوَاحِي أَتَيْتُهُ فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْبِرُّ سَاحِلُهُ
ثم يقول:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَانَهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَانْقَطَعْنَ أَنَامِلُهُ

وكثير من الناس يخلطون بين أبيات زهير، وبين أبيات أبي تمام، وبين أبيات مروان بن حفصة:

الشعر والكرم

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيَتَّقِ اللَّهُ سَائِلُهُ

لكن من أحسن ما رأيت في الكرم بيتاً فريداً؛ حتى إنه عجب منه الزمخشري، وهو للحطيئة يمدح كريماً:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشَوِ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرَ مُوقِدٍ

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لما سمع هذا البيت -: «هَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلرَّسُولِ ﷺ». فإنه أكرم الناس.

وفي الصحيح عن علي وابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ عليه السلام فَيَدَارِسُهُ الْقُرْآنَ». فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، فهو ﷺ الأحق بقول الشاعر:

مَا قَالَ: لَا قَطَّ إِلَّا فِي تَشْهَدِهِ لَوْلَا التَّشْهَدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعْمٌ

وهذا البيت للفرزدق من قصيدة قالها في علي بن الحسين زين العابدين، وكان زين العابدين من أجمل الناس وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أبوه الحسين الشهيد رضي الله عنه، أتى يطوف بالبيت والبيت مزدحم، ودخل هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وكان في دمشق، أتى يطوف بالبيت والناس مزدحمون، أتى هشام بحرسه وبموكبه وحاشيته وجلس وقال: أعطوني ما أجلس عليه. ينتظر حتى يخف الزحام فجلس، وأما زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «فأتى بعضاً من خيزران غير محرم، بل يطوف وريحه مسك ووجهه كالقمر ليلة أربعة عشر، فلما رآه الناس فسحوا له الطريق عند المطاف، وأخذوا يوسعون له، وأهل الشام لا يعرفون زين العابدين، وهشام بن عبد الملك يعرف من هو، لكن الحسد أخذ منه مأخذه، فقال هشام: من هذا الذي يفتح له الناس الطريق ويكبرون لما دخل؟ والفرزدق موجود فقام وقال:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائَتَهُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ
فِي كَفِّهِ خَيْرُ زَرَانٍ رِيحُهُ عَبِقُ

وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
بَجَدِهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خْتَمُوا
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ
فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
مَنْ كَفَّ أَرْوَعُ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ

إلى أن ختم القصيدة فسجنه هشام بن عبد الملك ستة أشهر في سبيل الله،
فالشاهد:

مَا قَالَ: لَا قَطَّ إِلَّا فِي تَشْهَدِهِ لَوْلَا التَّشْهَدُ كَانَتْ لَاؤُهُ نَعَمُ

فيقول: إنه لا يعرف كلمة (لا). إلا إذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. فالله عز وجل كان يجعل في بعض الناس ما الله به عليم، حتى إن الناس مجمعون على حب الكريم وعلى مدحه سواء بالعامي أو بالفصيح، وأذكر أننا ذهبنا إلى أناس من الكرماء، فطلبوا قصيدة من شعري الشعبي؛ لأن الجوَّ جوُّ يستحق شيئاً من الشعبي؛ فهم يفهمونه أكثر من العربي الفصيح، وعندما أكرمونا بما وجدنا من حسن الضيافة والترتيب والوجوه النيرة والمسفرة والابتسامات والتراحيب والدلال المهيَّلة والبخور والإكرام قلت:

بِسْمِ اللَّهِ قُدَّامَ بَدْءِ الْحَرْفِ مِيلَهُ وَاعْتَدَالَهُ
وَالصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَالرِّضَا لَانْصَارَ دِينَهُ

يَا سَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْفُرْسَانِ فِي بَيْتِ الشَّكَاةِ
تَعْرِفُ الرِّجَالَ مِنْ لَمَحَةِ عُيُونِهِ فِي جَبِينِهِ



الشعر والكرم

الْأُجُوهُ أَمِنْ الْكَرَمِ مِثْلُ الْوَهَجِ يَغْشَاهُ هَالَهُ
وَالدَّلَالُ أَمْهِيْلُهُ وَالْبِنُّ تَوَهُ حَامِسِيْنَهُ

اسْتَمَعَ مِنْ شَاعِرٍ تَسَعِ الْقَوَافِي ارْتَجَالَهُ
أَعْطِ قُوسَ الشَّعْرِ لَاهِلَهُ وَالْخَبَرَ جَا مِنْ ذَهِيْلَهُ

شَاعِرٍ مَا يَسْرِقُ الْأَبْيَاتِ مِنْ عَمِّهِ وَخَالِهِ
فِيضُ نَارُهُ مِنْ مَعِينِهِ وَالِدُهُ يَسْبِغُ نَعِيمَهُ

اللَّهُ كَمْ مِنْ شَاعِرٍ لَوْ شَافِنِي يَتْرِكُ ضَلَالَهُ
الْجَمْلُ مِنْ بَعْدِ هَذَرِهِ قَامَ يَذْنُ مِنْ حَنِينِهِ

مِنْ رِجَالِ الْمُجْدِّ جَدِّ الْمُجْدِّ رَزُوا لَهُ أَعْقَالَهُ
السُّيُوفُ الْمُضْلِلَتُهُ نَعْمِينَ بَاسَادِ الْعَرِينَهُ

مِنْهُمْ إِلَيَّ اهْتَزَّ عَرْشُ اللَّهِ عَلَى غَيْبَةِ خَيَالِهِ
وَمِنْهُمْ إِلَيَّ غَسَلُوهُ أَمْلَاكَ رَبِّي حَامِلِينَهُ

فِي بَلَدِنَا نَصْنَعُ التَّارِيخَ مِنْ فَجْرِ الرِّسَالَةِ
نَسْقِطُ الطَّيَّارَ يَوْمَ الْحَرْبِ وَأَنْفِكَ الرِّهْنِينَ

إِنْ تَبَيَّ بِالْعَرَبِيِّ جِتَكَ الْقَوَافِي فِي جِزَالِهِ
وَأَنْ تَبَيَّ بِالنَّبْطِيِّ الْعَيْنِ كَمْ تَكْرَمُ مَدِينَتَهُ

وإنما قصدت من هذا أن الكرم خصلة إذا سارت في الناس صارت مضرب المثل
فيهم، حتى إن هرم بن سنان أقسم إنه لا يسلم زهير بن أبي سلمى عليه إلا أعطاه
جائزة، فاستحيا زهير، فكان يقول في المجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم
استثيت.

ومعنى عم صباحاً، أي: وَقَفْتَ صباحاً، أو أُسْعِدْتَ صباحاً. ولذلك لامرئ القيس أبيات يذكر فيها هذا، يقول:

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟
وَهَلْ يَعْمَنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُنْعَمٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

ولما وفد أبو ذر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول ما وفد قال: «عَمَّ صَبَاحاً يَا أَخَ الْعَرَبِ». فقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَبَدَلَنِي بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ». بتحية قومه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فيقول زهير للمجلس: عموا صباحاً إلا هرم وخيركم استثنيت؛ لأنه حلف: ما تصبحني بخير إلا أعطيك هدية. حتى إنه يقول فيهم:

قَوْمَ آبَوْهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسَدُوا

حتى يقول بعضهم في الغزل:

دَعْ ذَا وَثْنِ الْقَوْلِ فِي هَرَمٍ خَيْرِ الْهُدَاةِ وَسَيِّدِ الْحَضَرِ
لَوْ لَمْ تَكُنْ شَيْئاً سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ الْمُنُورَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ

تخلق ما تقول، أي: إني أراك تقوم بكلام تفعله حينما تقوله، أي: تبتدع كلاماً، لكنك تفذه. فلست من الذين يقولون ما لا يفعلون.

حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «يَا بَنَ هَرَمٍ، مَاذَا أُعْطَاكُمْ زُهَيْرٌ؟ وَمَاذَا أُعْطِيتُمُوهُ؟ قَالَ: مَدَحْنَا وَأَعْطَيْنَاهُ. قَالَ: ذَهَبَ مَا أُعْطِيتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أُعْطَاكُمْ». وهو الثناء الحسن، فمن أراد الثناء الحسن فليقصد بعمله الله عز وجل.

الشعر والكرم

ومن أكرم الناس على الإطلاق -ودعني من حاتم وكعب وهرم بن سنان- أبو بكر الصديق رضي الله عنه «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى» ١٩ [الليل: ١٩-٢١]. فقد أنفق أمواله في سبيل الله وطلب ما عنده عز وجل وأعتق الرقاب، واشترى الخيول في سبيل الله عز وجل وجهاز الجيش وأنفق ذات اليمين وذات الشمال في سبيل الله، حتى يقول عمر رضي الله عنه: «قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا سَبَقَنَ أَبَا بَكْرٍ الْيَوْمَ. فَأَتَيْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى أَحَدٌ بِمَالٍ؟ قَالَ: أَخُوكَ أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: بِمَاذَا أَتَى؟ قَالَ: بِمَالِهِ كُلِّهِ. قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسَابِقُ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ الْيَوْمِ». فالخير كله عنده رضي الله عنه، ومن أمثاله رضي الله عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه جهز الجيش وشرى بئر رومة للمسلمين، حتى قال رضي الله عنه: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا صَنَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ».

والأمثال في كرم الناس كثيرة، فإن أبا حميد الطوسي كان كريماً كريماً، جعل بعض الشعراء يقول فيه:

لَوْ لَا حُمَيْدٌ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ يُعَدُّ وَلَا حَسَبٌ
يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي شَرَقَتْ لِمَقْتَلِهِ الْعَرَبُ

ولما مات حميد هذا وكان قد أكرم الشعراء كريماً كثيراً فقال أحدهم فيه أبياتاً منها:

أَصْبَنَا يَوْمَ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ أُصِيبَتْ عَرُوسُ الْبَحْرِ أَضَحَّتْ تَضَعُضُ
وَأَدَبْنَا مَا أَدَبَ النَّاسَ قَبْلُنَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ

فهذه أقوال في الكرماء وفي الأسخياء، وهذا يدل على أن الكرم منه الكرم بالجاه والكرم بالعلم والكرم بالوقت والكرم بالمال والكرم بالطعام، حتى إن من لطائف الجود الجود بالسهر، فقد قال البخاري: باب السهر بعد صلاة العشاء. فإذا جاءك ضيف واحتاج أن تسهر، أن تسهر معه، وجاء ابن القيم وأتى بهذا في (مدارج السالكين) كما قال أحدهم:

لَوْ قَالَ قَائِلُهُمْ: هَبْ لِي -فَدَيْتَ- نُورَ عَيْنَيْكَ لَمْ يَنْمِ

يقول: إنه من كرمه لو طلبت نوم عينيه لأعطاك نوم عينيه وبقي في سهر، وهذا شأن الكريم، فإنه كما يقول المقنع الكندي، وهو من أكرم الناس وأبياته تُروى:

دُيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا	يُعِيرُنِي بِالْدَيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا
حُقُوقُ أَنَاسٍ مَا اسْتَطَاعُوا لَهَا سَدًا	أَسْدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلُوا وَضِيعُوا
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفٍ جَدًّا	وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
وَإِنْ هَتَكُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا	إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ
وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا	وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ

إلى أن يقول -وهو الشاهد-:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَارِلًا وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرَهَا تَشْبِهُ الْعَبْدَا

فمن تواضع الإنسان ومن شهامته ومروءته أن يكون عبداً للضيف، إذا دخل تخدمه وتباشر أنت وتحبي وترحب وتتولى الأمور، فهذا يدل على نبلك وعلى حسن معدنك وعلى استقامة حالك وأنت تريد أن تسجل اسمك في سجل الخالدين.



قصائد قتلت أصحابها

موضوع- ولو أنه مخيف لكنه طريف:-
قصائد قتلت أصحابها. ينبيك أن الكلمة، إما
أن ترفع صاحبها أو تقتله، وهذا في الدنيا فكيف
في الآخرة؟! ولذلك تجد القرآن الكريم ينبه
على الكلمات واستخدام العبارات، والمسؤولية
في الجملة إذا نطقتها ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولذلك
يقول ﷺ: «كُفَّ عَلَيْكَ لِسَانُكَ».

وبعض الشعراء أرسل لسانه، وما حَكَّم عقله على لسانه، فدفَع دمه وحياته ثَمناً لعثرة اللسان.

عثرة الرَّجُل يقوم منها الإنسان، لكن عثرة اللسان تذهب بالرأس فيبقى الإنسان دون رأس، أحياناً نتحمل، لكن أحياناً تأتي كلمات غير مقبولة، وفي قائمة الشعراء أناس دفعوا حياتهم ثَمناً لكلمات، مع أن مبدأ الحق أن يضحي من أجل الحق ومن أجل رسالة الحق، لكن أن يضحي من أجل الباطل وأن يقدر في الناس وأن يشتمهم ثم يُقتل على ذلك أو يُجلد أو يقول: إنها تضحية، فهذا عجيب.

هذا تأديب على تطاوله على أعراض الناس وعلى خصوصياتهم وعلى ذوات الناس.

طرفة بن العبد قُتِلَ وعمره (٢٦ سنة). فالعبقريّة لا تعترف بعمر؛ لأنّ العبقريّة أمر مشترك بين البشر من العرب وغيرهم من الجاهليين والإسلاميين، لكن كإنسان عبقري، هذا طرفة وهو صاحب الدالية الرائعة الجميلة التي يفضلها بعضهم على كل المعلقات، والتي يقول في مطلع أبياتها من ذكر الأطلال ومنازل الديار وغيرها:

بَحْوَلَةٍ أَطْلَالٌ بِبَرْقَةٍ تَهْمَدُ تَلَوُّحُ كَبَاقِي الْوُشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

والتي من ضمنها:

وِظْلُمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْدَدِ

حتى يقول:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَنْتَقِي حَلِيلَةَ مَا لِلْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

ولكنه سبك وحبك وقوى اللفظ.

قصائد قتلت أصحابها

المقصود أنه تعرض للنعمان بن المنذر. وقيل: لأحد ملوك الغساسنة الآخرين. وحكم عليه بالقتل. فكتب رسالة للمتلمس الشاعر ورسالة لطرفة وأمرهما أن يذهبا بهما إلى عامله على البحرين، لكن المتلمس شك ففتح الرسالة فوجد فيها الأمر بقتله فشرده وألقى حذاءه ورحله، أما طرفة فرفض؛ لأنه ظن أنه له جائزة عند ملك البحرين، وقيل: الأحساء. فذهب من أجل أن يأخذ الجائزة؛ لأن الأمير قال له: اذهب إلى هناك. يريد أن يتخلص منه دون أن يقتله في العاصمة، وذهب بالرسالة، وقال له بعض الناس: احذر. لكنه شاب، والشاب صاحب جموح وصاحب طموح وصاحب اندفاع وشدة، فذهب وأعطى الرسالة إلى الأمير في الأحساء أو في البحرين، ففتح الرسالة فإذا فيها: إذا جاءك فاقتله. فلما جاء قيده، ثم ذبحه ذبح الشاة.

والراجح عند أهل الأدب أنه عمرو بن هند، وسبحان الله تأتي إلى ملك صاحب دولة وكيان ثم تعتدي عليه! حتى عقلاً حتى دبلوماسية حتى سياسة ما لك أن تتعرض، فكيف إذا كان هذا خطأ؟! فدفع روحه ثمناً لذلك.

وَلَوْلَا ثَلَاثُ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَحَقِّكَ لَمْ أَحْضَلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي

ويقول:

فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وهذا منطق الجاهلية والوثنية، فيقول: ما دمت سأموت فعاجلوني بالمرفهات وأسرعوا لنا بالدنيا. لأنه يرى أن الموت حق، مثل: عمر الخيام، خطأه أهل العلم لما قال:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الْعُمَرِ لَمْ أُسْتَشَرْ وَتُهُتُ فِيهِ بَيْنَ شَتَى الْعِبَرِ
فَمَا أَطَالَ النَّوْمُ عُمَرًا وَمَا قَصَرَ فِي الْأَعْمَارِ طُولُ السَّهْرِ

لأنهم لا يعترفون باليوم الآخر الذي ذكره الله ﷻ على ألسنة أنبيائه - عليهم السلام - فالشاهد أن طرفة أخطأ فدفع ثمن ذلك حياته، أما أهل الإيمان فلهم ثلاث غير ثلاث طرفة هذه، لهم: قيام الليل، وطلب العلم، وصيام الهواجر. كما رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على طرفة وأمثاله.

وممن قتلهم شعرهم أبو الطيب المتنبي الشاعر المشهور، بل هو إمبراطور، وملك الشعراء على الإطلاق، حتى إنه هو يفخر بنفسه ويحق ذلك في منطق أهل الأرض، يقول:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

وهو دائماً في قصيده، إما أن يمدح نفسه في أول القصيدة أو في آخرها، حتى إنه إذا مدح ملكاً فلا بد أن يذكر نفسه، ويرى أنه فوق الجميع، وأن الوزراء لا يستحقون أن ينظروا إليه مجرد النظر، وأنه فوق الجميع إلى آخر ما قال، فهذا هو يقول:

وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

لكنه عموماً ترك رسالة أدبية وترك أثراً كبيراً وترك حكمة، وأنا لم أر عند العلماء والحكماء استشهاداً بالأبيات أكثر من أبيات المتنبي، حتى إن كتبهم حفلت بأبياته، وإن تنظر في مقدمة ابن خلدون، أو إحياء علوم الدين أو كتب ابن تيمية، أو من جاء بعدهم تجدها كلها تحفل بالاستشهاد بأبيات الشاعر الأعجوبة.

يقول أحد العلماء: الشعراء يمشون والمتنبي يطير. وقرأت لأحد أدباء اليمن أن أحد ملوك اليمن قال له أديب هناك وشاعر: أنا أشعر من المتنبي. قال: كذبت أنت وكذب أبوك وجدك؛ للمتنبي (٥٠٠ بيت) تدور على ألسنة الملوك، علاوة على غيرهم.

ولذلك تجد غالب الحكم التي تدور على ألسنة الناس هي للمتنبي.

قصائد قتلت أصحابها

وقصة مقتله أنه تعرض لأحد الناس الوجهاء وتعرض لأمه وسب أمه وشتمها، فثار ذاك، فلما ذهب المتنبى إلى عضد الدولة في شيراز، الملك الذي قتل ابن بقية، وهذا الملك كان في شيراز، ثم أتى إلى بغداد فيما بعد، وكان المتنبى قد مدحه بقصائد، ويقول من ضمن قصائده فيه:

أَرْوُحٌ وَقَدْ خَتَمَتْ عَلَى فُؤَادِي (١)
بِحُبِّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سَوَاكَ
وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا ثَقِيلًا
طَوِيلًا لَا أَطِيقُ لَهُ حِرَاكَ
أَحَازِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا
فَمَا تَمْشِي بِنَا إِلَّا ابْتِرَاكَ
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ
فَأَكْثَرُ مَا يَعْلُكَ مَا شَفَاكَ

هذا شعر باقٍ وأعجوبة، وهو دائماً يأخذ الجائزة بين الشعراء، وكانوا قرابة الثمانين وهو الذي يأخذ الجائزة بينهم والتفوق، المقصود أنه لما أخذ الجائزة ورجع خرج له بنو أسد؛ لأنه هجا أم أحد أمرائهم وعرض بها، هجاها هجاء مقذعاً، واتهمها في عرضها - ويل له من الله - فخرج هؤلاء النفر، فلما رأى القوم أقبلوا، ركب الفرس وأراد الفرار؛ لينجو، فقال له غلامه: ألسنت القائل:

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي
وَأَسْمَعْتَ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ

فتبّت وقاتل حتى قُتِلَ، وهو ذو شجاعة بالجملة وكان يقولها في شعره. فقتله شعره. وقد عدّت هذه من أجمل القصائد، حتى إن بعضهم يقدمها على سائر قصائد الديوان ويجعلها القصيدة الأولى من حيث الروعة والإبداع، وهي التي يقول في مطلعها:

وَاحْرَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَيْمٌ
وَمَنْ بِحَالِي وَجْسَمِي عِنْدَهُ سَقَمٌ
مَا لِي أَكْتَمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي
وَتَدْعِي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْعَجَمُ

(١) هذا نفاق اجتماعي.

إلى أن يقول:

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ صَمَّ مَجْلِسَنَا
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي
الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
بَأَنْنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

إلى أن يقول:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا
وجداننا كل شيءٍ بعدكم عديمُ
ألا تفارقهم فالراحلون هم

إلى آخر ما قال.

لكنه ترك على كل حال حكمة.

لقيه بعض الأدباء، فقال له: أنت ادَّعَيْتِ النبوة في شبابك؟! فقال: من عثرات الشباب. أي: عثرات الصبا. قال: ما هي معجزاتك إن كانت لك معجزة؟ قال: قولي: وَمَنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْخَرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُ
وقد قيل: إن هذا مما دسَّه عليه أعداؤه وحساداه؛ لتشويه سمعته والتكيل والكيد به.

ولكنها حكمة، فهو يقول: ومن نكد الدنيا عليك أنه لا بد لك من أن تجامل وتصانع بعض الأعداء وتتخذهم صديقاً؛ لأن هذه الحياة لا تكون إلا بهذه الطريقة، حتى إن زهير بن أبي سلمى يقول:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسَمٍ

فلتكن عندك لباقة اجتماعية وعندك رفق ودبلوماسية وعندك تغافل في بعض الأمور، مثلما يقول أبو تمام:

قصائد قتلت أصحابها

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فينبغي أن تتغاضى عن زلات الإخوان، وأن تتغافل عن الإساءات؛ لأنك سوف تدفع الثمن أعلى لو أخذت النصر والقصاص.

والإمام أحمد قيل له: ما منزلة التغافل من حسن الخلق؟ قال: تسعة أعشار حسن الخلق التغافل. أي: أن تتغافل عن زلات غيرك وكأنهم ما قالوا وتنسى الأمور؛ حتى تستطيع أن تعايش الناس، أما من يحاسب هذا؛ لأنه تكلم فيه ويرد على هذا؛ لأنه كتب فيه مقالة، وينظم قصيدة ويرد على ذلك؛ لأنه أجاب بقصيدة، فيذهب العمر وتزداد العداوات.

قرأت لرئيس أمريكي مشهور (إبراهيم لنكولن)، يقول: أنا لا أرد على رسائل الشتم التي تُوجَّه إليّ، أو لا أفتحها، فضلاً عن أن أرد عليها. فينبغي علينا التغافل وأخذ العبرة من سيرة هؤلاء الذين دفعوا حياتهم.

وممن قُتل علي بن جبلة العُكُوكُ، وكان من أشعر الناس، وعلي بن جبلة هذا عاش في العصر العباسي في عهد المأمون، حتى يقول الذهبي عنه: شعره كله نُحْبُ. أي: جواهر ودرر. وهو الذي يقول:

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِمًا حَذِرًا مِنْ كُلِّ وَاشٍ جَزَعًا
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى تِلْكَ الْخُطَا ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

ونظم قصيدة في أبي دُلف الأمير، وأبو دُلف أمير مشهور في خراسان من أكرم الناس، لكنه أمير من قبل المأمون والمأمون هو الخليفة الملك، فضله على كل أهل الأرض بما فيهم المأمون، يقول في القصيدة -وهي من أجمل القصائد:-

دَادَ وَرُدُّ الْغَيِّ عَنْ صَدْرِ
دَغْ جَدَا قَحْطَانٍ أَوْ مُضَرٍّ^(١)
وَأَمْتَدِخْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا
الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ
مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ
فَارْعَوَى وَالْغَيِّ مِنْ وَطَرِهِ
فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ
حَجَرَ الْأَيَّامِ فِي حُجْرِهِ
وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفْرِهِ
بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِّهِ
وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهِ

يقول: كل الناس يأخذون منك المكارم ويأخذون منك مجدهم. وهذا مبالغة ونفاق، فسمع بذلك المأمون، الخليفة العباسي في بغداد، فقال عن نفسه: قتله الله إن لم يقتل علي بن جبلة. ثم قال: عليّ به. وأتوا به إلى بغداد، وأيقن أنه لن يقتله أمام الناس؛ لأنه مدح ذاك وغلبه عليه، بل لا بد من أن يتخذ حيلة؛ كي يفتي العلماء بجواز قتله، ويبرر للرأي العام أنه قتله بحجة، فأدخل عليه في البساط وكان أسمر، وعلي بن جبلة فيه بهق وبرص، لكنه شاعر يأخذ بالألباب، ومن أمثلة شعره ما قاله لما مات حميد الطوسي البطل، مما يعد من فن الرثاء:

أَصْبَنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ
أَصِيبَتْ عُرُوشُ الدَّهْرِ أَضْحَتْ تَضَعُضُ
وَأَدَبْنَا مَا أَدَبَ النَّاسَ قَبْلَنَا
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الصَّدْرِ مَوْضِعُ

الشاهد أنه لما دخل قال المأمون: قتل الله نفسي إن لم أقتلك؛ لكن لن أقتلك

بقولك:

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ
مُسْتَعِيرٍ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ
بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهِ

(١) أي: اترك عطاياهم.

قصائد قتلت أصحابها

جعلتنا كلنا عبيداً لأبي دُلف، نحن الذين نكتسي منه المفاخر، مع العلم أن المأمون هو الخليفة! لكنني أقتلك بأبياتك التي تقول فيها:

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الْأَيَّامَ مَنْزِلَهَا وَتُنْزِلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
وَمَا مَدَدْتَ بِأَقْلَامٍ مُرْتَبَةٍ إِلَّا قَضَيْتَ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

والصحيح أنه قتله في أبياته في مدح أبي دلف.

قال: يا غلام، اضرب رأسه. فقتله في البساط، فدع ثمن كلماته المبالغة المجحفة التي لا يُقرها عقل.

وابن هانئ الأندلسي قُتل وعمره (٣٧ سنة)، أُصيب بمرض عضال، يقول في أحد أمراء الفاطميين، وهل هذا الكلام يُقال لبشر؟:

مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قاتله الله! الواحد القهار الذي تفرد بالبقاء عز وجل له الأسماء الحسنى، لا إله إلا هو. حتى يوسف عليه السلام في الزنزانة يلقي محاضرة في التوحيد لما أتوا يطلبون تعبير رؤياهم.

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خِيراً أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. فسمى الله عز وجل

باسمين عظيمين: فهو الواحد الذي تفرد بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله جل في علاه لا إله إلا هو، ثم قال: القهار. الذي قهر غيره فإنه لو كان واحداً ولم يكن قهاراً لم يكن هناك تمام في الملك، فقال: الواحد القهار. فيأتي هذا -نعوذ بالله من عمله ومن سوء إرادته ونيته- فيقول:

مَا شِئْتُ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

قيل: إنه قُتل فيما بعد، تعرض له بعض الناس وقتله. وقيل: أصابه مرض عضال فأصبح يتقلب ويعوي ويصيح ويضح، ويقول:

أَبْعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي فَأَهْنَتَنِي وَقَذَفْتَنِي مِنْ حَازِقٍ
لَسْتُ الْمَلُومَ أَنَا الْمَلُومُ؛ لِأَنَّنِي عَلَقْتُ آمَالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ
الآن يقر الإنسان بسعة الصدر.

يقول علي الطنطاوي: ساعة الصفر ساعة لقاء الله وساعة سكرات الموت،
يُذعن فيها الجبار ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ويتوب فيها العاصي.
حتى فرعون شيخ الملاحدة يقول: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ،
بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. لكن هيهات، فينبغي أن يحسب الأديب
كلماته والشاعر كذلك، وهذا في الدنيا فكيف عند الله؟ هذا غضب الملوك
والأمراء والجبابة، فكيف غضب الله الواحد القهار عز وجل؟

ولذلك لما ذكر الله عز وجل شهادة بني إسرائيل المزورة على الرسالات
السماوية الخاطئة الكاذبة قال: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].
أي: سوف نكتبها ونسألهم. يقول عز وجل عن الكلام المزور: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]. ثم
قال في الملفات الماضية الأدهى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا
عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. اللهم أحسن خاتمتنا يا رب العالمين.



قصائد سارت بها الركبان

هي أبيات من الأدب العربي خُلِّدَت عند العرب وصارت مضرب المثل، حتى حفظها الناس وتداولوها في المجالس لحسنها، وما كل شاعر يمكن أن يُخلَّد أدبه وشعره، لكنَّ هناك نابغين، والنابغون من الشعراء هم الذين سَطَّروا أبياتهم في قلوب الناس، وهذه حظوظ من الله عزَّ وجلَّ فالشيوخ والذيوخ حظ منه عزَّ وجلَّ يُرزق به شاعر ويُحرم ألف شاعر، وأذكر بالمناسبة قائمة، منهم المتنبي وأبو تمام والبحتري وحسان، وشوقي

من المعاصرين يخرج شعرهم، ويُنقل بين الناس، حتى إن من ضمن الأبيات المشهورة التي يقولها أبو تمام -وهي أكثر ما يُتداول على ألسنة الناس-:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَيْتُ أَتَّاحَ لَهَا لِسَانَ حُسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرْتُ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبَ نَفْحِ الْعُودِ

وهذه حكمة، فيقول: إن الله إذا أراد أن ينشر فضيلة رجل ما سلط عليه حسوداً، فينقب عنه فيشتهر هذا الرجل، حتى رأيت مصطفى أمين الكاتب المصري المشهور قال: إذا رأيت ناجحاً أو صحيفة أو كتاباً، ورأيت له نجاحاً وأصبح ينهال عليه كلام الحساد ويلقون عليه بالطوب، فاعرف أنها مدفوعة انتصار تطلق (٢١ طلاقة) في فرح انتصار هذا الشخص. وهذا أمر معلوم لكن قصدي شيوع الكلام وانتشاره في الناس، وممن رُزق ذلك أبو تمام حتى إنه يقول -من ضمن أبيات له توضع في التقويم اليومي-:

مَرَّتْ سِنِينَ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا فَكَأَنَّهَا مِنْ قَصْرِهَا أَيَّامٌ
ثُمَّ انْتَهَتْ أَيَّامٌ هَجَرٍ بَعْدَهَا فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامٌ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

هذه هي الحياة؛ فسنينها الطيبة أيام، وأيام الشدة فيها أعوام، وتمر جميعاً، فتصبح كأنها أحلام. وهذه هي الحياة الدنيا، لكن أن يترجمها بهذا الكلام فهذه هي الفصاحة والبلاغة.

ومن ذلك أنه نظم قصيدة في المعتصم يهنئه بفتح عَمُورِيَّة بـ (٧٠ بيتاً).

يقول ابن القيم: إنه أعطاه على كل بيت (١٠٠٠ دينار). حتى إنه يُذكر عن أبي تمام أنه قال: لو كنت أعلم أنه سيعطيني على كل بيت لكنت زدت في القصيدة. وهي التي يقول فيها:

قصائد سارت بها الركبان

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
إلى أن يقول:
خَلِيفَةُ اللَّهِ، جَاوَزَى اللَّهُ سَعِيكَ عَنْ جَرُثُومَةِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالنَّسَبِ
إلى آخر ما قال.

وبالمناسبة، فإن عبد الله البرودني شاعر اليمن عارضه بقصيدة على وزن قصيدته، فيقول:

مَا أَقْبَحَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يُمِضْهُ الْغَضَبُ وَأَكْذَبَ السَّيْفِ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ
بَيْضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا أَيِّدٌ إِذَا غَلَبَتْ فِي كَفِّهَا الْغَلَبُ
وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الْأَغْبِيَاءِ بِلا هَمٌّ سِوَى كَمِّ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا

والشاهد ذبوع شعر هذا الشاعر الكبير.

ومما درج من الشعر وانتشر أبيات ليزيد بن معاوية وقيل: لخالد ابنه الأمير صاحب الكيمياء وهو لم يتولَّ الخلافة ولكنه شاعر، يقول:

وَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً لَكُنْتُ شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وعلى ذِكرٍ ذلك يقولون: إنه قال هذه الأبيات في مكة ولم يذهب إلى الطائف، وكانت زوجته تبكي للفراق، فقال:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسُعْدَى شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَنِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وما دمنا في الطائف وحول مكة، فقد كان للحجاج أخت اسمها زينب، ذهبت معتمرة مع وفد، أي: أخت الأمير، أمير العراق. فأخذت وفداً وحاشية ونزلت من الطائف على جبل نعمان تريد المناسك جهة عرفة، فرآها النميري الشاعر وكان بين الشجر، وهي مارة ففاحت طيباً في الوادي لما مرت وضاع المسك، فقال:

تَضَوُّعٌ مِسْكَاً بَطْنُ نُعْمَانَ أَمْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةِ عَطِرَاتِ
تَهَادِينَ مَا بَيْنَ الْمُحَصَّبِ مِنْ مَنَى وَأَقْبَلْنَ لَا شُعْثاً وَلَا غِبِرَاتِ
يُخَبِّنُ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التُّقَى وَيَقْتُلْنَ بِالْأَلْحَاضِ مُقْتَدِرَاتِ
فَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ وَأَصْبَحْنَ أَنْ يَلْقِيَنَّهُ حَذِرَاتِ

وضع نفسه موضعاً خطيراً وعنده موكب، شكاه الحجاج إلى عبد الملك فدعاه، قال: يا عدو نفسه، ما هو الركب الذي عندك؟ قال: واللّه - يا أمير المؤمنين - ما عندي إلا أتان. أي: حمار لا يساوي (٢٠٠ درهم). فأعتقه وسامحه وشرط عليه ألا يتعرض للحرمان.

ومن الذبوع في الشعر ما يُحفظ للشاعر طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ، فله ثلاثة أبيات - وقيل: أربعة - سارت وذاعت، حتى إن الشافعي أتى بها في السيرة، يرويها عن الشعبي. قال: لما اجتمع الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة سيد الخلق صلّى الله عليه وآله يريدون اختيار خليفة. الأنصار ظنوا أن لهم من الأمر شيئاً، مع أن أمر الخلافة في قريش في عهد الرسول صلّى الله عليه وآله، فاجتمعوا هنا، فحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم فسكتهم عمر رضي الله عنه فما سكتوا، يقول عمر: «زُورْتُ كَلَاماً فِي صَدْرِي - أي: جهزت كلاماً في صدري وهياته - وَكُنْتُ أُرَاعِي فِي أَبِي بَكْرٍ حِدَّةً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَسَكَّنِي أَبُو بَكْرٍ فَسَكَّتْ، قَالَ: فَتَكَلَّمْتُ أَبُو بَكْرٍ بِكَلَامٍ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ كَلَاماً فِي صَدْرِي زُورْتُهُ إِلَّا أَتَى بِأَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى الْبِدَاهَةِ، قَالَ: أَيُّهَا الْأَنْصَارُ، نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ، نَحْنُ الشُّعَارُ وَأَنْتُمْ الدَّنَارُ، أَسَيْتُمْ وَنَصَرْتُمْ وَأَوَيْتُمْ وَكَفَيْتُمْ، وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلَكُمْ - أَيُّهَا الْأَنْصَارُ - إِلَّا كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ لَمَّا نَزَلَ فِي بَنِي جَعْفَرٍ:

قصائد سارت بها الركب

جَزَى اللَّهُ عَنَا جَعْفَرًا حَيْثُ أَشْرَفَتْ
هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ^(١) وَالْجُؤُوا
بَنَا نَعْلُنَا فِي الشَّارِفِينَ فَرَلَّتْ
إِلَى عُرْفَاتٍ أَدْفَاتٍ وَأَظْلَّتْ
أَبُوا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمَّنَا
تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ

وهذه القافية جميلة (ملَّت، زَلَّت). حتى إن كثير عزة يقول:

هَنِينًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائِمٍ مُخَامِرٍ
لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ

وأحد الشعراء أتى أميراً، فأعطاه جائزة، فقال:

رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

يقول: رأى فقري وكنت أستر فقري، لكن الكريم يكشف فقر الفقير وحاجة المحتاج، فنظر إلي حتى اكتشف خلتي.

فيقول: إنه لما رأى حاجتي وفقري لم ينم، وصارت قذى في عينه حتى فرج عني - فرج الله عنه.

وعلى هذا دعا سيف الدولة الحمداني أبا الطيب المتنبى الشاعر المشهور، فقال له: أعجبني بيت:

رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

فزد عليه أبياتاً. فقال المتنبى على البداة:

لَنَا مَلِكٌ لَا يَطْعُمُ الْغَمُضُ جِفْنَهُ
جَزَى اللَّهُ، عَنَا سَيْفَ دَوْلَةِ هَاشِمٍ
مَمَاتٍ لِحَيٍّ أَوْ حَيَاةٍ لِمَيِّتٍ
فَإِنَّ مَدَاهُ الْغَمْرِ سَيْفِي وَدَوْلَتِي
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) هذا واقع الأنصار بالمهاجرين.

فهذا مما سارت به الركبان.

ومن أشهر شعراء الجاهليين عدي بن زيد، وله قصيدة بديعة، حتى إن الخليفة الناصر دعا ابن الجوزي الواعظ الكبير، وقال له: أكمل هذه القصيدة ولو كانت مجلدات. فأكملها بآلاف الأبيات، والتي يقول فيها عدي بن زيد:

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ؟

يقول: يا من يشمت بنكبائنا ويشمت بمصائبنا إذا حلت بنا، أنت مبرأ ومعك صك غفران، فما تصيبك مصيبة ولا تأتيك نكبة؟ وإذا أتتنا نكبة تشمت بنا.

هَلْ رَأَيْتَ الْمُنَايَا خُلْفَنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَبِيرُ؟

يقول: هل رأيت أحداً ما تكدر أو أُصيب؟ رأيت في الخليفة إنساناً ما عثر؟ رأيت في العالم إنساناً ما أُصيب ابنه، أو أُصيب في أهله أو في جسمه؟ حتى يقول أحد الشعراء:

كُلُّ مَنْ لَاقَيْتَ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَنْ

يقول: مكدره هي الدنيا. هذه قصيدته من أشهر ما قيل، يقول:

مَنْ رَأَيْتَ الْمُنَايَا خُلْفَنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُ وَأَنْ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ

انتهوا كلهم. وهي قصيدة طويلة.

ولجمالها وذيوعتها، فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك المحدث العابد الزاهد المجاهد مرّ فرأى قصر طاهر بن حسين في خراسان، وكان قصراً كبيراً مرتفعاً، فقال: والله إن قصيدة عدي بن زيد أحسن عندي من هذا القصر لو كان لي، وهي:

قصائد سارت بها الركب

أَيُّهَا الشَّامُتُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ؟

وعدي بن زيد له أبيات، منها يقول- لما رأى بيوتاً وقصوراً، وقد مات ملوكها كالنعمان ومن كان معه-:

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

يقول رحمته الله عن الأمم والثقافات والحضارات السابقة والدول ﴿هَلْ تُحْسُ مِنْهُمْ
مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولما مرَّ علي رحمته الله ببابل ورأى الدور، وإذا هي مهدمة كأن لم تغن بالأمس، قال:

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

ويقول ابن بطوطة: إنه مرَّ بخراسان بمقبرة، فوجد في المقبرة لوحة مكتوب عليها: دُفِنَ فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ (١٠٠٠ ملك) من ملوك خراسان، ومكتوب عليها أيضاً بيت شعر:

وَسَلَاطِينُهُمْ سَلَ الطُّيُورَ عَنْهُمْ وَالرُّؤُوسُ الْعِظَامُ صَارَتْ عِظَامًا

وهذا مما شاع في الناس، وذاع حتى صار مضرب المثل.

ومطالع القصائد العربية هي مما شاع وذاع عند الناس؛ فامرؤ القيس قال:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وبعض المعاصرين يقول:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي كِتَابٍ مُنْزَلِ

لأن ذلك يجيد بُكاء الديار وذكر النوق ومرايع الصبا وملاعب الفتوة، والعرب إنما حنت للديار وللأوطان أكثر من أي حنين، ولذلك فشعر الأوطان مما يأخذ بالجنان ومما يهيج الإنسان، وأحسن شيء عندي في الوطن هو قول ابن الرومي:

وَلِي وَطَنُ الْيَتِّ أَلَا أْبِيعَهُ
عَهْدْتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً
وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ
وَأَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرُ مَالِكًا
كَنِعْمَةٍ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا
مَعَاهِدُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُوا لِدَلِكَا

وهذا من شعر الأوطان التي حن لها الشعراء إذا استقروا، لكن بعضهم لا يستقر، تراه يتنقل من دار إلى دار ومن سكن إلى سكن، حتى يقول أبو تمام:

بِالشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادِ الْهَوَى وَأَنَا
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي
وقد نظمت على موضوعها وقافيتها قصيدة، فقلت:

أَنَا الْحِجَازُ أَنَا نَجْدُ أَنَا يَمَنُ
وَفِي رُبَى مَكَّةَ تَارِيخُ مَلْحَمَةٍ
فِي طَيْبَةِ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَأَغْنِيَتِي
النِّيلُ مَائِي وَمِنْ عَمَّانَ تَذَكِّرْتِي
فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادِ الْهَوَى وَأَنَا
فَأَيْنَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي بَلَدٍ
وَالْوَحْيُ مَدْرَسَتِي الْكُبْرَى وَغَارُ حِرَا
وَتَيْقَةٌ كُتِبَتْ فِي اللَّوْحِ وَانْهَمَرَتْ
أَنَا الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي
عَلَى ثَرَاهَا بَنَيْنَا الْعَالَمَ الْفَانِي
فِي رَوْضَةِ الْمُصْطَفَى عُمْرِي وَرِضْوَانِي
وَفِي الْجَزَائِرِ إِخْوَانِي وَتَطْوَانِي
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي
عَدَدْتُ ذَلِكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي
تَارِيخُ عُمْرِي وَمِيلَادِي وَرِضْوَانِي
آيَاتُهَا فَاقْرَؤُوا- يَا قَوْمُ- قُرْآنِي

فهذه أبياتهم يوم سارت في الناس، حتى إنهم اختلفوا في أجود الأبيات وأفضلها، وكل يقول بحسب معرفته؛ فمنهم من يقدم قول جرير- يخاطب بني أمية عند عبد الملك:-

قصائد سارت بهما الركبان

أَتَضَحُّو^(١) أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةَ هَمٍّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ

فقال عبد الملك: بل فؤادك أنت. فزجره في أول الأبيات، فلما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْتَدَى الْعَالَمِينَ بَطُون رَاحٍ

قال عبد الملك: بلى، بلى. وأعطاه جائزة على ذلك.

ومما سارت به الركبان قول حسان - حتى إن الأصمعي يقول: هو من أفخر

الأبيات. يقول بيدر:-

وَيَوْمَ بَدْرٍ إِذْ يَصْدُ وَجُوهُهُمْ جَبْرِيلُ تَحْتَ لَوَائِنَا وَمُحَمَّدٍ

وحسان رحمته الله صاحب قافية وله أبيات مائعة، حتى إنه إذا أراد أن يهجو المشركين أوصل إلى الكبد وكوى، أي: يُنَضِّجُ الكبد تنضيحاً راقياً مثل: الميسم.

طُوبَى لِمُعْتَرِكٍ مِنَ الْأَرَامِ تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدِ بَسَامٍ
إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَجَوَّتِ مِنْ ذِي الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ

يقصد الحارث أخا أبي جهل، وكان قد فرَّ من بدر، فيقول:

تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ

ولكن بعد ذلك أسلم الحارث بن هشام، وبعدها قُتِلَ شهيداً رحمته الله في اليرموك.

ومن أكثر الشعراء ذيوماً وشيوعاً في شعرهم المتنبي، إذ إن شعره صار حكماً وروائع، ومن ذلك أنه يقول:

وَمِنْ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنْ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

(١) هو يقصد نفسه، لكنه يكلم الخليفة، وهذا مما لا يصلح.

ولما تحدث عن الدنيا قال:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ
فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَهُمَ فِيهَا مُعَذَّبٌ
ويقول عن الحُسَّادِ:

سَوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ
إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

بل أتى بالقصيدة اللامية الأخرى، التي يقول فيها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالُ
فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

فلا بد من أن يُطعّم القصيدة بأبيات من الحكمة المؤثرة الخالدة في الناس، ولذلك استحق أن يكون ملك الشعراء في مسألة القافية، حتى إن ديوانه شُرح أكثر من (٨٠ شرحاً) فقد مدح سيف الدولة بقصيدة رائعة، يقول فيها:

لُكِّلَ أَمْرِي مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا
وَعَادَاتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا
هُوَ الْبَحْرُ خَضَّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا
خَذِ الدَّرَّ وَاحْذَرُهُ إِذَا كَانَ مُزِيدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ
وَأَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيِّيمَ تَمَرَّدَا
فَوُضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا
مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ومثل هذا يقول:

نُعِدُ الْمَشْرِفِيَّةَ^(١) وَالْعَوَالِي
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مَقْرِبَاتِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي نَصَالُ
وَتَقَتَّلْنَا الْمُنُونُ بِلَا قِتَالِ
فَمَا يُنْجِينُ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
فُوَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِي
تَكْسَرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ

(١) المشرفية: السيوف.

قصائد سارت بها الركبان

ثم يمدح ويقول:

وَإِنْ تَفُقَ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

فهذا هو الشيوع والذيع الذي انتشر عند بعض الشعراء؛ بسبب تجويدهم
لللمة والعبارة، وهذا من فضل الله عز وجل.



املؤوا فمه دراً

كلمة عند أهل الأدب مشهورة يقولها
الخلفاء والوزراء والأمراء للشاعر إذا أجاد،
يقول: املؤوا فمه دراً. أي: فوق الجائزة. إذا
بلغ بالسامع الوزير الأمير الملك مبلغه من
الإعجاب بهذا الشاعر، ومن مُلِّت أفواههم دراً
عبر تاريخ الأدب أربعة أو خمسة فقط؛ لأنه قلّ
أن يأتي شاعر بيت ساطع لامع يمكن أن يخلع
قلب الخليفة؛ لأن السحر الحلال هو الأدب،
ولذلك «إِنَّ مِنْ أَلْبَيَانٍ لَّسِحْرًا».

أذكر على سبيل المثال أبا نواس الشاعر الكبير، وهو مدرسة بلا شك، مدح الوزراء في عهد بني العباس.

وله قصة مع علي بن موسى الرضى. فأول ما تولى المأمون كان ولي عهده علي بن موسى الرضى من بيت الرسول ﷺ من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكن بني العباس ما تحملوا ذلك، لكن المأمون مائل لأهل البيت أكثر، فأتى بعلي بن موسى الرضى فجعله ولي عهده، وعلي بن موسى هذا كان قد ذهب إليه الشاعر دعبل الخزاعي في خراسان وألقى قصيدته التائية التي يقول فيها:

بَنَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ نَوَاعِمُ وَأَلْ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفُلُوتِ
إِذَا وَتَرُوا مَدُّوا إِلَيَّ وَاتَرِهِمْ أَكْفًا عَلَى الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

ينعى فيها آل البيت، حتى يقول:

قُبُورُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ وَحُمَزَةُ وَالسَّجَادِ ذِي النَفْثَاتِ
وَقَبْرِ بَغْدَادَ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ تَضَمَّنَهَا الرَّحْمَنُ فِي الْغُرَفَاتِ

فاغمي على علي بن موسى الرضى من هول القصيدة وقوتها وسقط من على كرسيه.

وأبو نواس مدح الوزراء والأمراء ونسي ولي العهد وهو من أهل البيت، فجاء العلماء وقالوا: تمدح فلاناً وتمدح فلاناً وتنسى ولي العهد هذا؟ وكان ما ترك أحداً إلا مدحه حتى بائع الجرجير مدحه. فنظم أبياتاً قوية مؤثرة، فذهب يعتذر عند علي بن موسى، قال:

قِيلَ لِي ^(١): أَنْتَ وَاحِدُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَعْنَى مِنَ الْكَلَامِ بَدِيهِ

(١) يقصد نفسه ويمدحها.

املؤوا فمه دراً

فيقول: إن الناس قالوا: إني صاحب كلمات، وإني وحيد في العبارات، وإني أطلق اللفظ إذا أردت.

لَكَ فِي جَوْهَرِ الْكَلَامِ بَدِيعٌ يَثْمُرُ الدُّرُّ فِي يَدَيِ مُجْتَنِيهِ
فَعَلَامَ تَرَكْتَ مَدْحَ ابْنِ مُوسَى بِالْخِصَالِ الَّتِي تَجْمَعْنَ فِيهِ
قُلْتُ: كَيْفَ أَهْتَدِي لِمَدْحِ إِمَامٍ كَانَ جَبْرِيلُ صَاحِباً لِأَبِيهِ

فانظر إلى هذه العبارات، حتى يقول السوري: أجزم جزماً أنه لم يمدح أحدٌ بمثل هذه. فقال: املؤوا فمه دراً. لأنه أجاد إجادة فوق اللازم؛ حيث يقول: أنا أمدح الناس العاديين، أما أنت فجدك ﷺ صاحب جبريل، فأنتم شيء آخر؛ نبوة ورسالة ولا أستطيع أن أمدحك، فدعنا نمدح التجار والعمال والموظفين.

والموحدون هم الذين قاموا في المغرب وأسسوا دولتهم، ومن أشهر ملوكهم عبد المؤمن بن علي، كان يقول: أصولنا ثلاثة: القرآن، وسنن أبي داود، وهذا السيف. فلا أنصاف حلول، وأخذ كتب الفقه والأصول المالكية وأحرقها بالنار، وقال: عودوا إلى الكتاب والسنة. هذه وجهة نظره في الباب، وشجعه بعض العلماء على هذا، الشاهد أنه أتى شاعر يمدحه، يريد أن يمدح عبد المؤمن بن علي صاحب التصميم والعزيمة، الذي يخافه الناس رهبة وكل كلماته مؤثرة في القتال وفي الحروب وفي العلم وفي المعرفة، وقال:

قَدَّتْ فُؤَادِي مِنَ الشُّبَّاكِ إِذْ نَظَرْتُ وَرَقَاءُ جَادَتْ مِنَ الشُّبَّاكِ بِالْمَقْلِ
كَأَنَّ فَتَكَتَهَا فِي قَلْبٍ عَاشِقِهَا ضَرَبُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

قال: غير القصيدة. أي: غير هذا المطلق. ما تطلع على الشباك وورقاء ونظرت ورأيانها وسقطت وخافت.

فقال الشاعر:

مَا هَزَّ عَطْفِيهِ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ مِثْلُ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ

قال: امسح القصيدة وأبق هذا البيت، واملؤوا فمه دُرّاً. فقولته هذا معناه أن من عادة السيوف والرماح أن تلوح بين الصفيين في المعركة، وما لاحت في يد أحد مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي.

وممن مُلئَ فمه دُرّاً عمارة اليمني، وكان من أشهر الشعراء على الإطلاق، وهو من درجة المتنبي، سافر من مكة إلى الفاطميين في مصر، يقول:

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَا سِرْتُ إِلَّا مِنْ حَرَمٍ إِلَى حَرَمٍ
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مَبْسُوطٌ صَوَادِقُهَا تَجْنِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمٍ
وَلِلرَّسَالَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ تُبْذِرُ الْحَبِيبِينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حُكْمٍ
لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

يقول: ليت النجوم تنزل علينا قليلاً، فأنظمها قصائد وأعطيك إياها. القصيدة رائعة بلا شك، لكنه أتى بقصيدة أخرى يمدح فيها الفائز الحاكم الفاطمي في مصر، يقول:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ ^(١) وَخَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

هذا نفاق اجتماعي مبالغ فيه يريد الجائزة، قال: امحُ القصيدة واترك هذا البيت واملؤوا فمه دُرّاً. هذا هو عمارة اليمني، قتله صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه أراد مع بعض الناس إعادة دولة الفاطميين، الدولة المنحرفة عن الجادة، وأن يعادي السلطان العادل والإمام الحق صلاح الدين الأيوبي الكردي الذي نصر

(١) أي: قَبَّلْتُ.

املؤوا فمه دراً

اللَّهُ به الإسلام، فاستحق الإعدام، فأُعدم هذا الشاعر، وكلهم سوف يذهبون إلى
الله عز وجل؛ القاتل والمقتول فهو عز وجل أحكم من يعدل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
[فصلت: ٤٦].

جلس المتوكل ليلة من الليالي ولبس برد الرسول ﷺ الذي توارثه خلفاء بني
العباس، فقال: من يصف هذا المشهد وأنا لابس البرد؟ وكان الشعراء جلوساً،
فقام أحدهم وقيل: هو ابن الشجري. وقيل غيره. فقال:

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسَتْهُ يَظُنُّ لَظَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
وَقَالَ - وَقَدْ أُوَيْتُهُ وَلَبِسَتْهُ - : نَعَمْ، هَذِهِ أَعْطَافُهُ وَمَنَاكِبُهُ

قال: املؤوا فمه دراً.

وسرعة البداهة موهبة من الله، وبالمناسبة فإن أبا جعفر المنصور أشهر
خلفاء بني العباس، خرج للسير والنزهة، وقال للشعراء - وكان معه ما يقرب من
ثلاثين شاعراً منهم بشار بن برد -: مَنْ يُجِيزُ هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي أَقُولُ وَيَأْتِي بَيْتَ
عَلَى الْبَحْرِ وَالْقَافِيَةِ وَأَعْطِيهِ هَذَا الْبُرْدَ الَّذِي عَلَيَّ؟ قالوا: قل يا أمير المؤمنين.
فقال:

وَهَاجِرَةٌ وَقَفْتُ بِهَا قُلُوصِي يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهَرَ الْعُضَايَةِ^(١)

فسكت الشعراء، فقالوا: أعد يا أمير المؤمنين. فقال:

وَهَاجِرَةٌ وَقَفْتُ بِهَا قُلُوصِي يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهَرَ الْعُضَايَةِ

معنى هذا البيت: ما أشد هذه الهاجرة وهذه الظهيرة التي نحن فيها! شدة
النهار التي وقفت بها أنا وناقتي، حتى لو كان هذا الحر على ظهر السلحفاة - مع

(١) العضاية: قيل: السلحفاة. وقيل نحوها.



أن ظهرها شديد قوي - لقطعها، فكيف أنا؟! فقالوا: أعد. فلما أعاد جثوا على رُكبتهم أيهم يرد أولاً. فقال أحدهم:

وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ فَفَاضَ دَمْعِي عَلَى خَدَيَّ فَأَقْصَرَ وَأَعْطَايَ

فأعطاه أبو جعفر البرد، فشراه بنو العباس بألف دينار منه وأخذوا البرد؛ برد الخليفة.

وممن مُلِّئَ فمه دراً أحد الشعراء، مدح جعفر بن فلاح وهو قائد فاطمي من قادة الفاطميين، لقيه الشاعر، فقال:

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ أَرْوَعَ الْخَبْرِ
حَتَّى اتَّقَيْنَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أُذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي

يقول: كنا نسمع عنك ولما التقيتنا كنت أكبر. وهذا من ترتيب الألفاظ الجميلة، ومما يعجبني في ذلك أبيات نظمها أحد العلماء من أهل الحديث، وبعض أهل الحديث يُرزق مع العلم شعراً، ومنهم أبو وردى المحدث الكبير، كان شاعراً من درجة المتنبى بلا مبالغة، وهو الذي يقول:

تَسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسَأَلُ الْأَيَّامُ عَنِّي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

وأحد المحدثين من الشعراء يقول:

مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ تَرَوِي أَحَادِيثَ مَا أَوْرِيتَ مِنْ مَنْ
فَالْعَيْنُ عَنْ قُرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صَلَاةٍ وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ

فهؤلاء رواة حديث، مثل: قرّة بن خالد المشهور، وصلة بن الأشين عالم كبير، وجابر بن عبد الله «الصحابي المشهور» والحسن البصري. فنظمهم: لأنهم في السند.

املؤوا فمه درأ

وممن ملئ فمه درأ شاعر يقال له: تميم الأمير. وكان تميم أميراً جواداً من أكبر الأمراء على الإطلاق، فيقولون: تميم بن دُبَيْس، أو غيره. يقول فيه شاعر عارف بعلم السند:

أَصْحٌ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْأَثَرِ الْمَعْرُوفِ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْغَيْثِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

فأجازه جائزة، وقال: املؤوا فمه درأ.

وصارت شهرة لهؤلاء؛ لأنهم خلدوا شعرهم فيمن مدحهم.

وزهير من أعظم من مدح آل هرم بن سنان، حتى يقول:

مَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئُ إِلَّا وَشِيجَهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَغَارِسِهَا النُّخْلُ

وهذا أولى أن يُملأ فمه درأ؛ لأنه قال فيهم كلمة صادقة، وما كان يقول فيهم إلا الحق. واختلف أهل الأدب عند الأصمعي وغير الأصمعي، تراه يفضل النابغة الذبياني على زهير، على أن زهير عاقل حكيم، لكن النابغة مؤثر في شعره، قيل للأصمعي: أيهما أشعر زهير أو النابغة؟ قال: النابغة، النابغة إن قلت: شعره حرير فهو حرير، وإن قلت: ألين من الحرير فألين من الحرير، وإن قلت: أقوى من الحديد فأقوى من الحديد. ومن ذلك قوله:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنُ أَنَّكَ لُمْتَنِي (١) وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمَّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
فَبِتُ كَأَنَّ الْغَانِيَاتِ فَرَشْنَ لِي هَرَّاساً بِهِ يَغْلُو فِرَاشِي وَيَقْشُبُ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

(١) يقصد النابغة الذبياني.

وَأَنْ بَلَغَ الْوَأَشُونَ عَنِّي وَشَايَةً
لَمْبَلُغِكَ الْوَأَشِي أَغْشُ وَأَكْذَبُ
وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمَهُ
عَلَى شَعْتِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْذَبِ؟

هذا البيت الأخير مؤثر وبديع وهو رسالة اجتماعية، يقول: لن يبقى لك صديق ما دمت لا تقبله على زلاته، تقبله على علاته، تقبله على الأخطاء فيه.

تلمه على شعث، أي: تتستر عليه وتحاول أن تصلح ما بينك وبينه. ثم قال: أي الرجال مذهب؟ هل رأيت عوداً يفوح بلا دخان؟ هل رأيت إنساناً معصوماً؟ إلا الأنبياء -عليهم السلام-.

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ
وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

ومن ذلك قول الشاعر بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مَرَاراً عَلَى الْقَدَى
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟
إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً
صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فينبغي للإنسان أن يفض الطرف عن صاحبه وصديقه، ويقبله على زلله وعلى علله؛ ليستمر، أما أن تريد مذهباً لا عيب فيه، فهل عود يفوح بلا دخان؟

حتى إن لهم أيماناً فاجرة وبارة؛ فامرؤ القيس يمينه فاجرة عند الأدباء والحكماء؛ لأنه يقول:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ
لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ

في لاميته التي فضلها الزمخشري على لاميته المعلقة، التي من ضمن أبياتها

يقول:

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً - أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي -
وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

وَهَلْ يَعْمَنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُنْعَمٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالِ

هذه اليمين الفاجرة، أما اليمين البارة، فهي من النابغة الذبياني، حيث يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
وَأِنْ بَلَغَ الْوَأْشُونَ عَنِّي وَشَايَةً لَمَبْلُغِكَ الْوَأْشِي أَغْشَى وَأَكْذَبُ

أي: إن الذي بلغك كذاب؛ لأنه يريد الإفساد بينك وبينني، ولو كان حكيماً لبلغك حسناً، فأول المغتابين لك والسايين لك هو من بلغك الوشاية ومن بلغك السب من صاحبك، فمن بلغك السب فكأنما سبك، ومن بلغك الشتم فكأنما شتمك، والواجب في الشرع أن تُكذِّبه وأن تثبت من الأخبار ولا تقبل روايته؛ لأنه ما أراد إلا السوء والإفساد. حتى إنه عز وجل يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرٌّ فَاسِقُ بْنُهَا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلِئِهِ فَخُصِّبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَكَدِيمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فمنطلق الإسلام التبين والتغافل عن زلات الإخوان؛ حتى يصلح الحال، فكن كأنك لم تسمع ولم يقل.

أما إكرامات الشعراء فتختلف من شاعر إلى شاعر بحسب ما أُوتي، وقيل: من أكبر الجوائز هي جائزة علي بن جيلة لأبي دُلف. لأن أبا دلف لما سمع قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

قال: أَحْيَرُكَ في ثلاث: أن تقاسمني في الإمارة، أو تحتكم أنت، أو أن أعطيك على كل بيت (١٠٠٠٠٠ درهم). قال: أعطني على كل بيت (١٠٠٠٠٠ درهم) ٩. فأخذ المال، ثم قتله المأمون؛ بسبب هذه القصيدة.

والعجيب أن أبا منصور الحاجب أعطى المتنبّي ديناراً على قصيدته، وكان هذا بخيالاً جداً، فمدحه المتنبّي بأحسن قصائده، يقول:

بأبي الشُّمُوسِ الجَانِحَاتِ عَوَارِبَا اللَّائِسَاتِ مِنَ الْخُدُودِ جَلَابِبا

ثم يقول: فسموك الأبّي الحاجب. يقصد الحاجب أعطاه ديناراً فتُسمى هذه القصيدة: الدينارية. وهي من أحسن قصائده لكن البخل عند بعض الناس بالعطاء طبع.



مدائح نبوية

رسول الهدى ﷺ بأبي هو وأمي أجل
من خلق الله، وأكرمهم وسيدهم وخيرهم،
ولكنه ﷺ يقول لأمته: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ
النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». لكنه يثنى
عليه ﷺ بالمكارم، وقد أثنى عليه ربه: ﴿وَإِنَّكَ
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وهناك مدائح نبوية
حفظها لنا تاريخ الأدب العربي، بدأها كعب بن
زهير الذي عاصر رسول الهدى ﷺ يقول فيها:

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
ثم قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

إلى آخر القصيدة، التي أطلق عليها اسم «البردة»؛ لأنه يُروى في السياق أن الرسول ﷺ خلع بردته لزهير رضي الله عنه؛ لما قال هذه القصيدة.

وفي عهده ﷺ مُدِحٌ، حتى إن هناك بيتين يتيمن شاردين من قوتهما يقول صاحبهما:

يَا مَنْ تَضَوَّعَ طِيبِ الْقَاعِ أَعْظَمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِ ذَاكَ الْقَاعِ وَالْأَشْمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ بِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ

ثم استمر الشعراء في مدائحهم للرسول ﷺ، حتى أتى البوصيري لكنه غالى في المدح، فقصيدته من حيث الجمال الفني، ومن حيث التركيب البلاغي، ومن حيث الفصاحة مشرقة فصيحة جداً، يقول:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِي
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ يَهْمُ

ومدح رسول الله ﷺ، ثم جاء أحمد شوقي وسمى قصيدته: نهج البردة، التي مطلعها:

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرَمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُودِرِ أَسَدَا يَا سَاكِنِ الْقَاعِ، أَدْرِكْ سَاكِنِ الْأَجَمِ

مصالح زبولة

إلى أن يقول في مدح سيد الخلق ﷺ:

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكَهُ
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّفَوُّا بِسَيِّدِهِمْ
حَتَّى بَلَغَتْ مَكَانًا لَا يُطَارُ لَهُ
وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَبِّتِهِ
مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ
كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ
وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ

وهي طويلة، وأجمل منها قصيدة البوصيري.

وقد نظمت قصيدة اسمها: تاج المدائح فيه ﷺ من ضمن أبياتها على البحر

والقافية:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمٍ
سَأَلَتْ قَرِيحَةً صَبَّ فِي مَحَبَّتِكُمْ
يُزْرِي بِنَابِغَةِ النُّعْمَانِ رَوْنَقُهَا
مِيمِيَّةٌ لَوْ فَتَى بُوَصِيرٍ أَبْصَرَهَا
مَا زَارَ سَوْقَ عَكَازٍ مِثْلَ طَلْعَتِهَا
أَتْنِي عَلَى مَنْ؟ أَتَدْرِي مَنْ أَبْجَلُهُ؟
فِي أَثَبَتِ النَّاسِ قَلْبًا غَيْرَ مُنْتَقِمٍ
قَحْطَانُ عَدَنَانٍ شَادُوا مِنْكَ عِزَّتَهُمْ
عُقُودُ نَصْرِكَ فِي بَدْرِ وَفِي أَحَدٍ
مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلَّا نُقْطَةٌ غَرِقَتْ
أَكَاذُ أَقْتَلِعِ الْآهَاتِ مِنْ حُرْقٍ
مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونٍ وَالْقَلَمِ
فَيْضًا تَدْفُقُ مِثْلَ الْهَاطِلِ الْعَمَمِ
وَمَنْ زُهَيْرٌ وَمَاذَا قَالَ فِي هَرَمٍ؟
لَعَوْدُهُ بِرَبِّ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
هَامَتْ قُلُوبٌ بِهَا مِنْ رَوْعَةِ النِّعَمِ
أَمَا عَلِمْتَ بِمَنْ أَهْدَيْتُهُ كَلِمِي؟
وَأَصْدَقِ النَّاسِ لَفْظًا غَيْرَ مُتَّهِمٍ
بِكَ التَّشْرِفُ لِلتَّارِيخِ لَا بِهِمْ
وَعَهْدُنَا فِيكَ لَا فِي هَيْئَةِ الْأَمَمِ
فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةُ خُرْسَاءٍ فِي الْقَدَمِ
إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمٍ

إِنْ كَانَ أَحَبُّتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي بَدُو وَحَضِرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمٍ
فَلَا اسْتَفَى نَاطِرِي مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنِ وَلَا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّيِّدِ فَمِي

الرسول ﷺ يجمع في مدحه الدواوين والكتب والمجلدات من القصائد التي مُدِحَ بها ﷺ، وقام بعض الأدباء بجمع القصائد فأربت على المئات إلى خمس مئة، وربما لو جُمِعَت لصارت أكثر من ألف قصيدة خلاف المقطوعات والأبيات، ومن أحسن ما مُدِحَ به سيد الخلق ﷺ قصيدة لعبد الله البردوني شاعر اليمن، في قصيدة يتكلم فيها عن الغار، لكنها بسمو وبجمال وبقوة، وهو من أكبر الشعراء المعاصرين، يقول:

بُشِّرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلْقَتْ فِي فَمِ الْغَارِ وَحَيًّا وَأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ
بُشِّرَى النُّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّدَا سَحْرًا وَأَعْلَنْتْ فِي الدُّنَا مِيلَادَ أَنْوَارِ
وَشَقَّتِ الصَّمْتَ وَالْأَنْسَامَ تَحْمِلُهَا تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ
وَهَدَهَتْ مَكَّةَ الْوَسْنَى أَنَامِلُهَا وَشَقَّتِ الْكُونَ إِيْدَانًا بِإِسْفَارِ
فَأَقْبَلَ النُّورُ مِنْ خَلْفِ التَّلَالِ وَفِي عَيْنَيْهِ أَسْرَارُ عُشَاقٍ وَسُمَارِ
وَشَبَّ طِفْلُ الْهُدَى الْمَحْبُوبِ مُتَشَحًّا بِالْخَيْرِ مُتَزِنًا بِالنُّورِ وَالنَّارِ
فِي كَفِّهِ شُعْلَةٌ تَهْدِي وَفِي دَمِهِ عَقِيدَةٌ تَتَّحِدُ كُلَّ جَبَّارِ
أَعْلَى الْمَنَاصِبِ مَا حَاكَتْ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْعُلَا وَالْمَعَالِي نَصَبَ تَذْكَارِ
طَهَ إِذَا ثَارَ إِنْشَادِي فَإِنَّ أَبِي حَسَّانَ أَخْبَارُهُ فِي الشَّامِ أَخْبَارِي
أَنَا ابْنُ أَنْصَارِكَ الْغُرِّ الْأَلَى سَحَقُوا جَيْشَ الطُّغَاةِ بِجَيْشٍ مِنْكَ جَرَّارِ
إِذَا تَذَكَّرْتَ عَمَّارًا وَسِيرَتَهُ فَافْخَرْ بِنَا؛ إِنَّنَا أَحْفَادُ عَمَّارِ

والزبيري له قصيدة في مدحه ﷺ مطلعها:

السَّمَاوَاتِ شَيِّقَاتِ ظِمَاءٍ وَالْفَضَا وَالنُّجُومُ وَالْأَنْوَاءُ
كُلُّهَا لَهْفَةٌ إِلَى الْمُصْطَفَى الْهَادِي وَشَوْقٌ وَعِزَّةٌ وَتَنَاءُ

وقد نظمتُ على قافية هذه القصيدة قصيدة قلت فيها:

أَيُّهَا الشَّعْرُ أَنْتَ، أَنْتَ الْحِدَاءُ عَنْ شِعْرًا تُصْغِي إِلَيْهِ السَّمَاءُ
قُدَّتْ لِلْحَقِّ سَاطِعًا يَفْضَحُ الْبُهِ تَانٌ فَالْحَقُّ عِزَّةٌ شَمَاءُ

وهناك شاعر من سوريا مشهور اسمه عبد الهادي حرب، مدح سيد الخلق ﷺ

بقصيدة من ضمنها يقول:

إِنَّ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ مَبْعَثِ أَحْمَدٍ نَظَرَ الْإِلَهَ لَهَا فَبَدَّلَ حَالَهَا
بَلْ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ حِينَ اخْتَارَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ نَجْمَهَا وَهَلَالَهَا
لَبَسَ الْمُرْقَعَ فَهُوَ قَائِدُ أُمَّةٍ جَبَّتِ الْكُنُوزَ فَكَسَّرَتْ أَغْلَالَهَا
لَمَّا رَأَاهَا اللَّهُ تَمْشِي نَحْوَهُ لَا تَبْتَغِي إِلَّا رِضَاهُ سَعَى لَهَا
أَنْتَ الشُّجَاعُ إِذَا لَقِيتَ كَتِيبَةً أَدْبَتَ فِي هَوْلِ الرَّدَى أَبْطَالَهَا
وَإِذَا وَعَدْتَ وَفَيْتَ فِيمَا قُلْتَهُ لَا مَنْ يُكَذِّبُ قَوْلَهُ أَفْعَالُهُ

فهو ﷺ ممدوح في ذلك، وإنما أقف مع المدح من ذكريات إسلامية مع سيد

الخلق ﷺ، فقد أتاه رجل اسمه الأسود بن سريع، قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَظَّمْتُ

قَصِيدَةً أَثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. فَقَالَ ﷺ: أَمَّا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ». ولذلك كان ﷺ

يحب أن يكون المدح في ربه، فالله أهل أن يُمدح وأهل أن يُشكر وأن يحمد ﷺ،

وأهل أن يُبجل لا إله إلا هو، حتى إنه ﷺ مدح نفسه، وعند مسلم: «لَا أَحَدٌ أَحَبُّ

إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ». فالرسول ﷺ كان يسمع المدح، حتى إن

ابن رواحة رضي الله عنه قال:

لَوْلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَّكَانَ مَنَظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ

وقال في قصيدة أخرى:

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

قال ﷺ: «وَأَيَّاكَ فَثَبَّتَ». وجاءه ﷺ النابغة، نابغة بني جعدة، فأتى يمدح قومه؛ ليتوصل لمدح الرسول ﷺ، فقال:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيْجُ عَلَى الْفَتَى وَمِنْ عَادَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال ﷺ: «إِلَى أَيْنَ - يَا أَبَا لَيْلَى؟ قَالَ: إِلَى الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ ﷺ: «لَا فَضْلَ فَوْكَ». فعاش مئة سنة ما سقط له سن ولا ضرس؛ من فضل وبركة دعاء الرسول ﷺ، وكان يسمع الشعر ويأبى الغلو ﷺ لكنه يسمعه ويقول: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً». ويسمع لحسان رضي الله عنه.

ولما جاءه وفد بني تميم وكانوا ما يقارب العشرة، وقيل: أكثر. وكان خطيبهم عمرو بن الأَهم وشاعرهم الزبرقان بن بدر، ومعهم قيس بن عاصم المُنَقَرِي حليم العرب، فقدموا فقالوا: نريد أن نُفَاخِرَكَ. وعادة العرب إذا قدموا على الملوك أنهم يُفَاخِرُونَ، وكل قبيلة تُفَاخِرُ، فأذن لهم ﷺ ودُعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَخُطِيبَهُمْ، ودُعِيَ خُطِيبُ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي هُوَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ رضي الله عنه فَتَكَلَّمَ خُطِيبُهُمْ وَكَانَ مُصَقِّعًا وَهُوَ عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ، فَلَمَّا انْتَهَى قَالَ ﷺ: «قُمْ - يَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ - فَرُدَّ عَلَيْهِمْ». وهو الأنصاري الذي قُتِلَ شَهِيدًا فِي الْيَمَامَةِ، فقام فأتى بكلام كأنه صواعق من على المنبر، حتى غلبه، فقام شاعرهم الزبرقان بن بدر، وقال القصيدة، حتى إنه قال:

مِنَّا الْمُلُوكُ فَلَا حَيٍّ يُضَارِعُنَا مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ

إلى آخر ما قال، فقال ﷺ: «قُمْ يَا حَسَّانُ». فقام حسان في الحال مباشرة على البدهاءة، وقال - في قصيدة طويلة -:

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتِهِ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ عَقِيدَتُهُ تَقْوَى إِلَهِهَ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَوْا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا

إلى أن يقول:

كَانَهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ أُسْدٌ بَبِيشَةٌ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعُ
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ حَقًّا شَرُّهَا الْبِدْعُ
لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَقَعُوا

إلى آخر ما قال.

فقالوا: «غَلَبَ شَاعِرُكَ شَاعِرَنَا وَخَطِيبُكَ خَطِيبَنَا». وحسان رضي الله عنه شاعر النبي صلى الله عليه وسلم. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرب له المنبر ويقول عن المشركين: «اهْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ». وحسان رضي الله عنه لما قال له: «كَيْفَ أَنْتَ يَا حَسَّانُ؟». أي: هل تستطيع للمشركون مجابهة بالرد؛ لأن رد الشعر بالشعر والأدب بالأدب والحجة بالحجة، فأخرج حسان رضي الله عنه لسانه وضرب أرنبة أنفه، وقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَعِيَ هَذَا لَوْ وَضَعْتُهُ عَلَى حَجَرٍ لَفَلَقَهُ وَلَوْ وَضَعْتُهُ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ». فكان حسان رضي الله عنه من أجود الناس شعراً هو، وحسان عند الملوك الغساسنة قبل الإسلام يذهب إلى الغساسنة حتى يحن لتلك الأيام والديار، لكن أبدله الله عز وجل بخير من ذلك، الإسلام ومحمد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، لكن من وفائه يعترف لهم بأنهم أهل كرم في غسان في الشام، فيقول:

لله دُرُ عَصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يَوْمًا بَجَلَقَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
أَبْنَاءُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ آبِيهِمْ قَبْرًا بَنَ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ (١) لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
الضَّارِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرِقُ بَيْضُهُ (٢) ضَرْبًا يُطِيعُ لَهُ بَنَانُ الْمُفْصَلِ

حتى على مذهب النابغة يقول عن عمرو بن هند، وقيل: عن النعمان:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ بِهِنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
تُورَثُنَ مِنْ أَزْمَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

لأن العرب إذا مدحوا الإنسان مدحوه بأمه أو بجده، ومن ذلك قول جرير

يمدح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

وَمَا كَعْبُ بْنُ أَمَامَةَ وَابْنُ سَعْدٍ بِأَكْرَمَ مِنْكَ يَا عُمَرُ الْجَوَادِ
تَعَوَّذَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ إِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزَمُ مُسْتَعَاذًا

فقال في القصيدة: يا ابن ليلي. وابن ليلي هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لأن

ليلى هي أمه فهم يمدحون هذا بهذا، ولهذا يقول:

تُورَثُنَ مِنْ أَزْمَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

إذا عَلِمَ هذا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد مدحه ربه، وأغناه مدح الله عز وجل عن مدح كل أحد حتى قال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وَزَكَّى سَمْعَهُ وَزَكَّى بَصَرَهُ وَزَكَّى مِنْهُجَهُ وَرَسَالَتَهُ وَدَعْوَتَهُ، وَقَالَ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

(١) أي: من كثرة الضيوف تعبت كلابهم فصارت لا تنبح، تعودت الناس.

(٢) الكباش، أي: سيد القتال، أو سيد الكتابة يبدؤون به في المعركة. فوصفهم بالكرم وبالشجاعة.

أَمْوَى ﴿النجم: ١-٣﴾. وقال له: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وذكر دعوته ومنهجه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عَلِمَ هذا فإنه لا ينبغي أن يُمدح ﷺ بأكثر مما أقامه ربه عز وجل من المنزلة، أو يُعالى فيه بأن يقال: شافني أو عافني.

ومن ذلك أن البرعي من اليمن، لما وصل إلى قبر رسول الله ﷺ قال:
يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا مَنْ ذَكَرُهُ فِي نَهَارِ الْحَشْرِ رَمَزًا وَمُقَامًا
فَأَقْلَنِي عَثْرَتِي يَا سَيِّدِي

وهذا شرك لا ينبغي؛ لأنه ﷺ لا يُحيي ولا يميت ولا يشافي ولا يقيل العثرة ولا يغفر الذنوب، إنما هو مبلغ ﷺ عن ربه، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ويذكر ابن العربي الصوفي - يذكر عن بعض المشايخ - يقول: أتيت المدينة فدخلت، فلما اقتربت فسلمت فمددت يدي فانشق القبر وسلم علي ﷺ وصافحني. وهذا كذب، حتى إنه نظم في ذلك بيتين، فقال:

فِي حَالَةِ الْبُعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا تَقَبَّلُ الْأَرْضَ عَنْكُمْ وَهِيَ رَائِدَتِي
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرْتُ فَأَمْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظِيَ بِهَا شَفَتِي

قال: فمد يده فقبلتها. وهذا كله كذب وزور، ورسول الله ﷺ قد بلغ الرسالة، وهوفي قبره حي ﷺ حياة تليق به، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، لكن يبلغه سلامنا وصلاتنا، يقول ﷺ: «أَكثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالُوا: كَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَقَدْ أَرَمْتُ^(١) ١٩. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ

(١) أي: بليت.

أَجْسَادُ الْأَنْبِيَاءِ». فهو ﷺ تُعرض عليه الصلاة ويرد الله عليه روحه، فيسلم على من سلم عليه، صلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، صلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون، وإنما قصدي بهذا أن بعض الناس يتوهم أنه إذا غالى وقال: إن رسول الله ﷺ يشافي ويُعافي ويجلب الضر والنفع، وإنني ذاهب إليه. كما يفعل بعض الناس الجهلة والمبتدعة، قال: أذهب إليه وأخبره أن ابني مريض فيشافي ابني، وأن زوجتي عقيم لعلها تنجب. كل هذا من الخرافات، رسولنا ﷺ عبد، ورسول، مهمته البلاغ من ربه بالوحي، وقد بلغ ﷺ وأدى ما عليه ونسأل الله أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى، حتى يقول:

هَذَا الَّذِي جَاءَ وَالْأَبْحَارُ مَالِحَةٌ فَمَجَّ فِيهَا فَصَارَ الْمَاءُ كَالْعَسَلِ
هَذَا الَّذِي رَدَّ عَيْنًا بَعْدَ مَا فُقِنْتُ وَرَيْقُهُ قَدْ شَفَى عَيْنَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

فهو لبركته ﷺ صارت آثاره مباركة، وليس هذا إلا له ﷺ، فلا يأتي أحد ويقول: إن بساطه أو بشته أو ثوبه أو سواكه. هذا للرسول ﷺ فقط، حتى ليس للصحابة رضي الله عنهم ولا لأئمة الإسلام، ولم يدعه أحد من الصحابة رضي الله عنهم، إنما هذا خاص بسيد الخلق ﷺ.



علو الهمة

الهمة العالية إذا وُجِدَتْ في الشخص بوَّأتَه
المنازل العالية، سواء في الدين أو في الدنيا،
والله ﷻ أعطانا أصول الهمة في القرآن، فقال:
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. لأن المطلوب من
الإنسان أن يكون أعلى، وميثاقنا ورسولنا ﷺ يقول
كما في الصحيح: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ
إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ».
فالمؤمن القوي تجده عالي الهمة، لا يرضى من
العبادة إلا أحسنها وأخلصها وأصدقها، وكذلك

لا يرضى بالأخلاق الدنيئة، وقد تبارى أهل الحرف وصناع الكلمة في إثارة الهمم وفي قدح العزائم، حتى يقول عليه السلام: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ». يقول الصحابة رضي الله عنهم: «حَتَّى فِي الدُّعَاءِ عَلَّمَنَا عليه السلام عُلُوَّ الْهِمَّةِ». فلا ترض بمجرد الجنة، بل اسأل الله الفردوس «فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطُ الْجَنَّةِ وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». الحديث. وقد سطر بعض الشعراء قصائد في همهم على اختلاف بينهم، فبعضهم صاحب همة الدنيا، مثل: المتنبى. يريد الدنيا يريد المنصب ويريد الشهرة، فيقول في قصيدة مائة رائعة:

أُطَاعُنْ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ	وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي	وَمَا تَبَتَّتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا	تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ دُعِرَ الذُّعْرُ؟ ^(١)
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَثِيِّ كَانَ لِي	سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عُنْدَهَا وَثْرُ ^(٢)
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًا وَقَيْنَةً	فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ ^(٣)

إلى أن يقول:

وَتَرَكْتُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلَ سَمْعُ الْمَرْءِ أَنْمَلُهُ الْعُشْرُ^(٣)

هذا مذهبه. لكن الشافعي يخالفه في قصيدة مائة رائعة، والشافعي يريد ما عند الله؛ لأنه عالم رباني من مدرسة محمد عليه السلام، الشافعي يختلف عن المتنبى، بلا شك أن المتنبى عبقرى في الأدب وفي صنع الكلمة وفي إرسال الحرف، ولكن الشافعي «وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» [آل عمران: ٧٩]. فالشافعي يقول:

- (١) الأثي: السيل. فإذا جاء السيل فلا يرد راد، فإن اعترضه جبل صعدته وإن واجه صخرًا طمَّه وإن مرَّ بشجرة اقتلعها.
- (٢) أي الموت بالحوادث والأزمات.
- (٣) يقول: يكون لك سهيل وجلجلة وصلصلة وزلزلة.



علو الهمة

أَمْطِرِي لُؤْلُؤًا - سَمَاءَ سَرْنَدِيْبَ - وَفِيضِي آبَارَ تَكَرُّورِ تَبْرَا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خُبْرًا وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا
هَمَّتِي هَمَّةُ الْمُلُوكِ، وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَدْلَةَ كُفْرًا

وساروا على ذلك يصفون لك علو الهمة، حتى إن الشوكاني يقول عن نفسه في كتابه (نيل الأرب): إن الذي شحذ همتي بيتان من الشعر. قرأهما وهو في الشباب.

فأحياناً تقرأ بيتاً يوردك الردي، وأحياناً تسمع قافية تشجعك على الخيل، حتى إنهم يرون أن معاوية رضي الله عنه رجع من صفين بعدما كاد يهرب حتى ذكره بعض الناس، وقال: كيف تهرب؟ وابن الإطالة يقول:

أَبَى لِي شِيْمَتِي وَأَبَى حَيَاتِي وَأَخَذَ الْمَجْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي - كُلَّمَا جَشِئْتُ وَجَاشْتُ -: مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

أما قول:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئْتُ وَجَاشْتُ مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي

فهي لقطري بن الفجاءة، وبعضهم ضبطه قَطْرِي والصحيح أنه قَطْرِي بن الفجاءة أبو نعامة:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشِئْتُ وَجَاشْتُ مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي^(١)
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبٍ عَزْ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْيُرَاعِ

(١) يقول لنفسه: لا تهربي، بل جاء وقت الموت فاثبتني.

فالشاهد أن الشوكاني يقول: إن الذي شجعني على طلب العلم والسهر وحفظ المتون بيتان حفظتهما للشريف الرضي- الشاعر المشهور- الذي يقول مخاطباً نفسه:-

أَقَسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حُرَّةً وَقَاحَةً تَحْتَ غِلَامٍ وَقَاحٍ
إِمَّا فَتَى نَالَ الْمُئْنَى أَوْ فَتَى زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَاحَ

إما أن أنال المجد أو أزور الردى وأموت، ولذلك نظمت أنا عليها بيتين، فقلت:
إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَا أَمَلْتَهُ نِلْتَ الْمُئْنَى وَالنَّجَاحَ
بِهِمَّةٍ تُخْرِجُ مَاءَ الصَّفَا وَعَزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ: أَحْ

لأن قول: أح. علامة الفتور والبرود والانهازم.

يقولون لعنترة: كيف تغلب الرجال وأنت جسمك جسم الرجال؟! قال: ضع إصبعك في فمي وأضع إصبعي في فمك. وقال: عض إصبعي وأعض إصبعك. ففعلاً حتى قال الرجل: أح. فسحب إصبعه وقال عنترة: بصبر ساعة غلبت الرجال. هذه هي الهمة أن تصاول الأحداث وتقف مستعيناً بالله عز وجل: لأن من صبر وواصل واستمر، فسوف ينجح بإذن الله عز وجل، حتى إنهم يقولون: لما أسرع الفرس ركبته الملوك، ولما أبطأ الحمار جعلوه للأحمال، حتى يقول الشاعر:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَوْ حِمَارُ

وقد زرنا حديقة الحيوان في أندونيسيا قريباً من (جاكرتا) فوجدنا كل الحيوانات بأشكالها وألوانها؛ الأيل والغزال والفهد والعجماوات والنسور، ولما أتينا إلى الأسد وإذا رجال الأمن واقفون عنده بسياراتهم وإذا هو بارك على مكان مرتفع كأنه على عرش وإذا هو ينظر بعينيه ويحملق في الناس، قلت: حق لك أن تكون ملك الغابة.

علو الهمة

ولذلك، فإن الله عز وجل لما وصف المشركين قال: ﴿كَانَ لَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ۖ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]. والقسورة: الأسد. ومن أسمائه: القسورة، والليث، والغضنفر، وأسامة، وحيدرة، والهزبر. وأسماء كثيرة، يقولون: إذا عَظُمَ الْمُسَمَّى كَثُرَتِ الْأَسْمَاءُ. ولذلك فالله أعظم من كل عظيم، وله تسعة وتسعون اسماً عز وجل عظيمة كلها جليلة.

وبالمناسبة، فمن أسمائه: حيدرة. حتى إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يسمونه حيدرة الذي يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّنِي أُمِّي حَيْدَرَهُ كَلَيْتَ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمُنْظَرَهُ
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهُ

فإذا اجتمع الجَدُّ والجَدُّ فذلك الخير، فالجَدُّ هو الحظ والجَدُّ هو العمل والسعي والكسب، يقول المتنبي:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

يقول: هو حظ من الله أن أعطى سيف الدولة وجعله يفوز على الناس وعلى الملوك بحظ عظيم، لأنه يقول:

هَنِيئًا لَكَ الْغَيْدُ الَّذِي أَنْتَ عَيْدُهُ وَعَيْدٌ لِمَنْ زَكَّى وَصَلَّى وَوَحَّدَا

ومطلع القصيدة يقول فيها:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا

وهي تدل على الهمة العالية، ويصفه بالبحر وأنه هائج في تقدمه، يقول:

هُوَ الْبَحْرُ خَضَّ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا عَلَى الدَّرِّ وَاحْدَرَهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا

إلى آخر ما قال، فقصدي أن الجَدُّ إذا اجتمع مع الجَدِّ بلغ الإنسان من الرقي مبلغاً عظيماً. وأذكر أن إسحاق بن يونس قيل له: ما النجاح؟ قال: يقوم النجاح

على ثلاثة أركان: العمل، ثم العمل، ثم العمل. مثلما قيل لنا بليون: ما هي شروط كسب المعركة؟ قال: تُكسب المعركة بثلاثة شروط: بالمال، ثم المال، ثم المال. وهذا من الأجوبة الذكية، وقد مر معنا أخبار كثيرة، لكن أذكر على سبيل المثال أن أبا إسحاق الشيرازي من علماء الشوافع، وهو صاحب (المجموع شرح المذهب). يقول: واللّه إنني كنت أكرر الدرس، قبل أن أشرحه لطلابي مئة مرة. تفرغ للعلم وحياته كلها علم، قال: واللّه إنني كنت أعيد القياس بالقياس ألف مرة. حتى نحل جسمه وصار عالم الدنيا، يقول فيه الشاعر:

تَرَاهُ مِنَ الذِّكَاةِ نَحِيلَ جِسْمٍ عَلَيْهِ مِنْ تَوْقُودِهِ دَلِيلُ
إِذَا كَانَ الْفَتَى ضَخْمَ الْمَعَالِي فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الْجِسْمُ النَّحِيلُ

ولذلك فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحيل الجسم، لكن انظر ماذا فعل بعمله؟! في الهجرة الأول وفي الجهاد وفي الصدقة وفي الذكر وفي الصلاة، وفي الخطابة وفي الإنفاق، حتى استحق أن يكون الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وسُمي بالصديق، وذكّر وصفه تنويهاً بالقرآن وصار في المرتبة الأولى أفضل الصحابة رضي الله عنهم، فأخبره عزيمة.

والإمام أحمد طاف الأقاليم في طلب الحديث، سافر إلى صنعاء ماشياً وفي طريقه معه إسحاق بن راهويه يقول: دعنا نمر نأخذ عمرة بالبيت. ماذا يريدون في صنعاء؟ يريدون العالم المحدث الكبير عبد الرزاق بن همام الصنعاني، فخرجوا بنية أن يصلوا إليه في صنعاء، وفي أثناء طريقهم - بين بغداد واليمن - قال للإمام أحمد: دعنا نمر بالبيت ونعتمر. فمروا بالبيت وهم يطوفون وإذا عبد الرزاق بن همام الصنعاني أتى للعمرة وقربّه الله لهم في مكة، قال إسحاق: يا أحمد، هذا عبد الرزاق قد حضر وقد قرب الله علينا المسافة وسهل علينا. قال أحمد: لا والله أنا لا أبطل نيتي التي خرجت بها، والله لا أطلب الحديث عنه، حتى يعود إلى صنعاء وأذهب. فلما عاد رجع الإمام أحمد وسافر لليمن، ومشى

علو الهمة

في الطريق وانتهت نفقته واشتغل مع الحصادين يحصد الزرع بأجرة، وذهب بالأجرة وطلب الحديث وواصل التعليم وواصل نشر العلم والفائدة، حتى إنه صار عالم الدنيا.

وقرأت عن ابن حبان المحدث الكبير صاحب الصحيح، يقول: لعلني رويت عن ألفي شيخ. طاف الأقاليم كلها: الحجاز، ومصر، والشام، والجزيرة، واليمن، وخراسان، وما وراء النهر. فروى عن ألفين من العلماء، قال الذهبي: لله در الهمم. لأن هذا يبلغ به أن يطوف على هؤلاء جميعاً ويسجل أحاديثهم ويكتبها، أمر عجيب!

ومنهم سيبويه، فإنه لما تُوفي قال أهل السير: عمره كان (٣٧ سنة). لكن العبقريّة لا تعترف بعمر، بعض الصحابة رضي الله عنهم توفي دون الثلاثين، لكنه ترك علماً، قدم جهاداً، قدم خيراً ونفعاً، معاذ بن جبل رضي الله عنه عمره (٣٢ سنة) في بعض الروايات وهو قائد العلماء يأتي أمام العلماء يوم القيامة برتوة، أي: رمية حجر. يقودهم إلى جنات النعيم، هذه همهم التي سجلوا بها وأثروا بها في الناس، البخاري يقول: ما كتبت حديثاً في الصحيح - عند تبييض - الحديث إلا توضأت وصليت ركعتين واستخرت الله. توضأ عند كل حديث واستخار الله وصلى ركعتين! همة تنطح الثريا وعزم نبوي يزعرع الجبال، فنحن بحاجة إلى همة، يقول الشاعر:

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تُدْرِكَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ^(١)

يقول شوقي:

وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابًا

فالمسألة مسألة المغالبة والمصارحة هي لك أو لأخيك أو للذئب، فالسوق مناهبة، فلا تظن أن من نام سوف يدرك المجد، بل يدرك المجد من قام حتى إن المتنبي يقول - عمّن يمدحه -:

(١) الصبر: نوع من الثمر المر.

إِذَا تَغَلَّغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

وفي بيت آخر يقول:

قَلِيلُ سَهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يُؤَزِّقُهُ فِيمَا يُشَرِّفُهُ الْفِكْرُ

يقول: لا ينام مثلاً ينام الناس، تراه يتقلب في المنام يفكر في أشياء ومشروعات يفتتحها، يفكر في خير في النهار، يفكر في أمر يحدثه، فيه نفع لنفسه وللناس، يكون الله عز وجل عنك راضياً وتكون أنت راضياً عن نفسك ويكون من حولك راضين عنك، وتقدم عملاً نافعاً لغيرك، هذا هو النجاح، فيمدح الممدوح هذا بأنه قليل النوم يفكر فيما يرفعه وفيما يُعلي قدر الإنسان، وترى الناس سواسية من لحم ودم لكل واحد عيان ولسان وأذنان وشفطان ورجلان ويدان، لكن هناك الهمة تمر الهمة مر السحاب ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

حتى إن ابن الجوزي قال: إن بعض الناس يرضى بأن يحفظ قصار المفصل؛ قصار السور. وبعضهم يقول: جزء يكفيني. وبعضهم لا يرضى إلا بالقرآن كله، وبعضهم يقول: القرآن والقراءات السبع معها، وبعضهم يحفظ أحاديث الصحيحين وغيرها وغيرها، فيزداد من الخير. ولذلك فدرجات الجنة بحسب الهمم، فنسأل الله الهمة العالية.



المنظومات

المنظومات في العرب غير القصائد وهي
الأراجيز، والأرجوزة بحر خفيف تُنظم فيه العلوم
والفنون، ولذلك لخفته يُسمونه: حمار الشعراء.
كل ينظم عليه، حتى إن ابن مالك نظم عليه
الألفية في النحو، وقال:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكٍ

أَحْمَدُ رَبِّيَ اللَّهُ خَيْرَ مَالِكٍ

وبعض الشعراء يستخدمه في قصائده
ليس نظماً، لكن لخفة هذا البحر بحر الرجز،

ويأخذونه في المعركة، فالأبطال إذا برزوا لخفة هذا البحر يستخدمون أبياته في المعركة، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرَهُ كَلَيْتَ غَابَاتٍ كَرِيهِهِ الْمَنْظَرَهُ
أَكِيلُكُمْ بِالسَّيْفِ كَيْلَ السَّنْدَرَهُ

وهذا أحدهم يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مُجَرَّبُ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَنْهَبُ

ويقول الأحنف بن قيس: إنه كان في خراسان يجاهد في سبيل الله، فأخذ الراية وقال:

إِنَّ عَلَى رَأْعِي اللِّوَاءِ حَقًّا أَنْ يُخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تَنْدَقَّا

يقول: إن الواجب على القائد إذا أخذها أن يأخذها بحقها، إما أن يخضب الصعدة (الحرية) أو تندق في يمينه، وإن لم يقم بهذا الحق، فلا يحق له أن يكون قائداً، ومن أحسن المنظومات المقصورة لابن دريد التي يقول فيها:

يَا ظَبْيَةَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِأَلْمَهَا تَرَعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا

جاء فيها بأبيات من الحكمة ومن الفهم ومن العمق، حتى يقول فيها:

وَأَنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى
وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَا

فجاء بهذه الأمثال والحكم وضمنها مقصودته، وبعض الأقران حسده على منظومته؛ لأنها انتشرت بين الناس. وأحدهم عارضه، فقال:

مَنْ طَبَخَ الدِّيكَ وَلَمْ يَذْبَحْهُ فَرَمَنِ الْقَدْرِ لِحَيْثُ انْتَهَى

كي يُضْحِكَ النَّاسَ عَرَضَ بِمَقْصُورَةِ ابْنِ دَرِيدٍ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى حِكْمَةٍ، فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَخَذَ الدِّيكَ وَهُوَ حَيٌّ وَوَضَعَهُ فِي الْقَدْرِ يَفْرُ.

مَنْ دَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ مَسَلَّةٌ ^(١) فَسَلَّهُ مِنْ سَعَتِهَا عَنِ الْعَمَى
وَحَمَلُ تَمَرٍ مِنْ حُمُولِ بَرٍّ أَفْضَلُ لِلْمَسْكِينِ مِنْ حَمْلِ النَّوَى

يقول: التمر أفضل من النوى، أراد أن يسخر من ابن دريد.

ويقول ابن مالك في الألفية:

وَالْأَصْلُ فِي الْأَخْبَارِ أَنْ تُؤَخَّرَا وَجَوُزُوا التَّقْدِيمَ إِذْ لَا ضَرَرَا

أي: الأصل في الخبر مجيئه بعد المبتدأ، نحو: محمد كريم. كريم خبر فلا تقدم الخبر على المبتدأ، وجوزوا التقديم (إذ لا ضررا)، كأن يتقدم الجار والمجرور نحو: في البيت محمد. فإن محمداً هنا صار مبتدأ مؤخرًا، فقال أحدهم ينظم:

وَالْأَصْلُ فِي الْأَخْبَارِ أَنْ تُطْمَرَا وَجَوُزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لَا ضَرَرَا

فالأصل في الخبر أنك تضعه على الجمر، ولكن لو وضعت قليلاً من العجين، فلا بأس بذلك.

أحدهم اسمه عامر الأنبوطي ردَّ على ابن مالك، فقال:

يَقُولُ عَامِرٌ هُوَ الْأَنْبُوطِيُّ أَحْمَدُ رَبِّي لَسْتُ بِالْقَنُوطِ
الْأَصْلُ فِي الْأَخْبَارِ أَنْ تُقْمَرَا وَجَوُزُوا التَّرْقِيقَ إِذْ لَا ضَرَرَا
وَصُبَّ شَاهٍ مِنْ عَلَى الْبَرَادِيِّ وَاصْبِرْ لَهُ فِي سَاعَةِ الْمُرَادِ
وَكَمِّهِ وَغَطِّهِ بِالْمَنْشَفَةِ وَاصْبِرْ لَهُ فِي سَاعَةِ وَاسْتَعْلَفِهِ

(١) أي: إبرة.

هذا كله تضییع للوقت وإضحاك للإخوة، حتى تستمر النفوس على طلب الحق.

بعض الساسة كتب تقريره السياسي الذي رفعه لدولته بأراجيز، فمثل الیمن لدى دول عدم الانحياز الإمام أحمد بن حمید الدین رفع تقريره بأرجوزة؛ لأن الیمن لم تكن على وفاق مع جمال عبد الناصر، بينهم خلاف، وكان جمال معه تیتو ونهرو، فيقول ممثل الیمن:

هَاتِ التَّحِيَّهَ وَكَذَا سَلَامِي	أَرْفَعُهُ لِحَضْرَةِ الْإِمَامِ
وَالْعَالَمُ الثَّلَاثُ فِي نِزَاعٍ	مُخْتَلِفُ الْأَهْوَاءِ وَالْأَطْمَاعِ
قَدْ دَعَا إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاصِرِ	مِنْ أَجْلِهِ تَيْتُو وَعَبْدُ النَّاصِرِ
يُصَارِعُ الْقُنْبُلَةَ الذَّرِيَّةَ	بِجَزْمَةٍ فِي رَجْلِهِ قَوِيَّةَ
وَفِي الْوُفُودِ غَايَةً عَيْنِيَّةَ	أَظْنُهَا مِنْ أَسْرَةٍ غَنِيَّةَ
تَلْمَحُهُ الْأَبْصَارُ بِالتَّوَالِي (١)	وَبِالْخُصُوصِ مِنْ سَفِيرِ مَالِي

وأذكر مرة أني نظمت قصيدة على ألفية ابن مالك وقد سمعها بعض العلماء والفضلاء، قلت فيها:

وَلَا يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنَّكْرِهَ	وَمَنْ أَجَارَ ذَاكَ فَهُوَ بَقَرَهَ
--	--------------------------------------

فإن ابن مالك يقول:

وَلَا يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنَّكْرِهَ	مَا لَمْ تُفِدْ كَ: عِنْدَ زَيْدٍ نَمْرَهَ
--	--

لكن العلماء استخدموا بحر الرجز في نظم العلوم، حتى إن الصنعاني نظم بلوغ المرام، وأنا ضد أن يُنظم كلامه ﷺ لأن كلامه أجمل من كل كلام وأجمل من كل شعر، وأجمل من كل أدب وأجمل من كل خطابة، كلامه ﷺ الذي يقول:

(١) أي: ممثلة غانا، أو غينيا.

«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». أفصح من نطق بالضاد، كيف تنظم كلامه ﷺ؟ لكن هذا اجتهد حتى يحفظ، فالصنعاني نظمها، فيقول:

حَمْدًا لِمَنْ بَلَغَنَا الْمَرَامَا وَزَادَنَا مِنْ فَضْلِهِ إِكْرَامَا
ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ تَتَرَى مَا سَرَى بَرَقَ عَلَى طَيْبَةٍ أَوْ أُمِّ الْقُرَى
مَعَ السَّلَامِ يَغْشِيَانِ أَحْمَدَا وَإِلَهُ الْمُسْتَثْمِرِينَ الرُّشْدَا

وبدا ينظم، ويتم المتن في بلوغ المرام، حتى يقول:

أَمَّا إِذَا رَأَى الْمَاءَ عَلَى الْمَرَافِقِ فَالِدَارِ قَدْ ضَعَفَهَا وَالْبَيْهَقِي (١)
وَضَعَفَ الْكُلُّ حَدِيثَ الْبُسْمَلَةِ عَلَى الْوُضُو وَضَعْفُوا مَنْ نَقَلَهُ

لأن في الحديث إدار الماء على المرافق، وأنا رددت عليه، بعدما قرأت صحة الحديث في السند، قلت:

وَصَحَّحَ الْبَعْضُ حَدِيثَ الْبُسْمَلَةِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ - أَيْضًا - وَصَلَهُ

فهم ينظمون العلوم في منظومة؛ حتى يحفظها طالب العلم، فينظمون النحو والفرائض وأصول الفقه، ونحو ذلك.

والحريري له منظومة في النحو جميلة نحو (٤٠ بيتًا) يقول -من ضمن أبياتها-:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ فَحَسَّ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عَلَامَةً

لأن الاسم له علامة فيدخل عليه الجر والندا وأل، ولل فعل علامة على الماضي والمضارع والأمر، بابها في باب النحو، لكن الحرف ليس له علامة.

(١) الدار، هو: الدارقطني.

وأذكر أن طالباً حفظه أبوه بعض الآيات هذه كان في الابتدائي فدخل مفتش عندهم، فقال المفتش للطالب: كيف تُفَرِّق بين الحرف والفعل والاسم؟ فقال الطالب:

وَالْحَرْفُ مَا لَيْسَ لَهُ عِلَامَةٌ فَحَسَّ عَلَى قَوْلِي تَكُنْ عِلَامَةٌ

فقال المفتش: سوف أقيس على قولك، وتكون علامة في المستقبل إن شاء الله.

فبعضهم يحفظ العلوم، حتى يقول أحد الناطمين في بعض مسائل النحو:
كَانَ وَأُضْحَى ثُمَّ صَارَ أَصْبَحَ لَيْسَ وَأَمْسَى انْفَكَ زَالَ بَرِحَا
وهذه كان وأخواتها، هذا في نظم النحو.

وأحسن من نظم النحو صاحب الخلاصة ابن مالك الأندلسي، فإنه فُتِحَ عليه في هذه وأوتي قبولاً من صحة نيته، فكان عابداً زاهداً والله عز وجل نسب له القبول في هذه المنظومة، جاء بأشياء فيها من الولاء لله ولرسوله ﷺ حتى يقول:
تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَأَ اسْمًا وَالْخَبَرَ تَنْصِبُهُ كَانَ سَيِّدًا عَمْرُ
يقولون: إن بعض الشيعة سمع البيت وشرحه، فقال:

تَرْفَعُ كَانَ الْمُبْتَدَأَ اسْمًا وَالَّذِي يَلِي كَانَ سَيِّدًا عَلِي

فيريد أن يأتي بهذا، وعلي ﷺ فاضل وعمر ﷺ فاضل رضي الله عنهم جميعاً وجمعنا وإياهم في دار الكرامة، ما دام الله رضي عنهم وزكاهم وعدلهم، وصاحبوا رسول الله ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم، ويقول ابن مالك يرد على المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يُرى في الآخرة.

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فإن الزمخشري قال: لن تراني، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأهل الاعتزال يرون أن رؤية الله لا تكون في الدنيا ولا في الآخرة، والسنة يرون أن الله لا يرى في الدنيا ذلك أنه يقول لموسى ﷺ ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾. لكن في الآخرة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال عز وجل عن أعدائه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما حجب عن أعدائه دل على أن أوليائه يرونه. فتسأل الله أن يرينا وجهه الكريم في جنات النعيم، فيقول ابن مالك:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

مؤبداً دائماً في الدنيا والآخرة. فاردده واعضد قول أهل السنة؛ لأن لن لا تفيد التأييد في النفي، لكنها تفيد النفي حتى أمر مؤقت، فاعضد سواء وهو قول الحق، فانظر كيف نظم هذا في منظومته؛ لأن منهجه كان سديداً في ذلك، فاتاه سعة وقبولاً في هذا الأمر.

وأذكر من المعاصرين ممن أجاد النظم الشيخ حافظ الحكمي وهو علامة نابغة إلى درجة العبقرية، مات وعمره (٣٧ عاماً) وألف ما يقارب أربعين كتاباً، ومن ضمن نظمه في العقيدة، قوله:

وَالْمَوْتُ فَادْكُرْهُ وَمَا وَرَاءَهُ	فَمِنْهُ مَا لِأَحَدٍ بَرَاءَهُ
وَإِنَّهُ لَلْفَيْصَلُ الَّذِي بِهِ	يَنْكَشِفُ الْحَالُ فَلَا يَشْتَبِه
خُذْ وَاصِحِ الْحِلِّ وَدَعْ مَا اشْتَبَهَا	مَخَافَةَ الْمَحْذُورِ يَا مَنْ فُقِهَا
وَارْهَدْ بِدُنْيَاكَ وَأَقْصِرِ الْأَمَلَ	وَأَجْعَلْ لِرُوحِهِ اللَّهِ أَجْمَعَ الْعَمَلَ
لَا تَحْتَقِرْ شَيْئاً مِنَ الْمَآثِمِ	وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِمِ
وَمَنْ لِقَاءَ اللَّهِ قَدْ أَحَبَّ	كَانَ لَهُ اللَّهُ أَشَدَّ حُبًّا
وَعَكْسُهُ الْكَارُهِ فَاللَّهُ اسْأَلْ	رَحْمَتَهُ فَضْلاً وَلَا تَتَكَلَّ

ثم يقول:

وَالْقَبْرِ رَوْضَةً مِنَ الْجَنَّاتِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّيِّرَانِ
إِنْ يَكُ خَيْرًا فَاَلَّذِي مِنْ بَعْدِهِ أَهْوَنُ عِنْدَ رَبِّنَا لِعَبْدِهِ
وَإِنْ يَكُنْ شَرًّا فَمَا بَعْدُ أَشَدُّ وَيَلُ لِعَبْدٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ صَدُّ

وينظم المتن ويأتي بالأحاديث بنصها وفصها بسلاسة أعذب من شهد العسل إذا مزجتها بماء الغمام بارداً، ثم مززته مزراً، وهذا ميزة الذكاء في هذا العالم (٣٧ سنة)، حفظ القرآن في شهر، شهد له العلماء زملاؤه، فقالوا: نشهد أنه كان يقرأ جزءاً في النهار فيحفظه ويصلي بنا في الليل في التراويح وهو شاب ولا يخرم حرفاً واحداً، وكان يحفظ المنظومات والقصائد في ذهنه، وكان يفتي ويرد على المسائل، ومات وهو في (٣٧ سنة) وقد أصبح عالماً من أكبر العلماء، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالساً في المسجد، بعد صلاة العصر، بعد صلح الحديبية، والصلح ألا يُنْقِضَ العهد لا من الطرف هذا ولا من الطرف هذا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوفاء وهو أصدق الناس وأوفاهم، وإذا برجل أناخ جملة في طرف المسجد اسمه عمرو بن سالم، وهو من خزاعة؛ لأن خزاعة اتفقوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبكر مع قريش، ونزل وقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حِلْفَ أَبِيْنَا وَأَبِيكَ الْأَثَلَدَا
فَانْصُرْ - رَعَاكَ اللَّهُ - نَصْرًا مُزْبِدَا وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِي فَيْلَقٍ مِثْلَ الصَّرِيمِ سَرْمَدَا إِنَّ قُرَيْشَ أَخْلَفُوكَ الْمُوعِدَا
وَنَكُتُوا مِثْلَ ثَقَلِ الْمَوْكِدَا وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجْدَا

المنظومات

قال ﷺ: «نَصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ». ثم نظر ﷺ في السحاب فاستنزل النصر من الله، فنصره الله نصراً مؤزراً، وفي الطريق أنزل عليه، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]. نصرٌ ما سمع التاريخ بمثله، نصر أوقف الزمان، نصر صفقت له الدنيا، وفتحت له أبواب السماء، نصر سجله ﷺ أبد الدهر، وكان ابن رواحة رضى الله عنه يقول - في مجلسه ويُنشد بين يدي الرسول ﷺ -:

وَاللَّهُ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا

قال ﷺ: اهتدينا.

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

قال ﷺ: صلينا.

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

قال ﷺ: علينا.

وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا

قال ﷺ: لاقينا.

فهذا من بحر الرجز البحر الخفيف، الذي يتناشده الناس، وعسى الله عز وجل أن تُنظَّم منظومة في الآداب، كما نظم بعض العلماء كابن شرف وغيره منظومة في الآداب والأخلاق، وأنا أفكر في ذلك، لكن الهمم صغرت على الناس وشغل الناشئة والشباب بسبب ما جد في هذا العصر، فإذا الإنسان أقبل بهمة وبحافضة قوية وأقبل على المعرفة والعلم فتح الله عليه، وترون سلفنا كيف سجلوا أروع

القصص في حفظ المتون وفي حفظ المنظومات وحفظ الأشعار، حتى إن لبيد
لما دخل على النعمان بن المنذر يقول:

وَنَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةَ وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ
الْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدْعَدَةَ وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةَ

إلى أن انتهى من القصيدة.



العلماء والشعر

للعلماء شعر، ولم يمنعهم العلم وحفظ
المتون وشرح النصوص من أن يبدعوا القافية،
ويرسلوا الحرف الجميل لمقاصد عالية من
التربية والتهديب والتوجيه، ومن أشهر من مرَّ
معنا في تاريخ العلماء عبد الله بن المبارك،
فقد كان شاعراً لبيباً حكيماً زاهداً مجاهداً
منفقاً محدثاً، حتى يقول الذهبي: كان أصحابه
يجتمعون في غيابه ويقولون: تعالوا نَعُدْ مناقب
عبد الله بن المبارك. وهو من أهل خراسان من
مرو، زار الفضيل بن عياض عابد الحرمين في
الحرم، فسمع بداعي الجهاد في سبيل الله جهة
عمورية، فخرج من الحرم، وقال:

بُغْضُ الْحَيَاةِ وَخَوْفُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي وَبِيعَ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتْ لَهُ ثَمَنًا
إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْقَى لِيَعْدِلُهُ مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلَا وَاللَّهِ مَا أَتَزَنَّا

وذهب إلى خراسان يعلم الجيش ويفتيهم في الليل، يقول أحد أصحابه:
لمحت ابن المبارك ليلة ونحن نجاهد الروم في ليلة ماطرة فتركنا حتى نمنا
فقام يصلي ويقرأ: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] حتى أصبح وهو يبكي. ولما
قام جاهد، فأرسل له الفضيل رسالة من الحرمين: إنك تأخرت علينا وإنك تركت
الصلاة بالحرم بمئة ألف صلاة والإفتاء والتعليم، فرد عليه ابن المبارك:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنَحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رَوْحُ الْبُخُورِ لَكُمْ وَنَحْنُ بِخُورُنَا رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الْأَطْيَبُ

فمثل هذا الشعر الماتع والشعر القوي جمعه مع الحديث ومع الفقه والفتيا.
وقد لا يُمدح الشاعر كثيراً إذا تفرَّد في حياته؛ لأنه تخصص للشعر، لكن أن
يأتي عالم ويجمع مع الفقه والحديث والتفسير شعراً وأدباً جميلاً، فهذا يدل على
النبوغ، ويدل على الريادة.

فهذا ابن المبارك يوصي طلابه وإخوانه:

إِذَا صَحِبْتَ قَوْمًا أَهْلًا وَدٍ فَكُنْ لَهُمْ كَذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ
وَلَا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِلا رَفِيقِ

يقول: لا تبحث عن العيوب، وتكون كشافاً لعثرات الناس، بل اجبر الخاطر
واستر، واغفر الزلة وتغافل؛ فإنك سوف تظفر بإخوان إذا قبلتهم على ما فيهم.
وكان يقول:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدَّهْرَ فَأَصْحَبْ مَا جَدَا ذَا عَفَافٍ وَحَيَاءٍ وَكَرَمٍ
قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: لَا. إِنْ قُلْتَ: لَا وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ

فالأخ الموافق والصاحب الموافق دائماً يُسعدك، ولا يُحبُّ الخلاف، تقول: ننزل في هذا المكان؟! يقول: حباً وكرامةً. تقول: ما رأيكم أن ننام في هذا المكان؟ فيقول: أحسنت، رأيي سديد؛ لأنها أمور تقبل الاجتهاد وليست أمور عقائد يكون الخلاف فيها كفراً، فما دامت أموراً اجتهادية فاقبل ولا تخالف؛ لأن بعض الناس يحب الخلاف، يقول الشريف الرضي:

مَشْغُوفَةٌ بِالْخِلَافِ لَوْ أَقُولُ لَهَا: يَوْمَ الْغَدِيرِ. لَقَالَتْ: لَيْلَةَ الْغَارِ

فهو حب الخلاف فقط وحب الاعتراض، ومن أبيات ابن المبارك التي يقولها:

هَبَّتِ الرِّيحُ مِنَ الشَّرِّ قِ فَجَاءَتْ نِيَّ بَرِيحِكَ
كَيْفَ أَنْسَاكَ وَرُوحِي صُنِعْتَ مِنْ جِنْسِ رُوحِكَ

إلى آخر تلك القائمة الجميلة من أبياته.

وأما العالم الآخر الذي أتى بعده وكاد يدركه، فهو الإمام الشافعي محمد بن إدريس، وهو- على الإطلاق- من أذكى العلماء إن لم يكن أذكاهم، بعد الصحابة رضي الله عنهم وأنبغهم وأبلغهم وأفصحهم غفر الله له وجمعنا الله به في الفردوس الأعلى.

يقول في قصيدة:

أَمْطِرِي ثُلُوثًا سَمَاءَ سَرَنْدِيبٍ^(١) وَفِيضِي آبَارَ تَكْرُومٍ تَبْرًا
أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ حُبْرًا وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا
هَمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرِّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرًا

معنى الأبيات: يا سماء سرنديب، أمطري ما شئت فأنا لا أريد الجواهر والدرر، وفيضي آبار تكرور تبرًا، أي: فيضي ما شئت من هذا الذهب، لا أريده. وأنا يكفيني رغيف وقبر إذا مت أدفن فيه، فهمتي عالية مثل همة الملوك، مثل همة الأسود ترى المذلة كفرًا، هذه فلسفته في الحياة، وهو كاد أن يكون من أشعر الشعراء، لكنه توجه إلى العلم والتفسير والفقه والحديث، حتى يقول:

وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدٍ

يقصد: لبيد بن ربيعة الشاعر المشهور من بني عامر بن صعصعة، الذي وفد وافدهم على الرسول فمدح الرسول ﷺ، وقالوا: أنت خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا وسيدنا. فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَبَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَدْرِجَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ».

فلبيد هذا من أشعر الشعراء على كل حال، وقومه بنو عامر بن صعصعة وفدوا على النعمان بن المنذر، وكان مستشار النعمان بن المنذر الربيعي بن زياد العبسي، وكانت بين عبس وبين بني عامر بن صعصعة أزمة وسوء تفاهم وعداوة، فأوغر الربيعي العبسي صدر النعمان بن المنذر على بني عامر، وقال: كل القبائل استقبلهم إلا قبيلة بني عامر؛ لأنهم ينالونك ويؤذونك. وهذا المجلس السوء أوغر صدره، فأنت القبائل فقال النعمان للوفود: أدخلوهم. فدخلوا إلا وفد عامر بن صعصعة قال: احببوهم؛ لأنه أوغر صدره مستشاره الوزير العبسي الربيعي بن زياد، فرجعوا إلى رحالهم مكسوفي الحال وهو معهم غلاماً ما زال صغيراً، أعني

(١) جزيرة سرنديب التي يستخرج منها الأحجار الكريمة والمجوهرات والدرر.

لبيد بن ربيعة، فقالوا: رجعنا من عند الملك وطررنا. فقال: أدخلوني أنا غداً عليه. ثم بدأ يرتجز، قالوا: نحن عجزنا وأنت تقدر؟! قال: أدخلوني غداً عليه، اتركوا الأمر لي. قال سيدهم: إن كان نام فليس بصاحبنا - لأن الحر إذا اهتم بأمر لم ينم لبيل - وإن كان يترفض، كما تترفض الحية على الرمضاء، فاعرفوا أنه صاحبنا يستطيع أن يدخل. فلمحوه بالليل فإذا هو يتقلب، ينام قليلاً على اليمنى ثم يميل على الجهة اليسرى، فأخبروا سيدهم فقال: هو صاحبنا. فطَبَّوْهُ وألبسوه لباساً أبيض وعمموه ومشى معهم في الوفد، وقال: فقط اتركوني على البساط. ثم أخذ يتسلل بين الناس، حتى وقف قبل النعمان، قال النعمان: من أنت؟ قال -وفي أولها-:

أَكُلْ يَوْمَ لَمْتِي مُقَزَّعُهُ	إِنْ بُعِيدَ الضِّيقِ يَأْتِيكَ السَّعَةُ
نَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةَ	وَمِنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ
الضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةَ	وَالْمُطْعَمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدْعَدَةَ

الجفنة المدعدة: الجفنة الكبيرة عليها الثريد واللحم والبر.

وقال الأصمعي: الخيضة: الجلبة، إذا اشتدت المعركة وازدحمت الصفوف، أي: نضرب بالسيوف. ثم قال هجاءً مرةً في الربيعة بن زياد وسبه وكَرَّهَ النعمان فيه، فقال النعمان للربيعة بن زياد: اخرج. قال: افترى عليّ. قال: قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً، يعني قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبًا فَمَا اعْتِدَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلَا

فعلا نجم لبيد في تلك المرحلة وهو شاعر -بلا شك- مجيد، حتى دخل الإسلام وأسلم، ثم تاب من قول الشعر ونذر نذراً إن قال بيتاً أن يُعتَقَ رقبة، حتى إنه في سكرات الموت قال أربعة أبيات فأمر أن تُعتَقَ أربع رقاب، وهو الذي يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبًا لَا

أما شعر الشافعي فكان أكثره في النصائح وفي التوجيه، وهو الذي يقول لأحمد بن حنبل:

تَعَمَّدَنِي بِنُصْحِكَ بِأَنْفِرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنْ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهُ
أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهُ
وَأَكْثَرُهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمَعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبُضَاعَةِ

ومن هذه الأبيات الجميلة الخفيفة كثير.

وهو فيلسف الكرم، فيقول: الكريم تُغَطِّي عيوبه. ولذلك فإن السخي الجواد يُسامحه الناس بزلاته:

يُغَطِّي بِالسَّمَاحَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ
وهو من قصيدة طويلة يقول فيها:
أَمَّا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
يُغَطِّي بِالسَّمَاحَةِ كُلَّ عَيْبٍ وَكَمْ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ

حتى يذكر الجاحظ وغيره من الأدباء أن السخي تتحول ذنوبه بين الناس حسنات. فلكرمه وجوده على الناس وسخائه إذا أكثر من الكلام قالوا: سبحان الذي أعطاه الفصاحة! وإذا سكت وكان عيياً قالوا: سبحان الله! كيف أعطاه الله

العلماء والشعر

الحكمة والصمت. وإذا لبس جديداً، قالوا: سبحان الله! يحب أن يرى أثر نعمته ربه عليه. وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله! حتى اللباس تواضع فيه. وإذا كان عجولاً قالوا: سبحان الله! جادّ مثل السيف بتار. وإذا كان بطيئاً قالوا: كالجمل راسخاً.

أما البخيل فيحولون محاسنه إلى خسائر، فإذا كان صموتاً، قالوا: سبحان الله! أصابه الله بالعي، الله عز وجل خذله حتى في الكلام فلا يتكلم. وإذا تكلم قالوا: كلامه هذر بلا فائدة. وإذا لبس جديداً، قالوا: أحشفاً وسوء كيلة؟ وإذا لبس قديماً، قالوا: سبحان الله ابتلي بمصيبتين: مصيبة البخل، ومصيبة هذه البهذلة وهذه الثياب الممزقة. وإذا كان عجولاً، قالوا: سبحان الله! طائش ما أخف عقله! وإذا كان ثقيلاً، قالوا: سبحان الله! ما أبرد أعصاب هذا الرجل وأثقل دمه!

وعند الترمذي: «السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس».

وممن يُعرف من الشعراء المتأخرين، بل هو عالم شاعر واستحسن شعره وتابعت كثيراً من قصائده، ابن القيم - تلميذ ابن تيمية - له أبيات خاصة الميمية، يقول فيها:

أَمَّا وَالَّذِي شَقَّ الْقُلُوبَ وَأَوْ	جَدَ الْمَحَبَّةَ فِيهَا حَيْثُ لَا تَتَصَرَّمُ
وَحَمَلَهَا جُهْدَ الْمُحِبِّ وَإِنَّهَا	لَتَعْجُزُ عَنْ حَمْلِ الْقَبِيصِ وَيَعْلَمُ
لَأَنْتُمْ عَلَى بُعْدِ الدِّيَارِ وَقُرْبِهَا	أَحْبَبْنَا إِنْ غِبْتُمْ أَوْ حَضَرْتُمْ
سَلُّوا نَسَمَاتِ الرِّيحِ كَمْ قَدْ تَحَمَّلَتْ	مَحَبَّةَ صَبِّ حُبِّهِ لَيْسَ يُكْتَمُ
وَكُنْتُ إِذَا مَا اشْتَدَّ بِي الْحُبُّ وَالْجَوَى	وَكَادَتْ عُرَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَفْصُمُ
أَعْلِلْ نَفْسِي بِالتَّلَاقِي وَقُرْبِهِ	وَأَوْهَمُهَا لِكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ



وهذا من أجمل ما يقوله شاعر.

وشعر العلماء درجات، فبعضهم يجيد إلى الدرجات الأولى، وبعضهم يتوسط،
وبعضهم يضعف، ومنهم ابن الوردي المحدث الذي يقول:

تَسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ عَنِّي مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

والأرجاني شاعر، والأرجان خففها المتنبى لما قال: أُرْجَان. لما ذهب وتمر
بالشعب وقال:

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ كَالْأَرْجَانِ

والأرجاني عالم محدث كبير، يقول من قصيدة جليلة:

أَعَيْنِي كُفّاً عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الظُّلُمِ سَعْيُ اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ

يقول لعينيه: أنتما اثنتان؛ فكفاً عن قلبي؛ لأنه واحد فكيف تجتمعان على
قلبي تقتلانه؟ هذا من جميل ما يقول العلماء في أشعارهم.

ومن الشعراء ابن حزم الظاهري، كان يقول الشعر الجميل، حتى إنه يقول:

إِنِّي لَشَمْسٌ فِي السَّمَاءِ مُضِيئَةٌ وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ

لأنه من الأندلس، يقول: أنا شمس، لكن مشكلتي أنني ما جئت من الشرق، بل
جئت من الغرب. وقد ذهب هو وابن عبد البر المحدث فرأيا منظراً جميلاً، فقال
ابن عبد البر: لا تغتر- يا ابن حزم- بكل ما ظهر من الجمال؛ فإنه قد يكون تحته
أمر مخبوء ليس بجميل. فقال:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِي وَأَنْنِي عَلَى مَا بَدَأَ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلُ

يقول: أنا أشغل بالظاهر؛ لأنه يأخذ من ظاهر النص، فكل جمال ظاهري يقول: الأصل فيه جميل؛ لأن مذهبي الظاهر، فأتعامل بالظاهر.

ودخلوا على ابن تيمية، وهو في الحمى مريض، قالوا: ماذا تشتكي يا أبا العباس؟ قال:

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا وَلَمْ يَدْرِ عَوَادُهَا مَا بِهَا
وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةً تَشْتَكِي أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

وهذا مثل قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا جُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمْ - أَلَمْ

ويُشَدُّونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَيَقْبُحُ مَنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي وَتَفْعُلُهُ فَأُحْسِنُ مِنْكَ ذَاكَ

استشهد به بعض المحدثين على قصة رسول الهدى ﷺ الذي رواه ابن ماجة وذكره صاحب المنتقى جد ابن تيمية في (منتقى الأخبار) «أَنَّهُ ﷺ أَتَى يَنْحَرُ النُّوقَ فَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أَيْتُهَا يَنْحَرُ أَوَّلًا». كل ناقة تقدم صدرها قبل الأخرى أيتها ينحر أولاً.



الرجاء

الرجاء في رحمته ﷺ هو سلم العبودية وهو
الحبل الممدود بينك وبين رب العباد ﷻ، وإذا
لم ترجه ﷻ فمن ترجو؟ فإنه لا يحقق مطالبك
ولا يسهل الصعوبات ولا يفك الأزمات إلا هو
وحده ﷻ، وقد التجأ كثير من الأولياء والعلماء
والشعراء والأدباء في تباريح تنبعث من قلوبهم،
الزمخشري أتى إلى البيت وصلى ركعتين وقال -
وقد جاور بيت الله ﷻ :-

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُروِقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحْلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرَطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وَعُلِمَ بهذا أن الله عز وجل يدعى في كل طلب ويؤمل، وبحسب ظنك بربك يحقق لك ما ظننت، يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ». فمن ظن بأن يفرج الكرب ويحل الأزمات ويكشف الملمات حقق الله عز وجل ظنه، ومن ظن بالله السوء فعليه دائرة السوء، ولذلك يقول السهيلي الأندلسي:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ

فالعدة والذخر عند عقلاء العالم هو الله وحده عز وجل، ولذلك التجؤوا له في الشدائد، حتى قلت في أبيات:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلْ صَيَّبُ

في قصيدة اسمها العظمة وأسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناتي؛ لأن الله يحب المدح.

الأسود بن سريع شاعر أتى إلى الرسول ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَظَّمْتُ قَصِيدَةَ مَدْحٍ فِي رَبِّي. قَالَ ﷺ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ». ولذلك يقول في صحيح مسلم: «وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ». ولذلك مدح نفسه، حتى حسان رضي الله عنه يقول لقريش الجاهلة التي تحارب رسول الله ﷺ:

زَعَمْتُ سَخِيلَةً أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا فَلْيَغْلِبَنَّ الْمُغْلِبُ الْغَلَابَ

قالوا فيما يروى عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ شَكَرَ بَيْتَكَ يَا حَسَّانُ». فمن هذا المنطلق قلت:

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَحْمَنُ مَا هَلَّ صَيْبُ
لَكَ الْحَمْدُ مَا هَاجَ الْغَرَامُ وَمَا هَمَا
فَوَاللَّهِ لَوْ صُغْنَا مِنَ الدَّمْعِ مَقْلَةً
وَسَرْنَا عَلَى الْأَجْفَانِ تَشْوَى وَجُوهَنَا
لَمَا بَلَّغُوا مَا تَسْتَحِقُّ وَقَصَرُوا
وَمَا تَابَ- يَأْمَنُ يَقْبَلُ التَّوْبَ- مُذْنِبُ
الْغَمَامُ وَمَا غَنَى الْحَمَامُ الْمُطَرَّبُ
أَحَادِيثُ حُبِّ فِي عِلَاكَ تُرْتَّبُ
عَلَى النَّارِ تُشْوَى أَوْ عَلَى الْجَمْرِ تُسْحَبُ
وَلَوْ حَاوَلُوا فِيمَا أَرَدْتَ وَرَتَّبُوا

ويقول أحدهم:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرُّوَاقِبُ
وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤَمِّلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضِيعُ
وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فالرجاء أن ترجو الله ﷻ أن يُحقق لك ما أردت، فتوبتك لا تحصل إلا بتوفيق من الله، ورزقك لا يتعين ولا يتحقق لك إلا بتسهيل من الله، ونجاحك لا يتحقق، ولن يكون إلا إذا فتحت الطريق مع الله ﷻ، حتى إن بعض الشعراء يقول:

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّي
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ

أي: كأن الأمور مكشوفة أمامي من حسن الظن به ﷻ حتى المؤمنون يقولون: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فهم سلموا له ﷻ فقالوا: صدق الله، بأن الأحزاب سوف يأتون إلينا، وسوف تضيق بنا الضوايق، ولكن سوف يفرجها الله ﷻ، وسوف يأتي النصر والفتح وصدق الله ورسوله. وأما المنافقون وأهل الشك والريبة والمرض، فقالوا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. تبت أيديهم ولعنوا بما قالوا.

وهنا إذا علمت ذلك فعليك أن تتجه إليه وحده ﷻ، يقول أبو يزيد البسطامي:
عشت مع الناس أربعين سنة فوجدتهم أمواتاً غير أحياء وما يشعرون أيان يُبعثون،
فكبرت عليهم أربع تكبيرات ونفست يدي منهم، وجدتهم لا يقطعون ولا يصلون
ولا يميئون ولا يحيون، ولا يُقَرَّبُونَ ولا يُبْعَدُونَ، ولا يرفعون ولا يُعْزُونَ ولا يُدْلُونَ ولا
ينفعون ولا يضرّون. هذه هي حقيقة الناس فالنافع الضار والمحيي المعز هو الله
وحده ﷻ، ولذلك يقول:

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

ولذلك يقول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». إذا تركت دعاء الله
غضب عليك، وإذا أكثر من دعاء الله والإلحاح عليه أحبك الله وقربك وأعطاك،
حتى في الترمذي يقول: «يَسْأَلُ أَحَدُكُمْ حَاجَتَهُ عَلَيْهِ، وَحَتَّى مَلَحَ الطَّعَامُ». حتى
إن ابن رجب ذكر أن في التوراة: اسألوه حتى عجين دوابكم، وحتى ملح طعامكم،
وحتى يصلح شمع النعل. كل الأمور لا يصلحها ولا يهيئها إلا الله ﷻ ولذلك هو
خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

ويقولون: إن معاذ الرازي صعد المنبر يريد أن ينصح الناس:

وَعَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ

ثم قال: عليكم بالأعمال الصالحة. قال الناس: فإن لم تكن أعماله صالحة؟
قال: حسنات مُكْفَرَةٍ. قالوا: فإن لم تكن حسنات؟ قال: مصائب تأتيكم. قالوا:
فإن لم تكن مصائب تكفر ذنوبنا؟ قال: شفاعة سيد الخلق ﷺ. قالوا: فإن لم
تكن شفاعة؟ قال: رحمة أرحم الراحمين. فضج الناس بالبكاء.

وله كلمات يقول فيها: إن الله لما أرسل موسى وهارون -عليهما السلام- إلى فرعون قال: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]. قال: سبحانه - يا ربي - هذا فعلك مع من يقول: أنا ربكم الأعلى. فكيف بفعلك مع من يقول في سجوده: سبحانه ربي الأعلى؟! فتحن نرجوك أن ترحمنا وأن ترفق بنا؛ لأننا نحن نقول في سجودنا: سبحانه ربي الأعلى. وهذا من أحسن الكلمات.

فالرجاء يسوق إلى رحمته ﷻ، فإذا خِفْتَهُ ورجوته وأحببته كنت مستخدمًا، كان عندك سوطه وكان عندك قائد يقود وسائق يسوق، فالسائق الذي يسوق هو الخوف والذي يقودك الرجاء، والمحبة الدابة وقيل: السوط الخوف، والقائد هو الرجاء والسائق الحب.

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغُلُهَا عَنْ الطَّعَامِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ
إِذَا تَشَكَّتْ كِلَالَ السَّيْرِ أَسْعَفَهَا شَوْقُ الْقُدُومِ فَتَحِيَا عِنْدَ مِيعَادِ

فهو الرجاء برحمته ﷻ، يقول بعض السلف: سيروا على رجاء رحمة الله ﷻ. قال أحد طلاب هذا العالم: كيف نسير، وقد ذهب القوم على خيول مُضْمَرَةٍ وبقينا نحن على حَمِيرٍ مُعَقَّرَةٍ؟! أي: إن السلف لهم أعمال ولهم مواقف صحابة وتابعين رضي الله عنهم من النصر والإنفاق وبذل الخير، والدعوة والجهاد والعلم، فهم على خيول مُضْمَرَةٍ، قال: والله لتصلن بالقوم؛ ما دامت على هذا الطريق؛ لأنه مثلما قال الشافعي:

أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةً
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمَعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةِ

فحبهم والعمل بشيء ولو قليل من السنة وتمشي على الطريق تصل، المهم ألا تخرج على الرصيف، بل تمشي على الطريق لتصل، نعم تأتيك كدمات؛ شوكة في الطريق، لكنك في الأخير سوف تصل ما دمت على الطريق المستقيم.

المتنبي في أمور الدنيا لما ذهب إلى سيف الدولة تعب في الطريق وأضنى راحلته، وفي الأخير قال سيف الدولة: كأنك تعب. قال:

جَزَى اللَّهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

يقول: الله يجزى المسير خيراً. هو بشر سافر إلى بشر، ولو كان ترك مطايانا تركها مثل المزاد، أي: مثل القرب البالية. فيقول: ما عليه التعب. فكيف إذا كان التعب لله؟ وكيف إذا كان السهر له عز وجل؟ وكيف إذا كان الجوع في سبيله؟

عمارة اليمني سافر من مكة إلى الحاكم المعز الفاطمي في مصر، فانظر كيف يسافر بشر إلى بشر، ضعيف على ضعيف!، قال:

الْحَمْدُ لِلْعَيْسِ بَعْدَ الْحَمْدِ لِلذَّمِّ حَمْدًا يُزِيلُ شُكُوكَ الظَّنِّ وَالتَّهَمِ
فَهَلْ دَرَى أُنْبِئْتُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ
حَيْثُ الْخِلَافَةُ مَضْرُوبٌ سَرَادِقُهَا تَجْرِي الْبَغِيضِينَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمٍ
وَلِلْخِلَافَةِ أَنْوَارٌ مُقَدَّسَةٌ تَبْنِي الْحَبِيبِينَ مِنْ حُكْمٍ وَمِنْ حُكْمٍ

وهو الذي يقول في المعز:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وَخَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

فهؤلاء تقطعوا في رجاء أناس من العباد من الملوك ومن السلاطين، ومن الأمراء ومن الوزراء، ومن الوجهاء ومن الأغنياء ومن الأثرياء فكيف من قصد رب الأرض والسموات عز وجل؟

ذهب أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر بن حسين في خراسان فضل في الطريق وضاع بالراحلة وضيع رفقة له -أي: وفداً- ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغ قومس، وقومس هذه بلدة في إيران، فجاء بقصيدة هي من أجمل القصائد

وأحسن قصيدة مُدِحَ فيها جواد في تلك الحقبة، بعدما ضاع وأتى الصباح وكلَّت
الرحل، يقول أبو تمام:

فِي قَوْمَسٍ صَحْبِي وَقَدْ وَخِذْتُ أَيْدِي الْمَطِيِّ مَعَ الْمَهْرِيَةِ الْقُودِ

يقول: تعبت -والله- الإبل وتعبت الخيول.

أَمْطَلَعَ الشَّمْسُ تَبْغِي أَنْ تَوْمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلَّا، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْجُودِ

يقول: قطعنا في السفر، فتريد أنت مطلع الشمس، حيث ذهب ذو القرنين،
ثلاث ليالٍ وهم ضائعون. ويقول: أنا أريد أن أذهب إلى عبد الله بن طاهر بن
حسين، حيث يطلع الجود وشمس الجود هناك تطلع. وهذا من أحسن الكلام،
وقيل: إنه انتحل البيت من مسلم بن الوليد الشاعر الذي يقول:

أَمْطَلَعَ الشَّمْسُ تَبْغِي أَنْ تَوْمَّ بِنَا فَقُلْتُ: كَلَّا، وَلَكِنْ مَطْلَعَ الْكَرَمِ

مدح فيه أميراً قبل، فتصرف فيه أبو تمام، وأبو تمام شاعر مطبق لا يُعلى
عليه في الشعر.



الشيب والهزم

الشيب والهزم مرحلة من مراحل العمر، يمر بها الإنسان، ويصل إلى هناك وقد شجن بالتجارب والأمثال والحكم، وقد عرف الدهر وعرف الناس وعرف الأيام، بعضهم يصل إلى ذلك العمر وبعضهم يُقَدِّم له وينتهي في شبابه، لكن الحديث عمن وصل إلى سن الشيب وسن الهرم، حتى يقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. انظر كلمة: اشتعل. كأنك أحرقت شيئاً من النبات، فتغير لونه من النار، حتى يقول ابن دريد في شيبه:

يَا ظَبْيَةَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِأَلْمَهَا تَرَعَى الْخُزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَى
أَمَا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ غُرَّةٌ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى
وَاشْتَغَلَ الْمَبِیْضُ فِي مَسْوَدِهِ (١) مِثْلُ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الْغَضَى

هذا هو أمر الشيب الذي ينتظره الإنسان، ولذلك في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ فِي الْإِسْلَامِ». هذا هو عِرْكَنٌ يستحيي، فكيف لا يستحيي العبد منه، وسار على ذلك الأدباء، فمنهم من شكا من السبعين، ومنهم من شكا الثمانين، ومنهم من قال:

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ سَارَ سَتَيْنَ حَجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لِقَرِيبٍ
يقول: قُرْبٌ مِنْ مَشَى سَتَيْنَ، فكيف بالذي مشى ثمانين!

دخل عوف بن محلى إلى معاوية رضي الله عنه، فقال: اذْنُ مِنِّي. فَدَنَا مِنْهُ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: مَا تَسْمَعُنِي؟ قَالَ:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغْتُهَا قَدْ أَحْوَجْتُ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ

في قصيدة طويلة، وقيل: إنما قالها عند المأمون، لا عند معاوية رضي الله عنه. وهذا الذي أرجحه مع بعض الأدباء؛ لأن عوف بن محلى إنما عاش في عهد المأمون، وعبد الله بن طاهر بن حسين، وبين عبد الله بن طاهر بن حسين وبين معاوية ما يقرب من (١٠٠ سنة) أو يزيد.

جاء شيخ كبير بلغ الثمانين، وإذا أبنائه معه ينامون معه في بيته؛ لأنهم مسافرون، فاحتاجوا أن يناموا في مكان واحد، أتوا ينامون وإذا هو يسعل ويتأوه ويزفر ويندب ويتململ، قالوا: ما هذا الأنين؟ فجلس ونظم قصيدة من أروع القصائد عند العرب، حتى إن ابن الجوزي وأهل التاريخ ذكروا جزءاً منها يقول:

(١) المبيض: الشيب الأبيض في الرأس.

قَالُوا: أَيْنُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهَرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟ قُلْتُ: الثَّمَانِيْنَ

يقولون: كان في شبابه مُعدماً فقيراً وجمع وجمع وحاول أن يجمع المال وما تيسر المال، فأقبل عليه المال لما قرب الثمانين، قال:

مَلَكَتْهُ بَعْدَمَا جَاوَزْتُ سَبْعِينَ مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ عَشْرِينَ
تَمَرُّبْنَا بَنَاتُ التُّرْكِ رَهِيْفَةٌ مِثْلُ الطَّبَاءِ عَلَى كُتْبَانِ يُبْرِينَا
قَالُوا: أَيْنُكَ طُولَ اللَّيْلِ يُسْهَرُنَا فَمَا الَّذِي تَشْتَكِي؟ قُلْتُ: الثَّمَانِيْنَ

فالدنيا لا يستقيم لها حال، فتجد الشيخ الكبير يقبل له المال وقد ذهب الشباب، وتجد بعض المرضى ذا ثروة، وبعض الشباب معدم فقير، ومن صح بصره ضَعُفَ سمعه، فلا قرار إلا في جنات النعيم بجوار الواحد الأحد ﷻ، حتى إن زهيراً في الجاهلية يقول:

سَمِئْتُ تَكَالِيْفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسْأَمُ

يقول: من يعيش ثمانين سنة في الحياة يسأم من الحياة. وخاصة الحياة التي ليس فيها عبادة ولا قراءة ولا معرفة تكون حياة مملولة مكررة، اليوم مثل أمس، لكن طالب العلم والعابد دائماً يسمع قصة وموعظة وفائدة، ويقدم عملاً صالحاً ويقدم نافلة ويقدم خلقاً كريماً ويقدم تاريخاً مجيداً، فتجده يتجدد عمره وتتجدد الأيام، لكن تصور البائس أو المحروم من طاعة الله ﷻ تضيق الدنيا في عينيه؛ لأن الواحد الأحد أخذ على نفسه العهد، فيقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]. حتى إن المتنبي يقول: لا تُصدقوا الشيخ إذا قال: آه. فإنه ما ملَّ من الحياة، فقال:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: آه، فَمَا مَلَّ حَيَاةً وَلَكِنَّ الشَّيْبَ مَلَّ

أي: إن الشيب ملّ منه، أما هو فما ملّ الحياة، نحن حريصون على الحياة،
وله كلمات عجيبة حتى إنه يقول:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبَتَرَكَ الْيَدَيْنِ مِنْهُ تَخْلَى

حتى قال الشوكاني في القصيدة نفسها: لا إله إلا الله ما أدق نظر المتنبّي!
ولا إله إلا الله ما أحسن حكمه! يقول: الإنسان إذا بكى من الدنيا فهو يبكي عليها،
لا يتركها وهو ميت إلا وهو متشبث بها، حتى إنهم يسحبون الإنسان من الدنيا وهو
متشبث بها. ولا يغرنك كلامهم؛ فإن أكثر الناس متشبثون بها.

ووجهوا رسائل في الشيخوخة، حتى إن شيخاً كبيراً مرّ بشباب، فتغامزوا لما
رأوا لحيته كلها بيضاء وهو منحنٍ وكانت لحيته طويلة على صدره كأنها قوس،
فقال له أحد الشباب: يا شيخ، من أهدى لك هذا القوس؟ قال: أهدانيه الدهر
وسوف يهدي لك قوساً مثله بلا ثمن. وهو ترقب الأيام والليالي، حتى إن الأندلسي
أبو إسحاق الإلبيري مر، وإذا ابنه لاه مع شباب في حديقة لا يطلب العلم ولا يقرأ
القرآن ولا يحفظ ولا يقدم نافعاً للناس، لا رسالة نافعة عنده في الحياة، فنظم له
قصيدة تقطع القلب يقول من ضمنها:

تَفْتُ فَوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًا وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا
وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ أَلَا يَا صَاحِبِي أُرِيدُ أَنْتَا

إلى أن يقول فيها:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فَعُلُ التَّصَابِي وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

يقول: قبيح الشاب أن يفعل خطأ وشرّاً، لكن أقبح وأشنع من ذلك الشيخ الكبير
الذي يعود كأنه شاب في المخالفات، حتى يقول أبو الفتح البستي في قصيدته:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرَبْحُهُ غَيْرُ مَخْضٍ خَيْرٍ نُقْصَانُ

إلى أن يقول فيها:

هَبِ الشَّيْبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا مَا بَالُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ

يقول: قدر أن الشاب يكون معذوراً؛ لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ». وحتى يقول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الشَّبَابُ وَاللَّيْمَةُ السُّودَاءُ مَا لَمْ يُعَاصِمَ كَانَتْ جُنُونًا». فاللَّيْمَةُ السوداء والشباب إذا لم يعصما الإنسان كان جنوناً، فشباب الإنسان شيء من الاندفاع إذا ما حده بتقوى وبعقل.

دُعِيَ أَحَدُ كِبَارِ السَّنِ إِلَى بَعْضِ الْمَجَالِسِ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَالَ:

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فالشَّيْبُ ينهى ولذلك ترى كثيراً من الناس يفرح أن قد كبر من أجل أن يعود له عقله وتنضج تجربته ويستقيم نهجه، حتى إن علي بن جبلة العكوك يقول: وَأَرَى اللَّيَالِي مَا طَوْتُ مِنْ قُوَّتِي وَحَدَّتِي رَدَّتْهُ فِي عِظَتِي وَفِي إِفْهَامِي فيقول: الليالي، كلما أضعفت من جسمي ردت في عظتي وفي ذهني وفي فكري، ولذلك ترى الكبير يضعف في جسمه، لكن عقله يتوقد، والشباب جسمه، قوي لكن عقله فيه طيش بخلاف هذا.

فكانوا يفرحون بالشَّيْبِ ويرحبون به، يقول الأندلسي:

ذَهَبَ الشَّبَابُ بِجَهْلِهِ وَبِعَارِهِ وَأَتَى الْمَشْيِبُ بِحِلْمِهِ وَوَقَارِهِ

فإذا عُلِمَ هذا، فإن بعضهم كان يتمنى الشباب أيضاً؛ لأن في الشباب النوم الهنيء والتمتع بالحياة الطيبة والسمع الحاد والبصر القوي والذاكرة المتوقدة والنشاط والمسابقة، وإلى غير ذلك، حتى يقول أبو العتاهية:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشْيِبُ

فيقول: يا ليت شبابنا يرجع إلينا فأخبره ما فعل بنا هذا المشيب. فالمشيب يجعلك لا تنام إلا قليلاً؛ سعال وصداع وأمراض وأوجاع وشكوى، حتى إنك تجد الشيخ الكبير، وخاصة إذا لم يكن عنده معرفة أو تلاوة أو ذكر لله عز وجل وعلم يمل، وربما يذهب بعضهم يعالجونه؛ لأنه انتهى فهو يعيش وحده؛ عنده فراغ فلا رصيد من العمل ولا رصيد من الذكر ولا أعمال يقدمها من الخير، فيقول:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ
النساء لا يريدنه، حتى يقول أحدهم:

رَأَيْتُ الْعَوَانِي الشَّيْبَ لَا حَتَّ بِعَارِضِي فَأَعْرَضَنِي عَنِّي بِالْخُدُودِ النَّوَاضِرِ
فهم يكرهون الشيب من أجل هذا، ولكنهم يسترونه، حتى إن المتنبي يقول:
وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَاتِي تَرَكْتُ شَعْرًا بِرَأْسِي غَيْرَ مَخْضُوبٍ
يقول: إنه من صدقي ووضوحي وشفافيتي أنني لا أخضب شعري.

هذه مسألة أخرى، لكننا نعود إلى مسألة الهرم.

وثلاثة لا يهرمون: حافظ القرآن العامل به، والجواد الذي نفع المسلمين نفعاً موصلاً لهم الخير لوجه الله عز وجل، والحاكم العادل الوالي المقسط في الرعية. يحفظهم الله من الخرف ومن الهذيان، ويجعلهم مسددين حتى يقول عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

دخلوا على رجل في سنته المئة، فسألوه: كيف وجدت الحياة؟ قال: والله كأنه بيت أو كأنه غرفة لها بابان دخلت من هذا وخرجت من ذاك.

وقيل لأحدهم -وقد بلغ المئة-: كيف وجدت الحياة؟ قال: كأن رجلين: رجل في ليلة رأى أنه تعشى أحسن الطعام ولبس أحسن الثياب وهو في قصر منيف وفي

حديقة غناء، ورجل بجانبه رأى في المنام مثلما فعل هذا في اليقظة. أي: إنها أحلام يقظة، فكأنك ترى الحياة مثل الفيلم ومثل المسرحية، حتى يقول الكوفي صاحب العادات السبع في رسالة له: إنه زار مقبرة كاليفورنيا، فعجب؛ قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر هذا البائس الفقير. حتى يقول ابن الزبيري:

وَالْخَسِيسَاتُ قَلِيلٌ بَيْنَهَا وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقِلٍّ

فقبر هذا المثرى شبيه بقبر الفقير البائس الحقير؛ لأن القبور لا تُفرّق.

يقول أحدهم:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا: أَيْنَ الْمُعْظَمُ وَالْمُحْتَقَرُ؟
تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْبِرٌ وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبِرُ
تَرْوُحُ وَتَعْدُو بَنَاتُ الثَّرَى (١) فَتَمَحُّو مَحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ
فَيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضُوءٍ، أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبِرُ

يقول المتنبّي:

أَبْنِي أَبِينَا، نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

الفراق دائم؛ فهذه جنازة هذا وهذا يحط وهذا يودع كأننا في محطة قطار أو مطار مسافرين.

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأَكَاسِرَةُ الْأَلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَلَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

(١) بنات الثرى: الدود. تروح على الخدود، وعلى العيون، وعلى المباسم.

تجد الإنسان كأنه يملك الدنيا والناس والجنود والبنود والأعلام وأقواس النصر، ثم يُلف في خرقه ويُدس في التراب.

حتى إنك إذا كلمتهم لا يردون عليك، تسلم على المقبرة ولا أحد، يقول:

مَا فِي الدِّيارِ لِمُخْبِرٍ إِلَّا النَّدَى لِمُصَوِّتٍ
نَادَيْتُ: أَيْنَ أَحَبَّتِي؟ فَأَجَبْتُ: أَيْنَ أَحَبَّتِي؟

أي: إنه جاء المقبرة، وصاح: أين أحبتي؟ فلم يسمع إلا الصدى، فرجع عليه الصوت: أين أحبتي، فقال:

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَن لَّمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُّطْلَقٌ

فلا أحد حرم عليهم الكلام فلم لا يردون علينا الكلام؟

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسُ وَالْمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ

فإذا رأيت الإنسان يستعز بما عنده من مال أو ولد أو منصب ولا يستعز بما له عند الله من طاعة فهو أحمق، فيه خَبَلٌ وَهَبَلٌ.

وَالْمَرْءُ يَأْمَنُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبَابُ أَلْزَقُ

فَمَعَ الشيب العقل والحكمة والأناة والبصيرة وتدارس العواقب، ومع الشباب الهمة والطموح والإقبال، فكونوا في عقول الشيوخ وفي همم الشباب؛ حتى تصلوا إلى المجد الدنيوي والأخروي بإذن الله.



الفرج بعد الشدة

الفرج بعد الشدة كلمة جميلة يرتاح لها كل إنسان؛ لأنه ما من أحد إلا ويمر به شدة، فهو يريد الفرج، والله عز وجل قد بشرنا أن مع كل يسر عسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]. فتُكْرِ اليسر فصار مغايراً لليسر الأول، بينما المعرفة واحدة في العسر هنا والعسر هناك.

ونظم أهل الأدب في ذلك بعض القوافي الجميلة يخبرون الناس بأنهم سوف يسعدون بعد الشدة، وسوف يأتيهم الفرج، حتى إن علي ابن جبلة العكوك يقول:

عَسَى فَرْجٌ يَكُونُ عَسَى نُعَلِّلُ نَفْسَنَا بِعَسَى
فَلَا تَجْزَعُ إِذَا حَصَلُ سَتَ هَمًّا يَقْطَعُ النَّفْسَا
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ مِنْ فَرْجٍ إِذَا يَتَسَا

ولذلك إذا اشتدت الظلمة جاء الفجر، وإذا اشتد الحبل انقطع، وإذا رأيت الصحراء تمتد وتمتد وأنت تمشي فاعرف أن وراءها الخير وبعد التل ترى أرضاً خضراء، وابن السكيت يقول:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتِ الْمَكَارِهِ وَأَطْمَأْنَنْتِ وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكِسَافِ الضَّرِّ نَفْعًا وَمَا أَجْدَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ أَمْرٌ يَمُرُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَمَوْصُولٌ بِهَا فَرْجٌ قَرِيبُ

هذا الفرج سوف يأتي ويصل إلى المريض إذا كتب الله له عافية، وإلى المحبوس وإلى المبتلى وإلى المدين وإلى الضال وإلى المكسور والمصاب، وإلى غير ذلك من المبتلين والمعديين، حتى إن ابن الرومي له إشارات وهو الذي يقول بعدما فارق بغداد:

لَعَلَّ اللَّيَالِي بَعْدَ شَحْطٍ مِنَ النَّوَى سَتَجْمَعُنَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الْمَالِفِ
نَعْمَ إِنَّ لِلْأَيَّامِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا عَوَاطِفَ مِنْ أَفْضَالِهِ الْمُتَعَاظِفِ

فهي الليالي شتى وألوان، ليلة لك وليلة عليك، ويوم لك ويوم عليك وكما يقول جرير: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فينبغي أن تكون محتسباً منتظراً الفرج، حتى يقول أحدهم:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعاً وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فَرَجَتْ وَكُنْتَ أَظْنُهَا لَا تُفْرَجُ

لأن المفرج عز وجل موجود ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠]. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. حتى إن بعضهم كان يستبشر إذا اشتدت المصيبة والمشكلة، فقد أذن حلها بإذن الواحد الأحد، حتى كان يقول:

اشْتَدِيَ أَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ أَدْنَى لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

بالبلج، أي: بالصبح وبالسفر. ومن أحسن ما حفظ من الكلمات ما نسبوه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه كان يرمّل، وكان يهزأ بها:

الْغَمَرَاتُ ثُمَّ يَنْجِلْنَهُ ثَمَّةَ يَذْهَبْنَ وَلَا يَجْنَهُ

الغمرات هي الأزمات والكربات التي تأتيك ثم تتجلي عنك، تذهب عنك وتصبح في فرج وفي يسر وفي سهولة، فينبغي للمسلم أن يكون واثقاً بالله عز وجل، حتى أهل الجاهلية كانوا يتقون وكانوا يطلبون من ربهم الفرج، وحتى المشركين ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وهم في الأزمة يعرفون أن هناك رباً على العرش استوى يفرج ويكشف الكربات، ويعافي المبتلى ويشفي المريض، ولذلك يقول النابغة يمدح عمرو بن هند:

وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لَا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِمٍ

يقول: إذا جاءهم نعيم فلا يتكبرون ولا يبطرون ولا يغترون على الناس، بل يخافون من الليالي ويخافون من الانقلاب، وإذا جاءتهم مصيبة أو أزمة، فلا يستسلمون ويصيبهم الوهن. لأن بعض الناس يظنها النهاية، فقال:

وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ لَا خَيْرَ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِمٍ

في قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ وَلَا عِلْمَ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّ بَصَاحِبِي

التي يقول فيها يمدح هؤلاء:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَ فُلُوقٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وهذا مدح بما يُشبه الذم، يقول: كل خصالكم جميلة ورائعة، لكن فيكم عيباً واحداً. حتى إن أحد الشعراء الشعبيين يمدح أحد الوجهاء، يقول:

شَيْخَ الْقَوَافِي يَا قَلِيلَ الْعَذَارِبِ لَوْ تَسْتَحِي مَا تَجْمَعُ الطَّيِّبَ كُلَّهُ

وهذا من المبالغة.

ويقول النابغة: عيبكم شيء واحد، وهو أن سيوفكم مثلمة من شدة ما تواجهتم مع الأعداء من قراع الكتائب.

ولذلك وفد عُروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان، بعدما انتصر عبد الملك، وقتل مصعب بن الزبير في العراق، فأتى عروة فقال: رد سيف أخي مصعب من عندك. قال: ما نعرف سيف مُصْعَب. قال: أرني السيوف وأنا أعرفه. فأراه، فإذا فيه ثلمة ضرب به الزبير بن العوام رضي الله عنه في بدر مع رسول الله ﷺ في المشركين، قال: بِمَ عَرَفْتَهُ؟ قال:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَ فُلُوقٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

تَوَوَّرِثْنِ مِنْ أَرْمَانَ يَوْمِ حَلِيمَةٍ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جَرَبْنِ كُلَّ التَّجَارِبِ

حتى يقول من ضمن القصيدة، ومن أروع ما قيل يمدح الملوك بأنهم منعمون، حتى إنهم يلبسون لباساً جيداً، وكما في صحيح مسلم: «جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». الرجل يقول: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي جَمِيلاً وَنَعْلِي جَمِيلاً، أَذَاكَ

مَنْ الْكَبِيرُ؟ قَالَ ﷺ: لَا إِنْ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». الكبر غمط الناس وبطر الحق، يقول النابغة:

رَقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجَزَاتُهُمْ يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ عِيدَ السَّبَاسِبِ

يقول: يفوح منها المسك. عيدهم هناك اسمه: السباسب. فيخرجون الجواري والولدان يحيونهم بالرياحين على الشوارع والسكك يوم المهرجان ويصطف الجمهور لهم، وقصدي هنا:

وَيَحْسَبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَا زِمَ

حتى يقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَكُنْ أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. فلا تيأس ما دام أن هناك رباً يُدْعَى عز وجل يفرج الكربات، ألح عليه واسأله.

بالأمس القريب كنت أنا والشيخ د. سعد البريك في طائفة من المنامة إلى الرياض، ولما أقبلنا من مطار الرياض قالوا: هناك خلل فني في الطائرة، وأمور رعدية في الجو. فلما اقتربنا ما استطعنا الهبوط، وبقينا فوق سماء الرياض نصف ساعة، فتذكرت كلاماً كنت قد قلته وهو:

كَمْ نَطْلُبُ اللَّهَ فِي ضَرَرٍ يَحِلُّ بِنَا فَإِنْ تَوَلَّتْ بَلَايَانَا نَسِينَاهُ
نَدْعُوهُ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُنْجِي سَفِينَتَنَا فَإِنْ رَجَعْنَا عَلَى الشَّاطِي عَصِينَاهُ
وَنَزْكَبُ الْجَوْ فِي زَهْوٍ وَفِي دَعَا فَمَا سَقَطْنَا لِأَنَّ الْحَافِظَ اللَّهَ
أبو العتاهية يقول:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارُهُ يَحْفَظُكَ اللَّهُ وَأَنْتَ كَارُهُ

يقول: كم مرة سجت وخرجت، وكم افتقرت واغتنيت، وكم مرة أخذت ديناً وقضيت، وكم مرة مرضت وأخذوك إلى السرير الأبيض، وخرجت وتشافيت، وكم مرة جعت وشبعت.

ولذلك مُلِّق قائد البحرية الأمريكية غرق في بحر اليابان بصاروخ، قال: فنزلت تحت الماء (١٣ يوماً) وانقطع الاتصال بالعالم الخارجي، وخرجت بثلاث حقائق:

الأولى: أن هناك إلهاً يحكم العالم ويحكم الكون لا إله إلا الله.

الثانية: الذي ما عنده إلا خبز دافئ وماء بارد كفاه.

الثالث: لا تجزي القوة الصغرى تتصل بها في الأزمات عن القوة العظمى. ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِيٍّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ولذلك يقول يوسف عليه السلام في الزنانة: ﴿يَصْلِحْجِي السَّجْنَءَ أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. لما سأله عن تعبير الرؤيا فدلهم على أن الواحد القهار هو خير عز وجل وهو الذي تفرد بالأسماء والصفات والأفعال، وهنا يقول أبو تمام:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

أي: إنه خير من الله عز وجل، أحياناً يكون ظنك أنك في بلوى وأنك في شدة، فقير، لكنك حقيقة في نعمة؛ فربما منعك من الربا ومنعك من العصيان ومنعك من أمور لا تعلمها أنت ولا تدري ما هي، وقد يُنْعِمُ اللَّهُ على قوم بالبلوى ويبتلي الله قوماً بالنعم. وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. حتى يقول أبو الطيب:

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

أحياناً تأتيك علة وفيها صحة الجسم، وأحياناً تأتيك مصيبة وفيها نجاحك واستمرارك، وأحياناً محنة وفيها المنحة لك، وأحياناً تقع في بلية وهي العطية وأنت لا تدري، ورب ضارة نافعة من حكم الباري عز وجل، فاختر الله لنا أحسن من اختيارنا لأنفسنا، وكما يقول ابن قاضي:

لَا تَشْتَكِي - يَا وَاحِدٌ - بَاتَ مَهْمُومٌ تَرَى الْفَرْجَ عِنْدَ قَرَابِ الْحِزَامِ
وَأِنْ كَانَ عَيْنُكَ خَالَفَتْ مُدَّةَ النُّورِ أَنْتَ تَنَامُ وَخَالِطُكَ مَا يَنَامُ

لك سجدة، أو تشير بالسبابة لله الواحد الأحد عز وجل.

وقد فُرج عن المسلمين في كابول لما فتحها محمد بن واسع أشرب بالسبابة:
يا حيُّ يا قيوم يا حيُّ يا قيوم، تحرك الجيش ففتحت، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. من يُدير الكون غيره عز وجل.

فقصدي أنه ينبغي أن نتأمل، وأن يكون عندنا انتظار لموعود الله عز وجل ونمني
أنفسنا بأنه أقبل الفرج.

وقد سمعت كلام المفسرين والأدباء والحكماء والشعراء كلهم أجمع على
ذلك، حتى أهل الجاهلية وأهل الإسلام. وفي كتاب (بزرجمهر) أن عجوزاً
فارسية كان لها كوخ بجانب قصر كسرى، فلما ذهبت قالت: يا ربِّ، أستودعك
كوخي وما فيه وأنت لا تضيع ودائعك. فإنهم مقرُّون كما كل الأمم أن هناك إلهاً
يدير الكون، يقول ابن تيمية: ما ينكر الصالح في الظاهر إلا فرعون، أما في
الباطن، ففرعون يعترف بذلك. حتى إن موسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾
[الإسراء: ١٠٢]. أي: والله إنك في نفسك تعرف أن هذا الكون لا تخلقه أنت، فأنت
ذرة من ذرات الدنيا وإلا فستركب الأفلاك وهذا الكون. راحت هذه العجوز في
عهد كسرى، فعدا الجنود على كل شيء وأخذوا الدجاج فأكلوه وهدموا الكوخ، فلما
أتت قالت: يا ربِّ، غِبْتُ أَنَا فَأَيْنَ أَنْتَ يَا رَبِّ؟ استغفر الله، ثم دعت عليه، وافقت
دعوتها سيد الخلق عليه السلام، في تلك الأثناء أرسل عليه السلام خطاباً لكسرى، فلما قرأه
متكبراً ومزقاً، فأخبر الرسول الذي أرسله عليه السلام، فقال: «مَزَقَ كِتَابَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ».

قَالَ: مَزَقَ اللَّهُ مُلْكَهُ كَمَا مَزَقَ كِتَابِي». فبعدها بليلة عدا عليه ابنه بالخنجر، فمزقه في فراشه. قالها الحافظ الذهبي وابن كثير وغيرهما، فمزقه في الفراش.

وعلى ذكر العجائز كانت عجوزٌ في عهد ابن الفرات، يقولون: اعتدى على بستان لها وأخذه وضمَّ معه الصكَّ عنده، فقالت للوزير: اتقِ الله فالدار داري، والله لأدعونَّ عليك. فقال: انتظري الثلث الأخير؛ فقد سمعنا أن الثلث الأخير شيء عظيم. فانتظرت الثلث الأخير شهراً وهي ترسل رسائل، مدادها وحبرها الدموع وقراطيسها الدموع وترسلها في السحر وتصل العرش مباشرة، وجاء الجواب بعد شهر، فجاء الخليفة وأخذ ابن الفرات وجلد ظهره وقطع يده وعلَّقها عند باب الخلافة، ومَرَّتْ عليه وإذا هو يُجلد والخيزران تشتغل على ظهره في الظهيرة، فقالت: والله من أحسن ما يكون الثلث الأخير، وإنك نصحتني بهذا وجزاك الله خيراً أن نصحتني بهذا. ثم قالت:

إِذَا جَارَ الْوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ وَقَاضِيَ الْأَرْضَ أَجْحَفَ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

فانظر كيف صبت عليه جام غضبها، فأجاب الله عز وجل دعوتها، حتى إنه تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فكما هو منهج عند كثير من العقلاء في العالم بغض النظر أنه سوف يُسهل الأمر، ولذلك ينبغي لمن ليس عنده فهم ولا علم أنه إذا مرت به أزمة أن يقول:

اِسْتَدِيْ اَزْمَةً تَنْفَرِجِي قَدْ اَذَنْ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

ويقول آخر:

لَطَائِفُ اللَّهِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
كَمْ فَرَجٍ بَعْدَ إِيَّاسٍ قَدْ أَتَى
مَنْ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِذِي الْعَرْشِ جَنَى
مَنْ يَتَجَرَّعُ غَصَصَ الصَّبْرِ
سُبْحَانَ مَنْ يَغْفُو وَنَهْضُو دَائِمًا
يُعْطِي الَّذِي يُخْفِي وَلَا يَمْنَعُهُ
كَلِمَةِ الطَّرْفِ إِذَا الطَّرْفُ بَدَأَ
وَكَمْ سُرُورٍ قَدْ أَتَى بَعْدَ الْأَسَى
حُلُوءًا جَنَى الشَّاكِّ مِنْ شَوْكِ السَّفَى
يَذُقُ حَلَاوَةَ عَلَى طُولِ الْمَدَى
وَلَا يَزَالُ مَهْمَا هَفَى الْعَبْدُ عَفَا
جَلَّالُهُ عَنِ الْعَطَا لِذِي الْخَطَا

فهو  متفضل علينا حتى في الأثر القدسي: «خَيْرِي إِلَيْكَ - يَا بَنَ آدَمَ - نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِالنِّعَمِ وَأَنَا غَنِيٌّ عَنْكَ وَتَتَبَغُّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي وَأَنْتَ فَقِيرٌ إِلَيَّ، خَلَقْتَكَ وَتَعَبُدُ غَيْرِي وَرَزَقْتُكَ وَتَشْكُرُ سِوَايَ». فالنعم كلها والستر والعفاف والغنى من الله الواحد الأحد، والدنو والتقصير من العبد، فغالب العبد صاحب هوى ونفس أماره وشيطان ودنيا مؤثرة، لكن العجيب أن الإنسان إذا وقع في مأزق أو مشكلة ظن أنه انتهى الحال به، ولكن لم ينته  «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».



الوطن

الوطن مضغة من القلب؛ لأنه مسقط الرأس،
دَرَجَتْ على تراب الوطن واستنشقت هواءه وشربت
ماءه، فأصبح الوطن يجري حبه في دمك، ولذلك
في القرآن يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ
أَن أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ
إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]. فجعل قتل النفس
شقيق الخروج من الوطن، حتى إنه لما أُخْرِجَ ﷺ
من مكة من مرابع فتوته وملاعب صباه ومغاني
شبابه، التفت إلى مكة ونظر إليها وبكى، قال:
«وَاللَّهِ - يَا مَكَّةُ - إِنَّكَ مِنْ أَحَبِّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَيَّ،

وَلَوْلَا أَنْ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». فكان يحن لها ﷺ ويتمنى أن يبقى فيها، ولكنه ﷺ طرد منها، حتى يقول أحدهم:

يَا طَرِيدًا مَلَأَ الدُّنْيَا اسْمُهُ وَغَدَا لَحْنًا عَلَى كُلِّ الشِّفَاةِ
وَعَدَتْ سِيرَتُهُ أَنْشُودَةً يَتَلَقَّاهَا رُؤَاةٌ عَنْ رُؤَاةِ
هَلْ دَرَتْ مَنْ طَارَدَتْهُ أُمَّةٌ هُبْلُ مَعْبُودِهَا شَاهَتْ وَشَاءَ
طَارَدَتْ فِي الْبَيْدِ مَنْ بَوَّاهَا مَنْزِلًا لَا يَبْلُغُ النَّجْمُ مَدَاهُ

فهو ﷺ كان يحن إلى الوطن، وفي بعض الآثار: «حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ». ولما هاجر الصحابة ﷺ أصابت الحمى بلال بن رباح ﷺ في المدينة، فكانوا يَمْرُون به ويرفع عقيرته وينشد بصوته الجميل الندي الذي كان يؤذن به، فيهرز به أطناب القلوب، فيمرون عليه وهو ينشد ويقول ويستشهد بشعر ليس له ﷺ بل لشاعر قديم:

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعْرَسَ لَيْلَةً فَأَشْمُ حَوْلِي إِذْ خِرًا وَجَلِيلًا^(١)
أَوْ تَرُونِي يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَيَشِيمُ طَرْفِي شَامَةً وَطَفِيلًا^(٢)

يا ليت شعري هل تطول بي الحياة وأعود إلى مكة، وأرى الإذخر والجليل أشمهما وأتمتع برؤيتهما، وهل أرد ماء مجنة فأشرب منه ولو شربة قبل الموت، وأرى جبل شامة وطفيل أمامي. إنه حب الوطن والولوع إلى تلك الديار وتلك المنازل، ولذلك يقول ابن الرومي -وهذا أحسن كلام في الوطن لابن الرومي-:

وَلِي وَطَنٌ أَلَيْتُ أَلَّا أَبِيعَهُ وَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكًا
عَهَدْتُ بِهِ شَرْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا

(٢) الإذخر: شجر.

(١) مجنة: ماء في مكة.

الوطن

وَحَبَبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَعَاهِدُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَ

السمكة لا تريد إلا موطنها في الماء، والسلحفاة تريد مكانها، والطائر يريد العش، والنملة تريد بيتها، والإنسان يحن لموطنه وتجدّه عاشقاً لهذا الوطن متعلقاً به، فطرة من الله عز وجل حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لِقَلْبٍ حَلَّ جَرَعَاءَ الْحَمَى ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيَّ
فَاسْأَلُوا سُكَّانَ وَادِي سَلَمٍ فَهُوَ مَا بَيْنَ كُدَاءٍ وَكُدَيَّ

يقول: تلك منازل قلبي هناك، حيث أسكن.

وعروة بن حزام كان ينزل هنا، يقول:

جَعَلْتُ لِعِرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعِرَافُ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي

حتى إن شوقي أمير الشعراء لما نُفي من مصر يقول:

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَابِلِهِ الدَّوْحُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ
وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

ولكن معنى هذا البيت خاطئ، ومعناه يقول: لو كنت في جنات النعيم لاشتقت، وأنا داخل الجنة إلى وطني، وهذا خطأ ومبالغة، وهو الذي يقول في دمشق:

لَمَّا مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ هَلْ فِي الْمَصَلَّى أَوِ الْمِحْرَابِ مَرْوَانُ

إلى أن دخل دمشق، يقول:

أَتَى يُصَفِّقُ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى ^(١) كَمَا تَلَقَّاكَ دُونَ الْخُلْدِ رَضْوَانُ

(١) نهر بردى.

وَالْحُورُ فِي دُمُرٍ أَوْ دُونَ هَامَتِهِ حُورُ الْحَرَائِرِ زَانَتْهُنَّ عُفْيَانُ
وَرَبُوءَةُ الْوَادِ فِي جِلْبَابٍ رَاقِصَةٍ الصَّدْرُ كَاسِيَةٌ وَالسَّاقُ عَرِيَانُ

إلى آخر ما قال، وهذه من أحسن قصائده على كل حال، وإلا فله قصيدة في دمشق، بعدما انتصر السوريون على الفرنسيين، فقال:

سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرْقَ وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكُفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْدِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي جَلَالُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفِ يَدِ قُ
دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ انْتِلَاقُ وَوَجْهُكَ ضَاحِكُ الْقَسَمَاتِ طَلْقُ
دَمُ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْرِفُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

على أن الشيخ الكبير الأديب علي الطنطاوي يعترض على القصيدة ويقول: أَقُّ، أَقُّ، القصيدة متعبة في القافية. مع العلم أنها من أجمل القصائد، وهذه وجهة نظر للشيخ علي الطنطاوي، وإلا فإن قصيدته هذه يحتفلون بها، ولكن النونية عندي في دمشق لشوقي أحسن من هذه القافية التي ذكرها.

وابن الخياط له مقطوعة في نجد؛ لأنه مر بنجد، وقبّل نجد يقول في كتاب الحماسة:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوِي (١) بِنَا نَحْوَ الْمَجَرَّةِ فَالضَّمَارِ
تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعُشِيِّةِ مِنْ عَرَارٍ

وهذا من أجمل ما يكون في الأدب، حتى يقول ابن الخياط:

(١) يقول: المسافرون تاركو نجد ويريدون أن يذهبوا إلى الحجاز، فيوصي صاحبه.

خُذَا مِنْ صَبَا نَجِدْ أَمَانًا لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رِيَاهَا يَطِيرُ بِلْبِهِ
وَأَيَّاكُمْ ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ إِذَا هَبَّ كَانَ الْوُجُدُ أَيْسَرُ خَطْبِهِ

فدل على أن حب الوطن مركز في طبائع الناس، حتى إنك لو حدثت الإفريقي الذي يعيش في الصحراء التي تكاد حرارتها تُقَطِّعُ البدن يرى أنه في جنات النعيم، والشمالى الذي في القطب كذلك، حكمة بالغة أن حب الله عز وجل أهل الديار إلى ديارهم؛ لِيُسْكِنَ الأرض وتُعَمَّرَ.

كانت خزاعة قبل قريش في مكة، ثم أُبِيدت خزاعة، وأُبِيدت من قبل خزاعة قبائل، وهذه سنة الله عز وجل في الأمم والدول والشعوب والقبائل، أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وقبيلة بعد قبيلة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. قيل: في مكة كان رجل من خزاعة تأثر وبكى لما رأى قبور الناس من خزاعة في مكة، فقال:

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجَّوْنَ إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمَعْ بِمَكَّةَ سَامِعُ

ويقول هارون الرشيد:

بَلْ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَاشِرُ

علماً أنه لا يجوز للإنسان أن يتشاءم، ويقول: حظي العاثر أو المشؤوم. لا، أمة تذهب، أمة سادت ثم بادت، ملك علا ثم هوى ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨].

أَيِّنْ عَادَ أَيِّنْ نَمْرُودُ وَمَنْ وَلِي الْأَحْكَامِ طُورًا وَعَزَلَ
كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْكُلِّ فَكَمْ فَلْ مَنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُولِ

وتفرد هو بالبقاء عز وجل فينبغي أن يُلاحظ أن حب الوطن ليس كما يقول بعض الناس: الوطنية محرمة. لا، الوطنية إذا كان يحب الوطن أكثر من الإسلام أكثر

معتقداً فلا يجوز، لكن إذا أحب وطنه من باب الوفاء ودافع عن وطنه، فهذا لا بأس به، كل الأمم تدافع عن أوطانها، ولما دافع العراقيون عن بلادهم قال أحد الشعراء العراقيين:

مُتَمِّمُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ

فينبغي للإنسان أن يعتقد هذا ويعيش دفاعاً عن معتقده وعن وطنه، وإن رجلاً لا يحب دينه قبل كل شيء ثم يحب وطنه فإنه مشكوك في انتمائه وفي وفائه، قالوا: يُعرف الرجل بوفائه لأمرين: بوفائه لوطنه، وبوفائه لإخوانه. فلهذا تجده يحسن لفلان ويتذكره فاعرف أن فيه مروءة وأن معدنه طيب، وإذا حن إلى وطنه ومراتع شبابه وملاعب صباه فاعرف أنه وفي، أما القاطع الجافي فإنه يتنكر لأوطانه ولإخوانه، فلا يذكر الوطن بخير ولا يذكر إخوانه بخير، فتجده سيئاً عنده بلاده وغيرها، فكيف إذا كان الوطن مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق التعاليم الربانية؟! وكيف إذا كان هذا الوطن تراباً مشى عليه محمد ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؟! وكيف هذا إذا كان هذا الوطن جبريل ﷺ التقى على ظهره بمحمد ﷺ؟

هذا هو وطننا، وطننا الذي رضيهِ لنا الله عز وجل وفيهِ أم القرى وفيهِ المقدسات وفيهِ مهبط الوحي، حتى يرى كل مسلم أن من المعتقد أن يحب هذا الوطن؛ لأن فيه قبلة المسلمين التي يؤمها الناس، فتحسن تقول: نسأل الله أن يجعل وطننا الأم في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأن ذاك الوطن هو وطننا الأساسي؛ لأن أبانا آدم كان في تلك الجنة.

كنا في وطننا ذاك، كنا في جنات النعيم، لكن أبانا آدم ﷺ لما أكل من تلك الشجرة وكتب الله عز وجل عليه تلك المعصية هبط بنا، فالواجب أن نحسن إلى ذلك الوطن لنعود إليه؛ لأن ذاك الوطن لا خوف فيه ولا قلق ولا مرض ولا اضطراب، ولكنها جنات ونهر في مقعد صدق عن مليك مقتدر.

الوطن

هذه بعض اللمسات على الأوطان، وقد بكى الشعراء وتفعجوا على أوطانهم وهم يُخرجون، حتى إنني رأيت أول بيت في الأغاني لأبي فرج الأصبهاني أول الأبيات، يقول: إن أحد الموالى طُرد من المدينة، طرده أمير المدينة إلى الشام فبكى لما نظر إلى نخل المدينة وتذكر مراتع الصبا في المدينة وتذكر زملاءه وأصدقاءه وأحاباه، وسار إلى أبواب جيرون وجيرون هي دمشق بالرومية، قال:

النَّخْلُ وَالْقَصْرُ وَالْجَمَاءُ بَيْنَهُمَا أَشْهَى إِلَيَّ النَّفْسِ مِنْ أَبْوَابِ جِيْرُونِ

يقصد النخل والبئر، والجماء مزرعة لسعيد بن أبي العاص وسعيد بن أبي العاص في المدينة والبئر بئر في المزرعة والقصر قصر بناه هناك، فيقول: يا ليت لي القصر والبئر والجماء بينهما، فذلك أشهى إلى النفس من أبواب جيرون، أحسن عندي من أبواب دمشق لكني أصبحت غريباً. فالغريب يحن إلى أوطانه إذا نُفي من الوطن، والنفي من الوطن أصعب شيء على النفس ومن أشقه؛ لأنك تذهب عن إخوانك وتذهب عن أترابك لما ألفتهم وأنستهم، تذهب عن أشياء ارتبطت بها وأصبحت جزءاً من حياتك وذاكرتك، فأنت لا تتخلّى عنها بسهولة، فيُصبح حكماً بالإعدام الغيابي على هذه الروح التي تحملها.

وأنت تتذكر هذا الوطن الذي كنت تعيش فيه، فالواجب أن يحسن إلى الوطن بأن يكون عضواً صالحاً في وطنه، يحمل المعتقد الحق والكلمة الطيبة ويدعو إلى الفضيلة، ويشارك في بناء وطنه ويذب عنه العدوان، ويجتمع مع إخوانه على كلمة الحق: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ويكون وفياً لوطنه، والحقيقة أن أوطان المسلمين يجب أن تُقدَّر جميعاً.

وَكُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ فِي بَلَدٍ عَدَدْتُ ذَلِكَ الْحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

وقد قال بعضهم:

أَنَا الْحِجَازُ، أَنَا نَجْدٌ، أَنَا يَمَنٌ الْجَنُوبُ بِهَا دَمْعِي وَأَشْجَانِي

وهذا أبو تمام يشكو من أنه لم يستقر في وطن واحد، فهو مشرد، مرة يذهب يمدح هذا، ثم يرده هذا إلى ذاك، ومرة يطرده الوالي إلى والٍ آخر، فيقول:

فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ جِيرَانِي

يقول: إني معذب ومشتت، ولكن يجتمع قلب الإنسان إذا كان مع ربه ﷻ، فإن كان مع الله كان الله معه، أنسه من وحدة وآواه من غربة وأطعمه من جوع وأغناه من فقر ونصره من قوة وأعزه من ذلة.

وقد قرأت عن موسى ﷺ كما في كتب السير أنه لما نزل في أرض مدين أوى إلى الشجرة، بعدما كشف الغطاء للفتاتين وسقى لهما أغنامهما، فقال: يا ربِّ أنا فقير، يا ربِّ، أنا غريب، يا ربِّ أنا جائع، يا ربِّ أنا ضعيف. فأوحى الله إليه: يا موسى، الغريب من لم أكن أنا مؤنسه، والجائع من لم أكن أنا مطعمه، والفقير من ألم أكن أنا مغنيه، والضعيف من لم أكن أنا مقويه. ورؤي عن يوسف ﷺ أنه لما أُلقي في الجب كان وحده، فأنزل الله ﷻ عليه السكينة، فأخذ يسبح الله ﷻ فجعله الله على صخرة في الجب الذي فيه ماء فأنقذه ﷻ وردّه وأصبح ملكاً وتولى وطناً.

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ
مَعَاهِدُ قَضَائِهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمْ
عُهُودُ الصِّبَا مِنْهَا فَحَنُوا لِذَلِكَ



الوقت

الوقت هو العمر والوقت هو الحياة، والوقت هو المتكون من الدقائق والثواني التي تمر بك. ولذلك يقول عز وجل: ﴿قَلَّ كَمَ لِيَسْتَمَّ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٢) قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]. فهو يسألهم عز وجل حتى عن الوقت وعن العمر، وصح عنه عليه السلام أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ». وذكر: «عُمُرُهُ فِيمَا أَبْلَاهُ». يسأل عن عمره فيما صرفه، وعند البخاري: «نِعْمَتَانِ مَغْبُورٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». فالوقت

تكلم عنه الشعراء والحكماء على أنه كنز للتجارب وفعل للخير وإسدال المعروف ونفع الآخرين، حتى إن أبا تمام في أبيات جميلة لخص تجربته مع الوقت والأيام، يقول:

مَرَّتْ سِنِينَ بِالسُّعُودِ وَبِالْهَنَا فَكَانَتْهَا مِنْ قِصَرِهَا أَيَّامٌ
ثُمَّ انْتَنَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ بَعْدَهَا فَكَانَتْهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامٌ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينَ وَأَهْلَهَا فَكَانَتْهَا وَكَانَتْهُمْ أَحْلَامٌ

هذا هو الوقت. ولذلك يقول شوقي:

دَقَّتْ قُلُوبُ الْمَرْءِ قَائِلَةً لَهُ: إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِ

أي: إذا رأيت القلب ينبض فكأنه يُذَكِّرُكَ، فيقول: انتبه مضت ثانية، والثانية الثانية، وهكذا. هذه الثانية لن تعود، فقد اقتربت من النهاية، حصدت لحظة من عمرك، وهكذا. وهذا من أجل أبيات شوقي:

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرُ ثَانِ
وهذا صحيح، والمنتبهي يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فيقول: ذِكْرُكَ كأنه عمر لك ثانٍ. أي: العمر الحَسَنَ. مطلوب منك أن تسعى في حياتك بأعمال جليلة؛ حتى تُذكر بعد موتك، لو زهد أحد بالثناء لزهد إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. أي: اجعل لي ثناء حسناً فيذكرني الناس بالخير ويترحمون علي. لأن الناس شهود الله في أرضه؛ إن أثنوا عليه خيراً فهو خير وإن أثنوا عليه شراً فهو شرير، لأنهم شهود، ألسنة الخلق أقلام الحق، فهنا يقول:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ: مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

فالحاجة فقط هي القوت، وما زاد عن كفايتك وحاجتك فهو إشغال يضيع العمر، وذكر الجاحظ في كتابه (الحيوان) أن السلطان السعدي يقول: أوقاتي هي العمر.

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

اليوم والليل أفنى الكبير وشيب الصغير الطفل، فليلة ويوم وليلة ويوم وإذا الشباب شيوخ كبار، وإذا الأطفال شباب وإذا الشيوخ في المقابر، ويوم وليلة وإذا الدول تنتهي ﴿هَلْ تُحْسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. كم تصبّح هذه الليالي وتصبّح علينا، الشمس تُشرق وتغرب وهي من أعمارنا تنقص.

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا^(١) أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَتِي

تنتهي ليلة ويأتي يوم جديد، اليوم والليلة جديدان، نموت وننتهي وهما جديدان.

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقُضِي

ما دمت حياً فلك حاجة كل يوم ولك غرض، وللنفس تطلعات وآمال ومطالب.

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

أحد الصالحين يقول لصاحبه: ألا تزورنا؟ قال: أشغلنا عن الزيارة. فأخذه مرة وذهب به إلى المقبرة، فقال: انظر، إن هؤلاء ماتوا كلهم ولهم أشغال. لكن عطلت أشغال، أي: ما عندهم سابق إنذار بهذا. ولذلك قال بعضهم:

إِذَا كَانَ رَأْسُ الْمَالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرَسْ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْيِيعِ فِي غَيْرِ وَاجِبٍ

(١) أي: أنهت اليوم.

رأس المال العمر، فإذا كان هذا العمر هو رأس المال، فلا تضيعه في غير واجب، والشافعي - رحمه الله - يقول: رافقت الصوفية فما استفدت منهم إلا قولهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقيل لرجل: الوقت أغلى من الذهب. فقال: بل الوقت هو الحياة. لأنك في الدقيقة الواحدة قد تصنع شيئاً كثيراً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. تُقرأ في دقيقة، سبحان وبحمده مئة مرة تُقرأ في دقيقة، صفحة من كتاب علم أو معرفة تُقرأ في دقيقة، كلمة صادقة طيبة ينفع الله بها، تتصل بأخيك المريض تعزيه في دقيقة، هذه الدقيقة تصنع بها مجداً وتبني لك بها تاريخاً، تقدم حسنات تغرس في الجنة شجرات، لكن المشكلة أن الإنسان إذا ما أخذ كلام أهل العلم وأهل الحكمة وأهل الأدب واستفاد به بحال، إنما يحمله فقط كما قال عِزُّن: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالاً بَشَرًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. مجلدات ومصنفات على ظهر الدابة لا تستفيد منها، ولذلك ينبغي إعمال ما تسمعه من الحكمة وما تسمعه من الأدب ومن الشعر، حتى يقول:

مَا مَضَى قَاتَ وَالْمُؤْمَلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

فالماضي انتهى عفا الله عما سلف، تلك أمة قد خلت، وأنت مع الماضي هب أنك أغلقت عليه في زنازة النسيان، والمؤمل غيب: فالذي يأتيك غداً هو ليس في يدك، ولا تستطيع أن تضمنه، ولكن لك هذه الساعة التي أنت فيها، فازرع الخير.

وقد قرأت عن الأديب الشاعر المشهور شكسبير يقول - يوصي صديقه -: يا صديقي، الخير الذي تفعله سوف يُثنى عليك به، والشر الذي تفعله سوف يُدفن معك في قبرك. وأحسن من ذلك قول سيد الخلق ﷺ فيما يروى عنه لما قال لقيس بن عاصم: «يَا قَيْسُ، إِنَّ مَعَكَ قَرِينًا تُدْفَنُ مَعَهُ وَهُوَ حَيٌّ وَيُدفَنُ مَعَكَ وَأَنْتَ مَيِّتٌ». هو العمل.

فمن أراد أن يحسن عمله، فليحسن صرف الوقت فيما ينفع، وفيما يفيد، وفيما يعلي قدره.

وقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُوتَانِ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». لأن كثيراً من الأصحاء مشغولون وكثيراً ممن يملكون الوقت مرضى، لكن أن يجتمع لك الصحة والفراغ فأمر عَجَب، ولذلك تجد شاباً صحيحاً غير مشغول ولا يعمل خيراً، الآن ترى الشمس تجري لمستقر لها، والرياح تتحرك والنسيم يهب والقافلة تسير والليل يطوي النهار وأنت لماذا تقف؟ لا وقوف في العالم ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]. لا وقوف فإما أن تتقدم أو تتأخر، فلن يجديك أن تبقى تفكر، امش على نظام ولو على نظام السلحفاة، فإنك سوف تسبق الثعلب الذي وقف.

وقد قيل: الغزال التي وقفت تنظر، هل الفهد يطاردها أو لا، فانقطعت عن السلحفاة وسبقتها السلحفاة. نحن بحاجة إلى إعادة ترتيب لقراءة الأدب، وأدبنا هو أدب الحكمة وأدب المعرفة وأدب الرشد أدب المثل العليا، ليس أدب النقائض الذي يدرسه في بعض المدارس، قال جرير يهجو الفرزدق وقبيلته وقال الفرزدق يرد عليه، أو داحس والغبراء؛ قالت هذه القبيلة في تلك، تغلب في بكر وبكر في تغلب حتى يورثوا الضغائن بين الأحياء وبين القبائل والعشائر، أدبنا ينطلق من قول حسان رضي الله عنه:

فَإِنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي	لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
هَجَوْتُ مُبَرَّأً لَا عَيْبَ فِيهِ	رَسُولُ اللَّهِ شِمَتُهُ الْوَفَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفءٍۑ	فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمَْا الْفِدَاءُ

ينطلق مع أبيات الحكمة التي تعلمنا، فكل ما دُلَّك على الفضيلة فهو فاضل في نفسه ينبغي الاعتناء به، وكل ما تحاول أن تقترب به من الشر والرذيلة فإنه يُلغى سواء أكان نشرًا أم شعرًا، ولذلك نحن بحاجة لحجر صحي فكري على

أذهان الجيل والشباب؛ لئلا يحفظوا بعض اللوثات الفكرية التي نفث بها بعض المرضى، فأثرت في أدبنا وجعلته كأنه الأدب العربي في بعض ملاحمه، وإنما هورذيلة وعداوة وشر وبغضاء وغدر، وانسلال هذه القبيلة على الأخرى وإراقة دماء وتشويه، فهناك صور مشرقة لا بد من أن نُظهِرَها للناس وأن نحكيها، وأنا أعرف من القصص الرائقة الأدبية الجميلة ومن الأبيات التي فيها من المروءة ومن العزة ومن الأنفة، حتى الأدب الجاهلي تقرأ فيه عن عفة النفس وعن الكرم والسماحة، مثل قول حاتم الطائي:

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ لِحَامِهَا لَتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرُّكَائِبِ

فانظر إلى هذا؛ يقول: أنا لا أوتر نفسي على صاحبي، والله حتى فرسي لا أسابق بها حتى تشرب ماء الحوض قبل أن تأتي الخيول الأخرى. يقول: فليسبقوني هم حتى يشربوا الماء.

وعُروة بن حزام مرَّ به شخص سمين بدين وكان عروة نحيفاً، فضحك منه السمين، فقال:

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بَوَجْهِ شُحُوبِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ شَاهِدُ

يقول: يأكل معي على السفرة أناس، أنا أوزع طعامي على الجيران، وأنت تأكل وجبة وحدك، تغلق الباب إذا كنت تأكل.

إِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بَوَجْهِ شُحُوبِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

يقول: أنا عندي شركاء في الأكل وأستضيف وأخذ ولذلك نحف جسمي وضعفت بنيتي، وأنت تأكل وحدك فأنت سمين فالواجب أن تهزأ بنفسك لا تهزأ

بي. هذه مُثْلُ عَلِيَا، فكيف يوم جاء محمد ﷺ وأقام سنن العدل والنور والإيمان، ووصل بها إلى الواحد الأحد حتى يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ». حتى البسمة جعلها صدقة ﷺ إلى درجة أن زهير يقول في الجاهلية لهرم:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

يقول: وأنت تطلبه شيئاً، فكأنك أنت الذي تعطيه المال؛ من التهلل ضحك السن. أما الغضوب والعبوس، فإنه مذموم، حتى قال أحدهم:

وُجُوهٌ مِنْ سَوَادِ الْكِبَرِ عَابِسَةٌ كَأَنَّمَا أُورِدَتْ غَضْباً إِلَى النَّارِ
هَانُوا عَلَى اللَّهِ فَاسْتَاءَتْ مَنَاظِرُهُمْ يَا وَيْحَهُمْ مِنْ مَنَاكِيدٍ وَفَجَّارِ
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا لَاقَيْتَهُمْ عَرَضاً أَهْدُوكَ مِنْ نُورِهِمْ مَا يُتَحَفُّ السَّارِي
مَنْ تَلَقَّى مِنْهُمْ تَقَلُّ: لَا قِيَّتُ سَيِّدُهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فهؤلاء أهل الرقة أهل الإيمان أهل المبادئ العالية، الذين يحفظون أوقاتهم فيما يقربهم لله عز وجل، فأنت لا تصرف وقتك إلا في حق أو في خير، فالوقت دمار، أو عمار إما لك أو عليك، وسوف تُسأل عن هذا وعن هذا فازرع ما شئت من الخير تجده، وزارع الحنظل سوف يحصده وسوف يذوقه مرّاً علماً يوم العرض الأكبر عند الله عز وجل، وهل أقيمت الصلوات إلا في الوقت ودُفِعت الزكوات وأُعْفِي عن الناس، ونُشِرت المعرفة وأُطِعِمَ المساكين وأُديت الحقوق وعُولجَ المرضى إلا في الوقت؛ لأن الوقت مزرعة، وهل سُفِكَت الدماء واعتُدي على الحرمات وانتُهكت المقدسات إلا في الوقت، فالوقت ظرف زمني، لكنه للأبرار جنة وللأشرار نار، فعليك أن توجهه فيما يصلح قلبك، من يوم أن تستفيق في الصباح اعرف أنه يُعد عليك وأنه يُحصى عليك، أقلام تكتب وملائكة تشهد وصحف ترتفع، فتهيأ وتجهز للقدوم عليه عز وجل، ودائماً تذكر أن مع دقة القلب دقة الساعة، فدقات الساعة تقول للقلب: لقد أخبرتنا أن صاحبه يمضي في الطريق، وأنه سوف يمضي قريباً.

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ: إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانٍ

فما هي الثواني؟ تُؤلف الدقيقة من ثوانٍ، والساعة من دقائق، واليوم من ساعات، والأسبوع من أيام، والشهر من أسابيع، والسنة من أشهر، والعمر من سنوات، حتى نلقى رب الأرض والسموات.

سئل أحد الناس: كم عمرك؟ قال: واللّٰه ما أذكر من عمري إلا هذه الساعة فقط. حتى إن أبا الطيب المتنبّي يقول:

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أَيَّامِي وَلَذَّتْهَا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَعْبٍ وَلَا عَسَلٍ

يقول: إني ذقت الأيام كلها حلوها ومرها، لكن ما في يدي شيء الآن، أتأمل أين اللذائذ؟ ولا لذائذ، أتأمل المصائب ولا مصائب، أتأمل النكبات فكأن لا نكبات، ما بقي عندي من آثار العسل وحلاوة الأيام التي مرت، وما بقي عندي من الصعب العلقم الذي مرّ بي.

كم مرة مرت بنا أزمان صارت ذكريات! كم ذقتنا من أيام سعيدة وأفراح ومباهج الحياة ونعمها! لو سُئِلَتْ عنها ما تحسها، وقد لقيت عالماً كبيراً فسأَلته: ما تذكر من علمك يا شيخ؟ قال: ما أذكر شيئاً، هذه اللحظة التي أنت بين يدي، كأنني وُلِدْتُ من جديد واللّٰه مرت بي أيام طويلة وجميلة ما أذكر شيئاً ومرت بنا صعوبات ما أذكر شيئاً. فقط لك الساعة التي أنت فيها، ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، فعلياً أن نمضي هذه الساعة في عمل صالح.

وأنا أرى أن من أراد أن يحفظ وقته فعليه بالتنويع: فإنه أدعى لنشاط النفس، فمرة قراءة ومرة تسبيح ومرة نفع للناس ومرة ترويح عن النفس، ومرة إيصال الخير إلى الآخرين، عيادة مريض ومواساة منكوب وإعطاء فقير ومسح رأس يتيم، طلب معرفة، قراءة كتاب، ركعتان بخشوع، تدبر، بر والدين وأعمال خير،

الوقت

هذه مرزعة الحياة فأين الزارعون؟! هذا بستان الخيرات فأين البادرون؟! هذا سلم المجد، فأين الصاعدون، فأين الصاعدون؟! هذه صحف المثل العليا، فأين الكاتبون؟! فيا أيها الناس، هذا وقتكم قُدِّم لكم، لكنه من طريق الشعراء.

وكما أوصوا بالوقت وأوصوا بالزمن فإن الشعراء أيضاً شاركوا في صياغة الحكمة؛ لأنه كما قال ﷺ: «وَأَنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ». فلنأخذ حِكْمَةَ الشعراء حكمة الأدب، يقول أبو تمام:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا فَإِنِّي رَأَيْتُ كَرِيمَ الْحَرِّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ

يقول في محمد بن حميد، الذي قُتِلَ وَعُمِّرُهُ (٣٢ سنة): ما لك عمر لكنك سجَّلتَ عمراً طويلاً من المجد؛ لأنه قُتِلَ في سبيل الله. دائماً عمر الكريم قصير؛ كأنه ما عاش في الناس، يقولون: ليتنا أعطيناه من أعمارنا، يا ليتنا جدنا له من أوقاتنا، ليت له أطلال الإقامة معنا، لكنه ينتهي سريعاً. حتى إنهم يقولون: ما كأنه عاش بين أظهرنا من عمره. أما الشديد فطويل عمره، يقولون: متى يقصف الله روحه؟ أثقلنا وأتعبنا وما أطول عمره! نسأل الله الرحمة والعافية.



ساعة الصفر

ساعة الصفر عند المعاصرين هي ساعة
الموت وساعة النهاية، وهذه الساعة لا بد من أن
يمر بها كل واحد، وفي ساعة الموت يضعف القوي
ويذعن الجبار ويستسلم المتكبر ويفتقر الغني،
والعلماء والحكماء والأدباء والشعراء لهم كلمات
في ساعة الصفر؛ لأن زيف النفس انتهى وانتهى
الغرور والعجب والكبرياء وانتهى واستسلم،
فيقولون الكلمات الصادقة إما بيتاً أو كلمة أو
جملة، ولذلك يُروى عن الشافعي أنه لما انطرح
للموت وذكر الله، قال:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا - رَبِّي - لِعَفْوِكَ سُلْمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بَعْفُوكَ - رَبِّي - كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا

ثم تُوَفِّي بعدما شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وهناك محدث كبير من أجلّ المحدثين من الشمال كان في عهد أحمد بن حنبل اسمه أبو زرعة الرازي، أتوه في سكرات الموت، فأرادوا أن يلقنوه: لا إله إلا الله. فاستحيا منه طلابه فأرادوا أن يذكروا سند الحديث: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ». فما استطاعوا، واستيقظ بعدما كان مغمى عليه أو في غفوة فقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ثم مات. ومالك بن الريب الذي سجل أروع قصيدة في ساعة الصفر، قصيدة رائعة مؤثرة، أرى أن ليس في الأدب العربي مثلها في مسألة الحنين وصدق العاطفة والوضوح والشفافية في ساعة الموت، بعدما كان من قُطَاع الطريق ويسرق - غفر الله له - ثم تاب وأناب، ومر به عثمان بن عفان رضي الله عنه مجاهداً مع جيشه، فدخل معهم وذهب إلى خراسان مجاهداً في سبيل الله، وفي الطريق لدغته حية فحفروا قبره وألقى قصيدة ما يقارب (٦٠ بيتاً) على شفير القبر، قال:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغُضَى أُرْجِي الْقِلَاصَ النُّوَاجِيَا
فَلَيْتَ الْغُضَا لَمْ يَقْطَعْ الرِّكْبُ عَرْضَهُ وَلَيْتَ الْغُضَا مَا شَى الرُّكَّابَ لِيَالِيَا
وَلَيْتَ الْغُضَا يَوْمَ ارْتَحَلْنَا تَقَاصَرَتْ بِطُولِ الْغُضَا حَتَّى أَرَى مَنْ وَرَائِيَا
أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الصَّلَاةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
فَلِلَّهِ دَرِي يَوْمٍ أَتْرَكُ طَائِعَاً بَنِي بَاعَلَى الرِّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا
وَأَشْقَرُ مَحْبُوكٍ يَجْرُ عَنَانُهُ (١)

(١) يعني فرسه.

يُقَادُ ذَلِيلًا بَعْدَمَا مَاتَ رَبُّهُ يُبَاعُ بِبَخْسٍ بَعْدَمَا كَانَ غَالِيَا
وَلَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرَوْ مَنِيتِي وَخَلَّ بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
خُذَانِي فَجَرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَغْبًا قِيَادِيَا

إلى آخر ما قال، فكلها صدق وكلها تنبيك أن الإنسان يذهب عنه الطلاء وقت الحقيقة، فإذا أصبح في سكرات الموت انتهى كل شيء؛ لأن أكثر لحظة يمر بها الإنسان لحظة ضعف ولحظة صدق هي لحظة سكرات الموت التي سوف نمر بها جميعاً، حتى إن أبا نواس الأديب الشاعر المشهور يقول في سكرات الموت- عسى الله أن ينفعه بذلك:-

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يُلَوِّذُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ

وقالوا في السير والأدب: إن ابن عباس دخل على معاوية رضي الله عنه الملك الخليفة، فلما رآه ابن عباس «وهو في سكرات الموت أراد أن يظهر لابن عباس» أنه ما زال نشيطاً، لأن ابن عباس «ابن عم علي رضي الله عنه غفر الله للجميع ورضي عنهم جميعاً» قال معاوية رضي الله عنه:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامَتَيْنِ أُرِيهُمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ

قال ابن عباس «في الحال»:

وَإِذَا الْمَنِيَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وهي من القصيدة نفسها، فدل على أن الإنسان قد يتجلد، حتى إن ابن تيمية لما دخلوا عليه قالوا: ماذا أصابك يا أبا العباس؟ وهو في مرض خطير، قال:

تَمُوتُ النُّفُوسُ بِأَوْصَابِهَا وَلَمْ يَدْرِ عَوَادُهَا مَا بِهَا
وَمَا أَنْصَفَتْ مُهْجَةً تَشْتَكِي أَذَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

هذا على حد قول المتنبي:

إِنْ كَانَ سِرْكُكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فهو التجلد والصبر مثل قول النابغة لبني جعدة:

سَقَيْنَاهُمْ كَاسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

يقول: لما تلاقينا، والأعداء قاتلونا وقتلناهم وسقونا الموت وسقيناهم، وشربنا من كأسهم وشربوا من كأسنا، ولكننا كنا على الموت أصبر منهم. فهو التجلد على تلك الساعة ساعة الصفر وساعة الحقيقة، ولذلك يقول عز وجل عن الأولياء: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤]. أي: إن كنتم تألمون - أيها الصحابة والمؤمنون - من مقاتلة الكفار فهم يألمون مثلكم، لكنكم تزيدون بأنكم ترجون الثواب والنعيم والجنة وهم لا يرجون شيئاً، وهذا الذي يعزي الناس، ولما حضرت ساعة الصفر في مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تلك القطعة الرائدة الجميلة:

يَا حَبِذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا طَيِّبَةُ وَبَارِدُ شَرَابُهَا
الرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِعِيدَةِ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إِنْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

وَقَتْلَ رضي الله عنه وهذه الكلمة أثبتتها بفعله، فالشعر يصدق خبر العبد أو يكذبه، وأتى ابن رواحة رضي الله عنه بعده وقال:

أَقْسَمْتُ - يَا نَفْسِي - لَتَنْزِلَنَّهُ أَقْسَمُ النَّاسِ وَأَشَدُّ ظَنَّهُ
مَا لِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَقْطَةٌ فِي شَنَّهُ

وقَاتِلْ وَقُتِلْ ﷺ وَقُتِلَ قَبْلَهُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ وَدَخَلُوا ثَلَاثَتَهُمْ جَنَاتِ النِّعَمِ عَلَى أَسْرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ جَمَعْنَاهُ اللَّهُ ﷻ بِهِمْ.

ورماح بن حكيم يقولون: إنه قُتِلَ في المعركة، وكان يتمنى الشهادة. حتى إنه يقول قبل الموت:

أَيَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ أَتَتْ عَلَى مَضْجَعٍ يَعْلُوهُ حُسْنُ الْمَطَارِفِ

يقول: أسألك - يا رب - لا تميتني في غرفة النوم على فرش وثيرة ومخدات ووسائد.

وَلَكِنْ شَهِيداً ثَاوِيّاً فِي عَصَابَةٍ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفٍ
إِذَا فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وَسَارُوا إِلَى مَوْعُودِمَا فِي الصَّحَائِفِ

أي: ما في القرآن مما وعدهم الله ﷻ من الجنة.

وأذكر أن محدثاً كبيراً اسمه: أبو بكر الباغندي. محدث كبير مشهور بعلم الحديث، ومن علامات حسن سيرة العبد أن يحب: حدثنا فلان عن رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ كذا، أو المحدث يقول حدثنا، أخبرنا.

الْعِلْمُ مَا قَالَ فِيهِ: قَالَ: حَدَّثَنَا وَمَا سَوَى ذَلِكَ وَسَوَاسُ الشَّيَاطِينِ

يقوله بعض السلف، فيقولون: إنه كان في سكرات الموت فسمع شاباً أو طفلاً يقول: حدثنا فلان. وهو لا يدري أن الباغندي في سكرات الموت، والباغندي حياته كلها حديث، قال: أسندوني. فأسندوه، قال:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تُغْنِ. وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سَقِيَتْ لَغْنَتِ

وهذا الشعر لأحد شعراء العرب يقول: إنهم أسقوه خمراً وطرب، ثم سمع قصيدة وطلبوا منه ألا يرفع صوته، فرفع صوته وعقيرته بالنشيد، فقال:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تُغْنِ. وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سُلَيْمَى مَا سَقَيْتُ لَغْنَتِ

فهنا يقول المحدث: أنتم سمعتموني شيئاً هزني وحرك مشاعري وشجوني، وهو علم الحديث الذي أفنى فيه عمره، فقام في تلك الساعة وقال هذا البيت المشهور.

وأحد العلماء مرض وفي مرض الموت كان متكئاً ويقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. وهي كلمة الحق وأصدق كلمة في العالم وأحسن كلمة وأجمل كلمة، حتى إنني رأيت في بعض الأحاديث يروى: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ فِي الْأَرْضِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا». وعند ابن حبان «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، عَلَّمَنِي كَلِمَةً أَدْعُوكَ بِهَا...». وكان موسى عليه السلام جريئاً وشجاعاً وصاحب أسئلة «قَالَ: يَا مُوسَى! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ النَّاسِ يَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فهذا العالم كان يقول: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. فسمع رجلاً آخر يقول: لا إله إلا الله. قال:

وَدَاعِ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيْجَ أَشْوَاقِ الْبِلَادِ وَمَا نَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

يقول: وهذا ذكرني أيضاً وأعانني على ذكره **عَزَّ وَجَلَّ** ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. لأن أعظم شيء في هذه اللحظة هو ذكره **عَزَّ وَجَلَّ**، وابن تيمية سئل سؤالاً ذكره تلميذه ابن القيم في (روضة المحبين) قال لابن تيمية: يقول الله **عَزَّ وَجَلَّ** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. كيف يأمرهم وقت القتال وهو وقت خوف وقلق واضطراب وهم مشغولون ويأمرهم

بذكره ﷺ؟ قال ابن تيمية: لأن المحبين كانوا يتشرفون بذكر محبوبهم وقت الأزمات وفي مصالوة الأعداء، أما سمعت عنرة يقول لمحبيته:

وَلَقَدْ ذَكَّرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

فألله ﷺ أمرهم في وقت القتال ومصالوة الأعداء وفي سكرات الموت بذكره ﷺ، فهذا قصده، ولذلك في تلك اللحظة تجد الإنسان إذا تجرد وقرب من لقاء الله ﷻ تجد عنده من الصدق، لا أن يرائي ولا أن يطلب مدح الناس وسمعة الناس؛ لأنه علم أن الحياة منصرمة، وأن الحق قد وصل، وأن الموت قد حصل، ولذلك أحدهم كان يسبح، ثم نظر فقال:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمْ وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

ذكر ابن رجب الحنبلي أن أحد الصالحين كان لا يكف لسانه من ذكر الله، لأنه ﷺ يقول لرجل لما سألته عن عمل يتشبث به قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ». وعند أحمد في المسند «اذْكُرِ اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّكَ مَجْنُونٌ». هذا فيه كلام في السند، لكن الشاهد أن يُتمتم كالموسوس، فقال له أحدهم: أنت مريض؟ قال:

وَمِنْ هِيَامِي بِكُمْ قَالُوا: بِهِ مَرَضٌ فَقُلْتُ: لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

وهذا مثلما ذُكر في سيرة موسى ﷺ لأنه لما أرسله ربه هو وأخاه هارون ﷺ إلى فرعون قال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّاءَ فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢. أي: لا تتعبا في الذِّكْرِ، وواصل التسيب. لأنه يقول تعالى: ﴿كَيْ سَجَعَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) وَنَذَرْتُكَ كَثِيرًا [طه: ٣٣-٣٤]. فقال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّاءَ فِي ذِكْرِي﴾. فدخل موسى يُتمتم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. قال له أحد الحراس: أمجنون أنت؟

عندي دواء المجانين. وهذا مما يذكر في سيرته عليه السلام قال: جئت أعالج مجانين في القصر لديكم. الطاغية الأكبر الذي طفى وبغى وأخذه عز وجل، فهذه لحظة الصدق مع الله عز وجل التي قالها الأولياء وصدقوا فيها.

حتى إنني رأيت منهم مثل معاذ رضي الله عنه في ساعة الصفر وفي ساعة الموت يقول: «اللَّهُمَّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِعَرْسِ الْأَشْجَارِ وَلَا لِحَرْيِ الْأَنْهَارِ، وَلَا لِعِمَارَةِ الدُّورِ وَالْقُصُورِ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ لِمُجَاسَاةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطْيَبَ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى طِيبُ التَّمْرِ، وَأَنْ أَصُومَ يَوْمًا شَدِيدَ الْحَرِّ فِي سَبِيلِكَ، وَأَنْ أَقُومَ الثُّلُثَ الْأَخِيرَ مِنَ اللَّيْلِ». أو كما قال رضي الله عنه.

ويقول حذيفة رضي الله عنه: «مَرَحَبًا بِالْمَوْتِ حَبِيبَ مَنْ جَعَلَهُ آفَاقَهُ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ». وقال بعض الصالحين في ساعة الصفر في ساعة الموت: اللهم إنني كنت أخافك، وأما الآن فأرجوك. فهذه هي اللحظة الحاسمة.

وشوقي يقول في الساعة هذه:

قَدْ يَضِيقُ الْعُمْرُ إِلَّا سَاعَةً وَتَضِيقُ الْأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعًا

هذا قاله في جبل التوباد الذي يقول فيه المجنون:

أَجْهَشْتُ لِلتُّوبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ وَكَبَّرْتُ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتِي

فيقول شوقي:

جَبَلَ التُّوبَادِ حَيَّاكَ الْحَيَا وَسَقَى اللَّهُ صِبَانًا وَرَعَى
فِيكَ نَاعَيْنَا الْهَوَى فِي مَهْدِهِ وَرَضَعْنَاهُ فَكُنْتَ الْمُرْضِعَا
هَذِهِ الرِّبْوَةُ كَانَتْ مَلْعَبًا لَشَبَابَيْنَا وَكَانَتْ مَرْتَعَا
كَمْ بَنَيْنَا فِي حَصَاهُ أَرْبُعًا فَأَنْثَيْنَا وَمَحَوْنَا الْأَرْبُعَا

ساعة الصفر

وَكَتَبْنَا فِي نَقَى الرَّمْلِ فَلَمْ تَحْفَظِ الرِّيحُ وَلَا الرَّمْلُ وَعَى
قَدْ يَضِيقُ الْعُمُرُ إِلَّا سَاعَةً وَتَضِيقُ الْأَرْضُ إِلَّا مَوْضِعًا

فهذه ساعة الصفر ينبغي أن تُعدوا لها بلا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ ، قالوا لأحد الصالحين: ماذا أعددت لها؟ قال: أعددت لها كلمة التوحيد التي لو وُزِنَتْ بالسموات والأرض لمالت بهن وهي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، ساعة الصفر سوف نمر، ونحن في مقياس ينزل بنا درجة درجة، حتى نصل إلى تلك الدرجة الحاسمة التي ينتهي بها العمر، ونبدأ حياة أخرى.



الصديق

الصديق مؤنس ومؤيس؛ لأنه يخفف عنك
الأحزان ويعينك على حمل الأثقال، ويساعدك
على طاعة الله عز وجل ويدلك على الخير وينصحك
ويسدّدك ويذب عن عرضك، هذا إذا كان صادقاً،
أما إذا كانت صداقة مجاملة في الظاهر فهذا
ضرره أعظم. وإنما يعنينا الصديق الصادق
الصدوق الذي يكون معك في الضراء والسراء،
حتى إن الله الواحد الأحد يقول: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].
وعلي رضي الله عنه يقول: «تَزَوَّدُوا مِنَ الْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ عِزٌّ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فِي الدُّنْيَا عَرَفْنَا ذَلِكَ فَكَيْفَ فِي الْآخِرَةِ؟ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾. فدل على أن الأخ الخليل الصديق المتقي ينفعك حتى في الآخرة، فقد يشفع الصديق الصالح الصادق لصديقه إذا كانوا على أصل من التوحيد والإيمان، وكانوا يحذرون من الصديق المخادع المجامل الذي صداقته للمنفعة المنقطعة الدنيوية. يقول أحد الشعراء:

أَحْذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَاحْذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةً
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَوْلَى بِالْمَضَرَّةِ

فهم يجلون الحياة، فقد كان بعض الأخيار إذا رأى إخوانه قال: مرحباً بالإخوان الذين يُذْهِبُونَ الأحزان. حتى يقول إيليا أبو ماضي:

أَحْبَابُنَا، مَا أَجْمَلَ الدُّنْيَا بِكُمْ لَا تَقْبَحُ الدُّنْيَا وَفِيهَا أَنْتُمْ

هذا إذا كانوا مُسْعِدِينَ وكان الواحد منهم موافقاً وكان سهل الخلق، كما يقول ابن المبارك:

وَإِذَا صَحِبْتَ الدَّهْرَ فَاصْحَبْ مَا جَدَا ذَا عَفَافٍ وَحَيَاءٍ وَكَرَمٍ
قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ: لَا. إِنْ قُلْتَ: لَا. وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: نَعَمْ.

فهذه مدرسة الإخاء؛ أن تكون كثير الموافقة إلا فيما حرم الله، سهلاً ميسراً تقبل الرأي الآخر تحترم وجهات النظر، تراعي صاحبك، فلا تكون أنانياً تحب ذاتك أكثر من إخوانك، حتى يقول ابن المبارك:

إِذَا صَاحَبْتَ قَوْمًا أَهْلَ وَدٍ فَكُنْ لَهُمْ كَذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ
وَلَا تَأْخُذْ بِزَلَّةِ كُلِّ قَوْمٍ فَتَبْقَى فِي الزَّمَانِ بِلا رَفِيقِ

ومن اللطائف أن بعضهم على حديث: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأَنْ أُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي». حتى يقول أبو تمام:

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذْنِبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَنَعْتَذِرُ

فدائماً البادئ بالجميل وسائر عشرات الإخوان والذاب عن أعراضهم هو الموفق في الدنيا والأخرى.

وأبو تمام أيضاً يصف الإخاء فيقول:

إِنْ كَيْدَ بَيْنَ إِخَائِنَا فَإِنَّا نَعْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءِ تَالِدِ

يقول: إذا تعرضنا إخواننا وصادقنا لهزات، فإنني سوف أثبت، لن أتأثر بكلمات تنقل عن صديقي أو حسد حساد أو كلام مبغضين.

أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الْغَمَامِ فَمَاؤُنَا عَذْبُ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا دِينَ أَقْمَنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ

هو يقول: أدب أقمناه مقام الوالد. فبيننا من جسور المحبة ومن نقاط الاتفاق ما الله به عليم.

الشافعي -رحمه الله- اختلف مع صديق له في مسألة، قال: ألا يمكن أن نتفق، أو أن نتحاب أنا وأنت وإن اختلفنا في مسألة أو مسألتين أو ثلاث أو أكثر؟ بلى لأننا نتفق في أمور كثيرة مما نعمل. حتى إن أحدهم تذر من أخيه؛ لأن بعض الإخوة والأصدقاء إذا كان له عندك حاجة أحبك وتقرب منك وزارك، وإذا انتهى من حاجته طار فلم تره، يقول:

أَأَنْتَ أَخِي إِنْ كَانَ فِي النَّفْسِ حَاجَةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَيْقَنْتُ أَلَا أَخَا لِيَا

فإني غني عن أخيه حياته وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

يقول في القصيدة ومن أجمل الأبيات:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

والناس يصدرون عن عواطف وعن أهواء وعن مواقف مستعجلة ومرجلة لا عن حكمة، ولذلك فإن الذي مدحه باقٍ وذمه باقٍ هو الله عز وجل إذا أثنى أو أحب عز وجل، أما الناس فهم على حسب المصالح، حتى إن أحدهم يقول:

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تُرِنِّي الْآيَامُ خِلًا تُسِرُّنِي مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا قُلْتُ: أَرْجُوهُ لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى الْمَصَائِبِ

فهذا بعد تجربة لأن أكثر الناس لا يذكرون، أكثرهم لا يفون بعهد الصداقة وميثاق الشرف والأخوة، وأكثرهم وقت الضوائق لا يأتون ووقت الأزمات ووقت المشكلات إنما هم وقت الرخاء ووقت المصالح والنفع، يثبتونه أو يريدونه حتى يحققوه، ثم يذهبون ولا تجد أحداً.

وفي الصداقة والإخوة الأوفياء يأتون بأبيات طفيل الغنوي التي استشهد بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة لما اجتمع الأنصار يظنون أن الخلافة فيهم، فبين لهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الحق في ذلك وأنصتوا له، ثم شكر الأنصار على مواقفهم الرائعة المجيدة بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبنصرة الدين، قال: «وَاللَّهِ - يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ - مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَا جَعْفَرًا حِينَ أَزَلَّتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِنِينَ فَرَلَّتْ
هُمْ خَالِطُونَا فِي النُّفُوسِ وَالْجُؤَا إِلَى غُرَفَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتْ
أَبَوَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أَمْنَا تُلَاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ
وَقَالَتْ: هَلُمُّوا الدَّارَ حَتَّى تَبَيَّنُوا وَتَنْجَلِيَ الْعَمِيَاءُ عَمَّا تَجَلَّتْ

وَمِنْ بَعْدِمَا كُنَّا لِسَلَمَى وَأَهْلِهَا قَطِينَا وَمَلَّتْنَا الْبِلَادُ وَمُلَّتْ
سَنَجْزِي بِإِحْسَانِ الْأَيَادِي الَّتِي مَضَتْ لَهَا عِنْدَنَا مَا كَبَّرَتْ وَأَهَلَّتْ

فالصديق دائماً تجده يواسي، يريد أن يقع التعب والعتب عليه لا عليك. تجده في خدمتك. حتى إن من أعظم الخدمة خدّمة الصديق وخدمة الضيف، والرجل لا يأنف من ذلك حتى إن المقنع الكندي يقول:

وَأَنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيْمَةً لِي غَيْرَهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

فمن أحسن صفات المؤمن أنه يباشر الضيف ويرحب ويقدم الطعام بنفسه، وهذا أعلى ذوقاً وأعلى ويدل على كرم المعدن وطيب الأصل وعلى ارتفاع الهمة أن تخدم ضيفك، وهذا من الشرف العظيم الذي كانوا يتبارون فيه.

فهذا أمية بن أبي الصلت الثقفي من الطائف نزل على أصدقائه في مكة، فأكرمهم وواسوهم، جاء الطائف عام قحط وجذب وسنة مجحفة، انقطعت الأمطار فنزل عند أهل مكة فرحبوا به وحيوه وأنزلوه عند آل جدعان؛ لأن خاله عبد الله ابن جدعان الذي يقول هو فيه:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَبَاؤُكَ إِنْ شِيْمَتَكَ الْحَبَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

يقول: نُعْرِضُ لَكَ بِالسَّأَلَةِ فَيَأْتِي الْعَوْنُ مَبَاشِرَةً وَيَأْتِي الْإِكْرَامُ دُونَ تَأْخِيرٍ، فهو يمدح أصدقاءه بعدما واسوه، فقال:

لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ لَتَطْلُبَ الْأَعْذَارَ بِالْعِيدَانِ

يقول: إذا أتيت تطلب منهم حاجة، قالوا سريعاً: أبشر، تم. لكن البخيل ينكت الأرض بالعيدان يذهب يُخَطِّطُ ويرسم له خرائط من أجل الأعذار والمخارج

فيقول: تعال غداً، الكريم يُنجز والبخل يعد، مهما تأته لا تجده، فيقول أبناؤه:
خرج؛ مريض. أي: مرض من فاجعة الخبر. فيقول:

لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سُؤَالِهِمْ لَتَطْلُبِ الْأَعْدَارُ بِالْعِيدَانِ
بَلْ يُشْرِقُونَ وَجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا عِنْدَ السُّؤَالِ أَحْسَنَ الْأَلْوَانِ
وَإِذَا الْغَرِيبُ أَقَامَ وَسَطَ رِحَالِهِمْ رَدَّوْهُ رَبٌّ صَوَاهِلِ وَقِيَامِ

يكرمونه إلى درجة أنهم يعطونه جوارى، ويعطونه خيولاً.

وَإِذَا دَعَا الدَّاعِيَ لِيَوْمٍ كَرِيهَةٍ سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ

ووقت الشجاعة إذا دعاهم داعي الحرب يخرجون مع الشمس ويسدون شعاع
الشمس بخيولهم، فهذا من الصداقة.

ومن الصداقة والصديق أن أحد المحدثين كان يُحَدِّثُ في خراسان في مجلس
حديث، وقد كان للمحدثين مجالس، فمنهم من يبلغ طلابهم عشرة آلاف طالب
علم، ومنهم أكثر ومنهم أقل، فنظر ابن الأعرابي وهو محدث لغوي كبير صاحب
أدب وبيان، فإذا صديقان في مجلس الحديث يتحدثان، قال لأحدهما: من أين
أنت؟ قال: من الأندلس. وقال للآخر: وأنت؟ قال: من خراسان. قال: سبحان الله!
ألف بين قلوبكم الله، أنت من الأندلس وأنت من خراسان، اكتبوا اكتبوا. قطع
الدرس واستشهد بأبيات؛ لأنه أديب وسريع بديهة وحضره الأدب، فقال:

نَزَلْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ يَمْنِيَّةٍ لَهَا نَسَبٌ فِي الصَّالِحِينَ هَجَانِ
وَقَالَتْ وَأَلْقَتْ جَانِبَ السِّتْرِ بَيْنَنَا: بَأْيَةَ قَوْمٍ أَمْنِي الرُّجْلَانِ
فَقُلْتُ لَهَا: أَمَا تَمِيمٌ فَأُسْرَتِي فُدِيتَ وَأَمَّا صَاحِبِي فَيَمَانِي
رَفِيقَانِ شَتَّى أَلْفَ الدِّينِ بَيْنَنَا وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّتَى فَيَجْتَمِعَانِ

وهذا من أحسن الأبيات، فيقول: الإسلام ألف بيننا وجمعنا. ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

كان عليه السلام محمد القرشي الهاشمي يجلس مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، كلهم تحت مظلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فابن الأعرابي استشهد بهذه الأبيات.

وفي مجالس الحديث التي كان يحضرها كثير من طلاب العلم، حتى يقول أحد المحدثين، وكان شاعراً:

إِنِّي إِذَا اخْتُوشْتَنِي أَلْفٌ مَحْبَرَةٌ يَكْتُبُنِ: حَدَّثَنِي طَوْرًا وَأَخْبَرَنِي

يقول: إذا اجتمعت علي ألف محبرة وألف طالب علم يحملون المحابر، وأصبحت قريبة مني واجتمعوا مرة يكتبون: حدثني فلان وأخبرني.

نَادَيْتُ فِي النَّاسِ وَالْأَقْلَامُ حَافِلَةٌ تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ

هذا نص بيت لأمية بن أبي الصلت يقول:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شَيْبًا بِمَاءٍ قَعَادًا بَعْدَ أَبْوَالَا

فالصداقة تبنى على المصارحة وعلى المحبة وهي على المشاكلة، يقول عليه السلام: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». ولذلك إذا تحابَّ إنسانان فإنهما من قرب روح هذا من هذا، وبعضهم وإن كان صادقاً، لكنك لا ترتاح له، فابحث لك عن صديق ورفيق ترتاح له، طبائعه تقارب طبائعك؛ إذ يمكن أن تكون فيك دعاية وخفة دم وتحب النكتة وطيب القلب فيوافقك في هذه الصفات، لكن يأتيك رجل زميت ومتشدد في أخلاقه قاسٍ لا يصلح لك، ولكن يصلح مع رجل آخر مثله، وفي الصالحين من هو صارم حازم في أموره، وهذا ما يُعطِل المصالحة معه من جانب.

الإسلام يتسع للجميع، بشرط أن يكون على المنهج الصحيح منهج الرسول ﷺ، فيتسع الإسلام للرجل القريب السهل المزوج خفيف الظل، ويتسع الإسلام للتاجر الكبير الذي له أموال طائلة يؤدي حق الله، ويتسع للفقير الذي لا ينام إلا على الرصيف، ويتسع الإسلام للعالم الكبير الرباني وللمتعلم أو العامي، وللمجاهد وللزاهد وللعابد وللأمير وللوزير وللمنفق وللشباب، وللمرأة وللفيلسوف وللکاتب وللصحفي، هذا دين عظیم دين عالمي يتسع للجميع ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. يقول: أنتم مواهب واستعدادات لكن ابنوا، كلکم تؤسسون في حضارة الإسلام وسوف تصلون ما دام قصدکم الحق، ولكن قصدي من ذلك تدمر وتفلت الأصدقاء واختلاف بعض الأصحاب. ولا يجمع الناس شيء كالإيمان بالله عز وجل والعمل بكتابه وبسنة نبيه ﷺ حتى يكونوا على كلمة سواء.



العلم

العلم أشرف مطلوب، وأجل مقصود، وبه يُعرف الله عز وجل، والعلم انشراح للصدر وراحة للفكر وعلو للذكر واستقامة للأمر، بالعلم يجلس الصعلوك على أسرة الملوك، وبالعلم يستشهد العلماء على وحدانيته ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا تَفَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا فَأَشْرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

أول كلمة نزلت من السماء من الله ﷺ على رسوله ﷺ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لشرف العلم وشرف المعرفة وشرف الفائدة، ولم يطلب من الرسول ﷺ أن يطلب التزود إلا من العلم ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

يقول أبو إسحاق الألبيري في قصيدته الرائعة التي أولها:

تَفَتُّ فَوَادَكَ الْإِيَّامُ فَتًا وَتَنَحْتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحَاتًا

يقول فيها - يمدح العلم ويشجع ابنه على طلب العلم وأنه مثل السيف:-

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو تُصِيبُ بِهِ مَضَارِبَ مَنْ أَرَدَتَا
وَكُنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لَصًا خَفِيفُ الْحِمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

لأن العلم معك في السوق وفي البيت والمكتب والطريق والسيارة والطائرة، كما يقول الشافعي:

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا يَمُمْتُ يَتْبَعُنِي صَدْرِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنَ صُنْدُوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِيَ أَوْ كُنْتُ بِالسُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ بِالسُّوقِ

فيقول: العلم كنز لا تخالف عليه لصاً، فاللص يسرق المال وإذا سُرِقَ المال انتهى. فانظر البورصة الآن، التاجر يمسي في ليلة صاحب ملايين ويصبح فإذا هو فقير، لكن العالم من لا يسرق علمه، فعلمه في صدره وفي فكره.

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفَاءُ شَدَدَتَا

كلما علمت وكلما خطبت ودرست زادك الله من الفتوحات وفتح لك الكنوز،
وكلما أمسكت نقص، فالعالم إذا بخل بالعلم أغلق الله عليه منافذ المعرفة.

فَبَادِرْهُ وَخُذْ بِالْجَدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ انْتَمَعْتَ
أي: بادر العلم. وخذ وتزود.

وَإِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ رُؤْسَتْ
أي: صرت عالماً وعندك متون وحفظ، أصبحت وجيهاً في الناس مصدراً.
فَلَا تَأْمَنْ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُمْ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَ؟
إِذَا لَمْ يَفِدْكَ التَّعْلِيمُ خَيْرًا فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا عَلِمْتَ

إن لم يكن العلم قد دلك على تقوى الله ودمعة في السحر وسجدة، والصف
الأولى ولم يجعلك حمامة مسجد وعندك مصحف تتلوه، وصاحب أخلاق مع الناس
متواضعاً وتكتم الغيظ فتكون من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وتسامح
من أخطأ في حقك، باراً بالديك وصولاً لأرحامك محباً للخير، فلا حياءً الله هذه
المعرفة، إذا لم يزدك العلم خيراً.

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَغَاوٍ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَ
هذه قصيدته في مدح العلم وأهل العلم، وفي وصيته لابنه في تقوى الله عز وجل.

ومن أجل ما أوصى به العلماء قصيدة علي بن عبد العزيز الجرجاني، التي
هي من أمتع وأجمل وأرق الشعر، بل هي في درجات شعر المتنبي وأبي تمام، وكان
هو قاضي أصبهان وكان وجيهاً وشاعراً وأديباً، وله أبيات من ضمنها:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ. وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الدَّلِّ أَحْجَمًا

كان ينقبض من مجالس العامة والناس والقييل والقال.

أَشَقَى بِهِ غَرْساً وَأَجْنِيهِ ذَلَّةً إِذَا فَاتَبَاعُ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
وَلَمْ أَبْتَدِرْ فِي مُهْجَةِ الْعِلْمِ مَطْلَبِي لَأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَأُخْدَمَا

أي: إذا لم يدلني على تقوى الله والمحافظة على الصلوات وبر الوالدين وحسن الخلق فليتنا ما ضيعنا الشباب في امتحانات وفي الحفظ وفي المذاكرة وفي التعب وفي السهر، ثم ما النتيجة؟! النتيجة يأخذ الإنسان بالعلم المال ويأكل به.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَسُوا مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

وهي اثنان وعشرون بيتاً من أجمل ما قيل في هذا الباب.

وكذلك قصيدة ابن الوردي الذي يقول:

اعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلِ وَقُلِ الْفُضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ
ثم يقول:

فِي ارْتِدْيَادِ الْعِلْمِ ارْغَامُ الْعِدَى وَجَمَالِ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ
لَا تَقُلْ: قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرَبِ وَصَلَ

أي: لا تقل: العلم ذهب أصحابه ومات أصحابه. فمن أوصل سفيان الثوري سوف يوصلك، والذي هدى الشافعي ووقفه يوفقك، والذي فتح على أحمد بن حنبل يفتح عليك، الله حي لا يموت وخزائنه مלאى، ونواله موجود، لكن اطلب واسأل واصدق له في العبودية عز وجل.

والعلم يميز البهيمة التي تتدرب وتتعلم عن الأخرى غيرها، حتى إنك تجد الكلب المعلم صيده حلال وأما الكلب غير المعلم فصيده حرام ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا

أَجَلٌ لَهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَكُمْ أَطْيَبْتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

[المائدة: ٤]. يقول حافظ الحكمي:

وَمَيِّزَ اللَّهُ حَتَّى فِي الْبَهَائِمِ مَا مِنْهَا يُعَلِّمُ عَنْ بَاءٍ وَمَغْتَشِمِ

فالجاهل من الكلاب لا يحل صيده ولا يؤكل ما صاده، وأما المدرّب الذي علمناه فإذا صاد نأكل صيده! فانظر كيف ميز الله عزّ وجلّ بين البهائم.

فالعلماء سادة ومجالسهم إفادة ومصاحبتهم زيادة والوفود إليهم أعظم وفادة، فهم للخير قادة وللدن ذادة، يذودون عنه من ناوأه إذا صدقوا في التعلم والعمل وحمل الميثاق وهو مراقبة الباري عزّ وجلّ، والطريق العظيم للتعلم على المشايخ والعلماء، لكن القراءة القراءة.

يقول عبد الرحمن بدوي: المعرفة ثلاثة أسس: القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. لأن المسألة ثلاثة وثلاثة في ثلاثة تسعة، فبدوي يقول: العلم والمعرفة القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة. وإسحاق نيوتن يقول: النجاح: العمل، ثم العمل، ثم العمل. ويقول نابليون: كسب المعركة يحصل بالمال، ثم المال، ثم المال. فهذه تسعة، وهي من الفوائد التي جرت بين الناس، فالقراءة هي الطريق الواسع للمعرفة بأن تكون طالب علم، ولذلك انظر كلمة: اقرأ.

اقْرَأْ كِتَابَكَ هَذَا الْعِلْمَ تَسْمَعُهُ مَا بَيْنَ طَلْعَتِهِ مِنْ سَابِقِ الْأَمَمِ
مَنْ نَحْنُ قَبْلَكَ إِلَّا نُطْفَةٌ غَرِقَتْ فِي الْيَمِّ أَوْ دَمْعَةٌ خَرَسَاءُ فِي الْقَدَمِ
أَكَادُ أَقْتَلِعُ الْآهَاتِ مِنْ فَرَطِي إِذَا ذَكَرْتُكَ أَوْ أَرْتَاعُ مِنْ نَدَمِي

فالعلم منه القراءة والاستماع والتفقه وطلب العلم على المشايخ، وكلها تؤدي إلى ذلك.

يقول أحد عشاق الكتاب: إن القراءة والذهانة والفهامة والدراسة أصل التعبد والتسهل والتزهد والرياسة والسياسة. الدنيا والدين أساسها القراءة، حتى إنك لا تجد أحداً بارزاً في مكان ما إلا لأنه تعلم شيئاً من المعرفة وعرف، يعرف كيف يتكلم ويحاور ويأخذ ويعطي ويدير الجلسة، يؤثر في الناس بأفكاره يبدع بألفاظه، ينظم أبياتاً راقية يكتب مقالاً خلاصاً، أما الجاهل الذي لا يقرأ يومه ولا نهاره فهو كتلة من اللحم؛ يومه مثل أمسه وأمسه مثل يومه، ويأتي غده مثل اليوم، فالمطلوب أن نتعلق بالعلم ونزداد منه معرفة، حتى يقول ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ».

وأوصى ﷺ بطلب العلم وحث عليه ويبيّن أن أهل العلم هم أفضل الناس، وفضل العلماء كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن معلم الناس الخير الذي يتعلم ويعلم الناس تستغفر له حتى النملة في بيتها وحتى السمك في الماء وحتى الطير في الهواء.

يقول ابن عباس «لما تعلم العلم: «ذَلَّتْ طَالِباً فَعَزَزْتُ مَطْلُوباً». أي: إنني لما كنت طالباً كنت أذل. حتى إنه كان يذهب إلى الشيخ وينتظر عند الباب حتى يقوم الشيخ، ويقول: «وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ آتِي بَيُوتِ الْأَنْصَارِ لِأَطْلُبَ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فِي الْقِيلُولَةِ، فَأَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ نَائِماً فَلَا تُوقِظُهُ الْجَارِيَةُ فَأَبْقَى عِنْدَ الْبَابِ، وَاللَّهِ إِنَّ الرِّيحَ بِسُمُومِهَا تَلْفَحُ وَجْهِي بِالْغُبَارِ وَإِنِّي أَنْتَظِرُ حَتَّى يَقُومَ فَأَطْلُبَ الْعِلْمَ مِنْهُ». فصار ابن عباس «عالم الدنيا، فصار المرجع؛ لأنه لما تعلم وصار بحراً صار يفد إليه الناس يضربون إليه أكباد الإبل من العراق واليمن ومصر والشام، ومن كل أطراف الجزيرة، ويقول: كان له مجلس حديث في الحرم، فإذا صلى الفجر ذكر الله عز وجل حتى ترتفع الشمس، ثم قال: «عَلَيَّ بِأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالتَّفْسِيرِ». فيفتيهم ويعلمهم ويدرسهم، ثم يُقدِّم الطعام من قبله، وهو يُدرِّس في الحرم، فهو قد جمع بين الإنفاق من العلم والإنفاق من الطعام «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» [الحديد: ٢١]. ثم قال: «عَلَيَّ بِأَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ». ثم بأهل الفتيا ثم أهل السنة والحديث، ثم إذا اقترب الظهر قام، وهذا لا يكون إلا من مثل ابن عباس «لأنه طلب وحرص، وتلك هي الليلة المباركة في حياة ابن عباس».

يَا لَيْلَةَ الْجَزْلِ هَلَّا عُدَّتْ ثَانِيَةً سَقَى زَمَانِكَ هَطَّالٌ مِنَ الدِّيمِ

لأنه في ليلة رسول الله عند ميمونة خالة ابن عباس نام عند رسول الله ﷺ فلما خرج رسول الله ﷺ قام ابن عباس «إلى القرية فقرب ماء له؛ ليتوضأ ﷺ» قال: «مَنْ قَرَّبَ لِي هَذَا اللَّهُمَّ، فَقِهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ». فانطلق هذا الفتح وهذا الفهم من تلك الليلة، عمره ثماني سنوات ويعلم أن رسول ﷺ إذا خرج يحتاج الماء فقرب له الماء، فرسول ﷺ لم يدع له بمال ولا بذرية ولا بدور ولا بقصور ولا بخزائن، بل قال: «اللَّهُمَّ، فَقِهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ». فالفقه في الدين علم السنن والفهم والتأويل تفسير كتاب الله عز وجل.

ولما قام في الحرم رجل حَادٌّ وَغَضُوبٌ يتكلم على ابن عباس، وكان ابن عباس حليماً عالمياً بحراً ذكياً مَرَساً داهية، آتاه الله صباحة ورجاحة وملاحة، وهو جالس بين الناس كأنه القمر ليلة أربعة عشر، فرجل مستعجل يريد أن يسأل ابن عباس، فبدأ ينتظره قليلاً فغضب ذلك الرجل فاسب ابن عباس، فقال ابن عباس: «أَتَسْبِيْنِي وَفِي ثَلَاثِ خِصَالٍ؟». قال الناس: ما هي؟ قال: «وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ بِقَطْرِ بَارِضٍ إِلَّا حَمِدْتُ اللَّهَ وَلَيْسَ لِي فِيهَا نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ، وَلَا سَمِعْتُ قَاضِيًا يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ وَلَيْسَ لِي عِنْدَهُ قَضِيَّةٌ، وَلَا فَهَمْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَدِدْتُ لَوْ يَفْهَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَا أَفْهَمُ». وذلك لعلمه ولعلمه ﷺ ورجاحته لنصحه فأعطاه الله عز وجل، فينبغي على من يتعلم آية أو حكمة أو حديثاً أو قصة أن يفعلها

في حياته، وإلا فما فائدة أن يسهر الإنسان مع المجلدات دون العمل بها؟! ويقول الله عز وجل عن أعدائه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. وقال عن العالم الذي ضل وانحرف عن الدين في عهد موسى عليه السلام: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فهذا مثل الذي لا يستفيد من الحكمة وتضيع عليه المعرفة ولا يظهر عليه البركة بركة العلم في الصلاح وفي التقوى وفي العمل وفي إسداء الخير للناس، وإنما جئت بهذا لذكر العلم.

والمتنبي في قصيدة يقول في كافور، وهي من أجمل قصائده التي قالها:

وَلِلسِرِّ مِنْهُ مَوْضِعٌ لَا يَنَالُهُ نَدِيمٌ وَلَا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ

إلى أن يقول:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجٌ سَابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهُ وَخَطَابُ

يقول: أعز مكان في الدنيا وأشرف مكان أن تكون على ظهر الفرس؛ لأنك إذا كنت هناك كنت صاحب عزة ودافعت عن مجدك وعن دينك وعن رسالتك فهابك الناس.

وخير جليس في الزمان كتاب؛ لأن الكتاب لا يؤذيكَ ولا يُملِّكُ ولا يُسَمِّكُ ولا يغتابك ولا يذلِكَ ولا ينم عنك ولا يثقل عليك، إن قرَّبته دنا وإن أبعدته دنا وإن كتمته سرًّا كتم، وإن أردت أن يضحكك أضحكك وإن أردت أن يبكيك أبكاك، وإن رجعت له بعد سنة ما عتب عليك ولا عاتبك: لِمَ تركتني وَلِمَ هَجَرْتَنِي؟ خفيف

المحمل تجعله في جيبك وتحت إبطك وتأخذه معك في السيارة، ويجمع لك العلوم والدهور والقرون والأزمان ما بين آية محكمة وحديث صحيح وقصة وخبر طريف، وبين نادرة وبين نكتة وبين موعظة، وينقل لك شجون العالم وأخبار الدنيا وأفكار المعمورة، فيجمع لك أفكار الغرب والشرق والعرب والعجم والبربر، يجمع لك التاريخ والأدب والفقه والتفسير والجغرافيا، ويُحدِّثك نظماً ونشراً، وإذا مللت وقف وسكت وإذا أطبقته هدأ مكانه، أما الجلساء فأحدهم - إلا الصالحين - يلمز، والآخر يفتاب وإذا قطعت عليه غضب وإذا سكت شاركته في الإثم، وبعضهم ثقیل يزورك الساعة الثانية عشرة ليلاً ويبقى عندك ويأكل طعامك في الله ويحبك في الله ويعانقك في الله ويشرب في الله، ويتصل بك في اليوم عشرين مرة، ويستلف مالك في الله ولا يردها في الله، وهذا كله في بعض الصداقات، فهذا الثقل كله منفي عن الكتاب، ولذلك أجمع العقلاء في العالم على أن أحسن من تجلس معه الكتاب.

وكان ابن المبارك إذا جمع الكتب حوله قال: أنا بين أصحاب رسول الله ﷺ - يقصد الأحاديث - أنتم تغتابون الناس أما هؤلاء فلا يغتابون الناس.

والأصمعي قيل له: لِمَ نراك وحدك؟ قال: أنا لست وحدي، أنا معي أصدقاء بررة وجُلّاسٌ خيرة. فينظرون فإذا الكتب بين يديه. وكان بعضهم يقول: إن الإمام أحمد كان إذا نام كانت الكتب عند رأسه عشرة أو عشرين كتاباً، وقال له رجل: أريد خراسان. قال: خذ الكتب، لا تستوحش.



العبون في الشعر

من آخر ما قرأت بيتين للشاعر الإيراني
العالمي المشهور السعد الشيرازي، يقول فيهما:
بَكَتْ عَيْنِي غَدَاةَ الْبَيْنِ دَمْعاً
وَأُخْرَى بِالْبُكَاءِ بَخِلَتْ عَلَيْنَا
فَعَاقَبْتُ الَّتِي بِالدَّمْعِ ضَنْتُ
بِأَنْ أَغْمَضْتُهَا يَوْمَ التَّقِينَا

معنى البيتين يقول: إن عيني لما فارقت
أحبابي بكت، أما الثانية فما بكت ولا شاركتنا،
فلما التقينا بعد مدة فتحت هذه: لترى الأحباب،
أما هذه فأغمضتها؛ عقاباً لها.

وهذه تُسمى لغة العيون، ومن أحسن من تفنن فيها الشعراء عند العرب، حتى إن ابن كثير ذكر ابن الخياط في ذلك، وهو شاعر من أعظم الشعراء له ديوان كبير، قال بعضهم: أحسن ما في ديوانه قوله:

لَهَا عَيْنٌ أَصَابَتْ كُلَّ عَيْنٍ وَعَيْنٌ قَدْ أَصَابَتْهَا الْعُيُونُ

فإذا عَلِمَ هذا، فقد قال العرب في العين كثيراً، حتى إن الصِّمَّةَ القشيري قال:

بَكَتْ عَيْنِي الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

لأنه يقول:

أَلَيْسَتْ عَشِيَّاتِ الْهَوَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنَيْكَ تَدَمَعَا

إلى أن يقول:

بِنَفْسِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَحْسَنَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبِّعَا

بَكَتْ عَيْنِي الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

يقول: لما بكت عيني اليمنى وقلت: خافي الله لا تحزني ولا تقلقي ولا تجزعي، وانظري إلى الشمال كيف صبرت واحتسبت، وبعد قليل فإذا الشمال تبكي معها. فلا سكنت هذه ولا صبرت تلك.

وعلى هذه القافية ذكر الترمذي عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها أتت إلى الحجون تزور قبر أخيها عبد الله، فلما وقفت بكت وقالت: «وَاللَّهِ مَا مَثَلِي وَمَثْلُكَ - يَا عَبْدَ اللَّهِ - إِلَّا كَمَا قَالَ مُتَمِّمُ بْنُ نُؤَيْرَةَ - يرثي أخاه مالكا -:

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةَ بُرْهَةٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبُّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا بِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ تَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

العبون في الشعر

وفي بيت آخر لا يلحق بالقصيدة يقول بعضهم:

فَلَيْتَ الْمَنَايَا كُنَّ خَلْفَنَ مَالِكَا فَعِشْنَا جَمِيعَا أَوْ ذَهَبْنَا بِنَا مَعَا

فدل على اهتمام العرب بالبكاء وبالعيون، حتى إنني رأيت الأعور السلمي وله ابن ضلّ منه، فبكى عليه كثيراً، فكان يقول:

بَكَيْتُ بَعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ^(١) وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ
عَذِيرُكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةَ بِالْبُكََا فَمَا لَكَ يَا عَوْرَاءُ وَالْهَمَلَانِ؟

يقول: أعذرك يا صحيحة، والبكا، فما بك يا عوراء؟

فكانوا يرسلون دموعهم وقت الفراق ووقت الحزن وفقد الابن ونحو ذلك، ولكن دموع المؤمنين يُثَاب عليها صاحبها إذا احتسب، وأما دموع التسخط فإني أخشى على صاحبها منها، حتى إن كثيراً من الناس كانوا يبكون بكاء الفرح؛ لأن هناك دموع فرح وهي باردة ودموع حزن وهي حارة، وفيها يقول أبو هلال العسكري: إنه بُشِّر بآبن فبكى وبُشِّر بموته فبكى، قال:

يَا عَيْنُ، صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّنِي مِنْ عِظَمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي

قالوا: إذا اشتد فرح الإنسان إلى درجة لا يملك نفسه انفجر باكياً، ولذلك ترى الأم إذا طالت غيبة ابنها ثم وفد إليها فإذا هي تبكي؛ ما استطاعت أن تعبر بالضحك، ومثلما ورد في الحديث الصحيح أن أبي بن كعب رضي الله عنه - سيد القُرَاء أبو المنذر - أتاه صلى الله عليه وسلم وقال: «إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أقرأ عليك البينة. قال: وسماني في الملاء الأعلى؟». أي: الله قال: اقرأ على أبي بن كعب؟ وسماه

(١) أي: بعينه الصحيحة.

الله عز وجل، قال ﷺ: «سَمَّاكَ». فبكى أَبِي بَن كَعْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فبكاؤُهُ هَذَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرْحِ عَلَى مَا بَشَّرَهُ بِهِ سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا ذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «فِي مَسْأَلَةِ الْعَيُونِ وَوَصْفِهَا، حَتَّى إِنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ الْوَاسِطِيَّ مُحَدَّثًا مَشْهُورًا كَبِيرًا عَالِمًا ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ، فَقِيلَ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِعَيْنَيْكَ يَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ؟ قَالَ: أَذْهَبَهُمَا بِكَاءِ الْأَسْحَارِ. حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:»

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا فَفِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورٌ
عَقْلِي ذَكِيٌّ وَقَلْبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ وَفِي فَمِي صَارُمٌ كَالسَّيْفِ مَشْهُورٌ

فَهَنِيئًا لِمَنْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ، حَتَّى إِنْ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ كَمَا أَخْبَرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ: «رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ». أَيُّ: حَيْثُ لَا رِيَاءَ وَلَا سَمْعَةَ وَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ. وَهَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءُ حِينَمَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ مَسْأَلَةِ الدَّمْعِ فَإِنَّهُمْ يَسْهَبُونَ وَيَبَالِغُونَ، حَتَّى يَقُولُ أَبُو الطَّيِّبِ:

بَادِرْ هَوَاكَ صَبْرَتْ أَمْ لَمْ تَصْبِرْ وَبُكََاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَدَحَ فِيهَا ابْنَ الْعَمِيدِ وَهِيَ مِنْ أَشْهَرِ قِصَائِدِهِ، يَقُولُ فِي ابْنِ الْعَمِيدِ:

مَنْ مُخْبِرِ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُمْ ^(١) جَالَسْتُ جَالِينُوسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَقَرَأْتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ كُتُبِهِ مُتَبَدِّيًا مُتَعَلِّمًا مُتَحَضِّرَا
قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

(١) أي: ترك العرب وراح إلى فارس.

على مذهب الشعراء في المبالغة إلا المتبني؛ فإن له أبياتاً في العيون وفي البكاء، حتى إنه يقول:

إِنَّ الْمُحِبَّ مُضَرَّجٌ بِدُمُوعِهِ مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضَرَّجٌ بِدِمَائِهِ

في قصيدته التي يقول فيها:

لَا تَعْذِلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

ويقولون: إن أبدع ما فعله العرب الفراقيات. لأن الفراق هذا هو الموت الأحمر، كما يقول صاحب (طوق الحمامة). فها هو أبو الطيب يقول:

لَوْ لَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

الفراق موت أحمر، حتى إنه قيل لجعفر الصادق: لماذا لا تتخذ لك إخواناً؟ قال: خوف وحشة الفراق. لأنني إذا آخيتهم، ثم ابتعدوا عني وفارقوني، فلا أستطيع أن أواصل. وكان ابن المبارك إذا ودَّع إخوانه في الله يبكي ويقول:

وَحَفَفَ وَجَدِي فِي الْبُعَادِ لِأَنَّهُ فِرَاقُ حَيَاةٍ لَا فِرَاقُ مَمَاتٍ

أي: إن الذي خفف عليه المصيبة أنه يفترق ثم يعود، إلا فراقاً واحداً ليس فيه عودة وهو الموت ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. فينبغي للإنسان إذا فارق أحبابه أن يتذكر ذاك الفراق، وإذا سافر من مكان أن يتذكر ذاك السفر، وإذا ودَّع المحبين أن يتذكر وداع الدنيا والقدوم عليه عز وجل، فهذا شأن الأدب العربي في استخدام الفراقيات، وهو الذي يُسمى عند الدموع لغة العيون، فإن العين هي الموضحة وهي الجالية لما يعتقد صاحبها، وهي التي تُظهر الأسرار من خلال خلعاتها، ومن خلال تقلباتها، فذلك ذكروا دموعهم وذكروا أساها وكيف أنهم تأثروا، وكيف أن ذاك دمعت عيناه وأرسل دموعه على حبيبته.

ذهبت إلى طهران في إيران من أجل ديوان السعد الشيرازي؛ لأن عنده
حكمة، حتى يقول من ضمن أبيات جميلة:

مَا مَرَّ طَيْفُ الْهَوَى بِمَسْمَعِي لَوْ سَمِعْتُ حَمَامَ الْحِمَى نَاحَتْ مَعِي
يَا مَعْشَرَ الْخِلَائِنِ قُولُوا لِلْمَعَايِ: لَيْسَ تَدْرِي مَا بِقَلْبِ الْمُوَجَعِ

وهو صاحب المقطوعة المشهورة، فهي مقطوعة عالمية تُرجمت إلى لغات
كثيرة، يقول:

قَالَ لِي الْمَحْبُوبُ لَمَّا زُرْتُهُ: مَنْ بَبَابِي؟ قُلْتُ: بِالْبَابِ أَنَا
قَالَ لِي: أَخْطَأْتُ تَعْرِيفَ الْهَوَى حِينَمَا فَرَّقْتَ فِيهِ بَيْنَنَا
وَمَضَى عَامٌ فَلَمَّا جِئْتُهُ أَطْرُقُ الْبَابَ عَلَيْهِ مُوَهَّنَا
قَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: انْظُرْ فَمَا تَمَّ إِلَّا أَنْتَ بِالْبَابِ هُنَا
قَالَ لِي: أَحْسَنْتَ تَعْرِيفَ الْهَوَى وَعَرَفْتَ الْحُبَّ فَاذْخُلْ يَا أَنَا

فسموها: يا أنا. في الاتحاد العالمي، حتى إن بعضهم يقول: إنها موجودة
الآن في مجلس الأمن باللغات لاتحاد الأمة. أي: أنا وأنتم شيء واحد. ويذكرني
ذلك بهبنقة وهو أحق، يقول: إن أمه ألبسته قلادة ونام بها، ثم قام أخوه وهو
نائم وأخذ القلادة من عنقه وكان عهده أن القلادة في عنقه، فأيقظ أخاه من
النوم، فقال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟ وذكرني ذلك بأبي بكر الصديق رضي الله عنه
وهو أرفع وأجل وأعظم - وهذا يسمونه شاهداً - أتى فكتب لعيينة بن حصن كتاباً
أن له قطعة أرض، أي: هبة وأعطية. لأنه خليفة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال: «ارْسُمَهَا
وَاخْتُمْهَا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: الْخِثْمُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه». لأنه
كان قاضي المدينة والختم عنده، فذهب عيينة لابن الخطاب، وإذا هو يطلي إبل
الصدقة في سبيل الله، كان يطليها يريد الأجر والثوبة رضي الله عنه، ولا غرو، فهو من

أولئك الملاء الأبرار، فقال: هذا خطاب من خليفة رسول الله ﷺ أقطعني الأرض الفلانية من جبل كذا إلى جبل كذا. قال: «أنتني بالخطاب». فقرأه فمزقه عمر رضي الله عنه. قال: تمزق خطاب أبي بكر رضي الله عنه ولم تختمه؟ قال: «كنا نتألفكم يا عيينة، والإسلام كان ضعيفاً، أما الإسلام فقد أصبح بارزاً قارحاً قوياً، فإن ارتدت ضربناك بالسيف». فعاد إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مغضباً، فقال: «أنت الخليفة أم عمر؟». قال: أنا هو غير أنه إياي». أي: ما الفرق بيني وبينه؟ أبو بكر عمر وعمر أبو بكر. فهما روح في جسدين، ولذلك جمع بينهما الإسلام والدين، فصار الواحد منهم يقول كلمته، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه سكت في اليوم الثاني لوفاة رسول الله، بعدما تكلم في اليوم الأول وأغمي على عمر رضي الله عنه، فتكلم وكان فارس الحلبة ذاك الوقت أبو بكر رضي الله عنه، وفي اليوم الثاني رجع أبو بكر رضي الله عنه يبكي لما تذكر المنبر ووفاة رسول الله ﷺ، فقام عمر رضي الله عنه يخطب في الناس وقال: «بأيعوا أبا بكر». وذكر مناقبه وأخذ يد أبي بكر أمام الناس ورفعها، وأخذ يقيمها للناس ويبايع أبا بكر «فهؤلاء هم الملاء الأخيار».

ونعود إلى كلمة السعد الشيرازي؛ لأن هناك أدباً عربياً وأدباً فارسياً، حتى إنهم يجعلون الشعراء العالميين الخمسة في هذا العصر: شكسبير من الإنجليز، ومحمد إقبال من باكستان، وطاغور من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا، والسعد الشيرازي من إيران. وعموماً وجد في العصر شعراء كبار، لكن لأن هؤلاء تُرجم شعرهم للغات كثيرة وهم يُخاطَبون العالم في شعرهم، وإلا فإن في العرب شعراء أقوياء، لكن بعضهم محلي إقليمي وبعضهم لم يُترجم شعره للناس، فنرجع ونقول: إن من أحسن ما يقوله العرب إذا ذكروا الشجاء وذكروا الفراق، حتى إن أحدهم يقول:

شَكَأَ أَلَمَ الْفُرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي وَرُوعَ بِالْجَوَى حَيٌّ وَمَيِّتٌ
وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَمَا رَأَيْتُ

والطنطاوي استحسن مثل قول مجنون يوم يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافٍ^(١) الْيَمَامَةَ حُكْمَهُ وَعَرَّافٍ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي

يقول: أتيت عند عراف اليمامة وعراف نجد، فقلت: احكموا في أمري، وخذوا ما تريدون من الإبل والمال [ما شئتم]. على أن تداوياني من هذا الحب وهذا الهوى، فوالله ما من رقية يعلمانها ولا شربة إلا بها سقياني، فقالا: شفاك الله، والله ما لنا بك حيلة:

فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لَنَا بِمَكْنُونٍ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِ

فالإنسان إذا تولّع بشيء صار همه وكاد يقتله، حتى إنهم يذمون العشق.

وقد قرأت لابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى رجلاً في عرفة يمشي كالموسوس، قال: ما هذا؟ قالوا: عاشق كاد يذهب عقله وأُصيب بالذهول. فقال ابن عباس: «أعوذ بالله من العشق». والمتبني في القافية يقول في قصيدة مشهورة له:

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ؟
وَعَدَرْتُهُ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّي عَيْرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

يقول: ابتلاني الله: لأنني كنت أستهزئ بهم، فقلت: كيف يموت من لا يعشق؟ ولكن الأولياء لهم حب أرفع وأسمى وهو حب الواحد الأحد؛ يحبهم ويحبونهم، حتى إن أحد الصالحين الأخيار من الشعراء يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بَلِيلَى وَسَلَمَى يَسْلُبُ اللَّبَّ وَالْعَقْلَا
فَمَاذَا عَسَى يَصْنَعُ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى

(١) عروة بن حزام.

إذا كان حب المرأة وحب المال وحب المنصب يسلب العقل، فكيف بمن أحب الله عز وجل ١٩. ولذلك أعظم كلمة: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. حتى يقول الألوسي يمدح الواحد الأحد في الحب:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرُّكَّابُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤْمِلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضِيعٌ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فنسأل الله أن يجعلنا من أحبابه، وليس العجب من قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فإنه عز وجل خلقهم ورزقهم لكن العجب من قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. كيف أنه خلقهم وأعطاهم ومنحهم وتولاهم، ثم أحبهم عز وجل، ومفاتيح محبته عز وجل القيام بالفرائض وتلاوة كتابه بتدبر وكثرة ذكره، وعمل الصالحات واتباع سيد الخلق ﷺ وتجديد التوبة وكثرة الاستغفار. فهذا هو الذي يبلغ درجات الصديقية عند الله الواحد الأحد.

أُحِبُّكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَبُوتِي أَفْسِرُ مَاذَا وَالْهَوَى لَا يُفْسِرُ



قصة وقصيدة

نعني بها القصة التي عُمِلَتْ من أجلها
القصيدة ونُظِمَتْ، لأن الشعر إذا اتفق مع النثر
أنتجا إبداعاً بشرياً.

ومن ذلك أنه ﷺ قبل أن يغزو مكة ويفتحها
منتصراً؛ ليعيد الحق إلى نصابه وليؤسس دولة
العدل في العالم، وليقيم الحضارة الربانية، إذ
كان ﷺ خرج شريداً طريداً من مكة، لكن انظر
إلى نصره عز وجل جمع له القبائل والناس، ودخل الناس
في دين الله أفواجا، فأتى يزحف بالجيش إلى مكة،
وقبلها يقول حسان رضي الله عنه كأنه ينظر إلى المعركة
ويراها وهو شاعر الإسلام شاعر الرسول ﷺ،

يقرب له الرسول ﷺ المنبر ويقول: «اهْجُهمْ وَرُوحُ الْقُدُسِ يُؤَيِّدُكَ». أي: جبريل معك. فما هو بأي كلام، حتى السماء معه، حتى يأتيك حسان رضى الله عنه بالقافية كأنها صاعقة تُحرق ما قبلها، حتى يقول حسان رضى الله عنه:

وَبِیَوْمٍ بَدْرٍ إِذْ يَصْدُ وَجُوهَهُمْ جَبْرِیلُ تَحْتَ لِوَانِنَا وَمُحَمَّدٌ

يقول: قيادة السماء مع جبريل رضى الله عنه وقيادة الأرض مع محمد رضى الله عنه، والصحيح أن الذي قاد الملائكة -عليهم السلام- وقاد الصحابة رضى الله عنه هو محمد رضى الله عنه، فالقيادة العليا في يد الرسول ﷺ، فقبل معركة بدر يقول حسان رضى الله عنه:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كُدَاءُ

يقول: لا رد الله علينا خيلنا، لا جعلها ترجع إذا لم تروها تثير الغبار في مداخل مكة طوابير تدخل في مواكب مع رسول الله ﷺ، والنقع: الغبار. وكداء: جبل كُدَي يُقَابله في مكة. حتى يقول ابن الفارض:

مَنْ لَقِبَ حَلْ جَرَعَاءِ الْحِمَى ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رَدُّ عَلَي
فَاسْأَلُوا سُكَّانَ وَادِي سَلَمٍ فَهُوَ مَا بَيْنَ كُدَاءٍ وَكُدَي

فحسان رضى الله عنه قبل المعركة يقول:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كُدَاءُ
تُظِلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

أي: إن الفارس يأخذ راحته، يسبح سباحاً، يقفز بالبطل، على ظهره خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، يسبح بهم سباحاً، كأنه يسبح في الموج.

فَأَمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اغْتَمَرْنَا

يقول: دعونا نكمل العمرة، دعونا فالحق معنا، دعوا محمداً ﷺ يدخل البيت.

وَكَانَ الْفَتْحُ وَالْكَشَفُ الْغَطَاءُ

انتهى الموضوع وبان الحق من الباطل، بان الصدق من الكذب وأنتم على الكذب.

وَالْأَفَاصِيرُ لِحِلَادِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: دعونا نتصارع نحن وأنتم، ونتجالد بالسيوف والله يعز من يشاء.

وَقَالَ اللَّهُ: قَدْ أَرْسَلْتُ جُنْدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهُ الْبَقَاءُ

وأنعم بالأنصار ﷺ ورحمهم وجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ

فَنَهْجُو بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

ثم عرض بأبي سفيان بن الحارث، وكان يهجو رسول الله ﷺ فقال:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ

بِأَنَّ جِيوشَنَا تَرَكْتُكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهُ الْإِمَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفَاءٍ

وهذا قبل إسلامه، لكنه أسلم فيما بعد ﷺ، وحتى كل الأمة لا تصل ذرة

من جلالة ﷺ.

فَشَرُّكُمَا لَخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

هَجَوْتُ مُبَرَّأً بَرَّارٍ رَحِيماً رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

لا يعدله أحد ﷺ.

وانطلقت الجيوش فاتحة وأتى رسول الله ﷺ فقسّم الجيوش على أربعة أقسام تدخل مكة من أربع جهات، دخلت ثلاثة منها دون مواجهة إلا جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه فتعرض له عكرمة رضي الله عنه وأناس معه عند الخندمة، مدخل من مداخل مكة.

وجاء أحد كفار قريش وكان يسقي سيفه السم قبل دخول المسلمين، تقول زوجته: ما لك؟ قال: أقتل بهذا محمداً. ويوم جاء المعركة حضر هذا بسيفه الذي سقاه سمّاً، إذ أقبل سيف الله المسلول خالد بن الوليد أبو سليمان رضي الله عنه، وأقبل بالخيول وفلول المسلمين، ولما اقترب من عكرمة رضي الله عنه ومن معه فخرج لهم خالد، أي: أظهر أنه فارٌّ منهزم. ثم اغترهم فخرجوا له، فلما خرجوا بخيولهم كرّ عليهم خالد رضي الله عنه ولعب فيهم وصفى حسابهم في ذلك اليوم، هرب صاحب السيف ودخل غرفته وأغلق الباب فقالت امرأته: قاتلك الله، أما قلت: تقتل محمداً. فقال:

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عَكْرِمَةُ

يقول: فر الأبطال والقادة.

وَالْمِسْلُومُونَ خَلَفْنَا فِي غَمَمِهِمْ لَمْ تُنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ
يُطَارِدُونَ بِالسُّيُوفِ الْمُثْلَمَةِ

يقولون: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. مثلمة: مكسرة.

ليست كيسوفنا. يقول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بِهِنَ فُلُوقٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

والشاهد أنه دخل رسول الله ﷺ مع كتيبته الكتيبة الخضراء، معه ألف من الأنصار ما يرى منهم إلا العيون، كلهم عليهم الحدق والخوذات والدروع والسيوف، انظر النصر العظيم، استلم مكة عاصمة الدنيا، نصر نصراً عزيزاً صفقت له أبواب السماء ونزلت الملائكة وفُتِحَت الجنان له، دوى الدهر والتاريخ وقف وكل الزمان

قصيدة وقصيدة

وقف، أكبر نصر في العالم، أتى ودخل ﷺ ينظر، فإذا لمعان السيوف هناك وإذا الخيول، ثم نظر وإذا في أحد طرق مكة وإذا خيول خالد بن الوليد شهباء أقبلت حافية حامية، وإذا النساء تخرج الواحدة عليها خمارها وتضرب وجه الفرس، فأخذ يتبسم ﷺ وأخذ يده على فمه، وقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، - وكان أبو بكر رضى الله عنه - يحفظ الشعر ويرويه - كَيْفَ يَقُولُ حَسَّانُ؟. قَالَ: يَقُولُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كِدَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مَتَمَطَّرَاتٌ تَلْطِمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ

فتعجب رسول الله ﷺ من أن حسان رضى الله عنه قدم هذه الصورة المشرقة، فأتت مثلما قال رضى الله عنه، وهذه قصة قصيدة حسان: عدمنا خيلنا.

أما بيت مشهور لعلي بن جهم الشاعر الصالح الناصح فيقول فيه:

عَبُيُونَ الْمَهَابِينَ الرِّصَافَةَ وَالْجِسْرَ جَلَبَيْنَ الْهُوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي

الرصافة في بغداد والجسر جسر الكرخ، فقد كان الشاعر في البادية وعنده غنم وما كان يعرف إلا التيس والكلب، يرى الغنم ويرى التيس إذا نطح التيس الآخر وطرحه فظن أن أشجع شيء في العالم التيس؛ لأن البيئة تصنع أفكار الإنسان فلا يعرفون إلا هذا، ورأى الكلب مثلاً للوفاء، إذ لا ينبح صاحبه، فذهب مع الشعراء من البادية ودخل مع الشعراء على المتوكل الخليفة العباسي، وجاء الشعراء أهل الحضارة يمدحونه، وجاء هو على نيته، فوقف عند المتوكل، وقال:

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاطِكَ لِلْوَدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

فيقول: إنك مثل الكلب في الوفاء، ومثل التيس في الشجاعة. وهو شاب بدوي، فقال وزير المتوكل: أمسكوه. قال المتوكل: دعوه، أين عشت؟ قال: أنا عشت في البادية يا أمير المؤمنين. قال: اتركوه؛ هو لا يعرف إلا البادية يظن أنه

مدحنا، خذوه سنة في الكرخ- والكرخ: مدينة ذات منزلة ومكانة عالية- دعوه يرى الحياة ويرى الدنيا. فراح وسكن هناك فرأى هؤلاء الذين يمرون والحدائق الغناء والبساتين، ونهر دجلة يضرب ذات اليمين وذات الشمال والحدائق تتمايل، وبعد سنة قال المتوكل: أدخلوه مع الشعراء. فلما دخل بعد سنة، قال: أنشد. قال:

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرَّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلْبَنَ الْهُوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي
أَعْدَنَ لِي الشَّوْقُ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدَنْ جَمْرًا عَلَى جَمْرِ

قصيدة من أجمل ما قيل، والمها الغزال، يقصد النساء. جلبن الهوى من حيث أدري ولا أعرفه. حيث أدري ولا أدري: شيء أعرفه وشيء لا أعرفه.

وَقُلْنَا لَنَا: نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا تُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٌ وَلَا تَقْرِي
فَلَا بَدَلَ إِلَّا مَا تَزُودُ نَاضِرٌ وَلَا وَصَلَ إِلَّا بِالْخِيَالِ الَّذِي يَسْرِي
أَحِينَ أَزْحَنَ الْقَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَالْهَبْنَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ
صَدَدْنَ صُدُودَ الشَّارِبِ الْخَمْرَ عِنْدَمَا رَوَى نَفْسَهُ عَنْ شَرْبِهَا خِيفَةَ السَّكْرِ
فَإِنْ حُلْنَ أَوْ أَنْكَرْنَ عَهْدًا عَهْدَهُ فَغَيْرُ بَدِيعٍ لِلْغَوَانِي وَلَا نَكْرِ
وَلَكِنَّهُ أَوْدَى الشَّبَابُ وَإِنَّمَا تُصَادُ الْمَهَا بَيْنَ الشَّبِيبَةِ وَالْوَفْرِ
كَفَى بِالْهُوَى شُغْلًا وَبِالشَّيْبِ زَاجِرًا لَوْ أَنَّ الْهُوَى مِمَّا يُنْهَنُّ بِالزَّجْرِ
كَفَاكُم بِأَنَّ اللَّهَ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْكُمْ وَأَوْحَى أَنْ أَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ
وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ سِوَى وَدُذِي الْقُرْبَى الْقَرِيبَةِ مِنْ أَجْرِ
وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحُبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلا طَهْرِ
وَمَنْ كَانَ مَجْهُولَ الْمَكَانِ فَإِنَّمَا مَنَازِلُكُمْ بَيْنَ الْحَجَوْنَ إِلَى الْحَجْرِ
وُجُوهُ بَنِي الْعَبَّاسِ لِلْمُلْكِ زِينَةٌ كَمَا زِينَةُ الْأَفلاكِ بِالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
وَلَا يَسْتَهْلُ الْمُلْكُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَلَا تَرْجِعُ الْأَيَّامُ إِلَّا إِلَى الشَّهْرِ

إلى آخر ما قال في قصيدة طويلة، فأعطاه جائزة، وقال: هكذا يكون الشعر.

فالإنسان ابن بيئته وعلى تصويره ولذلك يُحِبُّون أن تتكلم عن البيئة فلا تذهب إلى البادية وتتكلم عن مشكلة العمل والعمال والبورصة والأسهم، ولا تذهب إلى المدينة تتكلم عن الأشجار المُتَنَازِع عليها في البادية، أو عن صندوق القبيلة، لكل مقام مقال، هذه قصتها.

أسلم بُجير أخو كعب بن زهير رضي الله عنه فغضب كعب بن زهير، فهجا الرسول صلى الله عليه وسلم وهجا دينه، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه؛ لأنه سب الإسلام وسب الدين وسب الرسالة واستهزأ، فاستشار العرب فقالوا له: ما دمت تعرضت لمحمد فقد انتهى الموضوع، ما لك إلا أن تسلم نفسك له. فيروى: «فَاتَى وَصَلَّى الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، بَعْدَ مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَلَسَ عِنْدَهُ، قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ. وَكَانَ صلى الله عليه وسلم حَلِيمًا وَهُوَ سَيِّدُ الْحِلْمِ، قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْمَعْ مِنِّي: بَأَنْتَ سَعَادُ. قَالَ صلى الله عليه وسلم: مَنْ سَعَادُ؟ قَالَ: زَوْجَتِي. قَالَ: لَمْ تُبْنِ إِذَا». وشعراء العربية لا بد من أن يبدؤوا بالغزل، وقال:

بَأَنْتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفِدْ مَكْبُولُ

ثم مضى فيها، فقال:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي مَهَلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ
قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
أَذْنِبُ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

وقال:

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهِيَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
مَا زِلْتُ أَقْطَعُ الْبِيدَاءَ مُدْرِعًا جُنَحَ الظَّلَامِ وَثَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أُنَازِعُهُ فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلُ

لَذاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمَهُ
مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مُخْدِرَةً
إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ
شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالُ لِبَوْسُهُمْ
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرِيَّ عَصْمُهُمْ
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ
وَقِيلَ: إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْؤُولُ
بِبَطْنٍ عَثَرَ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ
مُهَنْدٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
بِبَطْنٍ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤُلُوا
مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
ضَرْبٌ إِذَا عَرَدَ السَّوْدُ التَّنَابِيلُ
مَا إِنْ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

إلى آخر ما قال وعفا عنه رسول الله ﷺ وخلع له بردته، فتسمى هذه البردة،
ونظم فيه البوصيري قصيدة يقول فيها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفُضَا هَمَّتَا
مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفَقَ يَهُم

وسار عليها شوقي، فيقول:

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُوذِرَ أَسَدًا
أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكِ سَاكِنَ الْأَجَمِ

ونظمت عليها قصيدة في مدحه ﷺ، فقلت:

أَنْصِتْ لِمِيمِيَّةٍ جَاءَتْكَ مِنْ أَمَمٍ
إِنْ كَانَ أَحَبَّبْتُ بَعْدَ اللَّهِ مِثْلَكَ فِي
فَلَا اسْتَفَى نَاطِرِي مِنْ مَنْظَرِ حَسَنِ
مِدَادُهَا مِنْ مَعَانِي نُونٍ وَالْقَلَمِ
بَدَوْ وَحْضُرٍ وَفِي عُرْبٍ وَفِي عَجَمٍ
وَلَا تَفَوَّهَ بِالْقَوْلِ السَّيِّدِ فَمِي

هذه قصة: بانث سعاد.

وأذكر في التاريخ المعاصر الحاضر ملك اليمن أحمد بن حميد الدين في الثورة، ثورة الانقلاب التي ما نجحت والجمهوريون كادوا ينجحون في الثورة الأولى عليه، فأسر منهم سبعين ووضعهم في السجن وأخذ كل يوم من أيام الجمعة يقطع رأساً منهم، العلماء والقضاة والأدباء منهم: الكبيسي، وابن النعمان، ومحمد بن محمود الزبيري. أي: كبارهم. فلما وضعهم هناك تشفع فيهم كثير، حتى وفد من جامعة الدول العربية فرفض، حتى إنه يقول لو وفد جامعة الدول العربية: لو نزلت السماء حتى تصل إلى هنا وارتفعت الأرض إلى هناك لا أتركهم. لأنهم دبوا ليحيى بن حميد الدين الملك الأول والده، فدخل عليه أحد الشعراء، فقال: ائذن لي ألقى عليك قصيدة، أنا لبست الكفن تحت ثوبي هذا واسمع مني القصيدة إن عفوت فاعف عني وإلا فاقتلني معهم. قال له الملك: لماذا؟ قال: لا تصلح اليمن إذا قتل سبعون من علمائهم وقضاتهم ووجهائهم، فما المراد من اليمن؟ فقال: قل قصيدتك. قال:

يَا أَبَا الْمَجْدِ يَا بَنَ مَاءِ السَّمَاءِ يَا سَلِيلَ النُّجُومِ فِي الظُّلُمَاءِ
فَأَجِرْنِي كَالْمُطْعَمِ بِنِ عَدِي حِينَ قَالَ النَّبِيُّ...

يقول: أنت يا بن ماء السماء، يا أبا المجد، من ضمنها يقول: افعل فعل جدك محمد ﷺ - لأمه لأنه من آل البيت - الذي يقول ﷺ: «لَوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعَمُ بِنُ عَدِي فِي أَسْرَى بَدْرٍ كُنْتُ تَرَكْتُهُمْ لَهُ». لأن المطعم بن عدي مشرك، لكن من أعيان مكة، طاف الرسول ﷺ في حمايته ومنعه وأجاره فلما هاجر الرسول ﷺ وانتصر في بدر وأتى بالسبعين من الأسرى، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَلَّمَنِي الْمُطْعَمُ بِنُ عَدِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ». سبعون وأولئك سبعون.

قال: قد أجرتك وقد عفوت عنهم جميعاً. فأطلقهم ومنهم الزبيري الذي ذهب إلى باكستان، وخاطب اليمن في قصيدة رائعة ذائعة.

وهنا بعض الوقفات السريعة، المتنبي أتى يمدح سيف الدولة وعنده ابن خالويه النحوي، وبعض النحاة يتقعون ويتشدقون في الشعر، والنحو والعبقرية، ما يعرفون الدخول في تفاصيل، والمتنبي عبقري في الشعر لكن الحاسد يبحث عن العيوب في أشعارك وفي كتبك وفي أخلاقك، فكان ابن خالويه جالساً وسيف الدولة يستمع، فيقول المتنبي قصيدته القوية الرائعة:

نَعْدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِلا قِتَالِ

يقول: نجهز الرماح والسيوف من أجل أن نقاتل بها العدو، بينما تأتي المنايا ما يقاتلن بسلاح، يقتلننا على الفرش والوسائد.

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ

يقول: حتى الخيول جهزناها نصبح العدو بها.

فَمَا يُنْجِينَ مَنْ خَبَبِ اللَّيَالِي

يقول: وراءنا الليالي أقبلت.

كَأَنَّكَ مُسْتَقِيمٌ فِي مُحَالِي

قال ابن خالويه: لو قلت: مستقيم في اعوجاج. كان أحسن، قال: كي أقول في

البيت الثاني:

وَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

هذا من إشارات المتنبي ولعلها فهمت؛ لأنك إن اضطررتني أن أغير الجيم

في محالي فتكون اعوجاجي لتغير الروي وفسد المعنى.



كلمة الحب

كلمة الحب كلمة جميلة مُشرقة، لا يُعبّر عن
الحب إلا كلمة الحب، وهو متكون من حرفين، حتى
إن الشفتين حينما ينطق الإنسان بالحب تلتقيان
بعد فراق وبعد قطيعة، والله عز وجل ذكر الحب في
كتابه في آية موحية ومؤثرة فيقول عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ
لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿

[المائدة: ٥٤]. أي: إن أولياءه عز وجل والصالحين من

عباده يحبهم ﷺ، وليس العجب من قوله ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فإنه هو الذي خلقهم وأعطاهم ووهبهم ﷺ، لكن العجب من قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فكيف أنه هداهم واجتباهم ووفقهم ثم أحبهم ﷺ.

وقد تبارى الشعراء والحكماء في مسألة الحب، فمنهم من صرفها للمال ومنهم من صرفها للثروة وللمنصب ومنهم من صرفها للمرأة وإلى غير ذلك، ونقف وقفات مع بعض الشعراء.

فبشار بن برد كان أعمى بصر وأعمى قلب وذهب إلى ربه، فيقول هو:
يَا قَوْمِ، أُذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا
لأنه ما كان يرى لكن بالأذن وبالسماح أحب، ويقول: إنهم يقولون له:
وَقَالُوا: لَوْ سَلَيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوَى فَقُلْتُ: هَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
فيقول: ما لنا قلوب أصلاً، فلو كان لنا قلوب لسليناها، لكنها ليست موجودة أصلاً.
ولكن أحد الشعراء يلفت النظر إلى حب آخر وهو حب الواحد الأحد ﷺ،
الذي استوجب الشكر واستوجب الثناء الحسن ومن أحبه استوجب الأجر العظيم
وسكنى جنات النعيم، يقول:

إِذَا كَانَ حُبُّ الْهَائِمِينَ مِنَ الْوَرَى بِلَيْلَى وَسَلَمَى يَسْلُبُ اللَّبَّ وَالْعَقْلَا
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْهَائِمُ الَّذِي سَرَى قَلْبُهُ شَوْقًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى؟

يقول: هؤلاء يُصرعون من أجل امرأة وخدود وعيون، فكيف بمن أحب الباري عز وجل
بأسماؤه وصفاته؟

والمتنبي يستفتح أبياته وقصائده في العادة بمثل هذا، وله قصيدة رقيقة في
الحب والعشق، فيقول:

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ	وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقَّرُقُ
جَهْدَ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى	عَيْنٌ مُسْهَدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ
مَا لَاحَ بَرْقُ أَوْ تَرْنَمَ طَائِرُ	إِلَّا انْتَنَيْتُ وَلِي فُوَادُ شَيْقُ
وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ	فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعِشُقُ
فَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنِّي	عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُمْ مَا لَقُوا

معانيها جميلة بلا شك في هذا الباب، وكلنا بيدي وجهة نظره في العشق
والحب، حتى إن ابن عباس «يوم عرفة قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه رأى
رجلاً من المسلمين في عرفة وإذا هو موسوس وفيه ذهول، فقال: «مَنْ هَذَا؟».
قالوا: موسوس. قال: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعِشْقِ». لأنه يُتعب القلب ويُفقد النفس
استقرارها؛ لأن صاحبه لا يتدبر القرآن، كما ينبغي ولا يشتغل بالعلم فيبقى
كالحيران المذهول.

ومن الشعراء المعاصرين نزار قباني لما ذهب إلى تونس، يقول:

يَا تُونُسُ الْخَضْرَاءُ جِئْتُكَ شَاعِراً	وَعَلَى جَبِينِي وَرْدَةٌ وَكِتَابُ
إِنَّ الدِّمَشْقِيَّ الَّذِي عَشَقَ الْهُوَى ^(١)	إِنَّ الْهُوَى أَلَا يَكُونُ إِيَابُ
دَمٌ دِمَشْقِيٌّ يُسَافِرُ فِي دَمِي	وَسَنَابِلُ وَخَمَائِلُ وَقُبَابُ

(١) لأن أصله من دمشق.

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَهْلُهُ عَشِقُوا الْجَمَالَ وَذَوْبُوهُ وَذَابُوا
وَالْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَيْنَمَا أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدُولٌ يَنْسَابُ
وَدِمَشْقُ تَهْدِي لِلْعُرُوبَةِ لَوْنَهَا وَبِبَابِهَا تَتَشَكَّلُ الْأَحْزَابُ

وأحد الرؤساء زاره رئيس آخر فذهبوا إلى قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه في حمص يزورونه، والأولى بمن يزور قبر حمص أن يُحرر الأرض أولاً، ثم يزور قبر سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، فنزار اعترض على هذا بقصيدة، يقول فيها:

أَلْقَيْتُ فَوْقَ ثَرَاكَ الطَّاهِرِ الْهَدْبَا فَيَا دِمَشْقُ لِمَذَا نُكْثِرُ الْعَتَبَا
دِمَشْقُ يَا كَنْزَ أَحْلَامِي وَمَرْوَحَتِي أَشْكُو الْعُرُوبَةَ أَمْ أَشْكُو لَكَ الْعَرَبَا
أَدَمْتُ سِيَاطُ حُزَيْرَانَ ^(١) ظُهُورَهُمْ فَأَدَمْنُوهَا وَدَاسُوا كَفَّ مَنْ ضَرَبَا
وَطَاعُوا كُتُبَ التَّارِيخِ وَاقْتَنَعُوا أَنْ الْبِنَادِقِ مِنْهَا تَسْكُنُ الْكُتُبَا
وَقَبْرُ خَالِدٍ فِي حِمَصٍ نَلَامِسُهُ فَيَرْجِفُ الْقَبْرُ مِنْ لَأَوَائِهِ غَضَبَا
يَا بَنَ الْوَلِيدِ أَلَا سَيْفٌ تَوَجَّرُهُ فَإِنَّ أَسْيَافَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَشَبَا

هذا على ذكر حب الديار وحب الوطن الذي قاله، ولكن أحسن قصيدة عنده في الوجد والفراقيات هي قصيدة ابن زيدون: بنتم وبنا. وقد عارضها كثير، لكن ما وصلوا إلى مستواها، الذي يقول فيها:

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَمَا جَفَّتْ مَاقِينَا
تَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
لَيْسَقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَزْوَاجِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

(١) نكسة حُزيران وانتصار إسرائيل على العرب.

كلمة الحب

وشوقي له على البحر والقافية قصيدة يرثي أمه، يقول:

يَا نَائِحِ الطَّلَحِ أَشْبَاهُ عَوَادِينَا نَأْسَى لِمَسْرَاكِ أَوْ تَأْسَى لِنِسْرِينَا
كَنْزٌ بِحُلُوانٍ عِنْدَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَاعِ لِحَيْرِ الْمُحِبِّينَا

لأنها مدفونة بحلوان البلد القريبة من القاهرة، يقصد: والدته.

ويقول ابن خميس:

وَكَانَ صَوْتُ الْفَرَاقِيَّاتِ نَسْمَعُهُ فَلَا نُحْسِبُ بُكَاءَ مِنْهُ يُبْكِينَا
حَتَّى أَصَاخَ لِسَانُ الدَّهْرِ مُلْتَجِئًا أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيَالٍ مِنْ تَدَانِينَا

وأحدهم أندلسي يقول:

إِنَّ السَّلَامَ وَإِنْ أَهْدَاهُ مُرْسِلُهُ وَزَادَهُ رُونَقًا مِنْهُ وَتَحْسِينَا
لَمْ يَبْلُغِ الْعُشْرَ مِنْ قَوْلٍ يُبْلِغُهُ أُذُنَ الْأَحِبَّةِ أَقْوَاهُ الْمُحِبِّينَا

وقال آخر:

أَخِيْتُمُونَا عَلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمَا كَانَ الْخُطَامُ شَرِيكًا فِي تَاخِينَا
شُكْرًا زَبِيدٌ فَقَدْ أَهْدَيْتِ مَا عَجَزَتْ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْوَرَى رُومًا وَبَرْلِينَا

والناس ينظمون على هذا البحر؛ لأنه خفيف ولأنه معجب ومُطَرَّب.

ويقول الطنطاوي: ومن أحسن الأبيات والقصائد ما قال الشهرزوري أحد

العلماء الأدباء، وهي جميلة وأخاذة يقول:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ ^(١) وَقَدْ عَسَعَسَ اللَّيْلُ وَمَلَّ الْحَالُ بِي وَحَارَ الدَّلِيلُ

(١) أي: ذهب إلى من يجب.



فَتَأْمَلْتُهَا وَفِكْرِي مِنَ الْبَيْنِ عَلِيلٌ وَطَرْفُ عَيْنِي كَلِيلٌ
وَفُؤَادِي ذَاكَ الْفُؤَادُ الْمَعْنَى وَغَرَامِي ذَاكَ الْغَرَامُ الدَّخِيلُ

وهي تُسمى: لمعة نارهم. وهي جميلة على كل حال، والشهرزوري يقول:

وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً إِلَّا وَجَدْتُ الْأَرْضَ تُطْوَى لِي
وَلَا أَنْتَنِي قَلْبِي عَنْ بَابِكُمْ إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

وله بيتان جميلان يقول فيهما:

مَرَضَ الْحَبِيبُ فَزُرْتُهُ فَمَرَضْتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يَزُورُنِي فَشَفِيتُ مِنْ نَظْرِي إِلَيْهِ

هذا من أجملها، فيقول: مرض الحبيب فعدته ومرضت؛ إشفاقاً عليه فلما زارني تشافيت يا ذن الله.

وأما في العذريات فقصيدة: يا ظبية البان. وهي للشريف الرضي وأحسن قصيدة له على الإطلاق. والشريف الرضي يصل إلى درجة المتنبّي في النسيب والمدح والفخر، لكن لا يصل إلى درجة المتنبّي في الحكمة، يقول:

يَا ظَبِيَّةَ الْبَانَ تَرَعَى فِي خَمَائِلِهِ لِيَهْنِكَ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَلْبَ مَرَعَاكِ
الْمَاءُ عِنْدَكَ مَبْدُؤٌ لَشَارِبِهِ وَلَيْسَ يَهْنِكَ إِلَّا مَدْمَعِي الْبَاكِ
هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَّاحِ الْغُورِ رَائِحَةٌ بَعْدَ الرُّقَادِ عَرَفْنَاهَا بِرِيَّاءِ
ثُمَّ انْتَنِينَا إِذَا مَا هَزْنَا طَرْبٌ عَلَى الرِّحَالِ تَعَلَّلْنَا بِذِكْرَاكِ
سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ مَنْ بِأَعْرَاقٍ لَقَدْ أَبْعَدَتْ مَرَمَاكِ
كَأَنَّ عَيْنِيكَ يَوْمَ الْجَزَعِ تُخْبِرُنَا عَنِ الْمُحِبِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ قَتْلَاكِ

كلمة الحب

فقال هذه القصيدة وعارضه من المعاصرين الشاعر الأديب الكبير حمزة شحاتة بكافية على البحر والقافية، وهي جميلة، لكن تبقى (يا ظبية البان) هي المتمكنة في هذا الباب وتعدّ من أوائل القصائد.

وقيل: يُنسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وقيل: لوالده يزيد قصيدة يقول

فيها:

وَلَمَّا تَلَا قَيْنَا وَجَدْتُ بَنَانَهَا	مُخَضَّبَةً تَحْكِي عُصَارَةَ عِنْدِمِ
فَقُلْتُ: خَضِبْتَ الْكَفَّ بَعْدِي أَهْكَذَا	يَكُونُ جَزَاءُ الْمُسْتَهَامِ الْمُتَمِّمِ
فَقَالَتْ وَأَبَدْتُ فِي الْحَشَا حُرْقَ الْجَوَا	مَقَالَةً مَنْ فِي الْقَوْلِ لَمْ يَتَلَعَّمِ
وَحَقِّكَ مَا هَذَا خِضَابُ عَرَفْتُهُ	فَلَا تَكُنْ بِالْبُهِتَانِ وَالزُّورِ مُتَهِمِي
وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ رَاحِلًا	وَقَدْ كُنْتُ لِي كَفِي وَزَنْدِي وَمِعْصَمِي
بَكَيْتُ دَمًا يَوْمَ النَّوَى فَخَضِبْتُهُ	بِكَفِّي فَأَبْتَلْتُ بَنَانِي مِنْ دَمِي
فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً	بِسُعْدَى شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ	بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

هذا من أجملها على كل حال.

ونعود إلى مسألة الحب وأحسن الحب هو ما صُرف في طاعة المولى ﷺ، فالله ﷻ ذكر الحب وأن أولياءه أشد حباً لله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فهم أشد حباً من أهل الأوثان لأوثانهم وأهل الأصنام لأصنامهم وأهل المنصب لمناصبهم وأهل المال لمالهم؛ لأن أحباب الله ﷻ صرفوا أعمارهم في خدمة أعظم محبوب وهو الله ﷻ، ومفاتيح محبته ﷻ كثيرة من أعظمها وأجلها: ذِكْرُهُ ﷻ، وتسبيحه آناء

الليل وأطراف النهار، وتلاوة كتابه، والسهر مع ذكره في الثلث الأخير من الليل، ومناجاته في السجود وفي السَّحر. هذه من العلامات الكبرى على حب الله عز وجل.

ومن علامات الحب أنك تطيع من تحب، فيقول بعضهم:

تَعَصَى الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ! هَذَا - لِعُمْرِي - فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فيُبتلى هذا بهذا ولكن الذين أخطؤوا في الحب أخطؤوا في مسألة حبهم ما لا يحلُّ لهم؛ لأن الحب الطبيعي في الإسلام حب الزوجة، وحب العظمة والدين لله عز وجل، وكذا من الحب الطبيعي حب الابنة والأخت والأم والوالد وهكذا، حب في الله عز وجل، لكن إذا صُرف في محرم وقف الشرع مانعاً من ذلك ونهى عن ذلك، ولذلك تجد أكثر الشعراء على هذا الانحراف، مثل: جرير الذي يقول:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعُنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

وغيرهم مثل عروة بن حزام يقول:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي
فَوَاللَّهِ مَا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانَهَا وَلَا شَرْبَةٍ إِلَّا بِهَا سَقَيَانِي
فَقَالَا: شَفَاكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَكْنُونٍ مَا تَحْوَى الضُّلُوعُ يَدَانِ

فهم ساروا على هذا يصفون حياتهم فقط بهذه المعاني، ولم يقدموا رسالة لله.

ويقال: إن المهندسين والعمال والمختبرين والمكتشفين لا يعشقون. لأنهم ليس عندهم وقت للفراغ والضياع؛ فهم مشغولون بالبناء والتعمير والاكتشاف

كلمة الحب

والاختراع، أما الخالي فهو يقع في العشق والحب؛ الحب اللاهني؛ لأن الخالي يسمع الشعر ويداعبه الخيال وتجرحه الأوهام والعواطف، أما الكادح فهو مشغول أمامه أمور بالعيان، أما هذا فيشتغل بذهنه ولذلك تجد الخالي يتعب؛ فهو لا يجد عملاً فيجتاح عقله ذات اليمين وذات الشمال، ولذلك يوصى الموسوس والمهموم ومن عنده قلق واضطراب نفسي أن يعمل. والصينيون عندهم حدائق العمل في مصحاتهم النفسية، فإذا جاءهم الإنسان يشكو من مرض الوهم والاضطراب أعطوه المسحاة يُعدل الماء ويُصلح الأشجار، فما يمر عليه شهر إلا وقد تعافى، ولذلك تجد العمال والمهرة والبنائين ليس عندهم قلق ولا اضطراب، لأنهم يعملون ومشغولون بالعمل وأذهانهم منصبة على هذا العمل، فإذا انتهوا من العمل زارهم النوم فاستقبلوه بنفس مرتاحة طيبة رضية.

إذا عَلِمَ هذا فإن علينا أن ندرس معاني الحب التي في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، إذ يقول ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ». وفي حديث قدسي في البخاري يقول ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبِّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...» الحديث. فدل على أن الله يحب أوليائه، وأوليائه يحبونه إذا حققوا الولاية، كل بحسبه؛ لأنه قد يجتمع في الإنسان مع أسباب الحب أسباب البغض.

نعود إلى المحبة، يقول أحد الأندلسيين من الشعراء، كما ذكر ابن رشيق:

وَرَوْعَ بِالنَّوَى حَيٍّ وَمَيِّتُ	شَكَا أَلَمَ الْفِرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي
فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ	وَأَمَّا مِثْلَ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي

فكلُّ يشكو تباريحه، حتى إن المحدث الأديب العالمي المفتي الأندلسي ابن
حزم الظاهري ألف طوق الحمامة في هذه المعاني وجاء بالهجر والوصل والقطيعة
والتعزز والمراسلة ومسألة الرقيب والعذل، ونحو ذلك.



الجلوس الصالح

الجلوس الصالح مُنِيَّةٌ من يتمنى، وهو مطلب لكن يَعْزُّ وجوده برغم كثرة من يجلس مع الإنسان، إذ يجعلون شروطاً في الجلوس الصالح: أن يكون ظاهره وباطنه سواء، وأن يكون وافياً لك في الغيب والمشهد، وألا يؤذيك في الجلوس. حتى يقول ابن عباس، وهو من خيرة كلامه: «وَاللَّهِ مَا أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ جَلِيسِي، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْفِرَ الدُّبَابَ عَنْهُ لَفَعَلْتُ». وقالوا: إن عمرو بن العاص رضي الله عنه من وفائه وأصالته كان يُكرم جلسيه إكراماً عظيماً، وقال: «رَجُلٌ تَخَطَّى النَّاسُ إِلَيَّ

وَجَلَسَ فِي مَجْلِسِيْ أَلَا يَكُونُ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيَّ». فهم يتبارون في خدمة المجلس الصالح؛ لأن الجالس الصالح هبة من الله يعينك على طاعة الله ويقربك من معالي الأمور، ويحفظك من مجلسك وإذا رآك أخطأت واغتبت ردّك بلطف، تجد عنده من الفائدة ومن الرأي السديد ما الله به عليم.

فهذا المسعر بن كدام أحد المحدثين الأولياء وكان عنده جلاس، يقول: اشترط عليهم ثلاثاً: ألا ينقلوا خبراً عن إنسان، وألا يفتابوا أحداً، ولا يكذبوا.

فيقول ابن المبارك:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسًا جَلِيسًا صَالِحًا فَلَيَأْتِ حَلَقَةَ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامِ
فِيهَا الْمَوَدَّةُ وَالْكَمَالُ وَأَهْلُهَا أَهْلُ الْوَقَارِ وَخَيْرَةُ الْأَقْوَامِ

يقول: إن كنت تريد جليساً صالحاً يساعدك على طاعة الله والمعرفة، وتستفيد علماً نافعاً فاهلم إلى حلقة مسعر بن كدام تجد فيها ما يسرك. وابن المبارك له بعض الحكم، فيقول:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا أَنتِ حَمَادُ بْنُ زَيْدِ

حماد بن زيد محدث كبير من درجة الإمام مالك بن أنس، اسمه حماد بن زيد بن درهم، وآخر اسمه حماد بن سلمة بن دينار، فليل لأحد العلماء: أيهما أفضل؟ قال: كما بينهما في الصرف؛ لأن الدينار بعشرة دراهم، ذاك حماد بن سلمة بن دينار أفضل في العبادة والولاية، وإلا فحماد بن زيد أوثق منه في الحديث والرواية، وكلاهما عالمان جليلان كبيران، فيقول ابن المبارك:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا أَنتِ حَمَادُ بْنُ زَيْدِ
فَاسْتَفِدْ عِلْمًا كَثِيرًا ثُمَّ قَيِّدْهُ بِقَيْدِ
وَاتْرِكُوا الْبِدْعَةَ مِنْ آثَارِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ

عمرو بن عبيد معتزلي له آراء مخالفة للحق وللكتاب والسنة.

فيقول: إذا بحثت عن إنسان، فابحث عن إنسان تستفيد منه، وينفعك ويدلك على الخير وعلى معالي الأمور. وأبو تمام يصف أحداً، يقولون: يصف المعتصم، والله أعلم. فيقول:

وتراه يصغي للحديث بقلبه وَبَسْمَعِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

يقول: من حسن جلوسه مع الناس أنه يصغي للقصة وربما سمعها. فبعض الناس لطيف تقص عليه القصة وقد سمعها عشرين مرة فيقول: ما شاء الله! عَجَبٌ. وهو عارف بها لكن من حسن أخلاقه. وبعضهم إذا بدأت بالقصة يقطع عليك الحديث ويقول: سمعنا به أكثر من مرة، أو من ثلاثين مرة. وإذا حدثته بقصة قال: أعرفها. وإذا قلت له بيتاً قال: حفظته وأنا في الابتدائية. فلا يتركك تشارك أبداً ويستولي على المجلس، فهو يخبرك؛ قال وخرج ودخل وقام وقعد وقرأ ونشر وكتب، أخبار فقط وهذا يُسمى الثقيل، حتى يقول الشافعي إذا رأى ثقيلًا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا موقنون. وقال الشافعي: والله إن المجلس يمج الثقيل؛ لأن الأرض تميل في جهته.

ويقولون: إن ابن تيمية كان إذا رأى ثقيلًا قال: هذه حمى الربع. وحمى الربع حمى تأخذ ربع الجسم.

وقيل لابن المبارك: من هم الثقلاء؟ قال: المبتدعة. وقيل لأحدهم: من هم الثقلاء؟ قال: السفلة الذين يأكلون الدنيا بالدين. وغير ذلك، حتى يقول أحد الشعراء:

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتَهُ كَانَ الْجِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

يقصد بالإنسان: الجليس. لأن بعض الناس آتاه الله عز وجل خلقاً؛ إن يصدر عنك يغفر الزلة، أي: يتغافل ويتغابي، كأنه ما سمع شيئاً. حتى يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فليس الغبي السيد، بل المتغاضي هو الذكي، التغافل عن هفوات الجليس هو من أحسن ما يكون، ولذلك تجد العقلاء والوجهاء والدهاة الذين أكل عليهم الدهر وشرب يسمع أحدهم بعض الكلام ويسكت كأنه ما بلغه شيء ويدفن الموضوع، فيقول: ما حصل بأس، وكل شيء على ما يُرام. تمشي الأمور فيكسب العفو والحب والصفح والله يؤيده عز وجل، أما من يحاسب كل الناس على كل حال، فلا يبقى له صديق، يقول أحدهم لصديقه:

كَأَنَّكَ فِي الْكِتَابِ وَجَدْتَ لَاءَ مُحَرَّمَةً عَلَيْكَ فَلَا تَحِلُّ

يقول: ما تقول: لا. إلا في لا إله إلا الله. يعني هذا من كرمه.

إِذَا حَلَّ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ وَإِنْ حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلٌّ

يقول: أنت في الشتاء مثل الشمس بدفتها علينا، وفي الصيف مثل الظل نستظل به. فبعض الأصدقاء هكذا، فبعضهم إذا دخلت عليه سلاك من الهموم وخفف عنك، وإذا ذكرت له مشكلة قال: لا عليك، إن مع العسر يسراً، ماذا تطلب؟ أنا معك أذهب معك سوية وعرضي دون عرضك وجاهي جاهك، والأمور يسيرة وأنا وجدت لك حلاً. وبعضهم إذا حضرت قال: حسبي الله، يا أخي، من ورطة إلى ورطة، هذه مشكلة ما لها حل ولا لها ربط. فيزيدك همّاً إلى هم، وغماً إلى غم، ومثل هذا ينبغي ألا يُخالط.

يقول زهير بن أبي سلمى في جلساء آل هرم بن سنان وكانوا يجلسون في مجالسهم ولا ينطقون بالفحشاء ولا بالعوراء:

قَوْمُ آبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا

الْبَلْبَاسُ الصَّالِحُ

ويمدحهم في مجلس آخر، يقول: ما أحسن مجالسهم! بسمه ورضا وتأمراً بالمعروف وكرم، ولا يفتابون أحداً. قال كعب في آل هرم بن سنان:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ وَأُنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

قال: أغنياؤهم يعفون وفقراؤهم يُضَيِّفُونَ، ولا فقير فيهم، فالفقير يدخل عند الغني والجائع يدخل عند الكريم. كلهم متشاركون فيما أعطاهم الله عز وجل متعاونون متكاتفون، حتى يقول ﷺ في الأشعريين الذين منهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لما وفدوا من اليمن وراهم النبي ﷺ: «نِعْمَ الْوَأَفِدُونَ؛ إِذَا أَرْمَلُوا جَمَعُوا طَعَامَهُمْ فَأَكَلُوا سَوِيَّةً». أو كما قال ﷺ: «وَإِنِّي لَأَعْرِفُ مَسَاكِينَ الْأَشْعَرِيِّينَ بِاللَّيْلِ وَأَنَا لَمْ أَرَهَا بِالنَّهَارِ»؛ من دويهم بالقرآن بالليل ومنهم أبو موسى رضي الله عنه الذي مر به ﷺ في المسجد وإذا هويقرأ وما علم أن الرسول ﷺ في طرف المسجد، وإذا بأبي موسى الأشعري رضي الله عنه أوتي مزماراً من مزامير آل داود؛ يُوقِفُ الْإِنْسَانَ إِذَا مَشَى.

يقول أحد الصحابة: سمعت أبا موسى يُصلي المغرب فوالله الذي لا إله إلا هو ما سمعت نايًا ولا عوداً ولا وترًا أجمل من صوته. فمر ﷺ عند المسجد وإذا بأبي موسى رضي الله عنه يقرأ وما علم أبو موسى رضي الله عنه، فوقف النبي ﷺ يسمع أبا موسى يرسل صوته وأخذ رسول الله ﷺ يرسل دموعه، وفي الصباح لقيه ﷺ قال: «لَوْ رَأَيْتَنِي يَا أَبَا مُوسَى وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ - وَهُوَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ﷺ - قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ كُنْتَ تَسْتَمِعُ لِي؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ لَكَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِزَامِيرَ آلِ دَاوُدَ. قَالَ: وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِي لَحَبَرْتُه لَكَ تَحْبِيرًا». فيقول: ليتني كنت أعلم بك لكنت رجعتُه وحسنته وجودته ورفعت وخفضت في هذا الكتاب، لكنني ما كنت أعلم.

نعود إلى آل هرم بن سنان. يقول:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنَاتٌ وَجُوهُهُمْ
عَلَى مُكْثَرِيهِمْ رِزْقٌ مِّنْ يَّعْتَرِيهِمْ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَأِنَّمَا
وَهْلٌ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِيجُهُ
جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
وَأُنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا النُّبُلُ وَالْفَضْلُ
وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَغَارِسِهَا النَّخْلُ؟
وَأَبْلَاهُمْ خَيْرُ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

فوصفهم بأن عليهم الرضا والسكينة، أي: على وجوههم فإذا أتيتهم رحبوا. أحياناً قلُّ الحجاج وانبساط الوجه وبسمة الفم أحسن من الضيافة، ماذا تريد من إنسان يضيفك وهو مُقْطَبُ الجبين، ويصيح على أبنائه؟! ليس الطعام كل شيء، لكن الإنسان الذي يرحب ويحيي ويسألك عن الأخبار والأمطار والعيال والأولاد، فتجده كأنه يهدي لك الحياة، حتى يقول أحدهم:

أَحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيدُ

فتجده إذا جاء الضيف يقول: يا حياك الله أهلاً وسهلاً، بارك الله فيكم، تفضلتم علينا بهذه الزيارة. هذا هو المؤمن الكريم وتجده يتحدث معه ويؤانسه، حتى إنهم يقولون: إن أحد الكرماء كان يسهر مع ضيوفه. حتى يقول فيه أحد الشعراء:

مُتَيِّمٌ بِالنَّدَا لَوْ قَالَ وَافِدُهُ: هَبْ لِي -فَدَيْتَ- كَرَى عَيْنِيكَ لَمْ يَمِ

يقول: هو عاشق للندى ومصاب بمسألة الكرم والسخاء. والوافد: هو الضيف. فلو قال له الضيف: أعطني النوم الذي في عينيك. لقال: تفضل، خذ النوم. فهو يكرمه ويسهر معه ويؤانسه ويكون معه في وقته كله، حتى يرتحل عنه الضيف، هذا هو الجليس الصالح.

الجالس الصالح

حسان عليه السلام لما ذهب عند آل جفنة بن مارية من الغساسنة مدحهم وتأثر بمجالسهم، حتى بعد الإسلام حن إلى تلك المجالس من الوفاء، وقد كانوا في دمشق من ملوك غسان، فقال فيهم:

لِلّهِ دُرٌّ عَصَابَةٌ صَاحِبَتْهُمْ يَوْمًا بِجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرُ بَنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ
يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

يقول: في مجالسهم هذا ينزل وهذا يطلع وهذا يُرْحَبُ ويدخل، وهذا يدخل وهذا يمشي، مفتوحة الأبواب، حتى إن الكلاب تعبت عند الباب من النبح. بسبب كثرة الوافدين، فسكنت لأنها أنست بالناس، وإذا أقبل الإنسان من هناك لا يقولون: مَنْ؟ فلا تحقيق عند الباب؛ لأن بعض الناس يضع رسداً عند بابه ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ [الجن: ٨]. أولاده وعنده حارس عند الباب يقول لكل من يأتي: لماذا أتيت في هذا الوقت؟ وماذا تريد من الوالد؟ أعطنا اسمك ورقمك، ثم فيما بعد نتصل بك. أما بعضهم فمشرع الأبواب، حتى يقول في مثل هذا ابن صلاح:

امل الوجار واخل الباب مفتوح خوف المسير يستحي ما ينادي
يا نمر ما في صكة الباب مصلوح ولا خير فيها يا مظنة فؤادي
تصلح الرجال الليبي يشتري الروح والا فعليه ولا يعتمدها اعتمادي
رجال تقصيره مع الناس مسموح لاجل إن ماله في القديمة شداد

ما سبق له أن ضيَّفَ ولا ضيَّفَ أبوه ولا ضيَّفَ جده فهو معذور، حتى لو قصر قالوا: معذور. أي: يسامحونه. لكن الرجل الشهم المَجْرَبُ في المواقف، فيقولون: أنت فلان وتفعل هذا؟

كان عمر رضي الله عنه يخطب على المنبر يوم الجمعة وهو خليفة وأمير المؤمنين وفي أثناء ما يخطب وإذا بعثمان بن عفان رضي الله عنه وهو من العشرة المبشرين بالجنة وثالث الخلفاء الراشدين، يأتي في وقت الخطبة ويدخل المسجد وهو واقف، فقطع عمر الخطبة والناس جلوس وعلماء الصحابة رضي الله عنهم شهداء الصحابة كبار الصحابة، فقال عمر لعثمان: «أَتَأْتِي فِي هَذَا الْوَقْتِ؟». فَقَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ الْجُمُعَةُ إِلَّا الْآنَ فَتَوَضَّأْتُ فَأَتَيْتُ. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَالْوُضُوءُ أَيْضًا؟ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَأْمُرُنَا. فَصَلَّى. فدل على أن الغسل مُستحب وليس واجباً؛ لأنه لو كان واجباً لعاب على عثمان رضي الله عنه تركه، وهذا في قول الجمهور، الشاهد أنه يصعب على الناس إذا كان الرجل ذا مكانة، ثم رأوه قصر في الواجب قالوا: كيف تفعل وأنت كذا؟. مثل الطالب المجد الممتاز المجد في الفصل إذا نام أو لم يحل الواجب تقول: سبحان الله! أنت تفعل كذا؟. أما البليد الكسول فتقول: له سوابق فلا يؤخذ عليه مثل ما يؤخذ على الثاني.

لكن أحسن جليس هو الكتاب، وكما يقول أبو الطيب المتنبّي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرُجٌ سَابِحٌ

أَي: ظهر الفرس. لأن فيه المجد والشرف والسؤدد.

وَحَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

وكان السلف والأخيار يجلسون مع الكتاب، وكان ابن المبارك له كتب يضعها عن اليمين وعن الشمال كتب الحديث والفقه والتفسير، ويقول أحدهم في الكتب: لَنَا جُلَسَاءٌ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلْبَاءُ مَا مُمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهُدًا

فإنهم وهم حضور نحبهم وهم غياب نأمنهم على أسرارنا، ولا يغتابون وهي الكتب، تدخل مكتبتك وتقرأ ما شئت وتطلب الكتاب ولا يغتابك ولا يؤذيك ولا ينقل عنك سرّاً لا يتعرض لك ولا يثقل عليك، ولكن من يعرف هذه الأمور؟

الجلوس الصالح

جلس أحد الشعراء مع أصدقائه، فانشرحوا في المجلس، قالوا: صف لنا هذا المكان. قال:

وَلَمَّا جَلَسْنَا مَجْلِسًا طَلَّهُ النَّدى جَمِيلاً وَبُسْتَانًا مِنَ الرُّوضِ نَادِيَا
أَثَارَ لَنَا طِيبُ الْحَدِيثِ وَحُسْنُهُ مُنَى فَتَمَنُّيْنَا فَكُنْتَ الْأَمَانِيَا

يقول: تمنينا ونحن جلوس، فُكُنْتَ أنت الأمنية، تمنينا لو أنك معنا.

ولذلك قال عمر للصحابه رضي الله عنه وهم جلوس وأبو عبيدة رضي الله عنه في الشام يُقاتل ويجاهد مع الجيوش ويفتح الدنيا بلا إله إلا الله، قال: «تَمَنُّوا». فتمنى أحدهم الشهادة في سبيل الله، والثاني العفو والعافية، والثالث العلم النافع، والرابع الذرية الطيبة، فقال عمر رضي الله عنه: «لَكِنِّي أَتَمَنَّى مِلءَ هَذِهِ الْغُرْفَةِ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ». فقط أن تمتلئ هذه الغرفة بأمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

ولما ذهب عمر يفتح بيت المقدس لقيه أبو عبيدة مع الجيوش فسلم عليه، ولما أتى الليل قال أبو عبيدة رضي الله عنه: «تَعَالِ يَا عُمَرُ، تَتَبَاكَى أَنَا وَأَنْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي جَنْبِ اللَّهِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم». وهم كانوا أوفياء رضي الله عنهم.



الحكمة

الحكمة وكيف نطق الشعراء والأدباء
بالحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي السداد
في القول والعمل، وإذا ذكرت في القرآن فهي
السنة، ﴿وَأَذْكُرَكُمَا يَتْلَى فِي يُوتِيَكُنَّ
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. أي: السنة. لكن إذا أُطلقت
فالمقصود بها السداد والصواب والاستقامة في
كل الأمور، قال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ
مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً». فالشاعر ينطق بالحكمة.

ولذلك تبارى الشعراء في أن يسطر كل واحد منهم تجاربه في بيت أو بيتين، حتى إن أحدهم يختصر حياة عشرين سنة أو ثلاثين سنة في بيت، فإذا فهمت هذا البيت وطبقته في حياتك استغنيت عن مجلدات من التجارب ولم تحتج إلى أن تعيش التجربة نفسها، يقول أحد الشعراء:

وَمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ النُّهَى لَا يَسُرُّهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

هذه حكمة وهذا البيت من أحسن ما يكون، يقول: إن الإنسان العاقل إذا كمل عقله ونضج ما عاد يفرح بإقبال الدنيا، ولا يأسى على إدبارها ومصائبها، إذ انتهى إلى قناعة بأن زائرون مُتَّهَوْنَ مرتحلون، وأن السعادة في جوار رب العالمين عز وجل. ولذلك على هذه القصيدة - لما أعجبني هذا البيت - نظمت:

سَلَا الْقَلْبُ عَنْ غَيْدٍ صَفَتْ وَحِسَانِ	وَأَهْمَلَ ذِكْرَ الْمُنْحَنَى وَعُمَانِ
وَمَا عَادَ يُلْهِمُنَا الصَّبَا بِأَرِيحِهِ	وَلَوْ فَاحَ بِالرَّيْحَانِ وَالنَّفْلَانِ
وَحَظُّ بَرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةً عَاشِقٍ	يَقُولُ: احْذَرُونِي أَيُّهَا الثَّقْلَانِ
شَرِبْنَا لِيَالِي الصَّفْوِ فِي كَأْسِ غَفْلَةٍ	وَجَاوَزْتُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ثَمَانِي
فَمَرَّتْ كَأَحْلَامِ الرَّبِيعِ سَرِيعَةً	فَأَيَّامُهَا فِي نَاطِرِي ثَوَانِ
فَلَوْ أَنَّني أُرْمَى بِقَوْسٍ دَفَعْتُهُ	بِحِدَّةِ قَلْبٍ وَأُخْتِدَامِ جَنَانِي
وَلَكِنْ قَوْسَ الْعُمَرِ يُمَكِّنُ أَسْهُمًا	وَمَا لِلْفَتَى فِي رَدِّهِنَّ يَدَانِ
وَفِي أَرْبَعِينَ الْعُمَرِ وَعُظٌّ وَعِبْرَةٌ	وَيَكْفِيكَ عِلْمًا شَاهِدُ الرَّجْفَانِ
فَلَا تُسْمِعْنِي وَعُظُّ قُسٍّ وَلَا تَسْقُ	عَلَيَّ مَقَامَاتِ الْفَتَى الْهَمْدَانِي
فَعِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ أَبْلَغُ عِبْرَةٍ	عَلَى مِنْبَرٍ تُلْقَى بِكُلِّ لِسَانِي
وَلَمَّا اتَّخَذْتُ الْعِلْمَ خِدْنًا وَصَاحِبًا	تَرَكْتُ الْهَوَى وَالْمَالَ يَنْتَحِبَانِ
جَعَلْتُ الْقَوَافِي الْمَاصِفَاتِ مَرَاجِي	كَأَنَّ الضُّحَى وَاللَّيْلَ قَدْ حَسَدَانِي

فَلَا تُرِكَ الدُّنْيَا بِلَهْوِ فَإِنَّهُ
فَقَدْ هَدَّ قَدَمًا عَرْشَ بَلْقَيْسَ هُدُودُ
وَجَدِي أُوَيْسُ الْأَزْدِ أَفْضَلُ تَابِعِ
فَلَا تَحْسَبِ الْأَنْسَابَ تُنْجِيكَ مِنْ لَطَى
أَبُو لَهَبٍ فِي النَّارِ وَهُوَ ابْنُ هَاشِمٍ
يُعَاقُ مَسِيرُ الشَّمْسِ بِالدَّبَرَانِ
وَحَرْبُ فَارٍ مَا بَنَى الْيَمَانِ
عَلَى صَدَقِ قَوْلِي يَشْهَدُ الْقَمَرَانِ
وَلَوْ كُنْتُ مِنْ قَيْسٍ وَعَبْدَ مَدَانِ
وَسَلْمَانَ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنْ خُرْسَانِ

وعلى هذا البحر للمتنبى قصيدة من أروع قصائده، يقول الواحدي الذي شرح ديوانه: هذا والله هو المدح، ما مُدِحَ ملك بمثل هذا المدح. مدح بها كافورًا يقول:
عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ
وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عِلَاكَ وَإِنَّمَا
كَلَامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ
بِرْغَمِ شَبِيبِ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ
وَكَاْنَا عَلَى الْعِلَاتِ يَصْطَحِبَانِ

لأن شبيبًا قاتل كافورًا، ثم سقط، إذ أُغْمِيَ عليه، فوقع السيف منه، فقتل.
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ
رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي
لأن شبيبًا قيسي والسيف يمانِي.
قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوَّلُ
وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

إلى آخرها، والقصائد هذه من أجمل ما يكون.

يقولون: إن الأعور السلمي ضاع له ابن وهو ابن وحيد، فبكى وبكى، حتى بكى بعينه الثانية، كان بعين واحدة وعينه الثانية العمياء بكى بها، فقال:
بَكَيْتُ بَعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا غَضَاضَةٌ
وَعَيْنٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ
يقول: حتى الثانية بكت معها.

عَذِيرُكَ يَا عَيْنِي الصَّحِيحَةُ، وَالْبُكَاءُ
فَمَالِكَ يَا عَوْرَاءَ وَالْهَمَلَانِ
شاركت فيه من شدة المصاب.

والحطيئة سجل بيتاً في التاريخ يُعد من الشوارد، يقول - لما هجا الزبرقان -:
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَغْدُمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
ثوابك عند الله عز وجل سواء كافأك الناس أو لا. كن أنت البار وكن أنت المحسن،
لا تُسئ أبداً، فإن الله سوف يثيبك إذا لم حفظ جميلك أحد.

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ الْخَبَرُ قَالَ:
سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ
يقول: سوف تُظهر لك الليالي، وسوف تبين لك علومًا، وسوف يأتيك أناس
بأخبار وأنت ما طلبت منهم هذه الأخبار، لكن هكذا شيمة الأيام.

ومن أحسن القصائد وأشهرها قصيدة أبي تمام، يوم هنا المعتصم بفتح
عمورية، قال:

فَتُحْ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
يقول أبو تمام: إن نصرتك هذا تفتح له أبواب السماء. وذلك لما ضربت امرأة
في عمورية، وقالت: وامعتصمها! وأقسم بالله لينصرنها وسار بالجيش فقال له
المنجمون: لا تذهب؛ لأن البرج في العقرب، والعقرب إذا قاتل فيه الإنسان ينهزم.
قال: آمنت بالله وكفرت بعلم نجومكم هذا. فهزئ أبو تمام بالمنجمين، وقال:

أَيُّ الدَّرَايَةِ بَلْ أَيْنَ الرِّوَايَةُ ۝ كَمْ صَاغُوهُ مِنْ زُخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ مَا كَانَ مُنْقَلِبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ
لَوْ بَيَّنْتَ قَطُّ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تُخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَصْلَابِ وَالنُّصْبِ

فَالنَّصْرُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَا مِعَّةَ
خَلِيفَةَ اللَّهِ، جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نَصِرْتَ بِهَا
إلى أن يقول:

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبٍ
وهي سبعون بيتاً أعطاه على كل بيت ألف دينار، مبلغ ضخم يستحقه، وأولها
قوله- وهذه الحكمة التي قصدت أن أصل إليها -:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
وعارضه وسايه عبد الله البردوني شاعر اليمن الكبير المعاصر، يقول:
مَا أَصْدَقَ السَّيْفِ! إِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْكَذِبُ
بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَطْلُبُهَا
وَأَقْبَحُ النَّصْرِ نَصْرُ الْأَغْبِيَاءِ بِلا
مَهْلًا - هُدَيْتَ - أَبَا تَمَامَ تَسْأَلُنِي
وَأَكْذَبَ السَّيْفِ! إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الْغَضَبُ
أَيَّدَ إِذَا غَلَبَتْ يَغْلُو بِهِ الْغَلَبُ
فَهُمْ سَوَى فَهْمٍ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا
كَيْفَ احْتَفَّتْ بِالْعِيدِ حَيْفَاءُ وَالنَّقَبُ

أي: إسرائيل، التي جاءت عندنا لماذا غلبتنا؟

نَادَيْتَ فِي الْجَيْشِ عَمُورِيَّةً اتَّقَدَّتْ
مَآذِي النُّجُومِ فُنَحْنُ السَّبْعَةُ الشُّهُبِ
حضرت الجيوش وقال: لا نجوم، هذا كلام فارغ، نحن السبعة الشهب، أي:
جنود المعتصم. إلى آخر ما قال، فالشاهد قول أبي تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

الكتاب له دور والقلم له دور والسيف له دور، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:
مَنْ اقْتَضَى بِسُوءِ الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلِ بِلَمٍ
يقصد السيف.

تَوَهَّمِ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَجَزَ قَرَّبَنَا وَفِي التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَى التُّهْمِ
يقول: من يحاول المجد يريد الملك والسؤدد بغير الهندي؛ السيف الأبيض
أجاب كل سؤال عن: هل. قائلًا: لم، لم. ولذا يقول:
لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
في أبيات له، فهنا جاء بهذه الحكمة.

ومن الحكمة قول زهير في ميميته المشهورة وهي المعلقة:
وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
وهذا خطأ، بل لا يجوز الظلم ولا العدوان على الناس، لكنه مبدأ الجاهلية،
يقول: عليك أن تبدأ الناس بالظلم؛ كي لا يظلموك ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. لكن
صحيح أن من لم يذد عن حوضه يهدم، مع أن الأولى ألا تظلموا ولا تُظلموا؛ فلا
ضرر ولا ضرار، لا تعتد ولا تترك أحداً يعتدي عليك، ومن اعتدى عليك فجزاء
سيئة سيئة مثلها، ومن عفى فأجره على الله.

ويستمر في هذا إلى أن يأتي ابن دريد، فيقول:
وَأِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى
يقول: أصل الإنسان ذكرى جميلة بعدما يموت، فسجل لك تاريخاً طيباً، فلا
تعاد الناس ولا تؤذهم، لا تكن مصدر تعاسة لأحد، ولا تتسبب في إزعاج أحد، كن

الحكمة

محبوباً إذا مُت يبيكي عليك الجيران والخلان، سجل لك صفحات ناصعة من البر
ومن فعل الخير، زُر مسكيناً وواس منكباً، وقف مع الأرملة وواس محروماً؛ كي
تسجل لك أفعلاً حسنة.

ونعود للمتنبى صاحب الحكم؛ فله خمس مئة بيت تدور على أسنة الناس في
الحكمة، يقول:

وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

بعض الأعداء يجعلك أحياناً تتحفز وتهتم ويتسبب في بروزك ومكانتك،
ويجعل لك عطاء فتهم بنفسك واسمك، وتعرف عيوبك ويكشف لك أخطاءك،
ويدلك على زللِكَ؛ لأنه ينافسك ويحسدك، وبعض الأصدقاء مصدر شقاوة لك،
فبعض الأصدقاء أحياناً يجر لك الويلات، فتجده أعرف الناس بأسراركَ، حتى
يقول أحدهم:

أَخَذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَأَخَذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةٍ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَوْلَى بِالْمَضَرَّةِ

فتجد الصديق إذا انقلب عليك صار ناراً حارقة؛ لأنه كشف تاريخك وعرف
سجلك كله، صرت أمامه مكشوفاً، ثم نعوذ بالله من الصديق إذا انقلب عدواً،
فإنه النار المحرقة، فانظر الحكمة.

ويقول المتنبى عن الزمان:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ لَهُ وَإِنْ سَرَ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
رُبَّمَا تَحَسَّنَ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تَكْدِرُ الْإِحْسَانَا

أبيات جميلة بلا شك، فيقول: إن الناس عانوا من الليالي مثلما عانينا ومروا بمثلما مرّ بنا، وتغيرت بهم الأحوال، وأحياناً تأتيك مسرات، لكن فيها كدراً وفيها مزعجات.

كُلَّمَا أَتَيْتَ الزَّمَانَ قَنَاءً رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانًا

يقول: تجد الآن في الغابات أشجاراً للنماء وللخضرة وللبركة وللجمال، ثم يأتي إنسان ويقطعها ويركب فيها رمحاً ويأخذ منها شجراً ويركبها مقبضاً للسياط؛ لكي يطعن بها الناس ويقتل بها البشر. فالإنسان يُخَرَّبُ الطبيعة - في الغالب - إذا كان شريراً، يحول الخيرات إلى مواد سامة وقاتلة ومواد عدائية للبشر، ولا يريد الإصلاح، يقول عزّ وجل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥-٢٠٦].

والمتنبّي يقول لسيف الدولة:

وَإِنْ تَفُقَ الْأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

يقول: نعلم إنك من آدم وحواء، ولكن أنت أجود منهم - وهذه مبالغة - مثلما أن دم الغزال منه المسك.

ويقول - وهو من أجمل أبياته -:

لَوْ لَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

يقول: لو كانت الأمور سهلة لكان كل الناس أجاويد وكلهم شجعان، ولكن الجود يفقر فالجواد والسخي إنما فعل ذلك مغامرة منه، وإلا فليس سهلاً دفع المال، وكذا الشجاعة، فالشجاع فعل ذلك مغامرة منه وإلا فليس سهلاً بذل الأنفس، لأن قبلها يقول:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٌ

وهو يقول في أول الأبيات وذلك من أجملها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِذْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

إلى أن يقول:

اسْتَوْجِبِ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالٌ

يقول: هذا الزعيم استوجب الأفعال الجميلة والأخلاق الجليلة والمدائح النبيلة؛ لأنه ينفق ماله، والمال إذا أنفقته خفت من الفقر. ولذلك تجد البخيل يحسب ألف حساب وتجده يُعَدُّ دراهمه، يقولون: كان عند بخيل كيس، وكان يُخرج الدراهم قبل النوم فيقبلها ذات اليمين وذات الشمال، ويقول للدراهم: طبت حياً وطبت ميتاً، والله ما تخرج من هذا الكيس إلا إلى القبر. ثم يعيده.

ولذلك فالله عز وجل ذم البخيل أمية بن خلف: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الذي جمع مالا وعدده، ٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْأُخْطَمَةِ ﴿[الهمزة: ١-٤]﴾. كان ذاك الحسيس الخاسر الذي حارب الدعوة يعدُّ دراهمه، فخلدّها، ومات مذموماً، فذلك المتنبي يقول:

لَوْ لَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ



المجد

المجد الذي يتغنى به الشعراء والأدباء هو
انتصار الأمة، وهو رفعة كلمتها وسؤدها وبقاؤها
وانتصارها على سائر الأمم بالحق والعدل والعلم
والمعرفة، وأعظم أمة عرفت البشرية - بلا تحيُّزٍ
عاطفي - هي أمة الإسلام، ولذلك سار الشعراء
كلُّ يذكر المجد على سبيله؛ فمنهم أبطال
الاستقلال ورموز الفاتحين والمنتصرين، لكن
عبروا بقصائد تحفظها الأجيال، ففي العراق لما
طرد المحتل يقول شاعرهم:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ
يقول: إنهم طلبوا منا ثمناً والتمن كان الدماء، فتوكلنا على الله ودفعنا
دماءنا.

والسوريون لما ضربوا الفرنسيين وطردوهم من بلادهم يوم الجلاء جاء
شوقي يبارك لهم هذا الانتصار، فقال:

وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكُ يَا دِمَشْقُ سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرْقُ
وَمَعْدِرَةُ الْيَرَاعَةِ وَالْقَوَافِي جَلَاءُ الرُّزْءِ عَنْ وَصْفِ يَدِيقُ
وَوَجْهُكَ ضَاحِكُ الْقَسَمَاتِ طَلُقْ دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ ائْتَلَقُ

إلى أن قال:

وَلِلْحُرِّيَةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
دَمُ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْرِفُ أَنَّهُ صِدْقٌ وَحَقُّ

فهذا دل على أنه ينبغي وجود التضحيات لرفع الدين الحق، التضحية بالعلم
والجهد وبالوقت والقلم والبيان؛ لتكون الأمة ذات سؤدد، يقول الزبيري:

يَوْمٌ مِنَ النِّصْرِ لَمْ تَصْنَعْ أَشِعَّتُهُ شَمْسُ الضُّحَى بَلْ صَنَعْنَاهُ بِأَيْدِينَا

وهو يعني الانتصار والمجد الذي حازوه والذي أعلنوه، فالأمة إذا كانت أمة
سؤدد عرفت أنها أمة مستخلفة، وأمة رسالة في العالم، ولها كيان ولها تاريخ
مشرق حرصت على تربية أبنائها على المثل العليا، وعلى أن رموزها وأعظمها
محمد ﷺ أقدم القداست، والخلفاء الراشدون بعده والأئمة الفاتحون والعلماء
المجددون والأئمة العدول والولاة المصلحون، صارت أمة بحق تستحق أن يقول
لها الشاعر:

يَا أُمَّةَ الْمَجْدِ، قُومِي مَرْقِي الْحُجْبَا
لَا تَذْكُرِينَ صَلاَحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً
وَأَشْعِلِي فِي لَيْالِي دَهْرِكَ الشُّهْبَا
مِنْ غَيْرِ بَذْلِ؛ صَلاَحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

لا يكفي فقط أن نجتز الماضي، فالأسلاف أصلحوا وأفلحوا ونجحوا، لكن
ماذا فعلنا نحن؟!

لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ: كَانَ أَبِي
إِذَا فَخَرْتُ بِآبَاءِ بِهِمْ كَرَمٌ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا
نَعَمْ صَدَقْتُ وَلَكِنْ بِنَسْ مَا وَلَدُوا

بل أرنا من نفسك أنت ابناً، كما يقول الأول:

لَسْنَا وَإِنْ كَرَمْتُ أَوَائِلُنَا
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
يَوْمًا عَلَى الْأَجْدَادِ نَتَّكِلُ
تَبْنِي، وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

قال أبو جعفر المنصور:

نَبْنِي فَوْقَ مَا فَعَلُوا
وَنَفْعَلُ فَوْقَ مَا فَعَلُوا

وهذا هو الابن دائماً يكون أقوى ويحرص على أن يكون أحسن من أبيه ومن
جده بأفعاله الحميدة وبسيرته المجيدة، فهنا يقول:

لَا تَذْكُرِينَ صَلاَحَ الدِّينِ سَفْسَطَةً
مِنْ غَيْرِ بَذْلِ؛ صَلاَحُ الدِّينِ قَدْ ذَهَبَا

هو انتهى، لكن أنت جدد واكتب وسر على ما سار عليه الأول.

ومن الأبيات الجميلة في هذا الباب الذي أنشده الناس يوم العدوان الثلاثي،
يوم خرج المصريون يكبرون ويُهَلِّلون على العدوان الثلاثي الذي تعرضت له
بلادهم وأوطانهم، حتى يقول شاعرهم:

أَخِي! جَاوَزَ الظَّالِمُونَ الْمَدَى فَحَقَّ الْجِهَادُ وَحَقَّ الْفِدَا
أَنْتَرَكُهُمْ يَغْصِبُونَ الْعُرُوبَةَ أَرْضَ الْأُبُوءِ وَالسُّودَا
فَجَرَدَ حَسَامَكَ مِنْ غَمْدِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدُ أَنْ يُغْمَدَا

للسيف موضع وللحوار موضع وللين موضع وللرفق موضع ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ
الْحَرَامِ وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فالذي يعتدي علينا نرد عدوانه، نحاور
من حاورنا، ونسالِم من سالَمنا، ونحارب من حاربنا، هكذا الإسلام ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً
سَيِّئَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأبو الطيب المتنبي يقول:

فَوْضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضْرَكُ وَضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

ما قام كيان في العالم ولا دولة في العالم إلا بالقوة وبالمناعة والعزة
لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ
فالولايات المتحدة الأمريكية توحدت بالدم، وثورة فرنسا بالدم، وثورة
ألمانيا بالدم، والإسلام قام على العدل والإنصاف لكن قام بقوة وعزة وسؤدد،
فمن أحب العدل أعطى العدل، ولكن إذا جار وظلم وأراد الاعتداء وأراد الإفساد
فما حقه إلا أن يؤدب، فيجب أن يُفَرَّقَ بين هذا وبين هذا، لأن بعضهم ينشر أنه
ليس عندنا جهاد ولا سيف وأنا أناس طيبون محبوبون نحب الحوار، وهذا تدجين
للأمة؛ نحن أمة عدة وأمة سلام ولكن أمة قوة، وأمة محبة وحوار ولكن أمة سؤدد،
وأمة لين وأمة رفق لكن أمة مجد، حتى يقول شاعر المسلمين:

سَلُوا الرِّمَاحَ الْعَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا وَاسْتَشْهَدُوا الْبَيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا؟
يعني المسلمين.

البيض: السيوف. قال المعاصر: الأمة الآن تعيش في غوغائية كثفاء السيل.

فهو يشيد بمجد الأمة. حتى إن إقبال يشيد بمجد هذه الأمة التي صنعت التاريخ ودخل دينها القارات الست، وقام خطباؤها على منابر الدنيا يصلون يوم الجمعة يخطبون في أصقاع العالم، من سيبيريا إلى الأطلسي إلى سور الصين العظيم، وهم يبشرون بهذا الدين الجديد الذي هو فجر البشرية وهو انتصار وفتح لها، حتى إن محمد إقبال يقول:

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَمِ

يقول: كان الكون نائماً، كان في ليل مطبق، فأذن بلال رضي الله عنه فأذن المؤذنون في العالم فاستيقظ العالم، كان العالم نائماً قبلنا.

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْدًا لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصُورًا

كان الناس قبل الإسلام يعبدون الأصنام والأوثان ويعبدون البقر والتماسيح، ولهم صور ولهم ألعاب وأوهام، ولهم سحر ولهم شعوذة وإفك وإثم وخرافة وكذب ودجل، فلما بُعث الإسلام بلا إله إلا الله، محمد رسول الله قال:

حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجْدًا لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصُورًا

وَمَنِ الَّذِي بَاعَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

وَمَنِ الَّذِي دَكُّوا بِعِزِّهِمْ أَكْفَهُمْ بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ

علي رضي الله عنه لما دخل خيبر قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَسْنَا قَتَلَةً، بُعِثْنَا رَحْمَةً وَهِدَايَةً وَفَتْحًا». فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخذ السيف وقاد الكتيبة والجيش يريد أن يفتح خيبر، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس حريصاً على قتل الناس حتى اليهود، قال: «يَا عَلِي، ادْعُهُمْ إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ - فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». فيقول: قبل أن تبارزهم حاول أن

تدعوهم عسى الله أن يهديهم إلى الحق؛ لأننا نريد هدايتهم، ليس لنا مصلحة في أن يدخل أحد النار، بل مصلحتنا أن يهتدي وأن يدخل الجنة، ليست مصلحتنا في أن يُعذب العالم، بل أن يهتدوا وأن يُرحموا برحمة الله عز وجل، ولذلك كما في صحيح البخاري سمع رسول الله ﷺ أن غلاماً يهودياً كان جاراً له في سكرات الموت، فقال رسول الله ﷺ: «قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ». يا للوفاء ويا للخلق الجم ويا للتواضع ويا للسجيا الحميدة! فلا يلُمنا أحد في حبه ﷺ وإنا لمعدورون، ولا يعترض علينا أحد من غير المسلمين، فإننا في حبه واتباعه لمأجورون، وإن قوماً أحبوه واتبعوه فإنهم على الحق سائرون، وإن قوماً عشقوا مثله العليا لهم المنصورون عند الله عز وجل، ولذلك قال ﷺ: «قُومُوا بِنَا إِلَيْهِ». فَأَتُوا فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ رَأْسِ الْغُلَامِ الْيَهُودِي. يهودي على غير الملة، فأخذ ﷺ يدعوه إلى: لا إله إلا الله. قبل أن يموت، قال ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ». ويخبره ﷺ أنه يصدق بما أتى موسى عليه السلام «فَالْتَفَتَ الْغُلَامُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ لِأَبِيهِ». يهودي صلت جلف عند أقدامه ليس مسلماً، أي: كيف تُشِيرُ علي؟ قال: «أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ». لأن أباه تأثر لأن الرسول ﷺ زاره في البيت وهو سيد الخلق أجمعين، فقال الغلام: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. فخرج ﷺ يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ». فيا للخلق!

هذا هو المجد.

وبعضهم يصف مجد الأمة وبعضهم يصف مجد القبيلة، لكن مجد الأمة والملة أعظم مجد؛ لأنه مجد عام ومجد سؤدد، وإلا فكل الناس لهم مجد، حتى يقول الحسين بن المطيري يمدح بني مطر قبيلة من قبائل العرب، فيقول:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ الْإِقَاءِ كَأَنَّهُمْ
أَسْوَدُ لَهَا فِي بَطْنٍ غَطَفَانَ أَشْبُلُ

هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ
لَجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَائِلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
لَأُولِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

إلى آخر ما قال، وهي من أحسن قصائد المدح.

وابن قابوس - ملك قديم في القرن الرابع - ابتلي بابتلاءات واضطهد وسجن، وجاءت عليه ثورات وشمّت به أعداؤه، وكان شاعراً مجيداً في الشعر، فقال:

أَمَّا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جَيْفٌ
وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ دُرٌّ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا
وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

كم في السماء من نجم، ولكن لا يتعرض للأفول إلا الشمس والقمر، فيصيبهما الخسوف والكسوف، ومن هنا، فلا يعيّر أحدٌ أحداً، لأن الأبطال والبارزين والمبدعين والمنتجين والنافعين والمفيدة والواجهات والرموز دائماً هم الذين تأتيهم الضربات ذات اليمين وذات الشمال، كما يقول أبو الطيب المتنبي:

وَإِذَا أَتَتْكَ مَذْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وأبو تمام يقول:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ
لَوْ لَا اشْتَعَالَ النَّارُ فِيمَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبَ نَفْحِ الْعُودِ

فدل على أن المجد يُتعب له، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ

المجد لا يُباع في السوق، ولا يحصل عليه السفیه والغبي، المجد لا يأتي على طبق من ذهب هدية، بل يأتي المجد بدماء ودموع وأشلاء، حتى مع غير المسلمين؛ فهذا نيسلون منديلا أخذ المجد في سبع وعشرين سنة في زنانة وراء الحديد بالقضبان، وألف كتاباً اسمه: رحلتي الطويلة في الحرية. وخرج بدماء ودموع وجهاد وسهاد وسهر وسفر، فيقول المتنبى:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لَمَّا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٍ
لَا خَامِلٌ جَهَلَتْ كَفَاهُ مَا بَدَلَتْ وَلَا جَبَانٌ بَغِيَرِ السَّيْفِ سَأَلِ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

فالمجد له ثمن يوم يقول الأول:

ثَمَنُ الْمَجْدِ دَمٌ جُدْنَا بِهِ فَاسْأَلُوا كَيْفَ دَفَعْنَا الثَّمَنَ

يقول: لما طلبتنا المعركة والانتصار والاستقلال كل دولة لها رموز.

أنا ذهبت إلى إندونيسيا والشارع الرئيس في جاكرتا: أبطال الاستقلال. وإذا هم هناك لهم صور، قالوا: هؤلاء الذين شاركوا في القتال، وقاتلوا هولندا حتى حفظت أسماءهم عند الأمة.

وتذهب في أفريقيا وإذا زعماء الإصلاح وأبطال الاستقلال والمكافحون عن مجد الأمة، وعندنا من الرموز وعندنا من السادات ومن الأخيار ما نحفظ أسماءهم؛ لأنهم قدموا لبلادهم ولأوطانهم من التضحية ومن الفداء ومن النبل، فمن وفائنا لهم أن نحفظ أسماءهم وأن نقدرها وأن نحترمها، سواء في الجانب العلمي أو الجانب السياسي أو الجانب الفكري أو الاقتصادي أو الأدبي، كل من نفع أمته ووطنه وقدم لها خدمة راقية من الإصلاح والإعمار والبناء احترامناه وسجلنا اسمه وترحمنا عليه، ولكن أيضاً كل من سعى في خرابها ودمارها وفي الإفساد

أُغْنِيَاهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ وَحَارِبُنَا اسْمَهُ وَلَمْ نَرْضَ فَعْلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْإِصْلَاحَ
وَالصَّلَاحَ وَلَا يَحِبُّ الْمَفْسِدِينَ وَلَا يَهْدِي عَمَلَ الْخَاطِئِينَ.

قَرَأْتُ أَنَّ الْوَزِيرَ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ عِيْسَى بْنِ دَاوُدَ بْنِ الْجِرَاحِ الَّذِي قَالَ عَنْهُ
الذَّهَبِيُّ إِنَّهُ: وَزَرَ غَيْرَ مَرَّةٍ لِلْمُقْتَدِرِ، وَلِلْقَاهِرِ، وَكَانَ عَدِيمَ النُّظِيرِ فِي فَتْنِهِ، وَيَخْبِرُ
عَنْهُ الصُّوْلِيُّ، قَائِلًا: «لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ وَزَرَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ مِثْلَهُ فِي عَفْتِهِ وَزَهْدِهِ وَحِفْظِهِ
لِلْقُرْآنِ، وَعِلْمِهِ بِمَعَانِيهِ...» يَحْكِي عَنْهُ الْمُحَدِّثُ أَبُو سَهْلٍ الْقَطَّانُ: كُنْتُ مَعَهُ لَمَّا نَفِيَ
بِمَكَّةَ [فَدَخَلْتُهَا فِي حَرِّ شَدِيدٍ، وَقَدْ كَدْنَا نَتَلَفَ] فُطَافٌ يَوْمًا، وَقَدْ جَاءَ فَرَمَى بِنَفْسِهِ،
وَقَالَ: أَشْتَهِي عَلَى اللَّهِ شُرْبَةَ مَاءٍ مِثْلُوجٍ. قَالَ: فَتَنَشَّأتْ بَعْدَ سَاعَةٍ سَحَابَةٌ وَرَعْدَتْ،
وَجَاءَ بَرْدٌ كَثِيرٌ جَمَعَ مِنْهُ الْغُلَمَانُ جَرَارًا، وَكَانَ الْوَزِيرُ صَائِمًا، فَلَمَّا كَانَ الْإِفْطَارُ جِئْتُهُ
بِأَقْدَاحٍ مِنْ أَصْنَافِ الْأَسْوَاقِ، فَأَقْبَلَ يَسْقِي الْمَجَاوِرِينَ، ثُمَّ شَرِبَ وَحَمْدَ اللَّهِ، وَقَالَ:
لِيَتَنِي تَمْنِيَتِ الْمَغْفِرَةِ. وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَغْدَادٍ حَصَلَ الْإِنْقِلَابُ وَحُكِّمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ.
وَمَشَى، وَالنَّاسُ كُلٌّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْهُمْ الْحَسَادُ وَالشَّامِتُونَ، فَقَالَ:

وَمَنْ يَكْ عَنِّي سَائِلًا لِسَمَاتَةٍ لَمَّا نَابَنِي أَوْ شَامِتًا غَيْرَ سَائِلٍ
فَقَدْ أَبْرَزْتَ مِنِّي الْخُطُوبُ ابْنَ حُرَّةٍ صَبُورًا عَلَى أَحْوَالِ تِلْكَ الزَّلَازِلِ

يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَضَاءُ وَقْدَرٍ، أَنَا أَذْهَبُ إِلَى الْمَوْتِ وَرَأْسِي مَرْفُوعٌ، أَنَا أَذْهَبُ
وَأَنَا شَرِيفٌ، أَنَا أَلْقَى حَتْفِي وَأَنَا عَلَى مَجْدٍ وَعَلَى هِدَايَةِ رَبَّانِيَّةٍ. لِأَنَّ أَعْظَمَ الْمَجْدِ
طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِنْتِصَارُ لَهُ، فَهُوَ كَانَ وَزِيرًا وَأَنْصَفَ فِي حُكْمِهِ وَأَنْصَفَ فِي وِلَايَتِهِ،
ثُمَّ حَصَلَ لَهُ شَيْءٌ وَقَامَ عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ وَحُكِّمُوا عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ. فَانْظُرْ هَذَا الثَّبَاتُ!
يَقُولُونَ: مُسَلَّسٌ بِالْحَدِيدِ. وَيَذْهَبُ إِلَى الْمَنْصَةِ، حَيْثُ الْمَشْنَقَةُ، فَيُشْنَقُ وَيُعْدَمُ،
وَمَعَ ذَلِكَ التَّفَتُّ إِلَى الْجُمْهُورِ، وَقَالَ تِلْكَ الْأَبْيَاتُ: أَيُّ: أَعْلَمُوا مِنْ لَمْ يَسْأَلْ بِشِمَاتَةٍ
عَنَّا، وَالَّذِي شَمِتَ وَمَا سَأَلَ.

وَلِذَلِكَ لَمَّا قُتِلَ الْوَزِيرُ ابْنُ بَقِيَّةٍ قَالَ أَبُو الْأَنْبَارِيِّ فِيهِ وَهُوَ مَصْلُوبٌ:

عُلُوِّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقُّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ وَقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدِهِمْ إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

هذا مجد يصل بك إلى رب العالمين، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة
حسنة وقتنا عذاب النار.



بر الوالدين

بر الوالدين من الحكمة والأدب والشرف،
وبعد حق الله عز وجل حق الوالدين، فليس في العالم
أحد متفضل عليك بعد تفضل الله عز وجل كتفضل
الوالدين، ليس في العالم من حرص عليك ولا
قدم لك ولا أسدى لك جميلاً ولا نفعك ولا كان
سبباً في وجودك، بعد فضل الله عز وجل كالوالدين،
فهما بمنزلة الروح لمن كان له قلب ولمن كان عنده
ضمير ووفاء، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا

أَفِ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿[الإسراء: ٢٣]﴾. ثم يقول عز وجل ﴿وَفَضَّلَ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفِ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿[الإسراء: ٢٣]﴾. أَفٌ هِيَ أصغر كلمة تضجر أو تأفف أو تدمر، حتى هذه الكلمة لا تقلها، فكيف بما فوقها من الكلام؟!

وجعل عز وجل من أسباب إطالة العمر والبركة في الرزق وانسراح الصدر بر الوالدين، حتى إن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد، فقال ﷺ: «أَحْيِ وَالِدَاكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». وقال لرجل: «لَزِمَ رَجُلٌ أُمِّكَ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رَجُلِهَا». أي: في خدمتها وفي طاعتها، وفي أثر: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمّهَاتِ».

ولذلك تبارى الشعراء والحكماء في هذا الفضل وهذا الخير تنويهاً ودعوة ونصحاً لمن اتقى الله وقبِلَ النصح. يقولون: مُنَازِل - رجل من ثقيف - عَقَّ أَبَاهُ. فقال أبوه فيه:

وَرَبَّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ أَخَا الْفَحْلِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الطَّرِشَارِبَةِ
قال: ربيته، حتى صار كبيراً.

تَعَمَّطَ حَقِي ظَالِمًا وَلَوَى يَدِي لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ

يقول: أغضبه ثم لوى يده أمام الناس. شيخ كبير ووالد وصاحب حق، ثم يفعل بي هذا الفعل؟! أكبر عاق هو منازل الذي صار مضرب المثل عند الناس، وذكر الزمخشري صاحب الكشاف فيما يُروى أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنِي رَبَّيْتُهُ مِنْ صَغَرٍ وَأَطَعْتُهُ مِنْ جُوعٍ، سَهَرْتُ لَيْلَامَ وَتَعَبْتُ لَيْلِزَاحَ فَلَمَّا كَبُرَ تَعَمَّطَ حَقِي وَظَلَمَنِي! فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَمَّا قُلْتُ فِيهِ شِعْرًا؟ - لَأَنَّهُ ﷺ يَعْرِفُ أَنَّهُ شَاعِرٌ - قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مَاذَا قُلْتَ؟ قَالَ: قلت:

غَذَيْتَكَ مَوْلُودًا وَعِدْتُكَ يَافِعًا تَعْلُ بِمَا أَجْرِي عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ صَافَتْكَ بِالسُّقْمِ كَمْ أَبْتُ لِسُقْمِكَ إِلَّا شَاكِيًا أَتَمَلَّمُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَلْدُوغُ دُونَكَ بِالَّذِي لُدِغْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمَلُ

أنت تمرض وكأني أنا المريض، وتصيبك الحمى، فتصيبني أنا الحمى،
ولذلك جرب فتعلم من أيبك وأمك أنهم لا ينامون إذا مرضت، وإذا غبت فهم
معك بقلوبهم وأرواحهم، يرضون أن يجوعوا لتشبع وأن يتعبوا وترتاح وأن يسهروا
وتنام وأن يشقوا وأنت تسعد، قال:

كَأَنِّي أَنَا الْمَلْدُوغُ دُونَكَ بِالَّذِي لُدِغْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمَلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهِ مَدَى مَا فِيكَ كُنْتُ أَوْمَلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفُظَاطَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعْ حَقَّ أَبَوَيْي فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ

يقول: ليتك فعلت كالجيران؛ كففت أذاك وكنت مسالماً، إذا ما استطعت
البر وما استطعت العطاء وما استطعت إرضاء الوالدين، فعلى الأقل سألهمم وكف
أذاك عنهم، لكن نعوذ بالله أن يصل بالإنسان إلى أن يؤذي والده أو يؤذي والدته
أو يجفوهما.

ولذلك، فقد رأيت أن أكثر من وُقِّ في الحياة من برِّ والديه جميعاً، الرسول ﷺ
صُنِعَ لَهُ مِنْبَرٌ مِنْ ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ؛ لِيَرْتَقِيَ عَلَيْهِ خَطِيبُ الْعَالَمِ وَمُصَلِّحُ الدُّنْيَا «فَصَعِدَ
الدَّرَجَةَ الْأُولَى فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ صَعِدَ الثَّالِثَةَ
فَقَالَ: آمِينَ. ثُمَّ جَلَسَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أَمَنْتَ؟ قَالَ: لَمَّا صَعِدْتُ الْأُولَى
أَتَانِي جَبْرِيلُ فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ فِي الْكِبَرِ أَوْ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ،
قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. وَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّانِيَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ

وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ. فَلَمَّا صَعِدْتُ الثَّلَاثَةَ قَالَ لِي: رَغِمَ أَنْفُ مَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ. قُلْتُ: آمِينَ». فانظر كيف جعل سبب غفران الذنوب بر الوالدين، ولهذا صار ممن بر بالإسلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة، كان طيب القلب صحيح الطريقة، وهو المقصود بالرجل في الحديث الذي يقول: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فلما جلس معه عبد الله بن عمرو «قال سعد رضي الله عنه: «لَسْتُ كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنِّي مَا بَتُّ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي وَفِي قَلْبِي غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ». كان طيب السريرة وكان باراً بأمه رضي الله عنه، فلما أسلم أبى أمه الإسلام ورفضت وأقسمت ألا تأكل الطعام؛ حتى يرتد عن دينه فأخذها باللين وبرها وقبل رأسها وسألها بالله، فقالت: أبداً، والله لا أكل الطعام؛ حتى ترتد عن الإسلام. قال: «يَا أُمَاهُ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لَكَ شَعْرَ رَأْسِكَ نَفُوساً، فَتَخْرُجُ نَفْساً نَفْساً أَمَامِي عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِي مَا رَجَعْتُ؛ فَكُلِّي أَوْ اتْرُكِي». وفي آخر النهار أكلت، وقال بعض أهل العلم: ثم أسلمت فيما بعد.

ومنهم أويس القرني قال ﷺ عنه: «مَنْ أَدْرَكَهُ فَلْيَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ».

كان من صالحى التابعين وسيد التابعين، فقال: «وَلَهُ أُمُّ هُوَ بِهَا بَارٌّ». فكان يبر أمه حتى يقول: إنه كان إذا قرب الطعام لا يضع يده حتى تضع أمه يدها، ويقول: أخشى أن آكل معها فتقع عينها على شيء من الطعام وأنا آكل منه فيتخرج رَضُوهُ عَنْهُ «وَيَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا، وَكَانَ يَغْسِلُ الْغُبَارَ عَنْ أَقْدَامِهَا».

فرفع الله ذكره وأعلى قدره.

ولذلك مما تُستنزل به البركات وتُستدر به الرحمات ويرضى به رب الأرض
والسموات وترفع الدرجات وتُضاعف الحسنات وتُكفّر السيئات بر الآباء والأمهات،
ما أحسن أن يقول لك أبوك: بارك الله فيك. وتقول الأم: غفر الله لك. انظر
دعوة الأم. لذلك جعل ﷺ للأُم ثلاثة أرباع الحق، قال رجل: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ
بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ
مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ». فجعل لها ﷺ ثلاثة أرباع الحق من

التقدير والتوقیر والاحترام.

ثم إنها ضعيفة، يقولون: أعرابي ذهب إلى الحرم فأخذ يدعو لأمه وأكثر لها الدعاء، قال له رجل بجانبه: ولأبيك. قال: أبي قوي يدافع عن نفسه. فانظر لجهله يظن أنه يوم القيامة يريد أن يدافع بقوة، وليس صحيحاً فكل يوم القيامة ضعيف ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (١٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٣ - ٩٥). لكنها أمثال تُضرب.

وممن حفظ التاريخ لهم البر رجل من أهل اليمن كان يحمل أمه ويطوف بها عند البيت، في شدة الحر، وعرقه يتصبب فقال لابن عمر: «أتراني- يا ابن عمر- وفيتُ بحقها؟ أي: رددت لها الجميل؟ قال: «وَلَوْ بِزَفْرَةٍ مِنْ زَفَرَاتِهَا». ولو بطلقة من طلقاتها وقت الولادة ما رددت هذا الجميل، فنسأل الله أن يغفر لآبائنا وأمهاتنا وأن يجزيانا عنهم خيراً، وأن يتولى برهم ﷺ.

وممن كان يبر بأمه ابن سيرين، فكان مضرب المثل في ذلك، فقال: ما صعدت سطح بيت وأمي تحته في الغرفة أخشى أن أعلو بنفسي عليها، وما أكلت مع أمي من مائدة أخشى أن تشتهي طعاماً فأكله قبلها، وكان إذا كلمته أمه يقف عندها، وكان يخفض رأسه كأنه يستزيدها من الحديث، وكان لا ينام حتى تنام أمه ويهيئ لها وضوءها وماءها وشربها ولبنها، ولذلك تجد أن من الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، ففرج عنهم أولهم رجل يقول: «يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ إِنِّي أَتَيْتُ بِالْإِبْلِ فَأَرَحْتُ إِبْلِي وَحَلَبْتُ اللَّبْنَ. وَلَهُ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَقَدْ نَامَا، فَأَتَيْتُ فَإِذَا أَطْفَالِي يَتَضَاغُونَ عِنْدَ أَقْدَامِي، وَالْأَطْفَالُ يَصِيحُونَ: اسْقِنَا لَبَنًا. فَبَقِيَ حَتَّى بَرَقَ الصَّبَاحُ، فَلَمَّا بَرَقَ وَطَلَعَ الْفَجْرُ أَيْقَظُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ فَسَقَاهُمَا ثُمَّ سَقَى أَطْفَالَهُ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ لَوَجْهِكَ، فَاكْشِفْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ». فانفرج من الصخرة الثلث ثم كمل البقية ففرج الله عنهم ﷺ. فالشاهد بر الوالدين وعظمة هذا البر وما لهم

من الحقوق، حتى إنك تجد أنه مهما فعل الولد مع والديه فلا يمكن أن يُنصَفَهم ولو حج أو اعتمر أو دعا، فدائماً الحق للوالدة ثم الوالد لعظم ما قدّموه، فالوالدة حملت به كرهاً على كره ووضعتَه ثم أرضعته ثم ألحفته، ثم أدفأته ثم أطعمته ثم أسقته ثم تولته بحنانها، والأب رعاها وأدبه وأنفق عليه وكدّ عليه وكساه وحماه وتولاه، فتسأل الله أن يتولى جزاءهما عنده من الغفران والرضوان فإنه الملك الرحمن عز وجل.

فهذه رسالة لأناس يعيشون العقوق؛ فإن من عقّ ربه عقّ والديه، ومن نسي مولاه نسي أهل الحق الذي يجب عليه، لأن الحقوق لا بُدَّ من أن تؤدي إلى أهلها، لكن من أعرض عن ذكر الله عز وجل وأدبر عن الهداية واستبدل بها جلساء السوء، ولم يكن له مطالعة في كلام الحكماء وكلام أهل العلم وكلام أهل الفهم ضل سواء السبيل. وإلا فالعقول تشهد، حتى إنك تجد في عصرنا عن غير المسلمين، مثلاً اليهود والنصارى عندهم من تقدير الوالدين الشيء العظيم وعندهم قصص وأخبار في ذلك. وقد قرأت في كتبهم وفي تاريخهم ما يثير العجب، فأقول: هؤلاء وهم على دين منسوخ ودين محرف، فأين أبناء الإسلام من هذا البر؟

وما زال - والحمد لله - في الجيل والمجتمع من البررة من يُضرب فيهم الأمثال في البر، وأعلم أناساً كثيراً حتى إن منهم من يبتدئ صباحه بتقبيل كف والديه ويطلب منهما الدعاء، فتُفتح أمامه أبواب الخير وأبواب الرزق وأبواب التسهيل وأبواب التيسير. أعرف كاتباً عربياً لو قلت لكم: إنه أشهر كاتب عربي لما بالغت، فهو يُشارك في بعض القنوات بلغ قرابة التسعين، حتى إنه يقول: سبب توفيقِي أن أمي كانت تقول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. يقول: كنت آتيها كل صباح فأقدم لها الحليب وأخدمها وأقدم حذاءها، فتقول: الله يفتح لك أبواب التوفيق. قال: فما سلكت طريقاً إلا فُتح لي. لأن هذا دعاء صادق ودعاء حار، حتى إنه يقال: برُّوا آباءكم يبركم أبناءكم.

ومما يُروى في الأخبار الشعبية أن رجلاً سحبه ابن في درج عنده في البيت، فقام الجيران لنجدته، فإذا الابن العاق يسحب أباه في الدرج، فلما وصل الدرجة الثانية عشرة، قال أبوه: قف، والله إني سحبت والدي إلى هذا المكان وهذا جزائي. فيقول هو: أنت جازيتني بجزاء أبي فقد عقت أبي وأنت عقتني، فالجزاء من جنس العمل.

وقد يُقصر الوالد كذلك بأن لم يعلم ابنه ولم يربّه ولم يعلمه كتاب الله عز وجل ولا سنة رسول الله ﷺ ولا أجلسه عند أهل العلم إنما تركه جاهلاً، ويُذكر في الأخبار عن بعض العلماء أن رجلاً أتى بابن له وإذا الابن سمين بدين متين، قال العالم: ما لك؟ قال: هذا ابني ضربني. قال: سبحان الله! ابنك يضربك؟ قال: اختلفت معه اليوم فمد يده يضربني، فأريد أن تنصحه. فأتى يسأل الابن فإذا هو جاهل بالقرآن وجاهل بالسنة وجاهل بالأدب والحكمة، فالتفت العالم إلى الأب وقال له: علّمته القرآن؟ قال: ما علمته؛ شغلنا. قال العالم: حفظته شيئاً من سنة رسول الله ﷺ؟ قال: ما علمته. قال: لقنته شيئاً من الأدب الذي يحث على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: هو ظنك ثوراً فضربك؛ بما أنك ما علمته ولا ميزت له.

فيقولون: من الأدب كما يقول سفيان: لاعب ابنك سبعاً، وأدّب سبعاً، وصاحبه سبعاً ثم اتركه للتجارب. فالسبعة الأولى لابعه، ولذلك من المصلحة ألا تدرس ابنك حتى يبلغ سبع سنوات، يقول ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ». وهذه التربية معمول بها في بعض دول العالم، يصلون للسابعة؛ لأنه يصل إلى حد التكوين لذهنه ولنفسه ولجسمه، ولذلك لا أُؤيّد أن يذهب بالأبناء ويُعلمون بالرابعة ويُحشون بالمتون في الخامسة ويتعبون ويرهقون، أنا أرى أن هذه السبع كلها مزاج ودُعابة وأخذ بأصول بعض الآداب الخفيفة، فإخوة يوسف عليه السلام يقولون لأبيهم: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ» [يوسف: ١٢]. لأن الطفل حياته في اللعب، وأمامه أوقات للجد، والأيام أمامه بالغموم والهموم فلا تستعجل

عليه، وأما السبعة الثانية فأدبه أدباً بلطفٍ في الطعام وفي الشراب وفي الجلوس وفي الصلاة وفي قول الكلام وفي النوم وفي النظام وغير ذلك، أما السبع الثالثة (١٤-٢١) فصاحبه يصبح صاحباً لك، تحترمه، تكفيه الكلمة ويكفيه الإنكار، أما بعدها فاتركه للتجارب؛ فقد أصبح رجلاً وأصبح مثلك؛ فإن صلح فالحمد لله وإن كان غير ذلك فلن تستطيع؛ فالهادي هو الله عز وجل.

فهذا كلامهم في البر الذي نُقِلَ إلينا وأخبارهم كثيرة، ولكنهم كانوا يقدرّون بارّ الوالد وبارّ الوالدة، حتى إنهم يقولون: الرجل الكريم لا يأنف من ثلاث: من خدمة والده، وضيافته، ومُعَلِّمه.



محمد إقبال

محمد إقبال هو شاعر الإسلام في العصر
الحاضر، وشعراء العالم في العصر خمسة. ذكر
ذلك الصاوي الشعان والأعظمي فهم: شكسبير
في الإنجليز، وجلال الدين الرومي في تركيا،
والسعد الشيرازي في إيران، ومحمد إقبال في
باكستان، وطاغور في الهند.

ولنأخذ بعض النماذج، فطاغور له قصيدة
عن الهند، يقول - بعد ترجمتها -: أنا نزلت
إلى شوارع نيودلهي أطلب ربي أن يعطيني مالاً؛
لأشتري سيارة، لكنني رأيت في الشارع رجلاً

مكسور القدمين على دراجة، فقلت: يا ربِّ كَفَى كَفَى، قدماي تكفي. أي: بالنعمة تحمد الله عز وجل على ما عندك، فإن الله قد أعطاك ما لا كثيراً وأنت لا تشعر. وجلال الدين الرومي له أبيات، فيقول:

مَا مَرَّ مِنْ طَيْفِ الْهَوَى بِمَسْمَعِي لَوْ سَمِعْتُ وَرَقَ الْحِمَى نَاحَتْ مَعِي
يَا مَعْشَرَ الْخِلَآنِ قُولُوا لِلْمَعَايِ: لَسْتُ تَدْرِي مَا بِقَلْبِ الْمُوجَعِ

ونعود إلى محمد إقبال، فهو من الشعراء الكبار الذين قدموا الكثير للإسلام عبر القافية وعبر الأدب الراقي والإبداع الماتع، وشهد له المسلمون وغيرهم بجودة الشعر.

إن محمد إقبال - حسب بعض الأقوال - شاهد على أن الإسلام يُقَدَّرُ ويحترم كل من اعتنقه، وأنه يُعَلِّي قدره، سواء أكان من العرب أو من الهنود أو التركمان أو الأتراك أو أي فئة من فئات العالم، فيقول يرثي للعالم الإسلامي بعد التخلف والرفاهية التي يعيشها الإسلام وانحصار الدروس العلمية، فيقول:

أَرَى التَّفَكِيرَ أَدْرَكَهُ خُمُولٌ وَلَمْ تَبْقَ الْعَزَائِمُ فِي اشْتِعَالِ

يقول: أين التفكير الأول؛ عقول الصحابة وعقول التابعين رضي الله عنهم؟

وَأَصْبَحَ وَعَظُمُكُمْ مِنْ غَيْرِ نُورٍ وَلَا سِحْرٍ يُطْلُ مِنْ الْمَقَالِ (١)

يعظ الناس، لكن ليس لوعظهم تأثير في القلوب.

وَعِنْدَ النَّاسِ فَلَاسِفَةٌ وَذِكْرٌ وَلَكِنْ أَيْنَ تَلْقَيْنَ الْغَزَالِي؟

يقصد صاحب الإحياء، فيقول: أنتم تبهرجون بالعبارات والثقافات الإسلامية، لكن أين صدق الغزالي في الإحياء الذي يلذع قلبك، وذاك لا يوجد إلا عند الغزالي.

(١) أي: لا سحر من الكلام.

مَنَائِرُكُمْ عَلَتْ فِي كُلِّ سَاحٍ وَمَسْجِدُكُمْ مِنَ الْعِبَادِ خَالِي

أما المساجد فكثيرة والله الحمد ومبينة على أحدث طراز، ومنقوشة ومزينة ومجملة، وفي الحي عشرة مساجد، وصلاة الفجر لا تجد إلا صفاً واحداً على الأكثر.

وَجَلَجَلَةُ الْأَذَانِ بِكُلِّ حَيٍّ وَلَكِنْ أَيْنَ صَوْتُ مَنْ بِلَالٍ؟

أين صوت بلال الذي يأخذ بشغاف القلوب ويتعمق في الأرواح ويأتي بالناس والمصلين من البيوت، بلال إذا أذن توقف الزمان، حتى يقول أبوريثة في قصيدته المشهورة: أنا في مكة.

لَمْ تَزَالِي عَلَى مَمَرِ اللَّيَالِي مَوْئِلَ الْحَقِّ يَا عَرُوسَ الشَّمَالِ
هَانَ فِي خَدْرِكَ الْوُضْيَاءِ التِّفَاقَاتُ ذُهُولٌ وَهَيْمَنَاتُ ارْتِحَالِ
وَاسْتَفَاقَتْ عَلَى صَبَاحٍ جَدِيدٍ مِلْءُ آذَانِهِ أَذَانُ بِلَالِ

فهو ينعى على الأمة في الأذان وفي الوعظ وفي التعليم والتدريس والصلاة، أي: في عصر الانحطاط. قد زار محمد إقبال مسجد الرسول ﷺ وبكى عند القبر، فقال يعتذر:

إِنْ كَانَ لِي نَعَمُ الْهُنُودِ وَدَنُؤُهُمْ لَكِنَّ ذَاكَ الدَّنْ مِنْ عَدَنَانِي

يقول: إن كنت أنا أتكلم بكلام الهنود ولكنة الهنود ولا أعرف العربية الفصيحة، فإن قلبي وروحي من ذاك العدناني ﷺ، أنا أعشق رسالته ومبادئها. ويقول: سبحان الله كيف أن هذا الدين أخرج أمة من الأمم كان أهلها مشركين ومع الأوثان يسجدون للصنم؟! يقول في بيت له:

وَأَصْبَحَ عَابِدُ الْاَوْثَانِ قِدْماً حَمَاةَ الْبَيْتِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِي

فيقول: سبحان الله! كانوا يسجدون لهبل واللات والعزى وأصبحوا الآن حماة البيت وحماة الركن اليماني، يقدمون رسالتهم للعالم الإسلامي كيف تحولوا بهذا الدين الجديد الذي بعث في أرواحهم نوراً، وشعّ فيهم فجرًا جديدًا، فأصبحوا هداة ومشاعل حق في البشرية. هؤلاء هم أصحاب الرسول ﷺ.

ويرى أن الحياة لا تساوي شيئاً دون إيمان، ولا قيمة لها دون الإيمان بالله، وأن الإنسان دون إيمان مثل البهيمة إن هو إلا دابة في الأرض، فقال:

إِذَا الْإِيمَانُ ضَاعَ فَلَا أَمَانٌ وَلَا دُنْيَا لِمَنْ لَمْ يُخَيِّ دِينًا
وَمَنْ رَضِيَ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِينٍ فَقَدْ جَعَلَ الْفَنَاءَ لَهَا قَرِينًا

تريد حياة دون دين؟! أنت والفناء سواء، تريد حياة دون إيمان؟! أنت والدابة والبهيمة سواء، يقول عز وجل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]. فالإنسان إن لم يكن عنده ثقة بالله وصلة به، فماذا يريد بالحياة وماذا يريد بالبقاء؟! يأكل ويشرب وينام! هذه فلسفته في الحياة.

وهو يمدح دائماً الإيمان والإسلام فيقول:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَوْنٌ تَاهَتْ الْأَفْلاكُ فِيهِ

يقول: المؤمن مثل الكون، فالؤمن تجد عنده بصيرة، وعنده فقه بالدين، ومعرفة بالآيات، ومعرفة بالآخرة، ومعرفة بسيرة النبي ﷺ، ومعرفة بالحق والفضيلة يحب العدل.

وَأَرَى الْكَافِرَ تِيهًا وَأَرَى الْكَاهِنَ تِيهِي

مثل التيه الذي في بني إسرائيل حيران ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

أَلْأَرْضَ حَيْرَانَ لَهُ، أَصْحَبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اتَّيْنَا قُلَّ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى
وَأْمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٧١]﴾. حيران ممزق قلق لا يهتدي، كالشاة
العاذر بين الشاتين ليس له مبدأ، ويدعو محمد إقبال المسلم لأن يجسد من نفسه
داعية لمنهاج محمد ﷺ وأن ينشر مبادئ الرسول ﷺ في العالم، يقول:

أَنْتَ كَنْزُ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي لُجَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوكَا

يقول: ما بقي في هذا العالم إلا المؤمن المتبع رسول الله ﷺ، أنت الدرة في
البحار وغيرك لا يساوي شيئاً وهم خشب وحطب.

مَحْفَلُ الْأَجْيَالِ مُحْتَاجٌ إِلَى صَوْتِكَ الْعَالِي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوكَا

العالم يحتاج إلى نبرة في الحق والعدل والسلام التي يبعثها المؤمن والمسلم
لرفع راية الحق والإيمان في العالم وبث النور في المعمورة.

ثم يقول في أنشودة له: شكوى وجواب شكوى:

حَدِيثُ الرُّوحِ لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي وَتَذَرِكُهُ الْقُلُوبُ بِلا عَنَاءِ

يقول: يا أيها المسلمون، أثبت لكم حديث روعي، وسوف أرسل لكم رسالة من
أعماقي ومن فؤادي، دعوني أثبت لكم شكواي أيها المسلمون.

هَتَفْتُ بِهِ فَطَارَ بِلا جَنَاحٍ وَفَضَّ أَنْيْنُهُ صَدْرَ الْفَضَاءِ

وَمَعْدِنُهُ رُخَامِيٌّ وَلَكِنْ جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لُغَةُ السَّمَاءِ

يقول: في صوتي لغة القرآن، أنا أستشهد بالآيات والأحاديث، ولذلك يكاد صوتي
يفض الكون وتهتز له السماء والأرض، هذا لأن معي آية محكمة ورسالة خالدة. أي:
يصفها للعالمين، ثم يتكلم عن الأمة الإسلامية وهو يناجي ربه عند المقام في
قصيدة اسمها: تاج مكة. أي: البلد المقدس الحرام الكبير تاج مكة، فيقول:

يا ربّ، نحن أمة الإسلام، نحن الذين صلينا على ضفاف النوار وسجدنا في
سيبيرنا، نحن الذين رفعنا السيوف لرفع اسمك.

يَا رَبِّ مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ السُّيُوفَ فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارًا
من غير أمة الإسلام أمة العرب الأولى التي ارتفعت سيوفها، فارتفعت كلمة:
لا إله إلا الله؟ حتى يرتفع فوق الأفلاك اسم: لا إله إلا الله.

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيقِيَا وَلَا صَحْرَاؤُهَا سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْدِفُ نَارًا
يقول: كنا نتقدم في المعارك، فإذا أذن المؤذن وضعنا كل شيء وصلينا.
حتى إنه يقول في قصيدة أخرى:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِصَلَاتِهِمْ وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَامًا أَحْمَرًا
أي: دماً. فيقول: الحرب مشتعلة والدم يسيل والرؤوس تتساقط وتتطاير
الأرواح، فإذا سمعنا: الله أكبر.

فَإِذَا سَمِعْنَا: اللَّهُ أَكْبَرُ عَنَّا الْوُجُوهُ إِلَى الْحِجَازِ مَسْمَعِ الرُّوحِ الْأَمِينِ فَكَبَّرَا
يقول: يُكَبِّرُنَا وَيَكْبُرُ جَبْرِيلُ ﷺ في السماء وتفتح أبواب السماء وتفتح أبواب
الجنة، فيتصل تكبير الأرض بتكبير السماء، وتكبير الملائكة بتكبير المؤمنين.

يَوْمَ التَّقَى الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: اقْرَأْ

ذهبت إلى أندونيسيا في جاكارتا في معرض الكتاب من أجل كتاب (لا
تحزن) ونائب رئيس الجمهورية هو الذي افتتح المعرض، فقام شابان منشدان
من أندونيسيا بلغتهما، ينشد أحدهم، ويرد عليه الثاني، فيقول: اقرأ. فيقول: ما
أنا بقارئ. أبكانا جميعاً، ينشد ويقول بالأندونيسي: إن هذا قول جبريل ﷺ
ورسول الله ﷺ يرد عليه، فيقول: اقرأ. فيقول الآخر: ما أنا بقارئ. ويضع يده
على فمه، فبكى الناس.

تلك الليلة بدأ تاريخنا واتصلت الأرض بالسماء وفي تلك الليلة انتهى الظلم في العالم وانتهى الكفر، بدأنا مرحلة جديدة وبدأنا نطل على الكون وبدأنا نقود البشرية، يقول الشاعر الشعبي:

ليلة الغار جبريل ومحمد وآخر الليل خير من أوله
والمجالس روى مسلم وأحمد والرسالة مصالح مرسله

أي: مجالسنا. بدلاً من الحكاوي والعبارات الفارغة من درجات حرارة وغيرها وأسعار التمر والشعير، فقد انتهى موضوعها وما عادت إلا أحاديث رواها مسلم وأحمد. الرسالة السماوية.

فقال إقبال:

لَنْ تَنْسَى إِفْرِيقِيَا وَلَا صَحْرَاوُهَا سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْدِفُ نَارَا
وَكَأَنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ خَضِرَاءُ تُنْبِتُ حَوْلَنَا الْأَزْهَارَا
لَنْ نَنْسَى طَاغُوتًا يُحَارِبُنَا

يقول: يوم فتحنا باسم الله الأرض، ويوم عبرنا القارات ومشينا على البحار والقفار بـ(لا إله إلا الله) يقف الطاغوت أمامنا فما نخشاه.

وَلَوْ نَصَبَ الْمَنَايَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

يقول: مهما وضع من منايا، وحاول قتلنا.

أَرْوَاحُنَا- يَا رَبِّ- فَوْقَ أَكْفِنَا

يقول: نقدم أرواحنا هدية لله الواحد. كما يقول خلف:

في سوق جاتك ما هي سوق هونا

يقول: «أتينا من فين»؟

وإن دندنت طلبه الحرات دندنا بآيات حق علي وبلال دندنها

وأنا أشكره؛ لأنه يقول في شعب الرسالة:

عندنا شعب يصد الهجوم الصائلات من بغانا بالهزيمة يذل ويهزم

الرسالة عندنا دائماً حكم وثبات نُفْهِمُ الِلي ما فهم وان بغى لا يفهم

فيقول محمد إقبال:

أَرْوَا حُنَا - يَا رَبِّ - فَوْقَ أَكْغِفْنَا نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَمًا وَجِوَارًا

يقول: ما أردنا المال، ما جمعنا القصور والدور، بل نريد الجوار عند الله الواحد الأحد. فآسيا صارت مثلاً للمسلمين تقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]. فهنا يقول هو:

كُنَّا نَقْدِمُ لِلْسُّيُوفِ رُؤُوسَنَا لَمْ نَخْشَ يَوْمًا غَاشِمًا جَبَّارًا

كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارًا

لأنه يوم وصل القائد المسلم العسكري بلاد الهند، مرَّ بألف ألف مقاتل، أي: مليون. يفتح بلاد الهند، فجاء ملك الهند، وقال: أريد أن أتصالح معك. قال: وما الصلح؟ قال: أريد أن أعطيك هذه الأصنام من ذهب كلها ودعنا في أرضنا. قال: أي: آخذ الفدية وأترككم على الكفر؟ قال: نعم. قال: حتى يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا مشتري الأصنام. بل أكسرها وأكسر رؤوسكم عليها؛ حتى يقول الله: يا مكسر الأصنام. فراغ عليهم ضرباً باليمين، قال:

لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَ كَنْزًا وَصَاغَ الْخُلَى وَالْدِينَارَا

يقول: لو كنا غير مسلمين لرضينا ما عرض الملك، لكن عندنا رسالة أتينا لإنقاذ الناس، أتينا لبناء دولة العدل في العالم، أتينا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

هذا هو محمد إقبال، هذا الإبداع هذا الشاعر الفيلسوف الحكيم، وكان يحمل الدكتوراه العالمية في الأدب والفلسفة، عاش رديحاً من حياته في ألمانيا، يقول: كان أبي رجلاً صالحاً دخل علي وأنا أقرأ القرآن وعندي أختي الصغيرة ألاعبها وأقرأ في المصحف، فقال أبوه: يا محمد، اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك. فقال: فهزّني بهذه الكلمة، وبعدها كلما قرأت القرآن أبكي. لأن الواحد الأحد يخاطبك أنت من فوق سبع سماوات، من نحن حتى يخاطبنا الله ويرسل لنا هذا الكتاب مع هذا الرسول العظيم؟ لكن أكرمنا الله بهذا الكتاب.

فانظر كيف تربى على هذا القرآن، صحيح أنه ليس بعالم شرعي، لكنه شاعر، لكنه على كل مستوى العالم، وجعل كل قصائده وكل رسائله خدمة للإسلام.



النهاية

لكل شيء نهاية، ولكل أمر انقضاء، ولكل حياة موت، والنهاية لا بد أن نقبلها وهي نهاية لهذه الحياة، وقد عبر عنها الحكماء والشعراء والفلاسفة كل على طريقته، وأفصح من ذلك وأعظم قول الباري عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]. لأن كفار قريش كانوا يتربصون بالرسول ﷺ الدوائر ويقولون: اتركوه سوف يموت. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. إلا أن العواقب تختلف عند الباري عز وجل فهي النهاية. ﴿وَلَا تَدْعُ

مَعَ اللَّهِ إِلَهَاءَ آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾
[القصص: ٨٨].

الشاعر ابن عثيمين يرثي العجيلي العالم يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَاذٌ وَمَهْرَبٌ مَتَى حُطَّ ذَا عَلَى النَّاسِ ذَاكَ يَرْكَبُ
نُؤْمِلُ أَمَالًا وَنَرْجُو نَتَاجَهَا لَعَلَّ الرَّدَى مِمَّا نُرَجِّيه أَقْرَبُ
وَنُبْنِي الْقُصُورَ الْمُشْمَخِرَاتِ فِي الْهُوَى وَفِي عِلْمِنَا أَنَا نَمُوتُ وَتَخْرَبُ
إِلَى اللَّهِ نَشْكُو قَسْوَةَ فِي قُلُوبِنَا وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ الْمَوْتَ يَنْدُبُ

عش ما شئت، فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، ليست الخسارة أن يهدم قصر أو تهدم دار أو يُحرق مال، الخسارة أن يموت رجل شهيم، إما عالم نافع نفع الله به أو سلطان عادل أو منفق كريم أو رجل عابد نفع الله بدعائه الأمة، يقول:

لَعَمْرُكَ مَا الرِّزْيَةُ فَقَدْ مَالٍ وَلَا شَاةٌ تَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرِّزْيَةَ فَقَدْ شَهْمٌ يَمُوتُ لِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ

هذه هي أعظم الرزايا التي تمر بالناس، وهي مصائب كبرى يتحملها الناس، ولذلك فإن بعض الناس إذا مات، فكأن القبيلة أو الأمة ماتت؛ لما جعل الله عز وجل له من التأثير، حتى يقول أحد القادة يرثي:

مَنْ كَانَ مُغْتَبِطًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَاتِ نِسْوَتُنَا بِوَجْهِ نَهَارِ
يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ فِي الْفَجْرِ عِنْدَ تَبْلُدِ الْأَسْحَارِ

يقول: إن كنتم مغتبتين فانظروا إلى البيوت وماذا حصل فيها. ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بكى النساء وارتفع العويل، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتأثر فقال الرجل: ألا تسكت النساء يا أمير المؤمنين؟ قال: «دَعُهُمْ، عَلَى مِثْلِ

أَبِي سُلَيْمَانَ فَلَتَبْتُكَ الْبُؤَاكِي». مات على الفراش وهو خاض مئة معركة ما كُسِرت له راية ولا فرّ ولا انهزم، قال: «لَقَدْ شَارَكْتُ فِي مِئَةِ مَعْرَكَةٍ، مَا فِي جِسْمِي مَوْطِنُ شِبْرٍ إِلَّا فِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمَحٍ أَوْ رَمِيَّةٌ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبُعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ». فلما خرجوا به قالت أخته فاطمة وهو على النعش:

أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الْقَوْمِ إِذَا مَا كَبَتْ وَجُوهُ الرِّجَالِ
وَمُهِنٌ لِلنَّفْسِ الْعَزِيزَةِ بِالذِّكْرِ إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِي

فكلُّ يرثي على طريقته. وإن أحسن ما أبدع فيه العرب هو الرثاء، حتى تقول الخنساء -رحمها الله- في أخيها صخر:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعَ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غِيَابِ شَمْسٍ
وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

تقول: إني أراهم ييكون على القتلى، لكن ليسوا كصخر، فصخر شيء آخر. سَطَّرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْمَلَا حَم.

ولما ماتت أخت سيف الدولة رثاها المتنبّي، يقول:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرُ فَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِبًا شَرَفْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

والصاحب بن عباد كان عدواً للمتنبّي، وكان وزيراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكره المتنبّي حسداً وكانا متعاصرين، وكان المتنبّي لا يمدح إلا الملوك، أما

الوزراء فلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بن عباد، فوقع بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبّي أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أخته ستون رسالة من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبّي قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة، وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ كَذِباً شَرَقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أنشدوا أشعاره.

وكان المتنبّي يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز، وفي طريقه الصاحب بن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبّي يريد أن يُعرِّض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُغْرَانَا
فَالْعَيْسُ أَغْقَلَ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ عَمَّا رَأَاهُ مِنَ الْإِحْسَانِ عُمَيَّانَا
عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَاهْوَانَا
كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحْسَدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهِ يُغْتَابُ سِرّاً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلَانَا

فالجواد إذا حضر مدحه الناس، وإذا غاب اغتابوه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إِذَا قَدِمَ هَابُوهُ، وَإِذَا أَدْبَرَ اغْتَابُوهُ. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

وأذكر من قصص الموت وقصص الرثاء أبياتاً في رثاء الحسين بن علي عليه السلام وأنا لله وأنا إليه راجعون، يقول ابن تيمية: ينبغي لكل مسلم إذا ذكر قاتل الحسين

أن يترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فإنها مصيبة من أعظم المصائب، فأحسن الله عزاءنا في مصيبة قتل الحسين بن علي، فلما قُتِلَ كبر وهلل أحد الجهلة ممن قتلوه، فقال الشاعر:

جَاؤُوا بِرَأْسِكَ يَا ابْنَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ مُتَزَمِلًا بِدِمَائِهِ تَزْمِيلًا
وَيُكَبِّرُونَ بِأَن قُتِلْتَ وَإِنَّمَا قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَا

فأصل التكبير والتهليل خرج من بيت الرسول ﷺ.

وصاحب الحماسة أبو تمام له مرثية، ومن مرثيته لما قُتِلَ أحد الأعيان قوله:
أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِغَالِي دَمْعَهَا لَجَمُودُ
إذا ما بكت العين في المناسبة، فمتى؟!

يقول أبو الطيب في محمد بن حميد:

كَذَا فَلْيَجِلْ الْخُطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عَذْرُ

فإذا لم تدمع العين على الأخيار والأبرار والصلحاء وأشباهمهم، فعلى من تبكي؟ هؤلاء هم الذي يستحقون أن يُبَكَّى عليهم، ولكن ربما يتصبر الإنسان، ثم لا يستطيع أمام الحدث الذي أمامه، ولذلك قال جرير لما ماتت زوجته:

لَوْ لَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
وَلَقَدْ نَظَرْتُ وَمَا تَمَتَّعَ نَظْرَةً فِي الْقَبْرِ حَيْثُ تَمَكَّنَ الْإِحْفَارُ

فيقول: ما استطعت أن أكتم شجوني ولا دموعي وآهاتي ولا زفراتي على تلك الصخرة، فاندفعت باكيةً.

ومن أحسن قصائد ابن الرومي الجيمية المطربة المنعشة، رثى فيها خديـ
ابن عمر من ذرية علي بن أبي طالب عليه السلام، قتله العباسيون، خرج عليهم في ثورة
وقتلوه، وكان ابن الرومي متشيعاً من أهل البيت، قال:

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجِكَ تَنْهَجُ طَرِيقَانِ شَتَى مُسْتَقِيمٌ وَأَعْوَجُ
أَبَيْتُ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ كَأَنَّمَا تَبَطَّنَ أَجْفَانِي سَيَالٌ وَعَوَسَجُ
أَيُّحَى الْعُلَى لَهْفِي بِمَثْوَاكَ لَهْفَةً يُبَاشِرُ مَكْوَاهَا الْفُؤَادُ فَتَنْضَجُ
بِنَفْسِي وَإِنْ فَاتَ الْفِدَاءُ بِكَ الرَّدَى مُحَاسِنُكَ اللَّائِي تُمَحُّ فَتَنْهَجُ

إلى أن يقول:

مَتَى تَسْتَعِيدُ الْأَرْضَ ثَوْبَ جَمَالِهَا فَتَبْرُزُ فِي أَثْوَابِهَا تَتَبَهَّرُ

يقول: انتهت زهرة الدنيا وانتهى بهاؤها ومات الحسن معك فما عاد
الاستقرار فيها.

عَفَاءٌ عَلَى دُنْيَا رَحَلَتْ لِغَيْرِهَا فَلَيْسَ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مُعَرَّجُ
أَلَا أَيُّهَا الْمُسْتَبْشِرُونَ بِيَوْمِهِ أَظَلَّتْ عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ لَا تُفْرَجُ
أَكَلَكُمْ أَمْسَى اطمأنَّ مِهَادُهُ بَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْقَبْرِ مُرْعَجُ
فَلَا تَشْمَتُوا وَلِيَخْسَأِ الْمَرْءُ مِنْكُمْ بَوَجْهِ كَأَنَّ اللَّوْنَ مِنْهُ الْيَرْنَدُجُ
فَلَوْ شَهِدَ الْهَيْجَا بِقَلْبِ أَبِيكُمْ غَدَاةَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَالْخَيْلُ تَمْعَجُ
لَأَعْطَى يَدَ الْعَانِي أَوْ ارْمَدَ هَارِباً كَمَا ارْمَدَ بِالْقَاعِ الظَّلِيمُ الْمُهَيِّجُ
وَلَكِنَّهُ مَا زَالَ يَغْشَى بِنَحْرِهِ شَبَابَ الْحَرْبِ حَتَّى قَالَ ذُو الْجَهْلِ أَهْوَجُ
كَأَنِّي بِهِ كَاللَّيْثِ يَحْمِي عَرِينَهُ وَأَشْبَالَهُ لَا يَزْدْهِيه الْمُهْجَهْجُ
يَكِرُّ عَلَى أَعْدَائِهِ كَرِّ ثَائِرٍ وَيَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَلَا يَتَخَلَّجُ
كَدَابٍ عَلَيَّ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا أَبِي حَسَنٍ وَالْغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

يقول: جدك علي قُتِل والحسين قُتِل، كلكم على هذا الطريق. ثم يقول: إنك مع الغصن كالشجرة المباركة. حتى يقول يهدد بني العباس:

سَيُصْغِي لَكُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ نَاصِرٌ وَلِلَّهِ أَوْسَى آخِرُونَ وَخَزْرَجٌ

وهي أكثر من ثمانين بيتاً، وهي من أحسن قصائد ابن الرومي. وهذا إذا شاء أن يرسل الحرف أرسله، فهو صاحب الكلمات المشهورة، حتى إنه مات لما سمه عبيد الله بن الوزير لأنه هجاه، فعندها استدعاه للغداء ورحب به وقال له الطبيب: دسّ له السم ودعه يموت، ففعل، فلما أحس ابن الرومي بالسم عرف أن عبيد الله سمه فذهب إلى بيت الخلاء (دورة المياه) قال: أين تذهب يا ابن الرومي؟ قال: إلى المكان الذي أرسلتني إليه. فيقول في الطريق:

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلْطَةَ مَوْرِدٍ صَارَتْ مَوَارِدُهَا مَعَ الْأَصْلَابِ

وأذكر من أمهات المراثي قصيدة دريد بن الصمة القشيري يرثي أخاه عبد الله، فبنو عارض قبيلة دريد وأخيه تواعدوا مع قوم، فقال لأخيه: لا تقم دونهم. أي: إن الأعداء أكثر، فهم نحو ألفين ونحن قليل ما يقرب من مئتين إلى أربع مئة، فرفض رأي دريد؛ إذ كان شجاعاً مقداماً، لكن الرأي كان مع دريد، وخرجوا لهم وخرج أخوه معهم، ولما دارت المعركة وأولئك أكثر قُتِل أخوه عبد الله، قاتل دريد معه، حتى سقط معه جريحاً، فرفعا كلاهما عند أمهما؛ هذا مقتول وهذا مجروح، فقالت: ما أخباركما يا دريد؟ فقال:

أَعَاذَلْ مَهَلًا بَعْضُ لَوْمِكِ وَإِقْصِدِي وَإِنْ كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ عِنْدَكَ فَارْشِدِي
وَقُلْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ وَالْقَوْمِ شُهْدِي
عَلَانِيَةً ظَنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ
وَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ الْأَحَالِيفَ أَصْبَحَتْ مُطَنَّبَةً بَيْنَ السُّتَارِ فَتْهَمَدِ

فَمَا فَتَتُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً كَرَجَلِ الدَّبَى فِي كُلِّ رُبْعٍ وَفَنَدَ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ قُبُلًا كَأَنَّهَا جَرَادٌ يُبَارِي وَجْهَةَ الرِّيحِ مُغْتَدِي

يقول: سوف يأتيكم القوم بالفي مسلح، معهم من الخناجر والسيوف والدروع الكثير. فما صدقوني، حتى رأوها عياناً.

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرِجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الْأَمْرَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ
منعرج اللوى: مكان.

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُزِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ عَوِيْتُ وَإِنْ تَرَشُدُ غُزِيَّةٌ أَرْشُدِ
دَعَانِي أَخِي وَالْخَيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَلَمَّا دَعَانِي لَمْ يَجِدْنِي بِقَعْدِ
أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلِبَانِهَا بِشَدِي صَفَاءٍ بَيْنَنَا لَمْ يُقَدِّدِ

يقول: سمع صوت أخيه: يا دريد. لأنهم رشقوه بالرماح وكان بطلاً فصاح بأخيه لما أحس بضرب الرماح من كل جهة، فأتى وإذا الخيل بينه وبينه، فلما دعاني ما إن سمعت صوته، حتى هببت كالأسد الكاسر:

فَجِئْتُ إِلَيْهِ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدِّدِ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الْبُورِ رِيْعَتْ فَأَقْبَلْتُ إِلَى جَلْدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدِّدِ
فَطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدَتْ وَحَتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدِ
فَمَا رَمْتُ حَتَّى خَرَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ وَغَوَدْتُ أَكْبُو فِي الْقَنَا الْمُتَقَصِّدِ

يقول: فأخذت أضرب الخيل وأطعنها؛ لأفتح طريقاً، وأصل إلى أخي، وصارت ثيابي كلها حمراء من كثرة الطعن من كل جهة.

قِتَالُ أَمْرِي أَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُحَلَّدِ

تَنَادُوا فَقَالُوا أَرَدْتَ الْخَيْلَ فَارِساً
فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ
وَلَا بَرِماً إِذَا الرِّيَّاحُ تَنَاوَحَتْ
قَلِيلٌ تَشْكِيهِ الْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ
فَقُلْتُ: أَعْبُدُ اللَّهَ ذَلِكَكُمْ الرِّدْيُ
فَمَا كَانَ وَقَافاً وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
بِرَطْبِ الْعِضَاءِ وَالْهَشِيمِ الْمُعْضَدِ
مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ

فيقول: وقفت على أخي وإذا هو مُصَرَّع، فقال: والله إني صُرعت معه وطُعِنْتُ معه، وأمه تبكي، وهو يعلمها ويخبرها.

أَخِي أَرْضَعْتَنِي أُمُّهُ بِلِبَانِهَا
بِثَدْيِ صَفَاءِ بَيْنِنَا لَمْ يُقَدِّدِ

وحاتم كان له أخ، وكان أخوه بخيلاً، وحاتم أكرم الناس، فقال أخوه: أنا أكرم منك. قالت أمه: كذبت. قال: لماذا؟ قالت: حاتم أكرم منك وهو طفل. قال: كيف؟ قالت: حاتم كان يرضع مع ابن فلانة الذي ماتت أمه، فإذا رفع اليتيم عن ثديي رفع حاتم عن الثدي، وإذا رضع رضع معه، فلا يرضع إلا معه، وأنت كنت ترضع معه، فإذا رضع هو بكيت أنت. فوصفته بالبخل.

وَحَفَفَ وَجَدِي أَنْنِي لَمْ أَقُلْ لَهُ:
كَذَبْتُ وَلَمْ أَبْخُلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
فَإِنْ تُعْقِبِ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ تَعْلَمُوا
بَنِي قَارِبٍ أَنَا غِضَابٌ بِمَعْبَدِ

فيقول: إن الذي عزاني أني ما قلت لأخي مرة في الحياة: كذبت. ولا بخلت عليه بشيء.



الشعر والزهد

سجل الشعراء حكمهم في الدنيا، بعد أن
جربوا وعرفوا فناء هذه الدنيا؛ لأن الماشي فيها
يغتر، كما يقول المتنبي:

تَحُلُو الْحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَقْنَعُ

فيقول: لا ينخدع في الحياة الدنيا إلا
الجاهل، مثل الشاب الذي ما جرب، لكن تجد

الحكماء والشيخوخ الكبار ومن شاب وأصبح ذا معرفة وجاءته موجعات من الدنيا ومات أصحابه، وينظر كيف تتغير، وإذا الأغنياء يفتقرون، وإذا الحوادث تحصل، حتى يقول أحدهم:

وَمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ النَّهْيُ لَا يَسْرُهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

فهم سجلوا هذه الخبرات، حتى المتنبى يقول:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَيْهَا مُعَذَّبٌ

فتجد صاحب الهمة معذباً في الدنيا، فلذلك أوصى القرآن بالزهد في الدنيا ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦] ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ١ ﴿حَقَّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. لكن ليس المقصود منها أن تضيع أموالك، وألا تستخدمها في طاعة الله، بل المقصود أن تجعلها في يدك لا في قلبك، وأن تستعين بها على طاعة الله، وألا تمنع الحقوق التي وجبت عليك، وألا تبخل بالمعروف بين الناس، وإلا فقد كان في الصحابة عليهم السلام أغنياء وأسchiاء يجودون بالمال، فينبغي أن يعرف الإنسان ذلك، كقوله عليه السلام في صحيح البخاري لابن عمر رضي الله عنهما: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

فأكثر الشعراء أصدروا حكمة في هذا الباب، ومنهم عمران بن حطان شاعر خارجي، لكنه من أقوى الشعراء شعراً، له كلمة لاغية وإنه كان على مذهب الخوارج الذين أيدوا قتل علي رضي الله عنه أبي الحسن أمير المؤمنين، حتى لما قتله عبد الرحمن ابن ملجم يقول عمران بن حطان:

يَا ضَرْبَةَ مَنْ تَقِي مَا أَرَادَ بِهَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسِبُهُ
إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
مِنْ خَيْرِ خَلْقِ عِبَادِ اللَّهِ مِيزَانًا

فرد عليه شاعر السنة، فقال:

يَا ضَرْبَةَ مَنْ شَقِيَّ مَا أَرَادَ بِهَا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا وَأَلْعَنُهُ
إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ خُسْرَانًا
وَأَلْعَنُ الْكَلْبَ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ

وعمران يقول في حكمة له عن الدنيا:

أَرَى أَشَقِيَاءَ النَّاسِ لَا يَسْأَمُونَهَا
أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَسْرُ فَإِنَّهَا
عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عُرَاةٌ وَجُوعٌ
سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ

يقول: الأغبياء دائماً مغرورون بالدنيا. فيغتر أحدهم باللباس ويغتر بالسيارة وبالمنصب ويفرح بالوظيفة، هي غرور كلعبة الأطفال، وهي مسرحية ولكنك لو فكرت بعقل لسألت: أين الملوك؟ وأين الدول؟ أين الذين كانوا معنا وازدانت بهم المجالس؟ أين شبابهم وأنسهم؟ أصبحوا أخباراً، فكل الشعراء يتواصون بذلك، وكان أحدهم يقول:

خُذِ الْقَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا
وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الطِّيبِ وَالْكَفَنِ

هل رأيتم تاجراً كبيراً ذهب بأرصده وسياراته وبالمليارات؟ لا، يذهب مجرداً بالطيب والكفن، وعند الترمذي يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّتُهُ وَقُوَّتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا». ولذلك يقول أحد الزهاد:

الْجُوعُ يُدْفَعُ بِالرَّغِيفِ الْيَاسِ فَعَلَامَ أَكْثَرِ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي ١٩

خبزة تشبع، وكأنك أغنى الناس، تشرب ماء وتنام على الحصير، هذه هي الدنيا، حتى يقول ابن فارس النحوي:

مَاءٌ وَخُبْرٌ وَظِلٌّ ذَاكَ النَّعِيمُ الْأَجَلُ
كَفَرْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنَّ قُلْتُ: إِنِّي مُقِلٌّ

عندك خبز وعندك ماء وعندك حصير تنام عليه فأنت ملك.

يقول أحدهم:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدٌّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبَكَّتْ غَدًا قُبْحًا لَهَا مِنْ دَارٍ
مَا زَادَ فَوْقَ الزَّادِ خُلْفَ ضَائِعَا فِي وَارِثٍ أَوْ نَاجِمٍ أَوْ عَارٍ

هذه الحياة الدنيا، فينبغي أن تأخذ هذه الحكم وتكسبها في حياتك من أناس جربوا العلم وشعر الحكمة، صاحب الحكمة أخذها عن علم ومعرفة، فلا بد من أن تستفيد أنت وتستثمرها في حياتك، وفي قصيدة لي قلت:

دُنْيَاكَ تَزْهُو وَلَا تَدْرِي بِمَا فِيهَا إِيَّاكَ إِيَّاكَ لَا تَأْمَنُ عَوَادِيهَا
تَحْلُو الْحَيَاةُ لِأَجْيَالٍ فَتُنْعِشُهُمْ وَيُدْرِكُ الْمَوْتُ أَجْيَالًا فَيُفْنِيهَا
عَارِيَةُ الْمَالِ قَدْ رُدَّتْ لِصَاحِبِهَا وَأَكْلُفُ الْبَيْتِ قَدْ عَادَتْ لِبَانِيهَا
يَا رَبِّ، نَفْسِي كَبَتْ مِمَّا أَلَمَ بِهَا فَزَكِّهَا- يَا كَرِيم- أَنْتَ هَادِيهَا

هَامَتْ إِلَيْكَ فَلَمَّا أُجْهِدَتْ تَعْبًا رَنَتْ إِلَيْكَ فَحَلَّتْ قَبْلَ حَادِيهَا
إِذَا تَشَكَّتْ كَلَالُ السَّيْلِ أَسْعَفَهَا شَوْقُ الْقُدُومِ فَتَدْنِي فِي تَدَانِيهَا

فحالة الدنيا أنها لا يفتر بها إلا كل مخدوع.

المهدي الخليفة العباسي ابن أبي جعفر المنصور كان في الليل يسمر، وجاءه وشاة السوء وجلساء السوء وقالوا: إن فلان بن موسى - أحد أهل البيت من ذرية علي بن طالب عليه السلام كان عابداً زاهداً ناسكاً يصلي في الليل - يخطط لقلب نظامك وأخذ الملك. فأخذ العسس والشرطة وقال: اقتحموا عليه في منزله واقتادوه في النور. وأتوا وإذا هو على سجادته مستقبل القبلة ودموعه قد بللت لحيته، وهو يقرأ القرآن، فأخذوه إلى المهدي، فلما دخل المهدي قال: سمعنا أنك تريد ملكنا وخلافتنا. قال: والله لا يرضيني إلا ملك في جنات النعيم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]. والله ما فكرت في الليل والنهار، والله ما سألت ملكك في سر ولا علانية. ثم أنشده قصيدة عن الملوك وعن الخلفاء:

بَاتُوا عَلَى قَوْلِ أَذْبَالٍ وَتَحَرُّسُهُمْ غُلِبَ الرِّجَالُ فَمَا أَغْنَتْهُمْ الْقُلُ
وَاسْتَنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَقَابِرِهِمْ يَا بُئْسَ مَا نَزَّلُوا
كَانَتْ أَسْرَتُهُمْ تُرَوَّى وَأَحْقِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْكَلُ
أَضَحَتْ ضَعِيفَةً عِنْدَ الضَّيِّقِ رَاكِعَةً فِيهَا وَمِنْهَا عَلَيْهَا الدُّودُ يَقْتَتِلُ

فبكى المهدي، حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: سامحني، رؤّعناك في هذه الليلة. وطلب منه السماح وردّه إلى سجداته وعبادته، فهذه حال الدنيا، حتى يقول أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمُؤُوكُ ذُووُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتِيْجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمِ وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

أين من شاد، ومن ساد؟ أين من ولى وعزل؟ أين من أخذ؟ أين من أعطى؟
أين من أهدى؟ أين الجحافل؟ أين الجنود؟ أين البنود؟ أين الأعلام؟ وأين أقواس
النصر والابتهاجات والاحتفالات؟! كأنها حلم رأيتها في منامك، ثم استيقظت،
وهي لا شيء، فما هو المطلوب؟ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ
عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ابن تيمية دُعي إلى السلطان السلجوقي في دمشق، قال ابن تيمية: يقول الناس:
إنك تريد ملكنا. قال: ملكك أنت؟! والله ما ملكك وملك آبائك وأجدادك يساوي
عندي فلساً؟ قال: ولم؟ قال: أريد جنة عرضها السموات والأرض. لأن الله عز وجل ذكر
في الجنة: خلود بلا موت، شباب بلا هرم، صحة بلا سقم، أمن بلا خوف، غنى بلا
فقر، يوم ينادي المنادي: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبَّهُوا
فَلَا تَهَرَّمُوا أَبَدًا». ولذلك قال الشاعر:

فَاعْمَلْ لِدَارٍ غَدًا رِضْوَانُ خَازِنُهَا الْجَارُ أَحْمَدُ وَالرَّحْمَنُ بَانِيهَا
وَسُورُهَا ذَهَبٌ وَالْمِسْكُ تُرْبَتُهَا وَالزُّعْفَرَانُ حَشِيشُ نَابِتِ فِيهَا

فتسبيحة تغرس لك شجرة، وتسبيحة تبني لك لبنة، لبنة من فضة ولبنة من
ذهب، وأقل منازل أهل الدنيا في الجنة عشرة أمثال الدنيا، فاعمل لتلك الدار،
وخذ الحكمة من الشعراء الذين عرفوا هذه الدار وعرفوا مصيرها وعرفوا نهايتها
ونطقوا بها وأنها فانية وأنها منقضية، وأنها أحلام نائم، يستيقظ المرء فلا يجد

عنده شيئاً، ولذلك كانوا يعظون، حتى إن الواسطي وعظ نور الدين محمود، فقال:
مَثَلُ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ.

ونور الدين محمود زكي هذا من العدول وكان الخليفة السادس من الخلفاء الراشدين، بعد عمر بن عبد العزيز وكان مثلاً في العدل والإيمان والتقوى، حتى مدحه مؤرخ الإسلام الذهبي وابن كثير والعلماء، وأطنب العلماء على ذكره، وطلب من الله الشهادة فرزقه الشهادة، وكان يقوم الثلث الأخير من الليل وكان يحكم الشام والجزيرة ومصر واليمن والعراق وهو تركماني: لأن الله عز وجل يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. الإسلام ليس جُكراً على أحد، فالذي ينصر الإسلام يتفضل مأجوراً ومشكوراً، بلال بن رباح نصر الإسلام وهو مولى حبشي فدخل الجنة، وأبولهب الهاشمي القرشي دخل النار.

ولذلك يقول الواسطي يعظ نور الدين، وذلك يوم مهرجان كبير، فأراد أن يعظ في يوم لا أحد يستطيع أن يرده، فيأتي يوم المهرجان ومعه عصا قديمة وهو شيخ كبير مهيب. يقول أحد السلاطين: والله إنني رأيت الأسد في الغابة ورأيت البحر إذا هاج وإنني ما خفت مثلما خفت من الواسطي. فيقدم في المهرجان وهم يلقون فقرات الحفل فيقطع الحفل ويدخل، وينتصف في المنصة ويقول لنور الدين محمود وهو فوق المنصة جالس والناس والأمراء والوزراء والجيش أمامه وخلفه، فقال:

مَثَلُ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
فَإِنْ قِيلَ: نُورُ الدِّينِ جَاءَ مُسَلِّمًا فَاحْذَرِ بَأْسَ تَأْتِي وَمَا لَكَ نُورُ

ونور الدين محمود حرم الخمر، فلا يُباع في دولته كلها، لكن بعض الحاشية قد يرتشون، وسمع ذاك، فقال:

حَرَّمْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفًا وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ
يَوْمًا تَشِيبُ لَهُوْلِهِ الْوِلْدَانُ مِنْ فَنَزَعٍ وَيَأْكُلُ كَفَهُ الْمُثْبُورُ
هَذَا بِلَا ذَنْبٍ يَخَافُ لَهُوْلِهِ كَيْفَ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ دُهُورُ

يقول: الطفل يخاف ويشيب ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. فكيف الذي مرت عليه دهور؟! وكان نور الدين يسمع ويتحرك ويرتفع عنده الضغط ويغمى عليه ويسقط من على الكرسي أمام الناس، ورشه الناس وأجلسوه وقطعوا الحفل.

هذه حال الدنيا، فحري بنا الانتهاء عن غينا، فأنصح الشباب أن يقرؤوا الحكمة وأن يطالعوا الكتب، وأنا كنت مثلهم، كنت أعجب من الحفلات والمهرجانات، وإذا رأيت القصور والدور والحدائق قلت: ما هذا النعيم؟ يا لحظهم يا لقرة عيونهم! ولما قرأت القرآن والحديث ومعانيه وكلام الحكماء وكلام المجريين والشعراء وإذا الدنيا مسرحية وحلم في المنام، ونرى الرجل الزعيم يذهب ثم يُدس في التراب، ثم يعود الناس كلهم والحاشية والمواكب وقد نسوه، ويذهب العالم الكبير وكأنه ما درس وما ألف وما علم، والغني يُجَرَّد من كل شيء.

وقد عزيت في تاجر كبير، عنده سبع شركات أي: عنده مليارات، جُرِّد من ملابسه وجُرِّد من أشياءه ودخل قبره وحيداً ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وهذا منهج القرآن، فهل ذهب أحد بشيء؟

الشعر والزهد



الشاهد أن الشعر يرسل رسائل من الزهد لمن كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد، وشعر الحكمة يشارك نصوص الكتاب ونصوص السنة، فكان على
الإنسان ألا يغتر ولا ينخدع، فأنا لا أدعو للتقشف المزري في مثل هذا، بل أدعو
للزهد الصحيح على منهج الكتاب والسنة منهج محمد ﷺ.



البخل

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧]. وقال ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ
تُدْعَوْنَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ
يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ
الْعَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

البخل مذموم في الدنيا والآخرة ومذموم في
الأرض وفي السماء ويكرهه كل أحد، والبخل خلق

ذميم، حتى إن البخل تظهر معائبه مضخمة عند الناس، فلا يقبلون له عذراً ولا يرحبون به ولا يفرحون بقدومه، والبخل يكون بطلاقة الوجه والبخل بالمال والبخل بالطعام والبخل بالضيافة والبخل بالجاه، والشعراء أخذوا هذا الجانب بالتهكم بالبخل، ومنهم الحطيئة في الزبرقان الذي كان عاملاً لعمر رضي الله عنه على الصدقات، والزبرقان فيه خير بلا شك، لكنه غاب عن ضيافة الحطيئة، فخلفه الحطيئة عند أسرته وما ضيفوه، فأطلق أبياتاً في الزبرقان يقول فيها:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وهذا من القصيدة التي يقول فيها:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

فشكاه الزبرقان عند عمر رضي الله عنه فاشتري عمر منه أعراض الناس بعدما حبسه، ثم أطلقه بعدما تعهد له ألا يعود، والشاهد في الباب أنه بوابة عظيمة للتهكم.

وأحد العلماء مر برجل اسمه عثمان، وكان عثمان مشهوراً بالبخل وكان عنده مقهى، فقال: أريد كأس شاي. فقال: لم نصنع اليوم شيئاً. لأنه يبيع بيعاً ويعلم أن الشيخ لا يملك الثمن. قال: نريد ماء على الأقل. قال: حتى الماء ما وضعناه في البرادة. فقال:

الْمَاءُ فِي بَيْتِ عُثْمَانَ لَهُ ثَمَنٌ وَالشَّايُ يَا صَاحِ، لَا يُسْقَى لِإِنْسَانٍ
فَاتَّضَلَّ عَلَى كُلِّ عُثْمَانَ تُلَاقِيهِ إِلَّا الْخَلِيفَةَ عُثْمَانَ بَنَ عَفَّانٍ

حتى إن المتنبي يلوم كافوراً فيقول:

جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَحْبِسُنِي لَكِي يُقَالُ: عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودُ

يقول: هو حبسني في مصر، فهو يأكل من عيشتي ما أعطاني شيئاً، ويقول:

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْإَيْدِي وَجُودُهُمْ مِنَ اللِّسَانِ فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ

التي مطلعها:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُذْتُ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرِ فَيْكَ تَجْدِيدُ

يقول: إن كافور جوعان يأكل من معيشتي ويمنعني من السفر؛ كي يقال: إني قصدته في مصر وإنه عظيم القدر مقصود، وإنما جوده مواعيد فقط باللسان. فبعض الناس يعدك ويمنيك الأمانى، لكن إذا أتيت إلى الحقائق، فلا تظفر منه بشيء، حتى إن بعضهم ييخل على نفسه في لباسه وفي طعامه وفي إنفاقه.

فينبغي للإنسان أن يحتاط من هذا، ويكون سخيًّا جواداً، وليعلم أن من أفضل صفات سيد الخلق ﷺ الكرم، الذي ما سُمِعَ بأكرم منه ﷺ حتى يقول جابر رضي الله عنه: «مَا قَالَ ﷺ: لَا. أَبَدًا».

اللئيم يُعرف بعلامات، منها أنه يكتئب إذا دخل الضيف عنده، ومنها أنه يُعلق عليه الكلام ولا يستطيع أن يتكلم، ومنها أن يشدد ويغضب من أبنائه فيصيح عليهم ويدعو عليهم بالويل والثبور، ومنها أنه يضخم المسألة، فإذا ذبح شاة أو خروفاً بدأ يخبرك كيف هذا وهذا الوادي وماذا نعمل بالمال إذا ما أكرمنا وحق علينا، ويقول: لا بارك الله في دنيانا إذا ما أكرمنا. ويخبرك متى كان ميلاد هذا، حتى إنهم يقولون: إذا رأيت الرجل يدخل بسكين، ويخرج فاعلم أنه بخيل. لأن إبراهيم عليه السلام لما أتاه الملائكة قال: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، حتى يقول الشاعر:

أُحَادِثُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَكَانُ جَدِيدُ
وَمَا الْخُصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

أذكر أن الشاعر المشهور حميد الدوسري له قصيدة شعبية عارضتها بقصيدة ثانية، يقول في أحد البخلاء:

والله لا يبقني على الأرض من الرديان أحد
فقلت أنا:
والله لا يرحم مثاويك يا النذل البخيل

بيرق البارق إذا جيت ويرعد الرعد
الله من قلب على نغمتك قام وقعد
أو كما ألعاب خود على المبسم برد
جعل عين تنضلك في لونها فيها الرمد
وش بعد تبغى نحدثك عنا وش بعد
الله من علم وشعر بصدري له زيد
كل ما قمت احبسه يا قصيدي هدهد
وارضنا تبهج لمقدمك والشاخص يميل
كن قولك منهل بارد من سلسبيل
ضاع فيهم مسك والطعم طعم الزنجبيل
وجعل قلب ما يحبك يقطع بالصقيل
اقصر الهقوات تكفى ترى المسرى طويل
هايج ومايج يهيج على دجله ونيل
قام يضرب بي بعجره وانا جسمي نحيل

الشاهد في هذا أن البخيل يسرع إليه الذم واللوم من الناس، حتى إنهم دخلوا على بخيل، فقام البخيل يعتذر ويكلم ابنه ويأتي ويذهب وما قدم شيئاً لا طعام ولا غيره، قال أحدهم:

يَا قَائِمًا فِي بَيْتِهِ قَاعِدًا
قَدْ مَاتَ أَضْيَافُكَ مِنْ جُوعِهِمْ
مِنْ غَيْرِ مَا مَعْنَى وَلَا قَائِدَةٌ
فَاقْرَأْ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ

لأن المائدة هي الطعام، يقول: اثت لنا بطعام.

والجاحظ ألف كتاباً في ذلك والخطيب البغدادي كذلك، حتى إن كتابه يأخذ بالألباب من بلاغته، وقد يبالغ ويأتي بأشياء، لكن أصل القصص موجودة في طبائع الناس.

فمنهم من يقول: من أبخل الناس أهل مرو. فهؤلاء إذا أتيت أحدهم في الليل سألك: هل تناولت وجبة العشاء؟ فتقول: نعم. فيقول: ليتك ما تعشيت؛ لتشاركنا

في عشاءنا. فإن قلت: لا، أنا جوعان. قالوا: لو أنك تعشيت لشربت معنا من العصير. فلا شربت العصير ولا تعشيت معهم، وهذه من حيلهم.

يقولون: إن أبا الأسود الدؤلي كان مشهوراً بالبخل، حتى جاءه غريب مرة فدخل البيت بلا إذن، أي: غفل هو عن الباب. فإنه كان متحفظاً ومتحزراً ويغلق الباب وليس عنده جرس عند الباب ولا يكتب اسمه ويتخفى، فأبو الأسود غفل ونسي الباب فدخل رجل من الغرباء المسافرين المتقطعين فوجد المائدة قد صُفّت فجلس وأكل معهم، فلما أكل قال: في أمان الله، أستودعكم الله. قال: إلى أين؟ قال: أريد أن أذهب. قال: أكلت عشاءنا وتريد أن تذهب وتخيف أناساً غيرنا؟ والله لا تذهب وأتركك تؤذي عباد الله؟ فشده بحبل بيده ورجله وربطه بالباب وقال: حتى لا تؤذي عباد الله.

ومن ذلك الجاحظ يقول: جلس أحد البخلاء على مائدة فقدموا الجدي، فانطلق أحد الضيوف على الجدي فأزال جنبه الأيمن ثم على الأيسر ثم ظهره، وصاحب البيت يتميز من الغيظ، تحطم وانتهى وغازط، قال: أراك صاحب عداوة، كأن أم هذا نطحك فتريد أن تنتقم منها. قال: والله إنني رأيت شفقتك عليه كأن أمه أرضعتك.

فلا تكن هذا ولا هذا، بل خير الهدي هديه ﷺ بأن يقدم الإنسان الموجود ولا يتكلف المفقود، لكن بسط الوجه والحديث الطيب والترحيب أحسن من القرى أحياناً، فماذا تريد من إنسان يقدم لك الخروف، لكنه مغضب ووجهه عبوس وجبينه مقطب ولا يتحدث لك؟ إن من أدب الضيافة أن تتحدث مع ضيفك، فلما أتى وفد عامر قيس إلى النبي ﷺ يسأله كما في صحيح مسلم قال: «مَنِ الْوَفْدُ؟». فأخبروه فقال: «مَرْحَباً بِالْوَفْدِ...». وأخذ يحدثهم ﷺ حتى يأنسوا.

ويستنبط بعض المفسرين من قصة موسى عليه السلام لما قال له ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧]. والله هو الذي خلق موسى وخلق العصى عز وجل، يعلم

السر وأخفى، قال: المقصود من ذلك أنه من باب الإيناس. لأن موسى عليه السلام اندفع يتكلم: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْتَ تُكْذِبُهَا عَلَيَّهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَرَبٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]. فإذا نزل بك الضيف تحادثه وتسأله عن أخباره وعن الأمطار في بلده وعن أنبائه، وعن عشيرته، فيرتاح قلبه وينشرح صدره ويأنس معك.

وفد شاعر إلى يزيد بن حاتم الأزدي وكان مشغولاً وإلا فهو كريم، فذهب من عنده ووصل إلى رجل اسمه يزيد بن حاتم القيسي، وهما أميران، لكن الأزدي هذا من كرماء العرب والقيسي من بخلاء العرب، فردّه القيسي فيقول في أبيات له: أَرَانِي- وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ- رَاجِعاً بِخُفْيِ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ فسمع يزيد بن حاتم فقال: إليّ به. فأتني به، فقال: اخلع خفيك الاثنين، فملاهما ذهباً، فقال في القصيدة يكملها؛ لأن يزيد ذاك قيسي، فقال:

أَرَانِي- وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ- رَاجِعاً	بِخُفْيِ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى	يَزِيدُ بْنُ عَمْرِوٍ وَالْأَعْرَابِيُّ ابْنُ حَاتِمٍ
فَهُمُ الْفَتَى الْأَزْدِيُّ إِتْلَافُ مَالِهِ	وَهُمُ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ	وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

وقصة المثل أن رجلاً مغفلاً من العرب، ذهب بناقته، وفي الطريق رآه حنين الذي كان مستتراً، فقال حنين: سوف أخدعه. فوضع إحدى خفيه في الطريق، فراها الرجل الأعرابي، فقال: لو كان معها أخرى لأخذتها، فتركها، فلما مشى قليلاً وجد الخف الثانية، فقال: هذه وهذه. فنزل وربط الناقة وأخذ الخف ومشى؛ ليأخذ الثانية، فأخذ حنين ناقته، فرجع بخفي حنين، فصار مثلاً.

وجملة (وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ) احترازية، مثل: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢].

فقلوه: (تخرج بيضاء) فهي قد تخرج بيضاء، لكن من بهق أو برص لكن قال:
(من غير سوء)؛ أي: ليس فيها بلاء ولا برص ولا مرض. فهذا هو الذي دل عليه؛
لأن البخل مذموم، وعلى الإنسان أن يقرأ سير الأجراد والصالحين الذين بذلوا
أموالهم وأعطوا كحاتم الطائي، وهذا في الجاهلية، أما سيد الأجراد في الجاهلية
وفي الإسلام وما قبل وما بعد والأحمر والأصفر والأسود، فهو سيد الخلق ﷺ فهو
أجرود الناس ﷺ لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه.



الفراقات

يقول أبو الطيب المتنبّي:

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَعْتُ يَوْمَ وَدَعُوا
فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشِيعُ

معنى البيت: يقول: بقيت بقية من نفسي،
الحشاشة: البقية، فقبل الفراق ما كان عندي
إلا بقية من نفسي، وودعت هذه البقية يوم ودع
أصحابي وارتحلوا عني، فما أدري أي الظاعنين
المرتحلين المسافرين أشيع، ما أدري أودع
نفسي وأشيعها التي ذهبت وارتحلت يوم ارتحل

أصحابي وأحابي أم أشيع أصحابي؟ فأصبحت في أمر مريج وأصبحت مرتبكاً،
أودع النفس التي خرجت من بين جنبي يوم خرج أحابي أم أودع أحابي؟ وهذا
من بلاغته، وهذا البيت يعدّ من أجمل الأبيات، وله في الفراقيات كلام عجيب،
حتى يقول:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدَمِّمٍ

عندما خرج من عند سيف الدولة إلى كافور، وهذه آخر قصيدة قالها، يقول:
لا أذم سيف الدولة، لكن ظروفًا حصلت وأتت أمور ودخل بيننا وبينه حساد
أبعدوني عنه، وإلا فالرجل لا أستطيع مفارقتة، يقول:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدَمِّمٍ وَأَمَّ وَمَنْ يَمَمْتُ غَيْرَ مُيَمِّمٍ

يقول: سأذهب إلى كافور ومثله لا يقصد.

وَمَا مَنَزِلُ اللَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلِ إِذَا لَمْ أَبْجُلْ عِنْدَهُ وَأُكْرِمِ
سَجِيَّةَ نَفْسٍ مَا تَزَالُ مَلِيحَةً عَنِ الضِّيمِ مَرَمِيًا بِهَا كُلَّ مَخْرَمِ

ثم يقول في الفراق:

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنِ عَلَيَّ وَكَمْ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيْعِمِ

يقول: بكى علي الرجال والنساء، وهذا من الوهم عنده، وهم العظمة.

وَمَا رَبَّةُ الْقِرْطِ الْمَلِيحِ مَكَانَةً بِأَجْزَعِ مِنْ رَبِّ الْحُسَامِ الْمُصَمِّمِ

يقول: حتى صاحبة القِرط تبكي وسيف الدولة صاحب الحسام يبكي، يقول:
قلاني سيف الدولة. أطاع في الحساد. رمانى وأنا أريد أن أرميه وأعيد الرمية له
فأنتقم منه، لكن ماذا أفعل؟ فعنده قوة وملك، فأنا أريد أن أرد عليه الرمي.

رَمَى وَاتَّقَى رَمِيٍّ وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هَوَى كَاسِرِ كَفِّي وَقَوْسِي وَأُسْهُمِي

يقول: إن له هوى في قلبي، أنا أحبه وأجله، وهذا الحب يكسر قوسي ويدي وأسهمي.
 إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمٍ
 وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلٍ وَشَاتِهِ فَأَصْبَحَ فِي شَكٍّ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٍ

وهو يقول في الفراق:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ

فتجده في الرحيل عاطفياً دائماً، وتجده يذوب رقة خلاف قصائده الحماسية
 القوية في الهممة والشجاعة، وهذا شأن العبقرية، فإنها تتدرج مع صاحبها مثل
 الزئبق في الإناء، والله سبحانه هو الذي يعطي المواهب جل في علاه، فتجده في
 الفراقيات يكاد ينخلع قلبك وأنت تقرأ هذه الفراقيات، وقد أبدع العرب أبدع ما
 أبدعوا في الفراقيات، حتى يقول ابن زيدون في قصيدته الأخاذة التي يقول ابن
 كثير: ما قرأها رجل إلا هيجته على البكاء.

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ ثِقْيَانَا تَجَافِينَا
 بِنْتُمْ وَبَنَّا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
 تَكَادُ حِينَ تَنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

وله قصيدة أخرى يقول فيها:

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبًّا وَدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
 يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنًا رَحِمَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
 إِنْ يَطْلُ لَيْلُكَ بَعْدِي فَلَقَدْ كَدْتُ أَشْكُو قَصْرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

وكان المحبون يشكون من قصر الليل مع أحبابهم، ومن طول الليل إذا
 فقدوهم، حتى يقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتُ نامتُ وقد أسهرتُ عينيَّ عيناها
فالليل أطولُ شيءٍ حينَ أفقدها والليل أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

وهذا من أجمل القصائد.

وأحدهم صاغ جناساً في هذا الباب، فقال:

ليلى وليلى نوى نومٌ اختلا فهما في الطول والطول طوبانٌ أواعداً
يجودُ بالطول ليلي كلُّما بخلتُ بالطول ليلي وإن جادتْ به بخلًا

وهذا الجناس لا يستطيعه إلا عباقرة من الشعراء، فيجمعون بين هذا الكلام وإن كان فيه تكلف، فالمتنبى سبقهم في بعض المعاني، لكن كل العرب أجادوا في الفراقيات، ولذلك فقصيدة ابن زريق في الفراق من أحسن ما قيل، والتي منها يقول:

أستودعُ الله في بغداد لي قمرًا بالكرخ من فلك الأزهار مطلعته ودعته
ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

معنى البيت: يقول: ودعت حبيبي وليت صفو الحياة ودعني أنا وفارقتي، وأني ما فارقت هذا الحبيب، وقصيدة ابن زيدون هي من أجمل القصائد وهي من عيون الشعر، وإنما قالها في الفراق لما ترك أهله وقد جاء من الأندلس إلى بغداد فجاء بهذا، حتى يقول أحد المعاصرين:

وكان صوتُ الفراقياتِ نسمعه فلا نحسُّ بكاءً منه يُبكينا
حتى أصاخَ لسانُ الدهرِ مُرتجلاً أضحى التناهي بديلاً من تدانينا

فضمن بيت ابن زيدون هذا.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يودع أصحابه يقول: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»، وكان يقول في بعض الأحاديث: «أستودعكم الله الذي

لا تضيع ودائعهم»، فهو أحسن من ودع عليه الصلاة والسلام، حتى إنه ودع عبد الله ابن رواحة فبكى عبد الله بن رواحة، وقال للرسول ﷺ وقد كان شاعراً رضي الله عنه:

ألف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مُودعٍ و خليلٍ

يقول: السلام والصلاة على خير خليل وخير صاحب وخير إمام وأفضل إنسان سيد الخلق ﷺ، وذهب ابن رواحة ليصب دمه في سبيل الله في مؤتة في الأردن رضي الله عنه وأرضاه، وكان من الشهداء الكبار.

فالشاهد أنه ﷺ كان يعلم أصحابه كيف يودعهم وكيف يودعونه عليه الصلاة والسلام.

ومرة أتاه أعرابي كما في سنن الترمذي، فقال: «يا رسول الله، إني أريد سفراً فزودني» الأعرابي على الناقة يريد السفر، يريد طعاماً.. تمرّاً.. دقيقاً.. زبيباً.. ورسول الله ﷺ لا يملك في ذلك الوقت شيئاً، كانت تمر على النبي ﷺ أوقات لا يجد فيها شيئاً، وأحياناً يأتيه ما أعطاه الله من المال والغنائم فيعطى، قال: فحالته ﷺ على أحسن من ذلك، قال: فزودني، فقال ﷺ: «زودك الله التقوى» فاستملح الأعرابي واستعذب هذا الكلام، قال: «زدني، قال: وغفر ذنبك، قال: زدني، قال: ويسر لك الخير حيثما كنت» فصارت أحسن من الدنيا وما فيها.

وفي الترمذي أن عمر رضي الله عنه أراد أن يعتمر، فاستأذن النبي ﷺ فقال له ﷺ: «لا تنسنا من دعائك يا أخي» سيد الخلق ﷺ صاحب المقام المحمود يقول لعمر وهو حسنة من حسنات الرسول ﷺ: «لا تنسنا من دعائك يا أخي» قال عمر وهو يتذكرها بعد وفاته ﷺ ويبكي، يتذكر هذه الكلمة: محمد ﷺ يقول لك: يا أخي، فقال عمر: «قال كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها»، يقول: والله لا أريد بهذه الكلمة الدنيا كلها، فمن قالها أشرف وأطهر وأحسن وأحلى فم وأصدق فم، نطق بها سيد الخلق ﷺ، يقول لعمر: يا أخي، فهو يتذكر ويبكي.

فكان المتنبي مبدعاً في هذا الباب، فيأتيك بمعانٍ لا تدري من أين أتى بها، ثم إنه يجدد ولا يكرر ما قال، يجدد في المطالع ويجدد في الطرح ويجدد في أغراض القصيد، وأحياناً يجعل في القصيدة ثلاثين غرضاً، فهو لا يتقيد بالوحدة الموضوعية، كما يفعل بعض الشعراء، إنما يسهب ذات اليمين وذات الشمال، فيبدع في كل باب، حتى إنك لو أخذت بيتاً من أبياته لكان علماً بارزاً وصار مشهداً مؤثراً ولوحة هائلة في الحسن وحدها، ولذلك فالأبيات السائرة في الناس هي أبيات أبي الطيب هذا الشاعر الأسطورة.

والأفقد سبق كثير من الشعراء المتنبي، لكن منهم من أجاد في الفراقيات ومنهم من سار عادياً. وجريير من أحسن ما قاله في الفراق وفي الشباب وفي الرثاء قوله:

يا أمَّ ناجيةَ السلامِ عليكم قبلَ الرحيلِ وقبلَ لومِ العُدْلِ
لو كنتُ أعلمُ أنْ آخرَ عهدِكم قبلَ الرحيلِ فعلتُ ما لَمْ أفعلِ

قالوا: ماذا تفعل؟ قال: أقتل نفسي. هذا من كلام الشعراء، وإلا فلن يقتل نفسه ولن يجرح نفسه، لكنه كذب.

فأبياته مؤثرة في الفراقيات، حتى إنه يقول -وأريدك أن تقف لحظة مع هذا البيت وجمالياته وهو يسيل رقة وعذوبة وفصاحة وأثراً وجاذبية وسحراً حلالاً-:

دَمَ المَنازلِ بعدَ مَنزلةِ اللواءِ والعيشَ بعدَ أولئكِ الأيامِ

يقول: عشنا مع أناس من الأحباب في ديارهم وفي خيامهم، يقول: كلما أنزل بعدها دياراً أذمها، لا ترحب بتلك الأيام بغير منازلهم. فلم يعد للعيش طعم بعد أولئك الملأ الذين عشنا معهم، حتى يقول لبيد في أصحاب رافقوه وأناس نزل فيهم: ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِم وبقيتُ في خَلْفِ كَجَلِدِ الأَجْرِبِ

يقول: كنت صاحبت أناساً عشنا في أكنافهم وفي كرمهم وفي سعة خواطرهم وعذوبة أخلاقهم، ثم تخلفت في ناس مثل جلد الأجر، إن أخطأت أمسكوا الخطأ وإن أحسنت دفتوه، فهم مثل جلد الأجر مبعر مشقق، وهذا كلُّ يشكي من زمانه.

قالت عائشة مستشهدة بهذا البيت كما في الصحيح: «يقول لبيد»:

ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهم وبقيتُ في خُلفِ كجلدِ الأجرِ

كيف لورأى زماننا لبيد؟» فأتى عروة ونقل عن عائشة قال: كيف لورأت عائشة زماننا؟! فأتى هشام بن عروة فقال: كيف لورأى عروة زماننا؟! فأتى الزهري راوي البيت فقال: كيف لورأى هشام زماننا؟! إلى أن نقله عشرة رواة. وأقول أنا: كيف لورأوا زماننا؟

فكما قال القائل: «كلما أتى زمان كان الذي قبله أحسن منه، حتى تلقوا ربكم» قاله أنس عن سيد الخلق ﷺ، وكما جاء في الحديث الآخر: «خيرُ القرونِ قرني ثم الذينَ يلونهم ثم الذينَ يلونهم» حديث صحيح.

لكن أحياناً يأتي أفراد في القرن المتأخر أحسن من بعض الأفراد في القرن المتقدم، لكن في جملة الناس القرن المتقدم أكثر خيرية، ففي كل عام وفي كل سنة يرذل الناس وتضعف مواهب الناس وخير الناس وإمكانيات الناس، حتى تلقى ربنا.

ومن أحسن ما قيل في الفراقيات قول متمم بن نويرة في أخيه مالك، يقول بعدما قتل أخوه مالك:

وكنّا كندمائي جديمةَ برهةً من الدهرِ حتّى قيلَ لئن يتصدّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياةِ وقبلنا أصابَ المنيا رهطَ كسرى ونبعا
فلما تضرّقنا كأنّي ومالكاً لطولِ اجتماعٍ لم نبت ليلةً معاً

أقرأتم مثل هذا السحر الحلال؟!

يقول متمم بن نويرة وكان له أخ اسمه مالك بن نويرة قتل، فرثاه متمم برثاء مفعج، حتى إن عمر رضي الله عنه كان إذا دخل عليه متمم قال: «ما بلغ من حزنك على أخيك يا متمم؟! قال: والله يا أمير المؤمنين، إني بكيت عليه حتى بكت عيني العوراء» وكان عنده عين مصابة، بكت وهي جافة يابسة، لكن من كثرة البكاء بكت الصحيحة، حتى أبكت أختها العوراء، كما قال الأول:

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

يقول: نصحت عيني اليمنى، كأنه يقول لها: انظري إلى العين اليسرى العاقلة لا تبكي مثلك، فأنت ماذا حصل لك! لا تبكي، قال: فلم أمكث حتى بكت اليسرى كأختها. مثلاً يقول الأعور السلمي لما فقد ولده، بكى بكى، وكان له عين صحيحة وأخرى مريضة، فقال:

بكت بعين ليس فيها غضاضة
وعين بها ريب من الحدثان
مريضة، مصابة من الحوادث.

عذرك يا عيني الصحيحة بالبكا
فما لك يا عوراء والهملان

يقول: عذرك أيتها العين الصحيحة، عندما تبكين؛ لأنك تستطيعين البكاء، ولكن ما الذي دفعك للبكاء أيتها العين المصابة العوراء؟ وهذا أيضاً من أجمل الأبيات.

وهناك السعد الشيرازي شاعر إيراني عالمي له ديوان، وذهبت إلى طهران قبل مدة؛ لآخذ هذا الديوان، وهو عندي، من أجمل الأبيات، يقول:

بكت عيني غداة البين دمعاً
وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التي بالدمع ضنت
بأن أغمضتها يوم التقينا

يقول: إن إحدى عيني بكت يوم ودعت أصحابي، والعين الثانية لم تبك، وعندما عدنا للسلام على الأصحاب بعد سنة أغمضت العين التي لم تبك؛ لكي لا ترى؛ لأنها لم تساعدنا بالبكاء قبل.

وله مقطوعة أخرى يقول فيها:

ما مرَّ من طيفِ الهوى بمسمعي لو سمعتُ وُرُقَ الحمى ناحتٌ معي
يا معشرَ الخلانِ قولوا للمُعافى: لستَ تدري ما بقلبِ المُوجعِ

وبيت:

بكتُ عيني اليمنى فلماً زجرتها عن الجهلِ بعدَ الحِلْمِ أسبلتُ معاً

للصمة الكسيري، من قصيدة يقول فيها:

بنفسي تلكَ الأرضُ ما أطيّبَ الرُبى! وما أحسنَ المصطافِ والمُتربعا!

فالمتنبي له في الفراقيات أبيات أخرى يقول من ضمنها:

يا مَنْ نُعيْتُ على بُعدٍ بمجلسه كلُّ بما زعمَ الناعونَ مُرتَهَنُ

فيرى أنهم كرهوه بعد الفراق، ما وفوا له، يعني: ما ذكروا عهده الجميل وصحبته؛ لأن بعض الناس إذا وقع بينك وبينه شجار أو نزاع ترك تلك الصحبة الجميلة ونسي ذلك الوفاء والأيام الخالدة، يقول: سمعتم بلاغاً أي مت، فسررتم وفرحتم، وسوف تموتون مثلما أموت، وهل في الموت شماتة؟!

أيها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ أننتَ المبرأ الموفورُ

يعني: ألن تموت؟! فيقول:

يا مَنْ نُعيْتُ على بُعدٍ بمجلسه كلُّ بما زعمَ الناعونَ مرتَهَنُ
ياكمُ قُتلتُ ويا كمُ متٌ عندكم ثم انتفضتُ فزالَ القبرُ والكفنُ

وهي من قصيدته البديعة الذائعة التي يقول فيها:

بِمِ التعلُّ لا أهلٌ ولا سكنُ ولا نديمٌ ولا خلٌّ ولا وطنُ
أريدُ من زميني ذا أن يُبلِّغني ما ليس يبلغه من نفسه الرمنُ

إلى أن يقول:

مِمَّا أَضْرَبَ أَهْلَ الْعَشَقِ أَنَّهُمْ هُوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطَنُوا

يقول: يعشقون الدنيا وهم في الحقيقة لم يعرفوا الدنيا، لم يعشقونها؟ فهي غدارة.. غرارة.. مكاراة.. وهي كلما رفع الإنسان علامات، فإذا علامات، وهي تصبح بحال وتمسي بحال، وفيها فراق وفيها مرض وفيها فقر، إلى أن يقول:

تَفَنَى نَفْسُهُمْ شَوْقًا وَأَدْمَعُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ
تَحْمَلُوا حِمْلَكُمْ فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ الْيَوْمَ مُرْتَهَنٌ
سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحِشَّةَ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسْنَ

يقول: عندما فارقتوني سهرت لياالي وبكيت عليكم، ثم نسيت شيئاً فشيئاً، حتى عاد إليّ النوم وبدأت أعود كما كنت، والحمد لله.

وأكثر الناس على هذا المنوال، يفقد الوالد ولده فيقول: واللّه بعدك ما أذوق النوم، فيمر وقت يسير يسلو.

وتجد الشاب يموت أبوه فتجده يقول: لم أعد أرتاح في هذه الحياة بعد والدي، والدي زينة البيت، واللّه ليس لها طعم بعد والدي، لا أبنائي ولا حياتي، ويظل يبكي، وبعد أيام وأشهر ينسى أباه.

فلا يفرك كلام الناس، ولذلك ترى في أبيات المتنبي عمق الدلالة، ترى فيها من العبقرية أنه يصل إلى المعاني، حتى يقول الشوكاني في بعض رسائله: فلا إله إلا الله ما أدق نظره! ولا إله إلا الله ما أقوى حكمه! عنده دراسة عجيبة لنفسية الإنسان؛ لأن عبقريته أوصلته إلى هذا النفوذ.

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مَكْتَرٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا يَدِيمُ سُرُورًا مَا سَرَرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْغَائِبَ الْحَزَنُ

يقول: لا تكثر بشيء ولا يهكم شيء، فالدنيا كلها أوهام في أوهام، إذا لم تفرج فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، سوف نموت جميعاً، لا تفرح بما أوتيت، ولا تجزع إذا أدبرت، فالدنيا كلها زائلة، ونحن في مسرحية اسمها الحياة الدنيا، فإذا سررت فلا يدوم السرور، كم عمر السرور؟! تسر بزوجة.. بابن.. بنجاح.. بمال.. بثروة.. بمنصب.. ثم أيام معدودة فينقلب الحال، ولا تدوم، ولا يرد عليك الغائب الحزن، تحزن على إنسان، هل سيرد الحزن الغائب عليك، هل سمعتم أن الحزن رد ميتاً أو أعاد ثروة ذهبت، فيقول:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

هذا بيت الباقعة هنا أتى به في هذه القصيدة، وإنما ذكرته؛ لأنه في قصيدته هذه اللامعة التي سطع بها نجمه مع قصائده الأخرى.

والمتنبى استخدم في قصائده طرابلس، طرابلس التي في الشام وليست التي في ليبيا، يقول المتنبى:

أكارم حسد الأرض السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

يقول: إنكم في طرابلس، حتى السماء حسدت الأرض لأنكم في الأرض، وكل مدينة في العالم حسدت طرابلس؛ لأنكم أنتم في طرابلس، يعني بني عبيد الله.

يفدي بنيك عبيد الله حاسدكم بجهة العير يفدي حافر الفرس

إلى أن يقول فيها:

لو كان جود يديه جود غادية عز القطا في الضيا في موضع اليبس

يقول: لو كانت يده مثل الغيمة في الكرم لكانت صبت ماءها حتى ما تجد القطاة وهي تمشي في الأرض مكاناً يابساً، فهذا من دقته في المعنى، وهو يرسم بريشته، يرسم لوحة هائلة بالحسن، ويلاحق معك الحرف، ثم يصور لك المشهد، ويسلمه لك جاهزاً، وما عليك إلا أن تتدبر ما يريد أن يصل إليه.

فأتى شاعر آخر فنظم على القافية فقال:

أحبابنا إن بعدتُم عن زيارتنا أنا بمصر وأنتُم في طرابلس

وسار على نفس النسق، وذكر ياقوت الحموي مدينة طرابلس، فأتى بقصيدة أبي الطيب الرائعة البديعة، وأتى بهذه القصيدة.

وإنما قلت الفراقيات؛ لأن العلماء والشعراء والعقلاء أجمعوا على أنه لا قرار في هذه الحياة وعلى أن الإنسان سوف يرتحل من هذه الدنيا.

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مِنَ الْبَلَاءِ بَلِيَّةٌ فَادْكُرْ مَصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

فما بعد موت النبي ﷺ يجزع على ميت، وما هناك مصيبة أعظم من مصيبتنا في النبي ﷺ، ولذلك كتب الله الفراق على هذه الدار: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التقصص: ٨٨].

وإنما أتى بالشعراء خاصة هذا المتنبّي؛ لأننا نهتم بأدبه موقفاً موقفاً ومشهداً مشهداً، موقفه من المديح ومن الفخر ومن الكرم وفي الحب وفي الرثاء وفي الوصف وفي ذكر الديار والمعاهد وفي الحكمة.. ونحو ذلك.

وجدناه في هذا الباب مبدعاً، حتى إنه غلب كثيراً من الشعراء في الفراقيات.

ولكن بعض النقاد والحساد يأتي ببعض الأبيات الرخيصة وينبه عليها؛ ليبين ضعف المتنبّي، يقول محمود شاكر صاحب كتاب المتنبّي: إن هذا الرخيص من أبياته أظهر عظمتة في الأبيات الأخرى، مثل الحطب بجانب الجوهر والدرر، فلا بد من هذه الأبيات الضعيفة؛ لتقوم عبقريته وعظمتة في أبياته.

فهذا المتنبّي مثل ذلك، وإلا فله أبيات أخذت عليه، مثل قوله:

فقلقلْتُ بالهمِّ الذي قلقلَ الحشَى قلاقلَ عيسٍ كلهنَّ قلاقلُ

فلولم يأتِ بهذا البيت وارتاح لكان أراحنا وأراح نفسه. ومثل هذا البيت قوله:

فحمدانُ حمدونٌ وحمدانُ راشدٌ وراشدٌ لقمانٌ ولقمانُ حارثُ

يقول: أنت مثل أبيك، وأبوك مثل جدك، وجدك مثل أبي جدك، وجد أبي

جدك مثل جد جد جد..!

وهذه العبقرية لا بد لها من فلتات وعثرات، فللعبقرية فلتات وتشققات، ولها كبوات، حتى إن أبا تمام وهو مبدع- لكن أبا الطيب يعلو عليه، فأبو الطيب ملك الشعراء وحامل ناصية الأدب وحامل ناصية الحكمة، لكن أبا تمام يأتي بعده- له أشياء عجيبة من الحكم، لكن لأمه العلماء في التكلف أحياناً، حتى إنه سهر في خراسان ليلة من الليالي؛ ليأتينا ببيت، قالوا: ليته نام تلك الليلة وأراحنا وريح المسلمين، فمن صلاة العشاء يتقلب على فراشه؛ لكي يأتي بهذا البيت، وأتى الصباح وأذن المؤذن، فقال:

سلمى سلمت من العاهات ما سلمت سلام سلمى وما قد أورك السلمُ

والأفوهو يبدع، ومن ذلك:

مررتُ سنينٌ بالسعودِ وبأهلنا فكأنَّها من قصرها أيامُ

أيام الشباب والغنى والثروة.

ثم انثنتُ أيامَ هجرٍ بعدها فكأنَّها من طولها أغوامُ

ثم انقضت تلك السنينُ وأهلها فكأنَّهم وكأنَّها أحلامُ

هذه الحياة، لخصها في ثلاثة أبيات، وهو صاحب البيت:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَيْتُ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

يقول: إذا أراد الله أن ينشر فضائلك في الناس سلط عليك حساداً يجلدونك
جلداً بالقصائد وغيرها، فتظهر عظمتك ومكانتك، يسبونك فينشرون فضائلك.

ويدلل على هذه الآيات فيقول:

لَوْلا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كانَ يُعرفُ طيبُ عِزِّ العودِ

ففوح العود والبخور إذا لم تضعه على النار، لما كان شاع وذاع في الناس. ويقول:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلِّقٌ لذيِّباجتِيهِ فاغتربُ تتجددُ

يقول: لا تبقَ باستمرار في قريتك دون أن تسافر، سيملك الناس ويكرهك
أهلك، لا تستفيد ثروة ولا علماً ولا معرفة ولا خبرةً، ولذلك من يسافر يجد العلوم
والخبرات والتجارب والثروة، وهو يدل على هذا فيقول:

أفما رأيتَ الشَّمْسَ زِيدَتْ محبةً إلى الناسِ أنْ لِيَسَتْ عليهمُ بسرمدٍ؟

لو كانت الشمس دائمة ليل نهار لملها الناس.. لكن إذا أظلم الليل وأمضينا
ما يقارب اثنتي عشرة ساعة طلعت علينا الشمس، فالكل يهفو إلى طلعتها؛ لأنها
تجددت علينا، فأنت جدّد من حياتك بالترحال والتنقل تطلب المعرفة والفائدة.
فهذه من فوائد الأسفار.

وقصدي في هذا الباب أن المتنبي قد أبدع:

فلو لم يكن له إلا قوله:

فُراقٌ ومن فارقَتْ غيرُ مذمِّمٍ وأمٌّ ومن يَمَّمْتُ خيرُ ميمِّمٍ

لكان أحسن وأجاد وكفى.



الوعظ

المتنبى هذا الشاعر المشهور أصبح كالأسطورة
في الناس ذيوياً وانتشاراً وأصبح مثلاً في الحكمة
والاستشهاد بشعره في كل محفل، ونقف هنا مع
بعض أشعاره في الوعظ، وهو قليلاً ما يعظ، فهو
مشغول بشهرته، مشغول بلموعه، مشغول بالدنيا،
مشغول بإعداد مكانة له في المجد الدنيوي المنتهي
المنصرم، حتى إنك تجده عندما يبحث عن المعالي،
تجده قتل روحه وأضنى جسمه، وهو يبحث عن
الإمارة ويبحث عن منصب، خلاف الذين يريدون
الآخرة، يقول في الوعظ:

أبْنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبْدَاً غَرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

يقول: نحن عشنا في هذه الدنيا وغراب الفراق الموت دائماً معنا.

ثم يقول في موضع آخر:

نَبِكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعَشِرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

ثم يستمر في ضرب الأمثال، قائلاً:

أَيْنَ الْأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الْأُولَى كُنْزُوا الْكُنُوزَ فَلَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقٌ
خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنَّ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقٌ

يقول: إذا أصبح هؤلاء الجبابرة والسلاطين والذين عاشوا ملوكاً أمواتاً أصبحوا في القبور خرساً، لا يتكلمون عندما تناديهم، تقول: السلام عليكم، كيف حالكم؟

إِنِّي أَتَيْتُ أَحَبَّتِي بَيْنَ الْهَوَى فِي مَنْبَتِي
نَادَيْتُ أَيْنَ أَحَبَّتِي فَوَجَدْتُ أَيْنَ أَحَبَّتِي

يعني: لا يوجد إلا الصدى، إلا الصدى لمصوت.

يقول: أتيت إلى القبور، فقلت: أين أحبتي؟ فرد علي الصوت الصدى من الوادي قائلاً: أين أحبتي؟ نفس صوتي أنا، ما أجابوا.

وهذه القصيدة ابتداءً بها المتنبي بالحب والغزل وانتهى بها يمدح معن بن

أوس، يقول فيها وهي من أحسن قصائده:

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقَّرُقُ
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى عَيْنٌ مَسْهَدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفُقُ

ما لاح برقٌ أو ترنم طائرٌ إلا انثنيتُ ولي فؤادٌ شيقٌ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتّى ذقته فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعيشُ
وعذرتُهم وعرفتُ ذنبي أنني غيرتُهم فلقيتُ منهم ما لقوا

كنت أُلوم الناس: لماذا تعشقون؟! حرام عليكم، لا ينبغي أن تعشقوا، ضعيتم أوقاتكم، ثم يبدأ بالحكمة:

أبني أبيناً نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فيها ينعقُ
نبكي على الدنيا وما من معشرٍ جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

يقول: يا بني آدم، يا إخواني يا زملائي، نحن سنفارق هذه الحياة.. انظر كيف انتقل مباشرة، لكي يصدم الممدوح بالصدمة الأولى بالمديح فيعظ، لأنه أتى إلى أناس فضلاء من أهل العلم والحكمة، فيريد أن يتبجح بأنه رجل زاهد ويعرف أن الموت حق. إلى آخر ما قال. وقد سقت لكم الأبيات والشاهد منها قوله:

كبرتُ نحوَ ديارهم لمّا بدتُ منها الشمسُ وليس فيها المشرقُ

يقول: عجباً رأيت الشمس ورأيت الجمال ورأيت هناك وجوه الناس.

الشاهد هنا: أن الرجل وعظ بالفراق في الموت وأن الإنسان قد ينتهي من هذه الحياة، وأن الدنيا ليست بدار قرار، وقد سبقه عدي بن زيد في الجاهلية، حتى يقول ابن المبارك العالم الرباني الزاهد المحدث: والله إن قصيدة عدي ابن زيد الجاهلي أحسن عندي من قصر الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين لو كان لي.

قصره طبعاً في خراسان شيء مذهل، مثل برج إيفل. إذا ذكرت برج إيفل فهو مشهور جداً، يقول: تعجبني قصيدة عدي بن زيد هذه أحسن من قصر

عبد الله بن طاهر بن الحسين الأمير، عدي بن زيد الجاهلي يقول في صفة الحياة. وكأن المتنبي أخذ منه هذا المعنى، يقول:

أَيُّهَا الشَّامِتُ المَعِيرُ بالدَّهْرِ أَنْتَ المَبْرَأُ المَوْفُورُ

يقول: يا من يشمت بنا إذا أصبنا بنكبات ومصائب، أنت مبرأ لا يأتيك شيء؟ عندك عهد من الله عز وجل ألا تأتيك نكبة، يا من شمت بنا إذا مات أبناؤنا أو أصبنا أو أتننا كوارث وأزمات، أنت لا يصيبك شيء؟

هَلْ رَأَيْتَ المَنَايَا خَلَدْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

يقول: أمن أحدٍ عليه خفير فلا يضام؟ أحد عليه وكيل ألا تأتيه بلوى؟ كلنا مشتركون في هذه المصائب، كل دار ملئت حبرة لا بد أن تمتلئ عبرة، تحت كل خصّة غصّة، هذه شيمة الدار.

تقول الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزِّي النَفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فالناس أكثرهم في بلاء، من لم يبتل في جسمه ففي عقله.. في علمه.. في دينه.. في ماله.. في تجارته.. في أبنائه.. في كل وادٍ بنو سعد.

فهذا يقول: لا تقل: إنك تشمت بنا، سوف يقع لك مثل ما وقع لنا.

مر علي بن أبي طالب (عليه السلام) ببابل، فوجد قصور بابل قد تهدمت، كان فيها مملكة هاروت وماروت اللذين ذكرا في القرآن، سحر بابل هاروت وماروت، وكان فيها حضارة عظيمة، فهدمت القصور وماتت الأشجار وهاجرت الطيور وذبلت الأزهار. ما بقي في الدار شيء. بكى علي وتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفور قال:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

يقول: كأنما وقت لهم الزمان أن يذهبوا، لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، كل أمة لها أجل، سبحان الله! جعل الله لكل أمة ولكل شعب ولكل دولة ولكل إنسان أجلاً، مثل أجل الإنسان الفرد.

فمثلاً: أخذت الدولة البيزنطية مرحلتها، وكذلك دولة حمورابي، الآشوريين.. الكلدانيين.. الكنعانيين.. الفراعنة.. كل منهم أخذ مرحلته، ثم لما أتت الساعة انتهى أمرها وسقطت، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ولما أفناهم سبحانه وتعالى قال: ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مَن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ونعود إلى عدي بن زيد، فيقال: جلس النعمان بن المنذر - وهذا من شعراء النعمان بن المنذر - وكان النعمان جاهلياً، وهو الذي مدحه شعراء كثر منهم النابغة، فجلس في حديقة غناء في الصحراء في يوم ربيع، وإذا الخزامى وإذا الشيخ وإذا الأزهار قد فاحت والطيور قد صدحت والنعيم هناك، والمنظر بهيج، قال عدي بن زيد وقد كان صاحب حكمة: يا أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ طبعاً الشجرة لا تقول شيئاً، لكنه قال هذا لكي يعرض له، قال: ما أدري ما تقول؟ قال: تقول:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزِجُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
عَبَرُوا حِينًا وَمَرُّوا زَمَنًا ثُمَّ صَارُوا جُثَثًا تَحْتَ الرَّمَالِ

يقول: تقول: كم جاءنا من وفد وذهبوا، وكم قافلة مرت من هنا، وكم من ملك جلس عندنا يمزجون الخمر بالماء الزلال.

قال النعمان بن المنذر: والله لقد نغصت علي عيشي. فأمر بالخيام فقوضت، ثم جاءه بؤس وأسف وندم؛ لأنه وعظه وقال له: لا تغتر، أنت الآن تجلس هنا تلهو

وتلعب، قد مرَّ من هنا قبلك أناس وأمم وأجيال، ثم ذهبوا، قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا
بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

فتحن في هذا المشهد مع المتنبى أحياناً يعظك، أحياناً ينبهك أن هناك
فراقاً وأن الدنيا ليست بدار قرار. فهذه الدنيا لا تبقي على أحد، ولا يدوم على
حال لها شان.

كما قال أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمَلُوكُ ذُووُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمِينٍ وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتِيجَانٍ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرَمٍ وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفَرَسِ سَاسَانٍ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا قِضَاءَ لَهُ حَتَّى قَضُوا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

يعني: أصبحوا حلماً، وهذه يتداولها الشعراء كثيراً، لكن المشكلة أن الإنسان
قد يؤمن بهذه الأفكار ولكنه لا يطبقها في حياته، تجد أكثر الناس يقول: إن الموت
حق ونحن سنموت، لكنه لا يعمل لما بعد الموت، وتجده يقول: هذه الدار ليست
بدار قرار، وإنما دار غدارة خيانة غرارة، مع العلم أنه مجتهد في جمع الدرهم
والدينار، ويعبد هذا، مع أن الإسلام يبيح لك أن تجمع المال من حله وتنفقه في
حله، لكن أن يتحول الإنسان إلى خادم وإلى عبد وينسى حقوق الله وحقوق عباده،
وينسى لقاء الواحد الأحد فهذا مذموم، ولذلك يقول ابن عيذون الأندلسي الشاعر
المشهور في رثائه للمعتمد بن عباد ذاك الملك المضطهد المظلوم الذي انتهى
بمأساة وكان مملوءاً حكمةً وعلماً ومجداً ونخوةً وصرامة، ثم انتهى به المطاف
إلى السجن أسيراً في أغمات، سجنه ابن تاشفين، ملك المرابطين، فكانت بنات
الملك ابن عباد يمشين في الكافور في القصر، يعجن لهن الكافور فيمشين في
القصر ويمشين فيه، فلما سجن أخذت بناته وطردن وأصبحن أسيرات ويعملن
ويغزلن بالأجرة الثياب للناس، خياطات، وأتين يوم العيد يزرن هذا الملك المهيب،

الملك العجيب، الذي كأنه بدر السماء، أتت فلما رآهم من السجن مقبلات يزرنه حافيات، ما وجدن ثمن حذاء! انظر إلى الدنيا وتقلباتها، فالإنسان لا يثق بالدنيا، لكن بالإيمان والعمل الصالح، أي شيء لا تثق به، لا الصحة.. ولا الشباب.. ولا الأبناء.. ولا الثروة.. يبقى معك الإيمان والعمل الصالح.. الذكر الحسن.

فلما رآهن وإذا الثياب مشققة، وهن حسيرات كسيرات بكى وتفجع وقال مخاطباً نفسه:

بالأمس كنت بالأعياد مسروراً فزارك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار بالية يطأن في الطين ما يملكن قظميراً
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً!

يعني: أما مر أن هذه الأقدام قد مشت من قبل على المسك والكافور، ما لهذا الدهر تغير؟! حتى يقول الأعشى وقد كان في منفوحة في الرياض، وذهب يمدح الرسول ﷺ في قصيدة، لكنه ما تمكن من إلقتها، صرفه حب الدنيا، أعطاه أبو سفيان مئة ناقة فترك الإسلام والرسالة ورجع بمئة ناقة، وسقط من على ناقة في منطقة ديراب هنا قريباً من الرياض ومات، فهو يقول في أول قصيدته:

شباب وشيب وافتقار ولدّة فله هذي الدار كيف ترددا

فقصدي من هذا الشاهد أن ابن عيذون الأندلسي يرثي ابن عباد يقول:

الدهر يفع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصُور
أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

يقول في آخرها وهو يتحدث عن المنية: إنها ما تبقي أحداً، تزور صاحب القصر وصاحب العيادة وصاحب المتجر والطبيب والمهندس والفيلسوف والشاعر.. تختطف أرواحهم، ثم يقول فيها:

فليتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمراً بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيّاً بِمَنْ شَاءَتْ مَنْ الْبَشَرِ

انظر إلى هذا اللغز التاريخي! ليتها فدت عمراً وهو عمرو بن العاص، وخارجة كان أشبه بمدير الشرطة أو رئيس الشرطة لعمرو بن العاص؛ لأن الخوارج أرادوا قتل علي رضي الله عنه ومعاوية وعمرو بن العاص، فجهزوا ثلاثة في ليلة واحدة، فأما قاتل علي وهو عبد الرحمن بن ملجم فوجد علياً فقتله، فصار علي شهيداً، وغضب الله على عبد الرحمن بن ملجم ولعنه، وهو الخارجي.

وأما عمرو بن العاص فذهب له الخارجي في مصر؛ ليقتله وكان عمرو بن العاص قد مرض -سبحان الله، هي الأقدار!- تلك الليلة بحمى، فأرسل مدير الشرطة؛ ليصلي بالناس الفجر، فحسب الخارجي أنه عمرو بن العاص فقتله.

فمقصود ابن عيذون: لما فدت المنية عمرو بن العاص وجعلت خارجة مكانه، فليتَهَا أيضاً أخذت من شاءت من البشر، وتركت لنا علي بن أبي طالب أبا الحسن.

وعلى ذكر علي فقد كان آية في الزهد، وهو صاحب الكلمات الواصلة التي إلى القلوب حاصلة، حتى إن البخاري في كتاب الصحيح في الرقاق بدأ كتابه بقوله:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».

ويقول في كلمة له: «يا دنيا دنية، غري غيري، طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها، زادك حقير، وعمرك قصير، وسفرك طويل، أم من وحشة الزاد وبعد السفر ولقاء الموت».

ولذلك قال المتنبّي:

أبداً تستردُّ ما تهبُّ الدُّنيا فيا ليت جودها كان بخلًا

هذه فلسفة المتنبى. يقول: إذا أعطتك الدنيا شيئاً تسترده من جهة أخرى، يصح عندك الابن تموت البنات، يتشافى عندك البصر يذهب السمع، فليتها أمسكت رأساً برأس، كفافاً لا لي ولا علي، كما قال عمر رضي الله عنه في سكرات الموت: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي» أي: من الخلافة، وقد كانوا يبشرونه، يقولون: أبشري يا أمير المؤمنين، أسلمت فكان إسلامك نصراً، وهاجرت فكانت هجرتك فتحاً، وتوليت فكانت ولايتك رحمة.

وهذا صحيح، كل ما قالوه صحيح، فبكى وقال: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي».

فالمتمنبى جمع هذه المعاني وقال:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا فإيا ليت جودها كان بخلاً

الآن يبارك للإنسان في المنصب، لا يكاد يمكث فيه، وإذا بالعزل يفاجئه. فهذه فلسفة المتنبى إذا أراد أن يعظ، فهو يتكلم في الوعظ أحياناً، ولا يكثر في ذلك.

والمتمنبى له في أبواب الوعظ والموت فصول، ولكنه يجيد صراحة إذا أراد وإذا كان صادقاً في الرثاء، وإذا كان يحب هذا الميت، فإنه يصدق في الدموع ويصدق في إخراج الآهات والزفرات واللوعات عليه، حتى قال في قصيدة يرثي وزيراً عند سيف الدولة اسمه: يماك، يقول:

وقد فارق الناس الأوبة قبلنا وأعياء دواء الموت كل طبيب

يقول: كل إنسان فارق خليله، فالموت لم يستطع حتى الأطباء أن يكتشفوا له حلاً، اكتشفوا حلاً للأمراض وللآلام.. وعقاقير.. وأدوية.. والعلاج.. لكن الموت لا.

يقول الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب فرحاً.

فكل إنسان مهدد بالموت، فالمتنبى أجاد في نظمه ذاك، إلى أن قال:

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلْمَرُوءَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرَ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ

وشعوب: المنية، الموت من أسمائه شعوب، يقول: لو أنه لم يكن موت لما كان هناك خير للفضيلة وللجود وللشجاعة وللذكاء والبراعة، لكان الناس سواسية. لكن لما كان هناك موت وحساب صار الجواد أحسن من البخيل، والشجاع أحسن من الجبان. ثم يصف الدنيا قائلاً:

تَوَرَّثَهَا الْآتِي تَوَرَّثَ سَالِبٌ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فَرَاقَ سَلِيبٌ

يقول: ابنك يأتي بعدك يتورث، فكأنه سلبك ملكك. والوالد مسكين فهو مسروق، ابنه يأتي إلى الدنيا فيسلبه سلباً.

وهذه الفلسفة عند الشعراء يكثر منها ولكنهم في الغالب يصدقون؛ لأن الموت هو ساعة الصفر كما يقول الطنطاوي، ساعة الصفر يعني ساعة الموت، يذعن فيها المتكبر ويلين فيها القاسي، ويتواضع فيها الجبار، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني.. فهي لحظة في الحقيقة تزول بهارج النفس فيها.

حتى إن فرعون الهيلمان.. والقوة.. القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] لما أتت ساعة الصفر قال: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] انظر كيف حقق! لأنه وصل إلى درجة وإلى ساعة وإلى لحظة تنتهي الزخارف والادعاءات والإغراء وطغيا، النفس وجبروت الخاطر.. كل هذا ينتهي، يقول كعب بن زهير:

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَائَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

يقول: مهما طال عمر الإنسان ومهما عمر وشاد وساد واغتنى وذهب وشمخت نفسه.. فسوف يحملونه على خشب وهي الآلة الحدباء وسيذهب إلى الآخرة، هذه

قصة الموت. ولذلك فقد وقفت معه؛ لأن المتنبى وقف معه في بعض أبياته وفي بعض قصصه وهو يتحدث عن الفراق، حتى إنه لما ماتت أخت سيف الدولة وكان مسافراً، كان في العراق، فيقول:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بأمالي إلى الكذبِ

ولا يقصد الجزيرة العربية، بل بلدة في العراق، يقول: قلت أسأل الله أن يجعله كذباً، إن شاء الله ليس هذا الخبر صحيحاً. وهذا مجاملة ونفاق، يريد أن يجمال سيف الدولة يقول: لما ماتت أختكم والله لقد جاءني من الهم والغم وجاءني من الإزعاج، حتى قلت: أسأل الله أن يكون هذا الخبر غير صحيح، لكن انظر إلى الإبداع اللفظي مع هذا الرجل، حتى في مطلع القصيدة يقول:

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كنايةً بهما عن أشرف النسبِ
طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بأمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقه كذباً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

الله أكبر! من أين يأتي بهذه المعاني وهذه الألفاظ... وهذه الإبداعات.. يقول: والله إنني غرقت بالدمع حتى صار الدمع كأنه يغرق بي أنا، وهذا من غاية ما يفعله.

يقول أحد الآباء لابنه: يا بني، إياك والشعر الفاتر، إما جامد مثلج يكسر العظام، وإلا حار يقطع المصران.

أما الشعر الفاتر فلا حماسة له. وغالب شعر المعاصرين تجده فاتراً.

والصاحب بن عباد كان عدواً للمتنبى، وكان وزيراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكره المتنبى؛ حسداً فقد كانا متعاصرين، وكان المتنبى لا يمدح إلا الملوك أما الوزراء فلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح صاحب بن عباد، فوقع

بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبى أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أخته ستون رسالة، من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبى قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَرٌ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ كَذِباً شَرَقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أنشدوا أشعاره.

وكان المتنبى يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز وفي طريقه الصاحب ابن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبى يريد أن يعرض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا
فَالْعَيْسُ أَعْقَلَ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمْ عَمَّا رَأَاهُ مِنَ الْإِحْسَانِ عُمَيَّانَا
عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَاهْوَانَا
كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحْسَدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهِ يُغْتَابُ سِرّاً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلَانَا

فالجواد إذا حضر يمدحه الناس وإذا غاب يغتابونه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إذا قدم هابوه وإذا أدبر اغتابوه. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

فانظر إلى هذه العظمة التي فيه، وهو فقير وصعلوك، لكنه لديه عبقرية.

يقول: لا يغرك كوني يتيماً، فأنا قوي ولا أقبل أحداً، وأنا مصمم على ألا

يسبقني أحد. هذه عبقرية نادرة.. وهذا أصبح له وجود في الساحة، ولذلك لا تلغي أحداً من المؤثرين، فإنك لا تستطيع فعل ذلك أبداً؛ لأن له أتباعاً وله شرائح وله مشاهدين وله من يسمع وله من يقرأ وله من يحب، فهذا المتنبى لا بد أن تعترف به، وهذا الذي فعله صاحب ابن عباد لعقله ولو كان عدواً له.

ومن المعاصرين كان ابن عثيمين، ليس العالم، بل شاعر آخر اسمه محمد ابن عثيمين، يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَأٌ وَمَهْرُبٌ مَتَى حَطَّ ذَا عَنْ نَعِشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ

يقول: لا تكاد تنتهي الجنازة الأولى، حتى تلحقها أختها، ونظل نتنقل من العمار إلى الدمار، من القصور والدور إلى القبور.. وهكذا.

فالموت وراءك أينما ذهبت، تذهب في السفينة فهو وراءك، وفي الطائرة معك، وفي المكتب، تدخل الغار خلفك، تجلس في العيادة معك، لا يفارقك.

وانظر إلى الأسلوب القرآني الراقي الذي هو أجل من الشعر، وارتفع عن النثر، وعظم عن الأدب، يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] إذا فررت من الشيء فأين يكون هذا الشيء؟ يكون وراءك، تفر من الأسد والأسد وراءك، تفر من الثعبان والثعبان يطاردك، فانظر إلى أسلوب القرآن: ﴿الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وهو في الحقيقة أمامكم وليس خلفكم، فأنتم تفرون إليه، كما قال القائل: فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ.

فأنت تفر إلى الموت، قرأت في قصص سليمان بن داود عليه السلام أن ملك الموت نزل في مجلسه، قال لملك الموت: إلى أين تذهب؟ قال: أمرني ربي أن أقبض رجلاً من رعيته في فلسطين بأرض الهند، وقد بقي على أجله أيام والله أمرني أن أقبض روحه في الهند، وهو معك في فلسطين، فكيف هذا! وبينما هو جالس

وإذا برجل أتى ودخل على سليمان وهو هذا الرجل المحكوم عليه بالموت من الله، قال: يا نبي الله، أريد أن تأمر الريح أن تنقلني إلى الهند لغرض لي هناك، فتبسم سليمان وأمر الريح بنقله إلى الهند، كما قال سبحانه عنها: ﴿غُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] ويركب سليمان والأمراء والعسكر والجنود كلهم على بساط الريح، فإذا أرادت أن تنزل قال: ﴿رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] يعني: تهدأ شيئاً فشيئاً، حتى تصل المدرجات بهدوء، فقبض روحه بعدما انتقل.

وبالمناسبة مر أحد الشعراء في مصر بقبر الإمام محمد عبده المفسر الكبير غفر الله له، وقال بيتاً جليلاً سبحانه الله! وقد كان مر على وفاته أربعون ليلة، فوقف الشاعر وبكى كثيراً، قال لمحمد عبده يخاطبه وهو في القبر مدفون من أربعين ليلة:

لَمْ لَا تَجِيبْ وَقَدْ دَعَوْتُ مَرَاراً يَكْفِي سَكَوَتُكَ أَرْبَعِينَ نَهَاراً؟

يقول: سلمنا.. سألنا عنك.. كيف أخباركم.. يا إمام.. تكلم.. رد علينا التحية.. هذا من الشجن.. هو يعرف أنه لن يرد عليه التحية، لكنه يريد أن يقطع قلبك؛ لأن هذا كان رجلاً مؤثراً مفسراً، وكان مصلحاً، يقول: منذ أربعين يوماً ونحن نمر على قبرك.. ولم ترد علينا السلام مرة واحدة!

حتى المتنبى كما مر معنا يقول:

خَرَسَ إِذَا نَوْدُوا كَأَنَّ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُّطْلَقٌ

يقول: نسلم على الملوك والجبابرة والعلماء والكبار يقول: الكلام حلال فلم لا تتكلمون؟! ليس الكلام حراماً، لكنهم لم يستطيعوا، يقول علي بن أبي طالب عندما سلم على القبور: «كيف أخباركم؟ ثم قال: سكتوا والله! ولو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]».

فإذا أردت أن تعرف الحياة، فمر بالمقبرة.

يقول إستيفن كوفي: مررت بمقبرة في كلفورنيا، فرأيت قبر رئيس الجمهورية بقبر الفقير، واللاعب المشهور الكبير بقبر اليتيم، كلهم سواء، يقول الشاعر:

أتيت القبور فناديتها: فأين المعظم والمحتقر؟
تفانوا جميعاً فما مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخبر
فيأ سائلي، عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

القبور من ظاهرها سواء، وفي داخلها وزير.. وحارس عمارة.. ورجل بسيط.. ومجنون.. وقائد الجيش.. كلهم سواء! المسكين.. والمتملق.. وآخر ذكي عبقرى فيلسوف.. وآخر أحمق.. لكن القبور سواء.

وكل إنسان له أن يتجهز بصورة ظاهرية، ويحاول أن يجعل هيكله ولباسه، فهذا مطلوب في الإسلام، يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: «إن الله جميل يحب الجمال» لكن عليك أن تجعل روحك، ما دمت تجعل الهندام والشخصية والهيكل، فلا بد من أن تجعل روحك بالفضيلة.. بالبر.. بالتقوى.. بعمل الصالحات.. بحب الخير للناس.. بالرحمة بعباد الله عز وجل.. بالتواضع.. بحسن الخلق..؛ حتى تكون هناك سمات إسلامية تميزك.

فالمتنبي يجرك في هذا الحديث؛ لأنه يسوقك بحكمته وبإبداعه إلى موضوع، فيستولي على الموضوع نفسه فيكون أحسن ما يقول في الباب، وإلا فقد سبقه شعراء، فأبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء بالطاعون، فسهر وبكى حتى قال:

أمن المنون وريبها تتوجع؟ والدهر ليس بمعتب من يجزغ
قالت أميمة ما لجسمك ناحل منذ ابتليت ومثل مالك ينفع

أميمة هذه زوجته، تقول: ما لك سهرت وتقعجت! قال: كيف لا أتفجع على
أبنائي! سبعة ماتوا بالطاعون في سنة واحدة! حتى يقول:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها الضيت كلّ تميمة لا تنفع

يقول: إذا جاء الموت فلا تنفع تميمة ولا رقية ولا حرز ولا علاج ولا عقاقير ولا
شيء.. لو يأتون بأكبر أطباء العالم، فإنهم لا يستطيعون فعل شيء.

فلذلك ينبغي عليك أن تعرف هذه الحقيقة، لا بد من أن نصل إليها كما
ذكرها المتنبي وغيره من الشعراء؛ لأننا نكتب في مجال الأدب، وإلا فقد وعيت
نصوصاً كتاباً وسنة.



الكتاب

يقول أبو الطيب المتنبّي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيا سُرْجُ سابِجٍ

وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ

وهذا من قصيدته التي من أبياتها الكلام

المشهور، يقول:

وللسرِّ منِّي موطنٌ لا ينالُه

نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ

إلى أن يقول:

وفي النَّفسِ حاجاتٌ وفيك فطانةٌ

سُكُوتي بيانٌ عندها وخطابُ

وهو يخاطب بذلك كافور والشاهد هنا: أنه يقول: (وخير جليس في الزمان كتاب)، وهي من الحكم التي سارت عند العلماء والمفكرين والمثقفين وصدقوها، وهي من دقائق ما وصل إليه في حكمته البناء، فيقول: أحسن من تجالسه الكتاب، وهذا معنى مطروق، لكن يأتي شاعر في حجم المتنبي وفي قامته ويأتي بهذه الحكمة ويهديها للناس فيكون لها وقع خاص؛ لأنه يهتم بالمعرفة ويهتم بالعلوم، حتى يمدح العلماء.. يمدح القضاة.. يمدح الكتاب الذين يهتمون بالعلم والثقافة، يقول لأحد العلماء:

علامَةُ العلماءِ واللَّججِ الَّذِي	لا يَنْتَهِي وَلِكلِّ لَجٍّ سَاحِلٍ
أَفْخَرُ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ:	مُسْتَغْظَمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ
وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ	فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

وتجده أيضاً يشيد بالمعرفة وبالكتابة وبالخبرة العلمية، فلما وصل إلى ابن العميد وهو الكاتب المشهور يقول:

بَادِ هَوَاكَ صَبْرَتْ أَمْ لَمْ تَصْبِرْ	وَبَكَاءُكَ إِذْ لَمْ يَجِرْ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
---	--

ثم يقول:

مَنْ مَخْبِرُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُمْ	جَالِسْتُ جَالِنْيُوسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَدَرَسْتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ كَتَبِهِ	مَتَعَلَّمًا مَتَبِدِيًّا مَتَحَضِرًا
قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ	وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

الشاهد قوله: أحسن من تجلس معه الكتاب، حتى يقول أمير الشعراء شوقي:

أَنَا مَنْ بَدَلْتُ بِالْكِتَابِ الصَّحَابَا	لَمْ أَجِدْ لِي وَافِيًا إِلَّا الْكِتَابَا
--	---

وهذا يحصل للإنسان بعد تجربة طويلة، فيجد أن الوفاء في الناس قليل، وأن أحسن ما يفعله الإنسان بنفسه أن يصاحب كتاباً نافعاً مفيداً، وأجل الكتب وأحسنها وأنفعها وأفيدها وأبركها كتاب الله سبحانه وتعالى؛ حتى يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، إذا ذكرت الكتب.. إذا ذكرت المصنفات.. إذا ذكرت المؤلفات فذلك الكتاب، إذا سمعت بتأليف علمي، أو بديوان شعري، فأجل من ذلك الكتاب، وأشار بالبعد تعظيماً لهذا الكتاب المحكم الذي أنزله على سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

وهناك كتابان: كتاب وحي مكتوب شرعي وهو القرآن الكريم، وكتاب مفتوح وهو كتاب الكون فيه حروف القدرة، قلم القدرة خط أسطر الوجدانية وجمل الصمدانية وحروف الإبداع فأنت تقرؤه، حتى يقول إيليا أبو ماضي:

وكتاب الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب

لأن في الكون علامات وأحرفاً وأسطراً وأبياتاً تدل على الواحد الأحد، الزهرة تشير إلى عظمة الله.. الورقة.. اليرقة.. السناء.. الماء.. الضياء.. الظلماء.. السماوات.. الأرضون، كلها.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟

نعود إلى أبي الطيب المتنبي وهو يمدح الكتاب والمكتبة، فيقول: حاول أن يكون عندك كتب تعاشرها وتقرؤها وتنفق الوقت فيها.

ابن عبد البر أمضى في كتاب الاستذكار والتمهيد ثلاثين سنة عند رأسه يجبر فيه، والعجيب أنهم يذكرون عن ابن دريد أن كتاب الجماهرة جلس معه يجبر فيه ويجمعه ستين سنة، يقول:

أَنْسَتْ بِهِ مَنْ بَعْدَ سَتِينَ حِجَّةً فَيَا طُولَ شَوْقِي بَعْدَهُ وَحْنِي!

لأنه باعه فيما بعد، باع الجمهرة لماذا؟ كانوا فقراء، حتى باع خشباً عنده في البيت؛ ليقوت أهله، يأكل خبزاً هو وأطفاله، بعدما انتهى الخشب باع مطرفته، باع أدوات البيت، ثم باع الفراش، لم يبقَ إلا كتاب الجمهرة جمع فيه ستين سنة تعباً وسهرًا وعناء بالجهد والعرق والتضحية والسهر، ثم باعه؛ لكي يطعم أطفاله، ورجع يبكي في البيت وينظم قصائد وهو يبيع، كتب أبيات على الجمهرة يقول:

أَنْسَتْ بِهِ مَنْ بَعْدَ سَتِينَ حِجَّةً فَيَا طُولَ شَوْقِي بَعْدَهُ وَحْنِي
وما كنتُ أَرْجُو أَنْ أَعِيشَ بِدُونِهِ وَلَوْ خَلَّدْتَنِي فِي السُّجُونِ دُيُونِي
وقد تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ نَفَائِسَ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضَنِينِ

يقول: حاجة الفقر، وهذا البيت لجاهلي اسمه السلمي باع إبلاً حمراء له فلامته زوجته واسمها أم مالك، فقال:

وقد تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ نَفَائِسَ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضَنِينِ

يعني: من القائم عليها؛ لأنه محتاج مع أنه يغليها.

يقولون: إن صاحب بن عباد جاء فيما بعد، فقرأ هذه الأبيات فبكى بعدما مات المؤلف، والصاحب بن عباد كان أميراً موسراً، فبكى وقال: ليتني أدركت ابن دريد كنت ملأت بيته ذهباً. كان جواداً.

والعجيب أن ابن دريد أديب وشاعر وهو صاحب المقصورة المشهورة التي هي أشهر مقصورة في تاريخ الأدب العربي التي يقول فيها:

يَا ظَبِيَّةَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِأَلْمَهَا تَرَعَى الْخَزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا
إلى أن وصف الشيب.

واشتعل المبيضُ في مسوده مثل اشتعال النارِ في جزلِ الغصَا

إلى أن يقول:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا
وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وكان له زميل وصديق يحسده - فبعض الأصدقاء يحسدون - وهو في ثوب صديق، لكنه عدو، وهو من أقرانه اسمه ابن نفطويه نحوي، فقال:

ابن دريد بقرة ألف كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيرة

كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، يقول: إنك سرقت كتاب العين، وهو ليس لك أصلاً، لكنك أدخلت وغيرت، فرد عليه بأبيات، واسم ذاك نفطويه، فإذا قسمت الاسم صار نفط/ويه، وفي آخر القصيدة قال فيه:

أحرقه الله بنصف اسمه وجعل الباقي عويلاً عليه
وأما سيبويه فإنه ألف الكتاب.

وبالمناسبة فمن العجز الثقافي عند الأمة قولهم: طالب في الثانوي سأل الأستاذ: الكتاب لسيبويه من ألفه؟ قال: الله ورسوله أعلم!! فهذا ورع مظلّم، هذا هو الورع المظلّم الذي يعيشه هؤلاء، ولذلك تجد أن بعض الناس لا علم عنده ولا ثقافة، لكنه يخرج دائماً ولسان حاله يقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ولكنه لا يحفظ في جانب الشريعة آية الكرسي، وفي جانب الفهم والثقافة لا يعرف ابن رشد ولم يسمع به ولا بابن خلدون، فدل على أنه ينبغي أن نهتم بالكيف، ولا نهتم بالكم على حساب الكيف: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] إن الدبكة الشعبية والسهرات الضائعة وقصائد المديح على منهج:

(أستم خير من ركب المطايا) لا تخرج لنا عقولاً نيرة، إنما العقل النير يخرج بالعلم النافع، وخيره وأساسه الذي بعث به الرسول عليه الصلاة والسلام، وانظر إلى علمائنا كيف يشق الواحد منهم حياته مع الكتاب، ثم يترك لنا كتاباً يبقى يحبر فيه ثلاثين.. أربعين.. خمسين سنة.

ابن حجر العسقلاني الحافظ خاتمة حفاظ الدنيا في الحديث ألف فتح الباري في ثنتين وثلاثين سنة، شرح فيه صحيح البخاري، هذا الكتاب أعجوبة، مراجعه أكثر من ألف كتاب، حبره وقدمه للأمة، ويأتي الجيل الجديد يعجز، يعجز بعض الطلبة أن يقرأ عشر صفحات، أن يتبرع بعشر صفحات.

فهذا العمر الذي صرفه فيه ثنتين وثلاثين سنة؛ سهر وتعب وتحقيق وتدقيق، ثم لا يتبرع أحد منا أن يقرأه مجرد قراءة، هل وضعت في مخططك أن تطلع على هذا الكتاب، وأن تقرأ بعض الفوائد فيه؟

والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على ما فيه، وأنا أعترض على التشويه العقدي في الأغاني وعلى السوء الأدبي، أعني: الأدب المنهجي وعلى المجازفة في النقولات، لكن لا يزال فيه قصائد وفيه قصص وفيه تراث أدبي، حتى ابن خلدون يقول: إنه منتهى ما وصل إليه الأدب، يعني: الأغاني، هذا ألفه في خمسين سنة وقدمه للملوك هدية، أرسل لملك مراكش وسيف الدولة ابن حمدان وأرسل إلى أهل العراق، وأرسل إلى أهل المشرق، أرسل لكل نسخة، لم يكن هناك مطابع، يقول الصاحب بن عباد: كادت كتبي تحمل على اثني عشر جملاً، فلما اقتنيت كتاب الأغاني اكتفيت بهذا الكتاب، وإنما القصد من ذلك أنهم كانوا ذوي همم في التأليف.. همم في القراءة.. همم في التكرار.

انظر إلى ابن المبارك إذا صلى العصر دخل منزله ونشر كتب الحديث، فقال له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، ما تجلس معنا؟ قال: أنا أجلس مع

الرسول ﷺ ومع الصحابة، أنتم تغتابون الناس، قالوا: كيف تجلس مع الرسول ﷺ والصحابة؟ قال: أجلس مع الكتب، كتب العلم، كتب الحديث، فكأنك جلست مع الرسول ﷺ ومع أصحابه.

وكان الإمام أحمد يوصي من سافر: خذ معك كتباً، حتى لا تستوحش. فهم يحفظون أوقاتهم بهذا، لم يكونوا يقلبون من قناة إلى قناة، ولا من فن إلى فن، ولا من موضة إلى موضة، إنما كانوا يجتهدون في طلب الفائدة، ويعلمون أن أعمارهم تذهب سريعاً، وكانوا يعدون الثانية والدقيقة، كما يقول شوقي:

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

ويقول أبو الطيب الأسطورة في ذلك:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

من قصيدته التي مطلعها:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعدِ النطق إن لم تُسعدِ الحال

وفي ذاك البيت الفريد الذي لا يستحقه إلا رب العزة سبحانه وتعالى، يقول:

استوجب الحمد حتى ما لمفتخر في الحمد حاء ولا ميم ولا دال

وهذه من سيرتهم في العلم والمعرفة، حتى إن الجاحظ - على ما سبق لنا من كلام أبي الطيب - يرى أنه أفضل جليس، فهو الذي لا يطريك، ولا يؤذك، ولا يملُك، ولا يضجرك، ولا يفشي لك سراً.

وصفه بوصف ما سبق له. حتى الجاحظ هو إمام البيان عند العرب على ما فيه من المجازفات في بعض نقولاته، لكنه في صنع الكلمة وفي الجملة لا يؤتى

مثله في النثر، حتى يرى أبو حيان التوحيدي أنه بارز في بابيه مثلما أن عمر رضي الله عنه بارز في العدل، والحسن البصري بارز ظاهر ورمز في الوعظ، فيجعل الجاحظ في هذا الباب.

والجاحظ كان يقرأ ليلاً ونهاراً حتى أثمر لنا هذه الثقافة وهذا البيان وهذا الإبداع، وقد بلغ من ولعه بالكتاب أن سقطت عليه مكتبته ومات تحت الكتب.

فله در هذه الهمم التي تركت خيراً كثيراً، وتركت أدباً، وتركت بياناً، والأفضل من هذا أهل العلم الشرعي النافع، كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة ومالك.. وأمثال ذلك غفر الله للجميع.

جلست مع الشيخ الأديب الكبير علي الطنطاوي في مكة، ومعني بعض الفضلاء، فكان يحدثنا عن مسيرة حياته في العلم والمعرفة والقراءة، فقد ذكر في مذكراته أنه عاش عمر القراءة والمطالعة، له ما يقارب السبعين سنة، يقرأ في كل يوم شيئاً محدداً خمسين صفحة، غير ما يزيد من الاطلاع العام، قال: فانظر السنوات واضربها في الأيام ثم اضربها في خمسين فأثمر عنده موسوعة في العلوم والفنون والأخبار والآداب ومعرفة الأمم، فهذا الذي يفهم عن الله عز وجل رسالته ويفهم كتاب الله عز وجل، يوم يكون أفقه واسعاً، وإنما تأتي هذه القراءة بالكلفة، ثم تصبح ألفة.

لا بد للإنسان من أن يرتب لنفسه جزءاً من الوقت يومياً؛ حتى يستطيع الكتابة، وعند بعض الناس جلد في القراءة، حتى إنني قرأت كتاباً اسمه: كيف أصبحوا عظماء للدكتور الكلابي، يتحدث عن عظمة الأمم وأنهم يصبرون، ثم ذكر عن واحد ياباني أستاذ ثورة الصناعة عندهم اسمه أوكايو أوساهيرا عامل بسيط، ذهب يدرس في ألمانيا، قال: وذهبت إلى صاحب ورشة في ألمانيا، فأجرت نفسي عنده خمس عشرة ساعة في اليوم على وجبة واحدة، وكان يهينني ويدلني، فصبرت؛ لأنني أريد أن أنقل الحضارة الصناعية لليابان، خمس عشرة ساعة من

العمل.. من العرق.. من الجهد.. من الإذلال، وبعدها اكتشف كيف يصنع المحرك، كيف يتحرك؛ لأن هذا أساس الصناعة، قال: فرسمت المحرك وامتألت غرفتي التي أسكن فيها بالأوراق، وأخيراً اهتديت وأرسلت لليابان كيف يعمل المحرك، فلما وصل الخبر وجئت إلى أهلي استقبلني إمبراطور اليابان، قال: فصنعت المحرك لهم، فسمع الصوت إمبراطور اليابان، قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي. وابتدأت انطلاقتهم من تلك المدة، فهؤلاء صبروا، وعلماء الإسلام كانوا أصبر وأصبر، أعني: مضوا إلى الأقاليم وجمعوا الحديث، منهم من كان يمشي حافياً إلى اليمن، إلى خراسان، إلى القاهرة، إلى الشام، إلى بغداد، إلى مكة، إلى المدينة يطلبون العلم.. يطلبون الحديث.. يسهرون.. تتقطع أقدامهم.. تلفحهم الريح.. يجدون المرارة والعنت، وهم كما يقول أبو الطيب وهو يزور ممدوحاً:

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرًا وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

الشيخ أبو غدة ألف كتاب: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل. وإنما نأتي بهذا لبيت أبي الطيب: (وخير جليس في الزمان كتاب).

الذهبي ذكر أن أحد علماء الأندلس كرر في حياته صحيح البخاري سبع مئة مرة، والنيسابوري كرر صحيح مسلم مئة مرة، وابن إدريس ختم القرآن في حياته أربعة آلاف مرة، وابن سينا يقول: قرأت كتاب ما وراء الطبيعة للفارابي أربعين مرة، ما من مرة إلا اكتشف حلاً للغز في الكتاب، والمزني قرأ كتاب الرسالة للإمام الشافعي يقول: قرأته خمس مئة مرة، ما من مرة إلا يظهر لي فائدة لم أكن استفدتها من قبل.

إنها الهمم.. إنه توقد الذهن.. إنها معرفة قيمة الحياة، ولذلك صرفوها في النافع المفيد، فقل لي بربك: مَنْ مِنَ الْجِيلِ الْآنَ يَكْرُرُ كِتَاباً خَمْسَ مَرَّاتٍ أَوْ عَشْرَ مَرَّاتٍ؟! بل تجد الواحد منهم عنده مكتبة، لكن كما يقول المثل الهندي: المرعى

أخضر والعنز مريضة، يعني: عندنا آيات بينات.. عندنا وثيقة سماوية.. عندنا قرآن لو خوطب به صخر لتفجع، ولو ألقي على حجر لتصدع، فكيف بإنسان من لحم ودم لا يستفيد من هذا الكتاب الخالد؟ سنة محمد عليه الصلاة والسلام.. الأحاديث النبوية الشريفة.. كلام أهل العلم.. التاريخ.. الأدب.. الثقافات الأخرى التي تؤيد الرسالة والتي فيها الخير؛ لأن «الحكمة ضالة المؤمن»، فهل آن لنا أن نعود إلى القراءة، إلى الاستفادة؟ إن العقل إذا لم يقرأ فسوف يبقى صغيراً محدوداً ولن يتطور أبداً، فالأمس كالיום كالغد ما لم يقرأ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فلم يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام ولم يأمره أن يدعو إلا بهذا: الزيادة من العلم، يقول الأندلسي عن العلم:

هو العذب المهند ليس ينبو تصيب به مقاتل من أردتا
وكنز لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفاً شددتا

إلى آخر ما قال، ولذلك اعتنى السلف. فالإمام الشافعي لما سكن هو وأمه في غرفة في مكة، فقير يتيم مات أبوه، الشافعي هذا على مذهبه ما يقارب أربع مئة مليون في العالم الإسلامي، هذا الإمام الأعجوبة الذي مات وعمره ثنتان وخمسون سنة، إنه العبقرية في منتهائها، صفاء الذهن، إنه الطموح كل الطموح، حتى يصف حياته يقول: إنه لا يأبه بالمال فكأنه التراب عنده، أعطاه هارون الرشيد كيساً من الذهب، فوزعه على الفقراء عند القصر ورمى بالكيس، وقال:

أمطري لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضي آبار تكرر تبراً
أنا إن عشت لست أعدم خبزاً وإذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي نفس عزم ترى المذلة كفرأ

غفر الله للشافعي، كان يتيماً، ولد في فلسطين في عسقلان، هاجرت به أمه إلى مكة وهو مَطْلَبِي يلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الخامس، وسكنوا في غرفة واحدة، مجردة من كل تسهيلات العيش الآن، فكان يأخذ اللخاف والخشب والعظام ويكتب فيها الفوائد والحديث والشروح والأبيات ويجعلها في البيت، وأخذ البيت يضيق، قالت أمه: سنخرج للطريق، وكتبك واللخاف هذه والعظام سوف تحتل البيت، فسمع الكلمة فحفظ كل ما هو مكتوب في الخشب وفي الجرائد وعلى هذه اللخاف والحجارة حفظها، ثم أخرجها إلى الخارج. ويقول عن حفظه:

علمي معي حيثما يمتُّ يتبعُني قلبي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقٍ
إن كنتُ في البيتِ كانَ العلمُ فيه معي أو كنتُ في السوقِ كانَ العلمُ في السوقِ

وصدق، فسبحان الذي أعطاه، تعلم حتى الطب، تعلم الفراسة في اليمن، وتعلم الأدب، يقول: حفظت شعر هذيل، حفظت لثلاثين شاعراً من هذيل، وبقي يتعلم اللغة في هذيل، فصار أعجوبة الأعاجيب في فهم كتاب الله سبحانه وفهم سنة رسول الله ﷺ، وهو الذي ألف الرسالة وقعد لأصول الفقه، وردّ على المخالفين، ونصر الإسلام، ودحض شبه الملاحدة، فأسأل الله عز وجل أن ينور ضريحه أن يقدس روحه هو وإخوانه من أهل العلم.

ومقصودي: هذه الهمم الكبرى التي حظي بها أهل العلم، لماذا؟ لأن صاحبنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابٌ).

نأتي إلى أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وهو شيخ لابن الجوزي، وكان أعجوبة، ألف كتاب الفنون سبع مئة مجلد، هذا فقط في وقت الراحة، جمع أوراقاً



عند رأسه إذا أراد أن ينام، فالقلم جاهز والأوراق جاهزة مرتبة، فيكتب ما مر به في اليوم من خاطرة، أو فهم آية، أو قراءة، مثل المذكرات اليومية، قال: أفتيت فلاناً، وقال لي فلان، فسبحان الله الذي أعطاه هذا التوثيق، يجمع الأوراق، يسجل الملاحظات، ويسجل ما يفهم من الفنون أو ما يتذكر: في النحو.. في الأدب.. في التفسير.. في الفقه.. في علوم القرآن.. في الشعر.. في القصص.. في الأخبار.. في الاستنباط، فأخرج كتاب الفنون سبع مئة مجلد طبع منها الآن ما يقارب سبع مجلدات، والبقية سوف تطبع إن شاء الله، هذا في وقت الراحة!

يذكرون عنه في سيرته أنه كان يأكل الكعك، وأحياناً يأكل لقمة ويقرأ، فقل له: لماذا لا تأكل الخبز؟ قال: بين أكل الكعك والخبز مقدار قراءة خمسين آية، فترك هذا علماً كثيراً؛ لأنه عرف قيمة الزمن، قيمة الدقائق والساعات والأيام، فصرفها فيما ينفع؛ ولذلك تركوا أسماءهم، حضروا أسماءهم في ذاكرتنا وفي تاريخنا وفي أيامنا وليالينا بجهدهم وبعرقهم، ولذلك العظمة هي قطرات من المعاناة والجهد والعرق والبذل والعطاء، والفضل زخات من التسويف والإحباط والكسل والفضل.

وإذا بدأت في هذا المشروع مشروع الإنتاج والإبداع والعلم والمعرفة والثقافة وصار لك اسم، فسوف يأتي الجبناء والحساد يرمونك بأقواس النقد، فإذا فعلوا ذلك فاعلم أنك قربت أو أنك وصلت إلى بلاط العظمة وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة؛ احتفاء بقدمك، كما يقول أبو الطيب:

وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُومِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

ويقول:

إِنِّي وَإِنْ لَمْتُ حَاسِدِي فَمَا أَكْرَأُنِّي عَقُوبَةً لَهُمْ

يقول: الله عاقبهم بي؛ بسبب ما عنده من السطوع واللموع وتوهج البيان.

وقفـة إجلال لكل أهل العلم والمعرفة الذين عاشوا مع الأدب، وعاشوا مع العلم، وعاشوا مع الكتاب؛ لأن أصحابنا يقول:

(وخيـرُ جليسٍ في الزمانِ كتابٌ).

فبالكتاب وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لكن الكتاب النافع المفيد هو القرآن، وأول كلمة نزلت على رسولنا ﷺ هي ﴿اقْرَأْ..﴾ [العلق: ١] فهل آن لنا أن نقرأ؟ أترك إجابة السؤال للجيل.



المناو الصابق

يقول أبو الطيب المتنبي:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى
عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

يقول: من شؤم هذه الحياة الدنيا الدنيئة
أنها تلجئ كل حر وصاحب مروءة إلى أن يصادق
العدو؛ لأنك تجد عدواً لا بد أن تصادقه؛ كي
تقضي أمورك وتصلح حالك.

يقول ابن حزم الظاهري عن نفسه، وقد كان
أبوه وزيراً في الأندلس، فأتى رجل من خصومه
الأولين عند أبيه، وكتب خطاباً، كتب فيه:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرَّانِ يَرَى عَدَوًا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ

يقصد والد ابن حزم، والواجب ألا يذكره بهذا؛ لأن معناه أنك عدو لنا، لكننا نصادقك ونجاملك. فكيف تريد من إنسان خدمة وتريد منه مصلحة وأنت تكتب له هذا الكلام؟

قال: فقلب أبي البيت وقال:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرَّانِ يَرَى صَدِيقًا لَهُ مَا مِنْ عِدَاوَتِهِ بُدُّ

يقول: كنت صديقنا، لكن الآن نعاديك؛ لأنك أظهرت لنا العداوة، ولكن هذا البيت للمتنبّي من أبيات فائقة انتشرت في الناس وأثنى عليها الأدباء ووقف معها أهل الحكمة موقفاً.

والبيت في مجموعه يدل على أن الكثرة الكاثرة من الناس - ولو أظهروا لك الصداقة - ليست على بابها وليست على إطلاقها، ولأن المتنبّي نفسه يقول:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمُ بَآثِمٍ

وهذا خطأ، يقول: لو عرفتم الناس مثلما أعرفهم لروى أحدكم رمحه من دمائهم. وهذا يدعو إلى سفك الدم، وهذا منهج خاطئ، وهذه نظرة تشاؤمية وليست تصالحية، والقرآن ينهى عن هذا المسلك، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ويقول سبحانه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] هذا هو المنهج الصحيح، لكنني أذكر بعض ما يناسب استشهاده على بيته.

وابن صمادح أمير أندلسي جرب الناس في ولايته في الإمارة ونظم ثلاثة أبيات من أجمل الأبيات، يقول:

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلَمْ تُرِنِي خِلاً تَسْرُنِي مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لكشف مِلْمَةٍ من الدهر إلا كان إحدى النوائب

أي: صار مصيبة ثانية. فهو يقول هذا الكلام بعد تجربة.

حتى إن امرأ القيس يقول:

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرًا بكاءً على عمرو وما كان أصبرًا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرًا
فقلت له: لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنُعذراً
فلله دَهْرِي ما أصاحبُ صاحباً من الناس إلا خانني وتغيرا

وهذه طبيعة الناس، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] ويقول: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأكثرهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، والقليل النادر هو الذي معك في الحق أو يقف معك في الأزمات.

حتى الحريري صاحب المقامات يقول في مرض الموت يوصي ابنه:

لا تغترر ببني الزمان ولا تقل عند الشدائد: لي أخ وحميم

تقول: لي إخوان وأقارب، بعضهم يأتيك ويقول لك: رقبتي سداة، وإذا حصل شيء لا تراه، بل تجده يشمت بك. أو تجد آخر يتعشى معك ويشرب الشراب

ويعجبه. فيقول لك: الدم سداد. نفديك بأرواحنا، لكن إذا جد الجد فلا تجده أبداً، ثم يقول لابنه موصياً:

جَرَبْتُهُمْ فَإِذَا الْمَعَاقِرُ عَاقِرٌ وَالْآلُ آلٌ وَالْحَمِيمُ حَمِيمٌ

يقول: جربتهم فإذا العاقر الذي يسمر معك أول من يعقرك، والآل القرابة مثل الآل وهو السراب الذي تجده في الصحراء، والحميم: الصديق المقرب، تراه كالحميم: الماء في أشد درجات غليانه.

حتى تجد الأحيمر السعدي يقول:

دَرَى اللَّهُ أَنِّي لِلْجَلِيسِ لَكَارُهُ وَتَبَغَضُهُمْ لِي مَقْلَةٌ وَضَمِيرٌ

يقول: الله يعلم أنني لا أريد أحداً أن يجلس معي، أحب كتابي..

عَوَى الذَّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكَدْتُ أَطِيرُ

يقول: أنا لا أسأل أحداً شيئاً، وكان ذا نظرة اشتراكية.. حتى إذا أردت شيئاً، فلا أطلب إنساناً، بل أطلب الله الذي خلق الجمل، وإذا أردت شاة أخذت من الغنم؛ لأن الله الذي خلقها، هكذا يقول! وهذا خطأ، هو جاهلي، مجتمع الغابة التي لا تحكمها شريعة، يقول:

وَلَا أَسْأَلُ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ بَعِيرَهُ وَبَعْرَانُ رَبِّي فِي الْبِلَادِ كَثِيرُ

فهذا البيت من أجمل ما قيل، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم، للشعبي العالم الكبير: أين أنت يا شعبي؟ يوم الفتنة التي بين الأشعث وبين الحجاج وعبد الملك، وقد كانوا تقموا عليه، لكنه أتى بالسحر الحلال والعذر المقبول، فانطلى عليهم العذر فتركوا له المجال في نفع الناس، فقال: كنت أيها الأمير في مكان حيث يقول الشاعر:

عَوَى الذَّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكَدْتُ أَطِيرُ

ولذلك كانوا يحذرون من أن تفتح المجال لكل من هب ودب أو تثق بكل أحد، حتى يقول الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين وهو عالم أندلسي:

لقاء الناس ليس يفيئ شيئاً سوى الإكثار من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

أما أن يبقى الإنسان وكأنه في السوق، كل من لقيه أعطاه من وقته.. أعطاه من جهده.. وذهب معه، وتحدث معه، وأخذ من أخباره.. العمر محسوب، ينبغي على الإنسان أن يعرف من يجالسهم، أو يستفيد منهم، أو يمكن من يبني معهم مشروعا، أو من يستثمر معهم عملاً نافعا، أما أناس يضيعون الزمان، ويوصلونك إلى بعض الذنوب والخطايا، ويجرونك إلى ما لا تحمد عقباه، فهم جلساء سوء يجب أن يجتنبوا، ثم إن الحسد في الناس منتشر، حتى إن المتنبي نفسه يقول:

سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حل في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتميل

حتى ولو أظهرت له البشاشة والمحبة وتحاول أن تستصلحه، فقلبه لا يستطيع أبداً؛ لأنه التف عليه الحسد وأظلم بالحسد، فهو لا يستطيع أبداً، حتى ولو حاول أن يجاملك، فلن يستمر على هذه المجاملة. يقول الأصوص:

ما أكثر الناس عندي بل ما أقلهم الله يعلم أنني لم أقل فندا
ما قلت كذباً، ما قلت إلا الحقيقة.

إنني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

حتى في الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «الناس كابل مئة لا تجد فيها راحلة» الناس مثل الإبل المئة، قطع ذود من

الإبل أمامك، لكن لا راحلة تستطيع أن تركبها وتحمل عليها أغراضك، فتجد الناس كثيرة أعدادهم، طواوير وجماعات كثيرة، لكن قل أن تجد الرجل الحصيف العاقل المؤمن الصادق المنيب، يقول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إن أمرَ عنا
فدل على أن الناس لا يُعتر بظاهرهم.

ونعود إلى بيت المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بُدُ

فإن الإنسان في الحياة يبتلى بأشياء، فالمؤمن مبتلى؛ لأن هذه الدار دار مكدر، حتى لا يصفو فيها أحد، فلا بد أن يمزج حلوها بالمر، وسعدها بالشقاء، وراحتها بالتعب، فهي دار تمزج بين الطيب والخبيث، وبين السعادة والشقاوة، ثم في الآخرة تجمع السعادة والطيب والخير والراحة في الجنة، والشر والخبث والعذاب في النار أعاذنا الله من ذلك، فالمتنبي بعدما عاش وجرب الحياة يقول:

ومن نكد هذه الدار وشؤمها أنا أحياناً نضطر إلى أناس ونعرف أنهم أعداء لنا، لكن لا بد أن نأخذهم أصدقاء؛ لتقوم مصالحنا وتسهل أمورنا؛ حتى إن زهيراً يقول:

ومن لم يصانع في أمورٍ كثيرةٍ يضرّسُ بأنيابٍ ويوطأ بمنسمٍ

يقول: إذا لم تدار فلن تستطيع أن تقوم بجميع أمورك.. فأحياناً يكون هناك إنسان تافه وحقير، لكنه قد يقف لك وقد يؤذيكَ، حتى إنه يقول: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد.

فابن الجوزي يقول: لا تحتقر أحداً، لا تحاول أن تصنع بينك وبين أحد عداوة؛ لأنه يأتي يوم من الأيام يتربص بك الفرصة، فيوقعك في مشكلة أو داهية دهياء، فحاول أن تبني جسور المودة مع الناس، وإذا أتتك كلمة معادية من عدو، فاجعل

مكانها كلمة لطيفة ولينة، كما هو منهج القرآن: ﴿أَدْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] يعني: يأتيك أحياناً إنسان هائج مائج يقول: أعرف أنك تتربص بي، وأعرف أنه كذا وكذا. فقل: لا، ليس الأمر كما بلغ، فبيننا وبينك من الوفاء ومن المحبة، اتق الله يا أخي، فنحن بيننا جسور مودة، فلا بد من أن تقلل من العداوة وتجتث هذه العداوة ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقولون: إن معاوية بن أبي سفيان إنما حكم الرجال بالحلم وبالمنهج اللين والرفق الذي ورثه عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

فإذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَلْيَقْبَلْ عُدْرَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَذِبَهُ».

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَلْمَ أَخَاكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْعُدْرُ فِي مِثْلِهِ.

وقال الحسن بن علي: لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر إلي في أذني الأخرى لقبِلْتُ عذرَه.

قال الأحنف: إن اعتذر إليك معتذر فتلقه بالبشر. وقال الشاعر:

يلومني الناس فيما لو أخبرهم بالعذر مني فيه لم يلوموني

وقال آخر:

اقبل معاذير من يأتيك مُعْتَذِراً إن برّ عندك فيما قال أو فجرأ
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

واعلم أنه لا مبرأ من سهو وزللٍ، ولا سليم من نقصٍ أو خللٍ، ومن رام سليماً من هفوةٍ، والتمس بريئاً من نبوةٍ، فقد تعدّى على الدهر بشططه، وخادع نفسه بغلطه، وكان من وجود بغيته بعيداً وصار باقتراحه فرداً وحيداً.

وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه.

وقيل لأنوشروان: هل من أحدٍ لا عيب فيه؟ قال: من لا موت له، وإذا كان الدهر لا يوجد ما طلب، ولا ينيله ما أحب، وكان الوحيد في الناس مرفوضاً قصياً، والمنقطع عنهم وحشياً، لزمه مساعدة زمانه في القضاء، ومياسرة إخوانه في الصفح والإغضاء.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي بِمُدَارَةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ».

وقال بعض الأدباء: ثلاث خصالٍ لا تجتمع إلا في كريم: حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملل.

قال ابن الرومي:

وودَّك مقبولٌ بأهلٍ ومرحّبٍ	فعدرك مبسوطةً لذنبٍ مقدّمٍ
لديّ مقامَ الكاشحِ المتكذّبِ	ولو بلغتني عنك أذني أقمتها
خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلّبِ	فلستُ بتقليبِ اللسانِ مصارماً

فكان قول المتنبي السابق إجماع بين الشعراء وأهل الحكمة، حتى يقول بعضهم:

فسدَ الناسُ والزمانُ جميعاً فعلى الناسِ والزمانِ السلامُ

فمع من تصلح العلاقة مع الواحد الأحد، حتى إن بعض الشعراء يقول، وبعض الأبيات هي لأبي الطيب، وهي متنازع فيها بين أبي فراس وأبي الطيب المتنبي وبين رابعة العدوية، فيقول مخاطباً رب العزة سبحانه:

فليتَكَ تحلُّو والحياةَ مريرةً وليتَكَ ترضى والأنامُ غضابُ
وليتَ الَّذي بيني وبينكَ عامرٌ وبينِي وبينَ العالمينَ خرابُ
إذا صَحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الَّذي فوقَ الترابِ ترابُ

فكل من تشاهده الآن فوق التراب هو في الحقيقة تراب، الناس.. الأعيان..
الوزراء.. الأغنياء.. الأثرياء.. العلماء.. المفكرون.. كلهم تراب يمشون على
تراب، ما معك إلا الواحد الأحد.

وأنا ضد النظرة التشاؤمية التي غلفها بعض الشعراء على الناس جميعاً،
نقول: لا، ما زال الأختيار والأبرار وأهل الوفاء وأهل الأمانة، لكن ابحث عنهم أنت،
أما أن تثق بكل أحد وأن تعد كل من أتاك ولقيك وسلم عليك صديقاً فهذا ليس
بالمنهج الصحيح.

حتى فولتير الكاتب المفكر الفرنسي يقول: اللهم احمني من أصدقائي، أما
أعدائي فسوف أتولى أمرهم.

فهم أحياناً ما لا تعلم بهم. كما يقول القائل:

احذرْ عدوكَ مرةً واحذرْ صديقك ألفَ مرةً
فلربما انقلبَ الصديقُ فكانَ أعلمَ بالمضرةِ

يعرف من أين تلدغ، ويعرف نقاط الضعف فيك ويعرف المداخل، فيضرب
ضربته، أما العدو أحياناً فتخفى عليه نقاط الضعف فيك، ولهذا يقول الطغرائي:
وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يعولُ في الدنيا على رجلٍ

يقول: إن الرجل الثابت القوي هو الذي لا يعول على أحد، إنما يعتمد بعد الله
على نفسه، فهو يكون نفسه، أما أن يكون الإنسان تكلة على الناس ويعتمد عليهم

ولم يدرب نفسه بعلم أو بمهنة أو بحرفة أو بإبداع أو بإنتاج فهذا فاشل، من يعتمد على الناس فاشل، اعتمد على الواحد الأحد، ثم كون نفسك: «أحرص على ما ينفعك» كما قال سيد الخلق ﷺ في صحيح مسلم.

وينبغي أن نعتني بشيء في الصداقة مع الناس، لا نذهب وراء بعض الشعراء الذين ينظرون بنظرة سوداوية للمجتمع، كلهم فسدة.. كلهم خونة.. كلهم غشاشون.. ليس بصحيح، بعض الناس تجده إذا حصل له عداوة يقول: أهل القرار والمسؤولون هؤلاء ظلمة، والتجار يتلاعبون، والدعاة مدلسون ملبسون على الأمة، والعلماء غشاشون. فهذا في الحقيقة مريض، يقول المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرَابَّهَ الْمَاءِ الزَّلَّالِ
إنسان مريض وفمه يسيل صدى وقيحاً ومرأً، يشرب ماء عذباً زلالاً، قال:
هذا الماء مر، قلنا له: فمك المر، أما الماء فعذب.

يقول البوصيري:

قَدْ تَنَكَّرَ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمْدٍ وَيَنْكُرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
الرمد في العين وليس في الشمس. فالمشكلة أصلاً في نفسية الإنسان، إذا اندثرت صار ينظر إلى الآخرين بما ينظر إلى نفسه، حتى يقول الشمري:

يا حسين خلك من خيار الخويين ترى الخوي يا حسين مثل الأمانة
ما يستشك يا حسين كود الرديين ولا ترى الطيب وسيع بطانه

يعني: أن الطيب دائماً ينظر للناس ويقول: فيهم خير، لكنه لا يسرف أيضاً في هذه الخيرية ويكون ساذجاً، لكن ينظر بنظرين وباعتدال، يعرف أن هناك خيراً وهناك سوء، وأن هناك أخياراً وهناك أشرار، هذا خلق الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَدَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِبُهُ ١٩

يقول: إذا أنت لم تصبر على الزلة وتغفو عن الخطيئة وتصفح فلن تستطيع أن تعايش الناس، فاصبر وجامل.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

تريد إنساناً كاملاً معصوماً ليس فيه خطأ! تريد صديقاً تشترط فيه أن يكون صادقاً.. أميناً.. كريماً.. وفيماً.. حافظاً.. تالياً لكتاب الله.. باراً بوالديه.. متفانياً.. بذولاً.. نصوحاً.. لن تجد هذا، لا يكتمل هذا إلا في النبي ﷺ، فهو المعصوم ﷺ، أما في باقي الناس فتعرف وتكرر.

ولهذا ينبغي أن تناضل في الجوانب الحسنة، وإذا غلبت الجوانب الحسنة على الجوانب السيئة فهذا هو الشريف المقدم، إذا غلبت محاسن الإنسان على مساوئه فهذا المطلوب، أما إذا غلبت مساوئه فاجتنبه، فهذا يقول:

(كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً) يكفيك شرفاً أن يعد الناس معاييبك، يقولون: فيك كذا وكذا.. فمعناه أن لديك محاسن كثيرة، ولذلك ولقلة المساوئ التي فيك عدّها عليك الناس، أما بعض الناس من كثرة مساوئه فيقول الناس: كم تعد وكم تترك؟! ماذا ستأخذ وماذا ستبقي؟! تارك للصلاة.. عاق لوالديه.. بخيل.. جبان.. شرس.. غدار.. خوان.. نعوذ بالله من ذلك، فهذا هو الشرير، والناس شهداء الله في أرضه كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم شهداء الله في أرضه»، لما مروا بالجنّاة وأثى عليها الناس خيراً قال: «وجبت» يعني: الجنة، وأثوا على جنّاة أخرى شراً فقال: «وجبت» يعني: النار.

يقول النابغة الذبياني في قصيدته البائية الماتعة الرائعة التي يخاطب بها النعمان:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمَهُ عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ
فَإِنْ بَلَغَ الْوَاشُونَ عَنِّي وَشَايَةً لِمَبْلَغِكَ الْوَاشِيِ أَغْشَى وَأَكْذَبُ

يقول: أبلغك عني الوشاة وهم كذابون وغشاشون. بعد أن قال: (أي الرجال المهذب) أي: من هذا الذي هو سالم من العيوب.

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحَسَنَى فَقَطُّ
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

من الذي ما كبا جواده ونبا سيفه؟ من الذي لم يخطئ؟ من الذي ليس فيه عيب؟ الذي ليس فيه عيب هو الله وحده سبحانه وتعالى، الواحد الأحد الذي مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أما الإنسان الذي خلق من الطين ومن الماء المهيّن فخطأ..

أبونا خلق من التراب، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يفتخر ويشمخ بأنفه، إذا افتخرت ففكر في أصلك وأنه من التراب، ثم من ماء مهين، وبعد ذلك تسحب إلى المقبرة وتجرد من الملابس والساعة والقلم والفترة (الشماع) .. ويسحب ويلف في قطعة قماش، ويسحبونه إلى التراب، ويدخل إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ولذلك يقول الشاعر:

تَرِيدُ مُهَذَّباً لَا عَيْبَ فِيهِ وَهَلْ عَوْدٌ يَفُوحُ بِلَا دُخَانٍ؟

ضع عود الطيب من أركى أنواع الطيب، فإنه سيفوح منه دخان، وهذه طبيعة الإنسان، لا بد أن يكون فيه نقص، لا بد أن يكون فيه تقصير في جانب من الجوانب، لا يوجد في العالم أحد مثلاً يكون ذكياً.. أريباً.. داهية.. شجاعاً..

وفياً.. باراً.. مصلياً.. ذاكراً.. هذا لا يكون، حتى العلماء الأجلاء لم يستولوا على كل الفضائل جميعاً، إنما استولى عليها جميعها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، والله جل وعلا هو الذي جمع له ذلك، فزكى قلبه، وزكى سمعه وبصره، وطهر طريقه، وصحح منهجه، وتولاه وحفظه ورعاه وسدده وعصمه، هذا هو الوحيد عليه الصلاة والسلام. أما البقية فلا بد أن نعترف بأننا بشر.

فلكي لا يصاب الإنسان بإحباط أمام ما يواجه من النقد أو ما يواجه من عداوات لا بد من أن يتسلح بالصبر والثقة بالله عز وجل حتى إن أحد العلماء يقول:

فَلَمْ أَرِ فِيما ساءَني غيرُ شامتٍ وَلَمْ أَرِ فِيما سرَّني غيرُ حاسِدٍ

يقول: كلما ساءني شيء ما وجدت إلا شامتاً، وكلما سرني ما وجدت إلا حاسداً. ولكن هذا الحكم ليس على إطلاقه ولا يقبل دائماً، هناك أناس إذا عثرت أو ساءك شيء وقفوا وتضامنوا وغضبوا وندموا وتأثروا وبكوا، وهناك أناس أيضاً إذا سرّك شيء فرحوا واستبشروا وأحبوا لك الخير، لكن هم يشكون من كثير من الشرائع في المجتمع أنهم يشمتون بالنكبة وأنهم يحسدونك على النعمة.

حتى عروة بن الزبير رضي الله عنه خرج من المدينة، قالوا: «ما لك خرجت؟ قال: مجالسكم لاهية، وأسواقكم لاغية، وما بقي إلا شامت بمصيبة أو حاسد على نعمة».

فغالب الناس على هذه الشاكلة.

ولذلك المتنبي يصل به العمر إلى أن يقول لنا:

(وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ..)

وانظر إلى اختيار الكلمات.. نكد.. أعجوبة هذا الأسطورة الشاعر.. يختار الكلمات مثل نسج الدر، فيؤلف بينها، يختار الحبة اللامعة الغالية الثمينة، فيضعها واسطة العقد.

ما قال: من تعب الدنيا، أو من سأم الدنيا.. أو من ملل الدنيا..

ولم يقل: على المرء، بل: على الحر؛ لأن الحر دائماً فيه صفات الشهامة والمروءة، ومع ذلك أحياناً يذل ويهان، وأحياناً تجد في الناس من لا يؤبه بهم، وإذا هم يتناولون ويشمخون، فتضطر لنكد هذه الدنيا وشؤم هذه الدنيا أن تصانعهم وتظهر لهم الصداقة. وأحياناً تذهب إلى إنسان ليس له قيمة، فلا بد أن تكنيه. كيف حالك يا أبا فلان.. الله يبيقيكم لنا، وأنتم ما شاء الله نفع الله بكم الناس جميعاً.. وهو في الحقيقة لم ينفع الله به أحداً، بل هونك على العباد، وهو عقوبة على الأمة وعقوبة على العباد والبلاد، لكن لكي تقضي أمورك لا بد من هذه المصانعة.

وخير من ذلك كله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] بكلمة.. بحركة طيبة وقورة.. بتصرف سليم.. حتى يفهم منك أنك تريد أن تطفئ الشر منه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، «ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه».



الناجح محسوب

يقول أبو الطيب المتنبّي يمدح كافوراً:
عدوك مذمومٌ بكلِّ لسانٍ
ولو كان من أعدائك القمرانِ
ولله سرٌّ في علاك وإنّما
كلامُ الورى ضربٌ من الهذيانِ
في قصيدة طويلة شاهقة، يرى الواحد
أنها من أجمل قصائد المتنبّي على الإطلاق وأنها
من أكثرها مدحاً في كافور، ففي مطلع القصيدة
يقول:

(عدوك مذمومٌ بكلِّ لسانٍ) يقول: إن من عاداك يا كافور، يذم من الناس؛ فهو مخطئ؛ لأنه يتجرأ على صاحب مجد وصاحب مكرمات ورجل له مثل قائمة كافور. فيذم من كان عدوك حتى لو عاداك القمران: الشمس والقمر، وإنما يقال لهما: القمران تغليباً، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فهذا من باب التغليب، يقول: لو عاداك الشمس والقمر فهما مذمومان. ثم يقول: إنه سبحانه وتعالى أعطاك هذا الحظ لسرِّ رآه سبحانه وتعالى فيك.. وهذا من المجاملات الشاعرية والمبالغات. وإن الذين ينالونك من الأعداء إنما يقولون هذيان الكلام الذي لا حقيقة له، وهذا يدل على أنه ينبغي لصاحب المجد أو المكانة ألا يأبه ولا يعبأ بكلام الحساد ولا بكلام الناس، وقد أكثر الناس في هذا الباب، وخير من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] فالكلام الذي يأتي به الحساد إنما هو أذى لا يضر المصلح إذا استمر في مكانته، بل كما يقول أبو تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنْحَاحُ لَهَا لِسَانُ حُسُودٍ

وقصيدة المتنبي هذه جميلة في أبياتها؛ لأن كافوراً قتل قائداً شجاعاً اسمه شبيب، خرج عليه في مصر، وكان شبيب هذا من أشجع الناس، ولكنه لما حضر المعركة أته نوبة كالصرع، فسقط السيف من يده وفارقه فغلب وانهمزم، فانتصر عليه كافور، فأتى المتنبي يمدح كافوراً ويصف هذه الواقعة مع شبيب، قال:

بِرْغَمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السِّيفُ كَفْهُ وَكَانَا عَلَى الْعِلَاقِ يَصْطَحِبَانِ

السيف وشبيب دائماً أخوان شقيقان؛ لأنه لما أتى وصرع في المعركة يقول: أصابته ضربة شمس وهو يقاتل كافوراً، كان من أشجع الناس كالأسد الهصور، لكنه قضاء الله وقدره، فأتته فأصابه كالإغماء وكالصرعة، فسقط السيف من يده، ثم أغمي عليه، فسقط فذبح، قال:

كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ: رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِي

لأن شبيباً قيسياً والسيف يمانى، وقيس واليمن بينهما إشكالات وبينهما عداوات
يفترقان ولا يتفقان، وهذا من البلاغة ومن التزويق اللفظي ومن جماليات الأدب.

وهذا البحر الذي ينظم عليه هو من أجمل البحور، حتى ذكر ابن الوزير
محمد بن إبراهيم العالم اليمنى بيتاً فريداً في العواصم والقواصم لأحد الشعراء
على هذا البحر، يقول:

وَمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ النُّهَى لَا يَسْرُهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

يقول: إذا كمل عقل الإنسان فإنه بعد ذلك لا يسره النعيم؛ لأنه يعرف أنه سوف
ينقضي نعيم الدنيا وكل شيء له نهاية. ولا يتأثر للمصائب التي تقع. فلا السرور
يستخفه ولا الفرح يطير به، وأيضاً المصائب لا يجزع منها؛ لأنه أصبح عاقلاً
ويعرف الدنيا ومجرباً لها، ليس كالطائشين من الشباب أو خفيفي العقل، فتجدهم
إذا أتاهم شيء مفرح فرحوا وطاروا به فرحاً، وتجدهم إذا أتت المصيبة جزعوا.

وهذا البحر قد نظمت عليه قصيدة، منها:

سَلَا الْقَلْبُ عَنْ غَيْدٍ صَفَتْ وَحِسَانٍ وَأَهْمَلَ ذَكَرَ الْمُنْحَنَى وَعُمانِ
وَمَا عَادَ يَلْهِينِي الصَّبَا بِأَرْيَجِهِ وَلَوْ فَاحَ بِالرَّيْحَانِ وَالنَّفْلَانِ
وَحُطَّ بِرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةً عَاشِقٍ يَقُولُ: احْذَرُونِي أَيُّهَا الثَّقْلَانِ

والشعراء يرتاحون لهذا البحر؛ لأن فيه من الجمال الأخاذ الفاتن الخلاب
الذي لا يدركه إلا أهل البيان، حتى إن عروة بن أذينة قال:

جَعَلْتُ لِعَرَفِ الْيَمَامَةِ حَكْمَهُ وَعَرَفِ نَجْدٍ إِنْ هَمَّا شَفِيَانِي

يعني: من الحب والعشق.

فوالله ما من رقية يعلمانها ولا شربة إلا بها سقياني
فقالا: شفاك الله، والله ما لنا بمكنون ما تحوي الضلوع يدان

و للبحري قصيدة على هذا البحر يقول:

كان رقيباً منك يرعى مسامعي وآخر يرعى منطقي وجناني

والقمران كما قلت الشمس والقمر، ويسميان الفرقدين.. حتى يقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

وكل أخ مفارق له أخوه لعمرو أبيك حتى الفرقدان

يعني: حتى القمر والشمس سوف يتفارقان، وقد صح أنهما يكوران، ثم يرمى بهما في نار جهنم. وقوله السابق:

(وانما كلام الوري ضرب من الهذيان) أن من له مجد ومكانة يسب دائماً.

قيل: من هو السيد؟ قال: من إذا غاب اغتابوه، وإذا حضر مدحوه، أو: إذا حضر هابوه وإذا غاب سبوه.

فتجد الشجاع وصاحب المنزلة العالية ترك له حساداً، إذا غاب وقعوا في عرضه، فإذا حضر قالوا: مرحباً.. أهلاً أبا محمد.. نحن اليوم مرتاحون.. شرفتنا.. لأنه مهيب وله مكانة، ولكن ما إن يغادر حتى يلدغوه بسياط النقد، أما التافه فيقول فيه أحدهم:

وشكوت من ظلم الوشاة ولن تجد ذا سؤدد إلا أصيب بحسد
لا زلت يا سبط الكرام محسداً والتافه المسكين غير محسد

لأن الصفر لا يؤبه به، يحضر المجلس أو يغيب فالأمر سيات، ليس عنده كرم ولا أخلاق ولا تواضع ولا علم ولا يصلح بين الناس، فهو سواء إن حضر أو غاب، لا

يدرون به أهو ساكن في القرية أم لا، إن حضر المجلس.. إن سافر.. إن ارتحل..
فهذا صفر، ﴿أَمُوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

وقد تعرض الأخيار على طول التاريخ للسب، حتى إن موسى عليه السلام
كلم ربه فقال: يا رب، أسألك أن تكف السنة بني إسرائيل فلا يتكلموا ويسبونني
إذا غبت، قال الله سبحانه: يا موسى، إني خلقتهم ورزقتهم وإنهم يسبونني
ويشتمونني! ما اتخذت ذلك لنفسى.

وكما جاء في صحيح البخاري قال: «يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك،
ويشتمني وما ينبغي له ذلك، أما سبه إياي فإنه يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل
والنهار كيف أشاء، وأما شتمه إياي فيقول: إن لي صاحبة وولداً، وأنا الله لا إله إلا
أنا لم أأخذ صاحبة ولا ولداً؛ لأنه أحد فرد صمد.

فالشاهد: الواحد الأحد الذي له صفات الكمال والجمال والجلال.. الفرد..
الصمد.. الحي القيوم.. ويسب من الخليفة الناقصة المذنبة الجاحدة، إلا من
رحم ربك، حتى يقول أحد الشعراء:

وَتَرَى الْكَرِيمَ مُشْتَمًّا لَمْ يَقْتَرِفْ شَتَمَ الرِّجَالِ وَعَرَضَهُ مَشْتُومٌ

فالناس يقعون في عرض الكرماء، ولكن الكريم كالنخلة الباسقة الطويلة
السامقة، التي تطلع بالتمر وبالرطب، فإذا تناولتها بالحجارة ردت عليك رطباً
وتمرّاً، وهذا شأن الأخيار على منهج: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وهنا علم أن الناس إنما يقعون فيمن
له شهرة، لكن الصحيح أن من كانت محاسنه أكثر فهو العدل الثقة الثبت؛ وأما
من كثر سابوه له وكثرت نقائصه وكثرت معائبه، فهو الذي نزل عن مرتبة العدالة
والثقة، وإلا فلا يسلم من العيب أحد في الناس، ولكن الذي يجتهد ويواصل
ويستثمر وقته وماله وجهده في الخير، فإنه لا يعدم من الحاسد، وكلام الحاسد

يسقط أصلاً؛ لأنه يتكلم بغير عدل، يقال: أظلم الناس هو الحاسد؛ فإنه يحكم عليك لا لك، ويحكم قبل أن يسمع الدعوى وقبل أن يستمع من الشهود، وإذا ذكرت له فإنه يسرع في قدحك وفي إنزالك من قدرك، ويرفعك الله بسبب نيل الحاسد لك.

ولهذا فهو يسلي كافوراً، ويظهر أن كافوراً بدأ يتعرض لنقد وتجريح وتشهير من الناس، فمثلاً يقول حاتم:

وكلمة حاسدٍ من غير جرمٍ سمعتُ فقلتُ مُري فأنفذيني
وعابوها عليّ ولم تعبني ولم يند لها أبداً جبينني

فالحاسد أبداً هو عدو النعمة، حتى يقول الشاعر:

هُم يَحْسُدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَاسِفًا حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

فهو يقول: والله لو أخبرت الناس أنني سأموت لحسدوني على الموت، قالوا له: ليس بصحيح. قال أحدهم: رأيت في المنام - وهو لم ير في الحقيقة - أن فلاناً الوزير صلب، وأن فلاناً الغني التاجر الثري صلب، وأنتي صلبت معهم، فقال الجلوس: أنت تصلب معهم؟! أنت أقل وأذل من أن تصلب مع الوزير ومع الثري، فقال:

هُم يَحْسُدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَاسِفًا حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

ولذلك فأبو الطيب دائماً يذكرك بهذه ويقول:

سَوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

يقول: حاول أن تداوي كل شيء تستطيع أن تداويه.. فالبخيل قد تشجعه بعض النصوص، تستطيع أن تداوي مثلاً الغضب بأن ترضيه.. الذي هجرك لأمر يمكن أن يزول عن هجره وقطيعة لك، إلا الحاسد.

وَلَا تَطْمَعَنَّ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تَبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

تحتضنه وتعانقه وتدعوه وتكرمه وتهدي له.. ولكنه لا يزداد إلا غياً؛ لأنه يريد شيئاً واحداً وهو أن تزول عنك النعمة.

حتى يقول أحد الشعراء:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَا إِلَّا الْحَسُودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
مَا لِي لَهُ ذَنْبٌ عَلَيَّ عِلْمَتُهُ إِلَّا تَتَابَعَ نِعْمَةُ الرَّحْمَنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيهِ إِلَّا ذِلَّتِي وَذَهَابَ أَمْوَالِي وَقَطَعَ لِسَانِي

يقول: ليس هناك مصالحة معه؛ لأن الحسود لا يمكن مصالحته، كما يقول القائل:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُودِ فَإِنْ صَبَرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

فهو ظالم في ثوب مظلوم، يحترقهما غمماً، بعض الناس مركب على الحسد، إذا رأى مالا لإنسان حسده، إذا رأى ذا علم حسده، إذا رأى فصيحاً.. وإذا رأى رجلاً جميلاً.. وإذا رأى رجلاً مشهوراً.. وإذا مدح الناس إنساناً فهو عدو.. يقول ابن تيمية: بعض الناس كالذباب لا يقع إلا على الجرح.

لا يحب الجوانب المشرقة، يفرح إذا جاءت العثرات، حتى إذا نظر في الأسهم ورأى الأحمر حمد وقال: لك الحمد يا رب، فإذا جاءت وهي خضراء مرتفعة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعنده التجار غشاشون.. والعلماء مدلسون.. والدعاة ملبسون.. والمسؤولون ظلمة.. فهو الذي يحب العيوب ويحب الأخطاء، والرجل إنما ينظر دائماً إلى الجوانب المشرقة ولا ينظر إلى الجوانب المظلمة في حياة الناس.

والمتنبى لما قال:

عدوك مَذْمُومٌ بكلِّ لسانٍ ولو كان مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

ذكرني هذا البيت بقصيدة على البحر والقافية، يقولون: كان ابن الأعرابي النحوي اللغوي المشهور الأديب يدرس في مجلس الحديث، وكان الناس في مسجد كبير، وهناك طلاب في آخر المسجد، طالبان يتكلمان في أثناء الدرس، قال: اسكتا، ثم قال: من أين أنتما؟ قال أحدهما: أنا من الأندلس قدمت بغداد؛ لطلب العلم، يعني: أصبحا صديقين، وقال للآخر: من أين أنت؟ قال: أنا من خراسان، خراسان في آخر المشرق والأندلس في آخر المغرب! قال: قفا واكتبا هذه الأبيات، تناسب المشهد، وكان راوية حافظاً، فقال:

نزلنا على قيسيةٍ يمنيةٍ لها نسبٌ في الصالحين هجانُ
فقلتُ وألقتُ جانبَ الخدرِ بيننا لأية قوم أم من الرُجلان؟
فقلتُ لها: أمّا تميمٌ فأسرّتي سلمتِ وأمّا صاحبي فيماني
رفيقانِ شتّى ألف الدينُ بيننا وقد يلتقي الشّتى فيجتمعا

فهو يقول: لقد ألف الإسلام بينكما وصرتم أخوين، وأتى بهذا الشاهد، كيف تألفا وليس بينهما أبوة ولا نسب ولا رضاع، فألف الإسلام بينهما، فأحياناً الدين هو الذي يؤلف، وأحياناً يؤلف بين الناس أشكال ومذاهب، لكن أخوة الإيمان هي أعظم أخوة، حتى يقول أبو تمام:

إن يَخْتَلِفُ ماءُ الوصالِ فماؤُنا عذبٌ تحدّر من غمامٍ واحدٍ
أو يَفْتَرِقُ نسبٌ يؤلّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مقامَ الوالدِ

يقول: الأدب الذي بيننا صار مثل الأب في النسب، وليته قال: (دين) بدلاً

من (أدب).

وبالمناسبة، فقد أُلقيت هذه المقطوعة في صنعاء لما قرأت عليهم المقامة اليمانية من المقامات قبل سنوات، ثم طلبوا مني أن أقف وقفات مع بعض شعرائهم، كالزبيري، محمد بن محمود الشاعر المشهور، فإنه خرج من اليمن مع الثورة وذهب إلى إذاعة باكستان وألقى قصيدة أرسلها إلى اليمن، يقول من ضمن أبياتها:

الشاعريَّةُ في رواعي سحرها	أنتَ الذي سويتَها وصنعتَها
أنتَ الذي بسناك قد عطَّرتَها	وأشعتها بينَ الورى وأذعتها
أبعدتني عن أمةٍ أنا صوتُها الـ	عالي فلو ضيَّعتني ضيَّعتَها
ما قال قومي آه إلا جئتني	وكويت أحشائي بها ولسعتها
عذبتي وصهرتني ليقولَ عنك	الناسُ: هذي آيةٌ أبدعتها

وله قصائد أخرى في الحنين، عندما خرج من وطنه، يقول:

مزقيني يا ريحُ ثم انثري	أشلاءَ جسمي في جوِّ تلك المعاني
وزعيني بين القدود والأغصانِ وصلي	جيرتي وأحبابي وقصِّي عليهم مآد هاني
هل رثاني هزأها هل بكاني	ورقها هل شجأها ما قد شجاني
ليت للروضِ مقلَّةٌ فلعلَّ	الدهرَ يبكيه مثلما أبكاني

وهذا من جيد شعراء اليمن، وقد جمعت أشهر ما قيل في ثوراتهم وفي حروبهم التي انتشرت بين الناس وبين الجمهور، ومنها قصيدة ذكرها صاحب حجر العلم ومعاقله والأكوع، وذكرتها في بعض المناسبات لما هاجم الإنجليز مدينة عدن واحتلوها ثم أخذوا يضربون الشمال، يريدون احتلال الشمال، فخرج لهم عالم اسمه يحيى بن محمد الإرياني، وهو من أبناء عبد الرحمن الإرياني الذي تولى رئاسة اليمن بعد السلال، المقصود أنه خطبهم خطبة بليغة واستحثهم لمقاتلة

الإنجليز، فلما سمعوا هذه القصيدة قاموا عن بكرة أبيهم، وقاتلوا الإنجليز، حتى هزموهم، كانت بريطانيا تضرب مدن اليمن منها صنعاء، فيخاطبها بالقصيدة القوية ويخاطب الجمهور:

يا بريطانيًا رويداً رويداً	إن بطش الإله كان شديداً
إن بطش الإله أهلك فرعون	وعاداً من قبلكم وثموداً
لا تظنوا هدم المدائن يودي	عزماً أو يلين بأساً شديداً
إن تبيدوا من البيوت بطياً	راتكم ما غدا لدينا مشيداً
فلنا في الجبال تلك بيوت	صنعناها أجداناً أن تبيداً

ثم التفت إلى الطيارين في السماء، فقال:

فالنزال النزال إن كنتم ممن	لدى الحرب لا يخاف البروداً
لتروا من يبيت منا ومنكم	موتقاً عند خصمه مصفوداً

(ما خضعنا للترك) يقول: أنتم الإنجليز على غير مذهبنا من الكفار، والترك والدولة العثمانية كانت مسلمة، ومع ذلك لم نخضع للأتراك، بل طردناهم:

ما خضعنا للترك مع قريبهم	في الدين من أكف فخرضى البعيدا
وهم في الأنعام أشجع جيشاً	فاسألوهم هل صادفونا فهوداً
أفترجوا إنجلترا في بلادنا	تبا لسعيها أن تبيدا
كذبت والإله لا كان إلا	بعد إلا تبيدنا أو نبيدا
بعدما تسفك الدماء على الأرض	ونرمي سهولها بالنجودا
يا بني قومنا، سراعاً إلى الله	فقد فاز من يموت شهيدا
سارعوا سارعوا إلى جنة	قد فاز من جاءها سعيداً شهيداً
والبسوا حلة من الكفن الغالي	وبيعوا الحياة بيعاً مجيداً

فخرجوا وقاتلوا الإنجليز، وكان معهم الحضرائي الأديب الكبير المشهور الذي عاش مئة وثلاثين سنة، ومن أبنائه الشاعر إبراهيم بن أحمد الحضرائي وهو رجل موسوعي، وقد زار أحمد هذا المملكة مرات عدة وتوفي فيما بعد، وحضر المعركة، ثم أخذ بسلاحه البسيط وكانت بعض الطائرات مكشوفة على الطراز القديم مثل الداكتوتا وغيرها، فأرسل الرصاصات فوقعت في جمجمة الطيار الإنجليزي فسقط وسقطت الطائرة، فمدح من جميع الناس شعراً عربياً وشعراً عاماً شعبياً، من ضمن الشعر الشعبي يقول أحد الشعراء من تهامة يرسل لهذا الحضرائي يمجده ويمدحه أنه أسقط الطائرة، يقول:

لك الحمد يا منشي من النوة المطر ورازق جميع الخلق في البر والبحر
يقول المعنى طار في عيني السهر بعد رقدة السمار دارت لي الفكور

(وبالله يا باهي على طلعة القمر)

يقصد الفارس الذي يذهب بالرسالة وبالتبريك وبالتهنئة..

وبالله يا باهي على طلعة القمر على ادهم محجل في الضنك يثني الصخور
تصل سوق شمر ذا على بابهم غفر تنشد على القاضي ووقت البلى هصور
إذا قلت قاضي عنده اللون والدرر من العلم وان جات المشاكل فهو صبور
من آل كبشن ذا يعدين في الغور ويعدين في الضيقات عداية الصقور

فيقول: إنه قاضٍ وقد أصاب الطائرة.

وقاضي يصيب الصيد ما يخلف النظر ونمر النمارة عادته ياكل النمر

في قصائد طويلة، لكن هذه من الذكريات؛ لأننا انتقلنا إلى مسألة اليمن.

لأن الأدب أصلاً لا ينبني على مسألة العلم الأكاديمي المفصل على أبواب وفقرات وفصول.. لا، الأدب كالبيستان، الأدب أن يكون كما يقول علي الطنطاوي: الدرس فوضى، تذهب ذات اليمين وذات الشمال.. حديث.. قصص.. إبداعات متنوعة، يعني أنه كالحديقة الغناء، زهر.. وفل.. وخمائل.. وعصافير.. وقمري.. وبلابل.. وهكذا.. وإلا فلو حصرناه كدرس الفقه لما سمي أدباً، ولا سمي سمرّاً.

المتنبى يذكر كلاً بما فيه، فدائماً يذكر سيف الدولة بالشجاعة؛ لأن سيف الدولة بارز الشجاعة، فلذلك ركز أبو الطيب المتنبى على هذا الجانب في سيف الدولة، فيقول مثلاً:

وقفت وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلَّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمٌ

وإذا أتى العلماء فلا يمدحهم بالشجاعة؛ لأن العالم تمدحه بالعلم، بالتحقيق العلمي، بالفهم، بإفادة الناس والنفع، قال:

علامة العلماء واللعج الذي لا ينتهي ولكلِّ لَجٍّ ساحلٌ
افخر فإنَّ الناس فيك ثلاثة: مستعظمٌ أو حاسدٌ أو جاهلٌ
وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأنِّي كاملٌ

وحين يأتي ابن العميد الكاتب المشهور، لا يمدحه بالشجاعة؛ لأنه كاتب ومن الكتاب المتقنين وصاحب إبداع، فلا ينبغي أن يقول: أنت الذي يقتل الأبطال.. وهو لا يقتل الأبطال ولا يبارز ولا يقاتل.. فمدحه بالأدب والكلمة، قال:

من مخبر الأعراب أني بعدهم جالست جالينوس والإسكندرا
ودرست بطليموس دارس كتبه متعلماً متبدياً متحضراً
قطف الرجال القول قبل نباته وقطفت أنت القول لما نوراً

ويأتي مثلاً إلى عضد الدولة الملك وهو من أكبر الملوك، وكان جباراً ظلوماً
عسوفاً داهية مهيباً، يمدحه بالقوة والتفرد على الملوك والتفرد على زعماء
عصره، فقال:

فِدَى لَكَ مِنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ	فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَ
وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لَكَ مَنْ يَسَاوِي	دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ
أَرْوَحُ وَقَدْ خَتَمْتُ عَلَى فَوَادِي	بِحَبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سِوَاكَ
وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا ثَقِيلًا	طَوِيلًا لَا أَطِيقُ لَهُ حَرَاكَ
أَحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا	فَلَا تَمْشِي بِنَا إِلَّا ابْتِرَاكَ
إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمُوعٌ فِي خُدُودِ	تَبِينُ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بَدَاءٍ	فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ

فقصدي أنه ينتقل على حسب الأغراض وحسب الممدوح.

ونعود إلى أصل القصيدة؛ لأنه لما قال:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

يقول في آخرها:

قَضَى اللَّهُ يَا كَافُورُ، أَنْكَ أَوَّلُ وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يَرَى لَكَ ثَانٍ

وهذا خطأ؛ فإنه لم يطلع على قضاء الله وقدره، والله يقضي ما يشاء، والعبد
ليس له علم بقضاء الله عز وجل، ومن أخبر هذا العبد الضعيف، فهذا من تجاوزاته،
وهذا من جموحه، وهذا من خطئه، وهذا من تعديه وبغيه، فإن الله يقضي ما
يشاء ويقدر سبحانه وتعالى، لا غالب لأمره سبحانه وتعالى، ولا راد لقضائه، فإنه
فعال لما يريد جل في علاه، لكن هذه الجرأة، بل الله يقضي ما يشاء، وأتى قبل

كافور وبعده من هو خير منه ديانة وإصلاحاً وعملاً ومجداً وعطاءً وبذلاً وشجاعةً، وانظر إلى التناقض، بالأمس يقول هذا الكلام، وفي الغد ينقضه بسبب من أفحش السب في كافور، وهذا شأن الذي لا ينطلق من مبدأ ولا من رسوخ علمي ولا من يقين معرفي، وليس عنده رسالة في الحياة ولا قضية، ولكننا نأخذ إبداع المتنبى وعبقريته وحكمه التي قالها، لكن المسالك الخطأ التي نهجها كالغلو في المدح، والغلو في الهجاء، وسرعة التذبذب والتردد، مرة يمدح ومرة يسب، مرة يرضى ومرة يغضب، فإننا لسنا وراء هذه الشخصية القلقة المتقلبة الماردة الثائرة، فشخصيته شخصية عبقرية.. ثائرة.. متمردة.. غضوب.. مزاجية.. حاد، لكننا نريد أن نقوّم هذا؛ لأن عندنا رسالة ربانية، وسنلتقي مع المتنبى في أحد المجالس من هذا الكتاب، سوف نلتقي معه في محكمة الإنصاف ونقرأ دعاويه، ونقيم البيئة على صدق ما قلنا من النقد، ونثبت له ما قال من محاسن ومن حكم، فنحن أمرنا بالعدل، وسوف نحاكمه بالميزان الذي هو ميزان الشريعة، وهذا الذي نطمح إليه ونحن تحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.



أهل العزم

يقول أبو الطيب المتنبّي:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهذه من أرفع قصائده وأجلها عند الأدباء
وأهل النقد، بل يجعلونها أحياناً الأولى في
قصائده، حتى إن المطلع يبهرك، وكان يمدح بها
سيف الدولة، من ضمن أبياته الشائقة الرائقة، بل
الذائعة الشائعة، بل الرفيعة البديعة قوله لسيف
الدولة، وهو في المعركة لما قاتل الأعداء:

وقفتُ وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ كأنك في جفنِ الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلَّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمٌ

والشاهد من هذا أنه يتكلم عن علو الهمة في أول القصيدة، فيقول: (على قدر أهل العزم تأتي العزائم): فعلى قدر ما عندك من همة يكون لك من النتائج المرضية؛ لأن همتك أوصلتك إلى مراقبي الصعود للمجد.

يقولون: ليست الهدية على قدر من أهديت له، ولكن على قدر المهدي نفسه، فدل على أنه من أراد أن يتبوأ المجد الدنيوي والمجد الأخروي فليأت بهمة عالية، وهذا أمر متفق عليه عند جميع العقلاء، وهو كان يشيد في قصائده بهمته، ولكن للأسف أنها انحرفت عما ينبغي أن تكون عليه من الإيمان والعمل الصالح والإصلاح في الناس والفضيلة، انحرفت إلى طلب المجد الدنيوي والعلو في الأرض وطلب المنصب والجاه والشهرة والظهور.. حتى يقول:

أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعِي الصبرُ
وأشجعُ مني كل يومٍ سلامتي وما ثبتتُ إلا وفي نفسي أمرُ
تمررتُ بالآفاتِ حتى تركتها تقولُ: أَمَاتِ الموتُ أم دَعَرَ الذعرُ
وأقدمُ إقدامِ الأتبي كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وترُ

والأتي هو السيل، فيا لها من همة! إلى آخر ما قال، ثم قال:

وتتركُ في الدنيا دويًّا كأنما تداولُ سمعِ المرءِ أمله العشرُ

الشاهد أن الشعراء نهجوا هذا المنهج من قبل ومن بعد، لكنه تفوق في أنه يأخذ العبارة فيضعها في قالب جميل أخاذ جذاب، ولذلك فاق الشعراء بمعانيه وبجمالياته في الجملة، وإلا فبعض مفردات الشعراء قد يغلبونه فيها، لكن في

أهل العزم

جملة قصائده هو يغلبهم بلا شك، فصار هو سيد الشعراء وإمبراطور الشعور وملك الشعراء.

والشريف الرضي يقول أيضاً مخاطباً نفسه:

أَقْسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حَرَّةً وَقَاحَةً تَحْتَ غَلَامٍ وَقَاحِ
إِمَّا فَتًى نَالَ الْمُنَى فَاشْتَفَى أَوْ فَارِسٌ زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَا حِ

الوقاح من لا يستحيي من طلب الشيء حتى يدركه. وقاحة يعني: في جراحة صارمة إلى درجة أنه لا يرده رادّ، وقد نظم بعض المتأخرين عليه قصائد كالشوكاني في نيل الأرب، ونظمت بيتين قلت فيهما:

إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ فِي كُلِّ مَا أَمَلْتَهُ نَلْتَ الْمُنَى وَالنَّجَاحِ
بِهَمَّةٍ تَخْرُجُ مَعَ الصَّفَا وَعِزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ أَحِ

همة من لا يتعب ويقول: أح، من المعركة أو من المجد أو من السهر أو من التعب؛ لأن طريق العلياء محفوف بالمخاطر والأشواق والنكبات، أما طريق الانحراف فهو منحدر، ولذلك فهو سهل.

ولذلك تجد من يسقطون كثيراً، أما الذين يصعدون فإنهم قليل، حتى يقول الصينيون: الجالس على الأرض لا يسقط، بل هو مرتاح، إنما يسقط الذي يذهب إلى القمم أو يصعد الجبال العالية. ومثله مثل الذي يأتي إلى المجد، حتى يقول المتنبي نفسه:

لَا يَدْرُكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لَمَّا يَشْقُ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٍ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجَوْدُ يَفْقُرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٍ

فأوصي العقلاء والأدباء والحكماء بأن يكون عندهم همة وثابة، وإلا فالناس متشابهون في اللحم والدم والصور الظاهرية والأجسام، إنما يختلفون في الهمة،

أن يكون عند الواحد همة فترقى به، فتجد بعض الناس يفوق الآلاف المؤلفة من البشر بهمته، وتجد آلاف البشر لا يساؤون رجلاً واحداً، كما يقول ابن دريد:
والناس ألف منهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إن أمرَ عَنَّا
حتى يقول الشاعر:

فكن رجلاً رجله في الثرى وهمة هامة في الثرى
أنت جالس على الأرض، لكن اجعل همك فوق النجوم، حتى إن المتنبى يقول، وانظر إلى كلماته العذبة وتناسقها:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
هذه حرب النجوم عند المتنبى، يقول: دون النجوم لا ترض، بل فوق النجوم، يعني: لا يحدك حد، فهو يرى في الدنيا ألا تطلب الشيء ميسراً مسهلاً، حتى إن ابن الجوزي تكلم على الهمة العالية فقال: لو أن النبوة تكتسب كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن النبوة هبة من الله موقفة، وختمها برسولنا ﷺ، فلا تؤتى لأحد بعده عليه الصلاة والسلام؛ أي: لو كانت كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن عند الناس أمرين: العمل الصالح والعلم النافع، هذا الذي يطلب، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم...» فجعل الهدى العمل الصالح، والعلم النافع.

فهنا يقول: إذا غامرت... أي: ما دمت تدخل في الموضوع، ما دمت تشق طريقك إلى النجاح، ما دمت ستسهر.. فلا تفن نفسك على شيء تافه وحقير وبسيط، حتى يقول:

قطع الموت في أمرٍ حقيرٍ كقطع الموت في أمرٍ عظيمٍ
الموت واحد، وسوف يموت الإنسان إما تخمة بأكله، أو يموت شريفاً عابداً أو يموت زاهداً، أو يموت ماجداً، أو يموت شهيداً، أو يموت بسبب مخدرات، فلا بد

أهل العزم

من أن يموت، فهو يقول: فاجعلها ميتة شريفة، حتى يقول الحسن البصري رضي الله عنه: لا تجعل لنفسك ثمناً غير الجنة.

يعني: مهما ساوموك فلا تطلب إلا الجنة. ولذلك لام الله أعداءه من الذين زوروا في الكتاب، فقال: ﴿أَشْتَرُوا بِكَائِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: 9] الدنيا كلها ثمن قليل كما يقول كثير من المفسرين، فهو يلوم من كان هذا فعله، يقول: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، مثل: الكهنة.. مثل العرافين.. السحرة.. مثل من يرتشي.. مثل من يرابي.. أخذ ثمناً قليلاً، لو أعطى الدنيا كلها وترك الدين لكان ثمناً قليلاً، ولذلك من وصل حتى في عالم الدنيا فهو من همتهم العالية.

يقول المأمون: أدهى الناس اثنان: الإسكندر المقدوني، نقل الحكم من دولة إلى دولة، يعني إلى دولة اليونان مقدونيا، نقلها من الرومان، وأبو مسلم الخراساني نقل الدولة من بني أمية إلى بني العباس. وأبو مسلم الخراساني أعجمي، كان عمره ثمانية عشر عاماً يتقلب وأمه في البيت، لا ينام إلا قليلاً ثم ينقلب على شقه اليمين ثم على اليسار، عندما ينقلب على اليسار كأنه حية، حتى يأتي الفجر، فتقول أمه: ما تنام؟! فيقول: همة تنطح الثريا، وعزم يدك الجبال، فبعد مدة يكون حرسه الخاص عشرة آلاف مسلح، ويقلب الدولة وعمره ثمانية عشر، وفوق هذا هو أعجمي وليس بعربي، كان يمشي والطواير أمامه، وخطب مرة وعليه عمامة سوداء، فقام أحدهم يتكلم أمام هذا الذي يسفك الدم مثل الماء، قال: أيها الأمير، لا تلبس السواد، فشعار دولة بني العباس السواد، فقال: حدثنا فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر: «أن رسول الله ﷺ دخل عمرة القضية وعمامته سوداء على رأسه» يا غلام، أعطني رأسه، فقطع رأسه وسقطت الجثة بين الصفوف.

فصاحب الهمة هذا أبو مسلم تقول أمه: لماذا لا تطلب الهمة؟ قال: يمنعني العقل، يقول: أفكر أحياناً لكن العقل يردني، حتى إن المتنبي يقول وهو يمجد

أحد الفاتكين واسمه المجنون، من شجاعته سماه الناس المجنون، إذا دخل في المعركة يطيش عقله فيخبط في الناس خبط عشواء، فيسمونه المجنون، فيمدحه المتنبي، قائلاً:

سَمَاءُ حَاسِدُهُ الْمَجْنُونُ مِنْ وَلِهِ إِذَا اخْتَلَطْنَ وَبَعْضُ الْعَقْلِ عَقَالُ

يقول: بعض العقول تمنع صاحبها؛ لأن بعض الناس تراه يحذر. فتقول له: اخطب.. فيقول: والله إنني أخشى إذا خطبت أن يبرز لي حساد، ثم يفهمون أنني أريد أن أظهر.

فتقول: أَلَفَ كِتَابًا، قال: أنا لا أعجز عن أن أؤلف كتابًا، لكن افرض أنني ألفت كتابًا، ثم وقع فيه أخطاء، ثم رد عليه العلماء، ثم بدعوني، فسأصير بعد ذلك مبتدعًا، فكل شيء له احتمالات لديه ووساوس، ما يأتي بالمجد إلا جرأة، كما قال:

سَمَاءُ حَاسِدُهُ الْمَجْنُونُ مِنْ وَلِهِ إِذَا اخْتَلَطْنَ وَبَعْضُ الْعَقْلِ عَقَالُ

يقول: بعض العقل يقيّدك مرة إلى أن يجعلك لا تستطيع أن تتصرف، العقل الكريم السديد هو الذي يجعلك جريئاً بحكمة.

ويقول آخر:

هِمَّةٌ تَنْطَحُ الثَّرِيًّا وَعَزْمٌ نَبِيٌّ يَزْعَزُ الْأَجْبَالَ

لماذا قال نبوي؟ لأن أرفع الناس همّة هو محمد ﷺ، همّة عظيمة، حتى إنه يعلمنا في الدعاء في قوله للصحابه والمؤمنين من أتباعه ﷺ: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوهُ الفردوس» يعني: حتى في الدعاء لا ترض إلا بالفردوس، «فإنها أعلى الجنة ووسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، ومنه تفتجر أنهار الجنان» فلا تقل: اللهم، أدخلني الجنة فقط. لا، قل: اللهم، إنني أسألك الفردوس الأعلى من الجنة، حتى النبي ﷺ وهو في سكرات الموت قال: «بل الرفيق الأعلى بل

أهل العزم

الرفيق الأعلى» ما هذه الهمة! سبحان الذي أعطاه، الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، جبال الذهب، جبال الفضة.. الغنائم.. الدراهم.. الجيوش.. الدول.. لا تساوي شيئاً، أرفع الناس همة، لحقه الأعراب بعدما انتصر ﷺ في حنين وحصل على سبعة آلاف رأس من الإبل وأربعة وعشرين ألف رأس من الغنم، وحصل على ذهب وفضة وغنائم وسبايا فأخذ يقسمها، خذ يا فلان.. مسلمة الفتح أسلموا الآن، قال: خذ مئة ناقة، قال آخر أعطني: قال تنظر الغنم التي بين جبليْن، خذها لك، قال آخر.. قال خذ مئة ناقة، وقال لآخر: خذ أنت ألف شاة، فتعلق رداء النبي ﷺ والأعراب يطاردونه. وهو ﷺ لم يأخذ شاة ولا رغيفاً من الخبز، ولا أخذ ثوباً، قال: «فكوا علي ردائي، والذي نفسي بيده لو كان مثل جبال تهامة ذهباً وفضة لوزعتها، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً» عليه الصلاة والسلام، ثم يذهب من الدنيا ولم يأخذ شيئاً، ولا أبقى شيئاً، ولا ورث شيئاً بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، في غرفة من الطين.

كفأك عَنْ كُلِّ قَصْرِ شاهقٍ عمدُ بيتٌ مِنَ الطينِ أو كهفٍ مِنَ العَلَمِ
تبني الفضائل أبراجاً مشيدةً نصب الخيام التي من أروع الخيم

فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وصلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون.

فتحن ما زلنا في ظلال بيت أبي الطيب وفي سياقه:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وهو في بيت آخر من قصيدة أخرى يقول:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

إذا كانت النفس كبيرة وشريفة ولها مطالب عالية من العمل الصالح والإيمان والعلم والمعرفة والمروءة والخصال الجميلة.. ثناء حسن في الناس.. وسيرة

جميلة يتعب جسمه: لأن هذه الهمة تحتاج إلى تعب، وتحتاج إلى حضور للصلاة.. ولحفظ القرآن.. وإلى طلب العلم.. وإلى بذل الخير في الناس.. وإلى الإصلاح فيما بينهم.. وإلى التصدر بالفضيلة.. وإلى نشر المعرفة.. وإلى التعلم والتعليم.. فيتعب جسمه، أما الخامل الساقط التافه فليس يهমে شيء، قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُسْبٌ مُسْتَدَّةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، ويقول الشاعر:

لا بأس بالقوم من ضخم ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

فهذا مثل الذي ليس عنده همة وليس عنده نفس كبيرة. فهو دائماً يئبه في قصائده على الهمة العالية، لكن ليته صرفها في الأحسن والأجمل، إنما تهالك المسكين، حتى إن ابن الجوزي العالم الرباني الواعظ الكبير في صيد الخاطر يرثي للمتنبّي، يقول: بحثت عن همته وإذا الرجل طامح بهمته وقتل نفسه، ثم بحثت عنه فإذا به يريد إمرة أو منصباً.. يريد دنياً.. يريد ذهباً.. ثم ماذا؟! من ملك إلى ملك، من كافور إلى سيف الدولة إلى عضد الدولة إلى ابن العميد إلى فلان.. كله في سبيل هذه الدنيا، قال: فنظرت إلى همته، فإذا هي أرقى وأعظم وأجل -يعني نفسه- لأنني أطلب العلم النافع وأريد العمل الصالح وأريد أن أصلح قلبي وقلوب الناس ونحو ذلك، وصدق ابن الجوزي، فلا مقارنة بين ابن الجوزي العالم الرباني الموسوعي الكبير، وبين المتنبّي اللودعي العبقرى الشاعرى الأعجوبة، ولكنه صرفها للدنيا ولجاء الدنيا وشهرة الدنيا، فكما يقول الأول:

ألا بلع الله الحمى من يريده وبلغ أكناف الحمى من يريدها

كما يقول سبحانه: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ويقول القفال الشاشي:

اطلب ولا تضجر من مطلب فافة الطالب أن يضجراً

أهل العزم

يعني: إذا أردت مطلباً عالياً عظيماً فاطلب، والموت أن تضجر من المطلب،
استمر في عمل دنيوي صالح مفيد، في حرفة.. في مهنة.. في إنتاج.. في عمل..
في فن علمي..

أما ترى الحبل بطول المدى على صليب الصخر قد أثرا

الحبال التي في السواني التي تخرج الماء من الآبار هي جلد، فيأتي هذا
الحبل من الجلد على الصخر، لكثرة ما يذهب ويأتي أخذ له طريقاً وأخدوداً
في الصخر، وكذلك الطالب والمجتهد والباذل والمضحى والمثابر سوف يشق
طريقه إلى المجد لا محالة إذا استمر وإذا صبر، حتى إن أحد العباد يقول لغلامه
في الليل، وقد كان يصلي فقال:

طال الليل علينا، قال:

طاول بها الليل ضن ما ليل أو جناح وما طل الجفن جاد الجفن أو سمحا
فإن تشكت فعلمها المجرة من ضوء الصباح وعدّها بالرواح ضحى

فعند الصباح يحمد القوم السرى؛ إذا طلع الفجر تذكر أحدنا أنه قام البارحة
وصلّى حزبه من القرآن، وتنفّل وبكى ودعا في السحر وأرسل سهام الدعاء وفتح
عليه. ففي الضحى لا يحس للتعب بمعنى ولا طعم، أما من ينام ويصبح جيفة
فيأتي في الصباح، فأين لذة النوم التي ذهبت منه؟ وأين الخمول الذي عاشه؟
وأين الكسل الذي قدمه وآثره؟ فلذلك من يتعب سوف يجني ثمره من الثناء
الحسن والأجر والثواب عند الله، والذي يكسل عن الصالحات سوف يجنيه ندامة
وخيبة وحسرة، حتى يوم العرض الأكبر على الله.

انظر إلى امرئ القيس وهو جاهلي، ويطلب دم أبيه من بني أسد الذين قتلوا
والده وذهب إلى قيصر يريد أن ينتصر له، كما يذهب الواحد منا الآن إلى أمريكا؛
ليستعين بها على عدو، فذهب.. يقول:

وَلَوْ أَنَّمَا أَسْعَى لِأَدْنَىٰ مَعِيشَةٍ كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ - قَلِيلٌ مِّنَ الْمَالِ
وَلِكِنِّي أَسْعَىٰ لِمَجْدٍ مُّوْثِلٍ وَقَدْ يَدْرُكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثِّلَ أَمْثَالِي

يقول: أسعى لمجد أبي؛ لأن أباه كان ملكاً في كندة، فقتله بنو أسد في نجد وكان أصلهم من اليمن من حضرموت، فلما أتاه الخبر كان يشرب الخمر، فقال: اليوم خمر وغداً أمر، وقال: أما أبي فما أنصفتي، ضيعني صغيراً وحملتني دمه كبيراً، فأراد أن يستنجد بالعرب فما وجد أحداً، فذهب برجل معه صديق اسمه عمرو بن قميئة، فبكت أم عمرو؛ لأنه سيسافر معه إلى قيصر الروم، وهذا السفر طويل، فقال:

أَرَىٰ أَمَّ عَمْرٍو دَمْعُهَا قَدْ تَحَدَّرَا بَكَاءَ عَلَىٰ عَمْرٍو وَمَا كَانَ أَصْبَرَا
بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَنَا وَأَيَقِنَ أَنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكِ عَيْنَاكَ إِنَّمَا نَحَاوُلُ مَلَكاً أَوْ نَمُوتُ فَنَعْذَرَا

يعني: إما أن نحصل على ملك أو نموت شرفاء.

كما يقول العامي: يخرج الفارس، إما ذاق موت الشرف والا سلم.

فإما أن يعيش الإنسان سعيداً منعماً في الخير والثناء الحسن، وإلا فليمت ليلقى ربه سبحانه وتعالى أحسن من حياة المهانة.

لكن الشاهد: إنك عندما تسمع امرأ القيس تقول: سبحان الله! ما هذا المجد وهذا الإصلاح؟ وهو جاهلي.. سفك دم.. وسرقات.. ونهب.. وثارات.. واغتيالات.. ونحو ذلك.

فلما جاء الإسلام أخبرنا ﷺ كيف تكون الهمة العالية، كيف يكون الطريق إلى المجد الباقي عند الواحد الأحد، كما جاء في القرآن: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ

أهل العزم

يُنَاقِرُ ﴿[المدر: ٣٧] ويخبرنا سبحانه وتعالى بالمسارعة، ليست كمسارعة امرئ القيس إلى الخمر والضياع وسلب القبائل وسفك الدماء والسرقات، وإنما قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كما قال ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً»، «اغتنم خمساً قبل خمس» هذا منطق الوحي كتاباً وسنة، أن تبادر إلى معالي الأمور في الصف الأول في المسجد:

مَنْ لِي بِمَثَلِ سَيْرِكِ الْمَدْلُ تَمْشِي رُويْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

قراءة القرآن.. كثرة الذكر.. عمل الصالحات.. الصدقة.. الإصلاح بين الناس.. بر الوالدين.. الرحمة بعباد الله ﷻ.. إيصال النفع إليهم.. كف الأذى عنهم إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً.. هذه هي معالي الأمور التي بعث بها عليه الصلاة والسلام. فإن الله سبحانه وتعالى أمر بمعالي الأمور وكره سفافها وحرّم ذلك.

حتى المتنبّي يلوم من ليس عندهم همم، وهو يقصد همم الدنيا، قال:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ وَمَرْكُوبِهِ رَجُلَاهُ وَالثَّوبُ جِلْدُهُ
وَلَكِنْ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيِّ مَالِهِ مَدَى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادٍ أَحَدُهُ

يقول: قلبي هذا ليس له مراد يحد أبداً، همته عالية ووسيلة وفسيحة وآفاقه مرتفعة.

أَحَاوَلُ أَنْ أَكْسَى ثِيَاباً تَشْفُهُ فَيَخْتَارُ أَنْ يَكْسَى دُرُوعاً تَهْدُهُ

له حكم في هذه القصيدة، حتى علم الناس البخل وهو يريد أن يعلمهم الحكمة، قال:

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فلا ينحل في المجد ما لك كله فينحل مجداً كان بالمال عقدُه
ودبره تدبير الذي المجد زنده إذا قاتل الأعداء والمال مجده

وهو كان من أبخل الناس، جمعها ثم ذهب وتركها، جمع أكياساً وقناطر
مقنطرة من الملوك ومدحهم، ثم ذهب مقتولاً في صحراء بين خراسان وبين
بغداد، ولو كان أنفقها وبنى بها مساجد أو حفر بها آباراً لكان أفضل له.

فيقول عليه الصلاة والسلام: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس»
وأعود إلى همته عليه السلام. ماتت أمه وهي راجعة إلى مكة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله مع جده
عبد المطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون
حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً، فكان رسول
الله صلى الله عليه وآله يأتي وهو غلام يجلس عليه فيأخذه أعمامه؛ ليؤخروه عنه، فيقول عبد
المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا بني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه عليه
ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

فلما شرف الله صلى الله عليه وآله نبيه صلى الله عليه وآله بالرسالة وأتى في حنين بعد النبوة وقاتل هوازن
ضاقت عليه الأرض بما رحبت هو، والصحابة، وجاء جيش هوازن نحو عشرة
آلاف، وجاء الرمي من الجبال، ففر كثير من الصحابة، فرت بهم خيولهم، جاء
رمي السهام عليهم مثل السحاب، فضاق المكان، ولكن النبي صلى الله عليه وآله لم يفر هو وقلّة
من الصحابة، أما البقية ففروا، قال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

حتى إنه لما أراد العرب أن يباركوا لسيف بن ذي يزن، ملك العرب ملك
أهل اليمن، سيف بن ذي يزن طرد الأحابيش، الذين احتلوا اليمن، فأتى فجمع
القبائل العربية وصدّم الأحابيش وأجلاهم من اليمن، فاجتمعت القبائل وقالوا:
نريد أن نذهب ونبارك لسيف بن ذي يزن في قصر غمدان، وقصر غمدان قصر

أهل العزم

مشهور في صنعاء، وكان الملك فيه، قالوا: نختر عشرة من سادات العرب وقبائل الجزيرة كلها، فاخترنا سيدهم عبد المطلب، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ، قالوا: نريد سيداً ليس في السادات مثله، قالوا: عبد المطلب، قالوا: وشاعر لا يعدله في الشعراء، قالوا: أمية بن أبي الصلت في الطائف من ثقيف، قالوا: وخطيب، قالوا: عمرو بن الأهتم، قالوا: وشريفهم الذي يصلح بين الناس، قالوا: حاجب بن زرارة، فذهبوا، فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية بن أبي الصلت في قوله:

فاشربْ هنيئاً عليك التاجَ مرتفعاً	في رأسِ غمدانَ داراً مِنْكَ محلاً
واشربْ هنيئاً فقدْ شالتْ نعامتهم	وأشبَلَ اليومَ في بردِيكَ إشبالاً
تلكَ المكارمُ لا قعبانَ مِنْ لَبِنٍ	شيباً بماءٍ فعاداً بعدُ أبوالاً

والملك متضمخ بالعبير يلصف ويص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران مرتدياً بأحدهما مؤتزراً بالآخر، سيفه بين يديه، وعن يمينه وعن شماله الملوك. فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذناً لك.

فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك، محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعته، في أكرم موطن وأطيب معدن، فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب، وربيعها الذي تخلص به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العمداء، ومقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك، أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهك من كشف الكرب الذي قد فدحنا فنحن وفد التهنة لا وفد المرزئة.

قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابن أختنا؟ قال: نعم.

قال: ادنُ.

فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً، وناقّةً ورحلاً، ومستنخاً سهلاً، ومملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً.

قد سمع الملك مقاتلكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب، إني مفضّ إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبحّ به.

ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اختزنه لأنفسنا واحتجبهناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، مثلك سر وبر، فما هو، فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمرة؟ قال: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

أهل العزم

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أبت بخير ما آب به وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أوقد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، ولدناه مراراً واللّه باعته جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعز بهم أوليائه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك - عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهذا نجاري، فهل الملك سار لي بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح. فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات على النصب إنك يا عبد المطلب، لجده غير كذب.

فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟ فقال: أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناءؤهم، ولولا أنني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيشرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيشرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أنني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت

على حادثة سنه أمره ولاوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

قال: ثم أمر لكل رجل منهم عشرة أعبد وعشر إماء وبمئة من الإبل وحلتين من البرود وبخمس أرتال من الذهب وعشرة أرتال فضة وكرش مملوء عنبراً. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له: إذا حال الحول فائتني، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول.

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر؛ فإنه إلى نفاذ، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبتي من بعدي ذكره وفخره وشرفه.

فاذا قيل له: متى ذلك؟ قال: سيعلم، ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جلبنا الصنح نحقبه المطايا	على أكوار أجمال ونوق
مقلضة مراتعها تعالى	إلى صنعاء من فج عميق
تؤم بنا ابن ذي يزن وتفري	بذات بطونها ذم الطريق
وترعى من مخايله بروقاً	مواصلة الوميض إلى بروق
فلما واصلت صنعاء حلت	بدار الملك والحسب العريق

فهذا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام عبرة لكل معتبر بعلو الهمة.



شمس الشعر

يقول أبو الطيب المتنبّي:
وكيف يصح في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

معنى الأبيات: كيف تصح الحقائق في أذهان بعض الناس إذا أنكرت الأدلة إلى درجة أن تقول: هذا نهار، فيقال: ليس هذا بنهار، اضرب لي دليلاً، أو أعطني برهاناً على أنه نهار، فما دامت الحقائق المعلومة تنكر عند بعض الناس إذاً، فلن تصح حقيقة، تلغى الأدلة ولا يبقى هناك دليل للمحاجة، وعليك أن تقطع الجدل مع من هذا شيمته.

وعلى ذكر النهار فإن له أبياتاً في النهار، وفي الشمس على وجه الخصوص، حتى إن مساحة الشمس في شعره كثيرة، فهو يقول:

رَأْتُ وَجَهَ مَنْ أَهْوَى بَلِيلِ الْعَوَازِلِ فَقُلْنَا: نَرَى شَمْساً وَمَا طَلَعَ الشَّمْسُ

يقول: إن عواذلي رأين وجه محبوبي، فلما رأين هذا الوجه المنير قلن: نرى الشمس، لكن الفجر لم يطلع، فكيف نرى الشمس في الليل؟!

وله تجرؤ في ضرب الأمثلة إلى درجة أنه أحسن كثيراً، وانتقد كثيراً من بعض النقاد، حتى قال مرة:

نَثَرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرْتُ لِيَالِي أَرْبَعَا
وَاسْتَقْبَلْتُ بَدَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرْتَنِي الْقَمَرِينَ فِي وَقْتٍ مَعَا

وهذا من تشبيهاته ومن أبياته الجميلة، وهذان البيتان في ألف ليلة وليلة، يقول: إنها قيلت في الجاهلية، مع أنها من المتنبي في عهد الإسلام. حتى إن الشمس لشهرتها وبهاؤها عبدت من دون الله ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧] وإن الهدهد أنكر على بلقيس وأهل سبأ أنهم يعبدون الشمس من دون الله، قال: ﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فلجلاء الشمس وظهورها عبدت من دون الله عند بعض القوم، حتى يقول يوشع بن نون في الحديث الصحيح: «إن الله حبس الشمس ليوشع بن نون حتى يقاتل» وهذا في البخاري، وكان نبياً من أنبياء الله ﷺ، فكادت الشمس أن تغرب وهو يلاقي أعداء الله ﷺ، فنظر للشمس، ثم قال: «إني مأمورة وأنا مأمور، اللهم، احبسها علي. فحبسها الله سبحانه وتعالى حتى فتح الله عليه، ثم غابت».

ولذلك بعض الطوائف يقولون: «إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه نام عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فلما قام وصلى قال: «اللهم، رد علي الشمس، فردها الله فصلى ثم غابت».

وهذا تدليس، والحديث لا يصح بحال، وقد اغترّ به مثل الطحاوي وغيره. حتى يقول ابن كثير: من اغترّ بتصحيح الحديث فعلى مذهب الحريري الذي يقول عن بعض الأعراب: شرب خمرًا فسكر فأخذ يهذي ويقول:

إِنْ كُنْتُ أَدْرِ فَعَلَيْ بَدْنِهِ مِنْ كَثَرَةِ التَّخْلِيطِ أَنِّي مِنْ أَنَّهُ

واغترّ بعض الناس بمثل هذا، ومنهم أبو تمام. مع العلم أن أبيات أبي تمام من أجمل الأبيات، فهو وظف هذه المعلومات الخاطئة، لكن جماليات الأبيات تبقى، يقول:

فَرَدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ فِي جَانِبِ الْخِذْرِ تَلَمُعٌ
مَحَاضِوُوهَا كَسَفَ الدُّجْمَةِ وَانْبَرَى لِبَهْجَتِهَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ الْمَرْجُعُ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِ عَلَيَّ بَدَأَ لَنَا فَرَدَّتْ لَنَا أَمْ كَانَ فِي الْقَوْمِ يَوْشُعُ

فصحيح أن يوشع ردت له، أما علي رضي الله عنه وأرضاه فلم ترد له.

فمضى الشعراء على هذا، يذكرون الشمس بالعظمة، حتى يقول أحدهم في المكتفي الخليفة العباسي، وقد كان آية من آيات الله في الجمال، وربما ستر وجهه؛ خوفًا من العين، حتى يقول أحد الشعراء فيه:

وَاللَّهِ لَوْ كَلَّمْتُهَا لَوْ أَنَّهَا كَالْبَدْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْمَكْتَفِي
حَلَفْتُ لَنَا أَلَّا تَخُونَ عَهْدَنَا فَكَأَنَّهَا حَلَفَتْ لَنَا أَلَّا تَفِي

فجعل الخليفة العباسي قريناً للشمس والقمر في حسنه، وهذا من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطى يوسف شطر الحسن، حتى قال المتنبي في ذلك:

جميلٌ كأنَّ الحسنَ كانَ يحبهُ فَأَثَرَهُ أَوْ زَارَهُ فِي الحَسَنِ قَاسِمٌ

وهذا فيه تعدُّ وطغيان، ولكن جماليات القصيدة في جانبها الآخر.

والنابعة الذبياني يقول للنعمان:

فإنَّكَ شمسٌ والنجومُ كواكبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبٌ

قال ذلك في قصيدته الماتعة التي من أحسن أبياتها:

ولستَ بمستبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ أَيْ الرِّجَالِ المَهْذَبُ

يقول: إذا لم تقبلنا بعلاتنا وتجاوزت عن أخطائنا البشرية فلن تلقى أحداً مهذباً، لا يوجد في الناس أحد مهذب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هل يوجد في الناس من هو سالم من العيب أو من الخطأ والزلل؟ لا يوجد أحد، إلا الأنبياء المعصومون، فهذا بيت جميل، وقبله يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

وهذا أحسن ختام.

يقول: حلفت لك بالله، أتريد وراء الله مقصداً؟ هل تعلم أكبر أو أعظم من الله؟ هل تعلم له سميّاً؟ ولذلك كانوا يقسمون بالله في الجاهلية، وكانوا يعظمونه، ولكنهم لم يفوا بهذا التعظيم، بل أشركوا معه سبحانه وتعالى في الألوهية، فبعث الله الأنبياء وسيدهم ﷺ لتقرير التوحيد.

وطرفة بن العبد كان يوم قتل عمره ستة وعشرون عاماً، وهي العبقريّة المتمردة الثائرة التي ولدت في حجرها وفي شبابها وفي ريعانها، يقول في قصيدته الدالية:

وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِداءَهُ عَلَيْهِ نَقِيّ اللّوْنِ لَمْ يَتَخَذْ

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَنْتَقِي حَلِيلَةَ مَا لِلْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ

يقول: هذا الموت لا يفرق.. يأخذ الكريم، ويأتي للبخیل الذي یکنز الأموال
ويأخذه على طريقه. ثم يقول:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَحَقُّكَ لَمْ أَحْضِلْ مَتَى قَامَ عُودِي
فَمَنْهَنْ سَبَقُ الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةِ كَمِيتٍ مَتَى مَا تَعَلَّ بِالْمَاءِ تَرْبِدِ

إلى آخر ما قال.. وقد سمع عمر بن عبد العزيز بهذا.. لأن هذا منطق
الجاهلية، يقول: لولا ثلاث في الحياة كنت وددت أني أموت، لأن طرفة جاهلي:
المرأة الحسناء والخمر وأن يلاقي العدو.

فملاقة العدو يعني أن هناك سفكاً للدماء.

قال عمر بن عبد العزيز في منطق أهل الإيمان.. منطق الربانية.. منطق
العلم النافع والعمل الصالح.. الخليفة الزاهد المجدد.. قال: وأنا والله لولا ثلاث
لم أحضل متى قام عودي، فمنها: تمرغ وجهي في السحر داعياً لربي، ومجالسة
أقوام ينتقون أطايب الحديث كما ينتقى أطايب التمر، ومزاحمة العلماء بالركب
في حلق الذكر.. أو كما قال.

فهذا هو منطق أهل الإيمان، وذاك منطق أهل الجاهلية.

وأحدهم يمدح قومه فيقول:

نَحْنُ وَجْهُ الشَّمْسِ إِسْلَامٌ وَقُوَّةٌ نَسْبٌ حُرٌّ وَمَجْدٌ وَفَتْوَةٌ

فإذا مدحوا أحداً جعلوه مثل وجه الشمس أو ارتفاع الشمس.

ونزار قباني يقول:

اركبي الشمس يا دمشق، حصاناً حسبك الله حافظاً وأميناً

في قصيدة له طويلة.

فهم يجعلون الشمس منتهى المجد الذي يصل إليه الإنسان، فأحياناً ينكر الإنسان الحقائق، ولو كانت مثل الشمس، حتى يقول البوصيري:

قَدْ نَكَّرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيَنْكُرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

العيب ليس في الشمس إنما العيب في العين، فالعيب في المتلقي وليس في الدليل الذي أمامه أو في البرهان، تعرض له الآية.. الحديث.. الواقعة.. الحادثة.. تشرح المسألة.. فيقول لك: لم أفهم، هذا خطأ. والحقيقة أن الخطأ فيه، هو المعوج، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءُ الزُّلْالَا

فالمرارة التي فيه حوّلها للماء، ثم اتهم الماء أنه مر وهو ليس بمر، يقول أحدهم:

فَقُلْ لِلْعَيْنِ الرُّمْدُ: لِلشَّمْسِ أَعْيُنٌ تَرَاهَا بِحَقٍّ فِي مَغِيبٍ وَمَطْلَعٍ

وَسَامِحٌ عَيُوناً أَطْفَأَ اللَّهُ نَوْرَهَا بِأَهْوَائِهَا لَا تَسْتَفِيقُ وَلَا تَعِي

وبشار بن برد يمدح قومه، فيقول:

إِذَا مَا غَضَبْنَا غَضْبَةً مُضِرَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَقَطَّرَ الدَّمُ

يقول: تصل سيوفنا إلى الشمس، نغطي الشمس بسيوفنا.

حتى يقول زهير مادحاً أبناء هرم بن سنان:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعْدُوا

مَحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسْدُوا

وهذا آخر المدح، يقول: لو كان هناك أناس من البشر بكرمهم ومجدهم يجلسون على الشمس، لأنتم أولى يا أبناء هرم بن سنان، أن تجلسوا على بساط الشمس، وإنما قال الشمس؛ لأنها أرفع ما يكون عند العرب وأبهى ما يكون وأجمل ما يكون.

فعلم في المسألة قول المتنبى:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فإذا وصل الإنسان عنده من الحيرة وتبلد الإحساس والغفلة والغباء أنك تقر له الحقائق المعلومة وتظهر له البراهين والأدلة فيتعamy ويتجاهل وينكر ما هو معلوم من الدين والعقل بالضرورة، فاذا ذكر كفارة المجلس وأنه الكلام معه.

وكعب بن الأشرف لما أنكر نبوة رسول الله ﷺ، سأله أهل مكة: نحن أهدى أم محمد؟ قال: لا، أنتم أهدى. فانتهى الحوار معه في القرآن، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥٢] فهو ملعون؛ لأنه ينكر الحقائق والبراهين. أهل الوثن وأهل الصنم والخرافة والقتل والسفك والسرقة والسلب أهدى من صاحب المحجة البيضاء والدليل والبرهان والهداية الربانية؟ سبحانه الله! أين عقله؟ كيف يكون الحوار بعد هذا؟

هذه هي نهاية الغباء والحمق والعياذ بالله، ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَطِيعُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] فألغى الأدلة كلها معهم وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥٢] فإذا لعن الإنسان، فلا يقبل الحق ولا يستمع لدليل ولا يمكن أن يقرأ البرهان، فينتهي الموضوع معه.

فقصدي بهذا أن المتنبى أحسن بهذا، فالحقيقة أن البيت صار مثلاً رائداً وصار شائعاً، ومن ثم اكتسب المتنبى هذا الشيوع والذيع؛ لذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد بقوله عندما يعارضه خصومه، فيقول:

وَكَيْفَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احتاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

وفي حوار مع الغزالي أتى بمثل هذا، وابن الجوزي وغيره من العلماء، كل يختم مجلسه بقول المتنبى ذاك.

الحوار والمناقشة العلمية تجلية لمسائل غامضة فيها لبس، أما أن تأتي وتقرر للناس مسائل معلومة بالضرورة، فتقول لهم: السماء من فوق والأرض من تحت.. فيقول لك: أعطني دليلاً فقل له: اعذرني.. لا أستطيع أن أواصل معك الحوار.

هذه بعض الاستطرادات عن الشمس التي نتفياً بشعاعها وتغمرنا بنورها وبهائها، والإنسان يقرأ عظمة الباري في هذه الشمس التي هي مثل الأرض أربعين مرة وقيل أكثر من ذلك بكثير، وهذه الدراسة قبل ثلاثين سنة عند علماء الفلك.

فسبحان الذي خلق الشمس، قال سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وعلى ذكر الشمس، استطراداً:

فللشمس أحكام في الشريعة الإسلامية:

ففيما يروى عن النبي ﷺ، وهو حديث يقبل التحسين: «أن النبي ﷺ رأى رجلاً اسمه أبو إسرائيل جالساً في الشمس، قال: من هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يتكلم وأن يجلس في الشمس، قال: مروه فليستظل وليتكلم وليتم صومه».

فالنبي ﷺ أقره على مواصلة الصوم ومنعه من أمرين حادثين ليس لهما أساس، وهما: السكوت دائماً، والبقاء في الشمس.

وكسفت الشمس في عهد النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، ولو كان غيره ﷺ من أهل الدنيا وأهل الجاه وأهل التناول والعلو في الأرض لكان اهتبلها فرصة ووظف الحدث؛ لأن بعض العامة قالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم، يعني اهتز الفلك وتغير الكون، حتى كسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ لمكانته ولما له من فضل، فكسفت من أجله الشمس، لكنه ﷺ جمع الناس، وقال: «إن الشمس والقمر لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما من يشاء».

فانظر إلى التجرد والتواضع والصدق والإخلاص والصراحة منه عليه الصلاة والسلام.

ونهى ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، تلك اللحظة؛ لأن الكفار كانوا يسجدون لها، فنهانا عليه الصلاة والسلام أن نشابههم.

وفي حديث مسلم عن عقبة بن عامر: «إذا أصبحت الشمس في كبد السماء قبل الزوال فإنه قام قائم الظهيرة» فعند ذلك لا تصل حتى تزول قليلاً. هذه أحكام مختصرة من أحكام الشمس.

وأبو تمام رأى أن الشمس أحياناً تحجب بالغيم، فقد أتى إلى المعتصم فتأخر والحاجب لم يدخله؛ لأنه كان هناك حجاب وحراسة في تلك العصور، فقال:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب

يقول: ما نترجى السماء إلا إذا احتجبت بالغيوم فيأتي الغيث، فأنت ما دمت احتجبت علينا فسيأتينا خير منك مثلما أن الشمس تحتجب بالسحاب، فهذا دليل على أن الغيث والمطر سوف ينزل. وهذا طبعاً من مبالغة الشعراء.

وهذا من أجمل أبياته، وهي مشهورة وهي سبعون بيتاً، قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: أعطاه المعتصم على كل بيت ألف دينار. يعني كأنها في زماننا الآن: مليون.

فيقول فيها:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ في حدهِ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ

وعبد الله البردوني شاعر اليمن المعاصر عارضه بقصيدة، لكنه رفع القافية الباء، يقول:

مهلاً- فُديتْ- أبا تمامٍ تسألني كيف احتفتُ بالعدا حيفا أو النقبُ
ماذا فعلنُ أغضبنا الرجالَ ولم نصدقُ وقد صدقَ التنجيمُ والخطبُ
وأطفأتُ شهبَ النيرانِ أنجمنا وشمسنا وتحدتْ نارها الخطبُ
وقاتلتْ دوننا الأبوابُ صامدةً أما الرجالُ فماتوا ثم أو هربوا

إلى أن يقول:

مهلاً ستصغي لنا الدنيا بأكملها إن السماءَ تُرجى حينَ تحتجبُ
فأتى بهذا التوظيف لأبي تمام.

الشاهد: إن الناس يستبشرون إذا احتجبت الشمس واستترت بالغيم، قالوا: هذا بشير خير وبشرى، إن شاء الله سينزل الغيث.

والمتنبى استخدم الشمس كثيراً في ديوانه، أكثر من ثلاثين مرة، يقول عن سيف الدولة:

الشمسُ من حساده والنصرُ من قرنائهِ والسيفُ من أسمائهِ

يقول: إن الشمس تحسد سيف الدولة! وانظر إلى المبالغة التي ليس لها حد ولا أساس، والنصر من أصدقائه وجلسائه، والسيف من أسمائه؛ لأن اسمه سيف الدولة.

أَيْنَ الثَّلَاثَةِ مِنْ ثَلَاثِ فَخَارِهِ مِنْ عِزِّهِ وَجَمَالِهِ وَبَهَائِهِ

يقول: هو أكثر من الشمس بهاءً، ومن النصر بقاءً، ومن النصر مضاءً، وهذه من المبالغات.

الشمسُ مِنْ حَسَادِهِ وَالنَّصْرُ مِنْ قِرْنَائِهِ وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ

أَيْنَ الثَّلَاثَةِ مِنْ ثَلَاثِ فَخَارِهِ مِنْ حُسْنِهِ وَإِبَائِهِ وَمُضَائِهِ

مَضَتْ الدَّهَوْرُ وَمَا أَتَيْنَ بِمِثْلِهِ وَلَقَدْ أَتَى وَعَجَزَنْ عَنْ نَظَرَائِهِ

أما هذه فلا تكون إلا في الرسول ﷺ، أما سيف الدولة فلا، أتى مثله وسبقه ملوك وأتى بعده ملوك ومثله حكام ألوف، وقبله وبعده، أما سيد الخلق ﷺ فإنه النبي الخاتم والمعصوم، وأشرف خلق الله، وأبر من خلق الله، وهو أطهر وأحلم، عصم الله قلبه، وزكى فؤاده، وسدد كلامه، وصحح منهجه، وطهر ضميره، وحفظه وتولاه وأنعم عليه، وجعله هو الخاتم والشفيع المشفع، صاحب الحوض المورود واللواء المعقود والمقام المحمود، فماذا نقول؟ نكتفي أن نقول: صلى الله وسلم عليه، إن أحسن ما تفعله إذا أتيت عند هذا المقام أن تكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ؛ ولذلك يقول ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا: عبد الله ورسوله» ولما مدحه بعض الوفود قال: «أيها الناس، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم» فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

فالذي أعظم من سيف الدولة هو محمد سيد الخلق ﷺ، إذا ذكر محمد ﷺ فلينصت الدهر وليتوقف التاريخ ليكتب وليتواضع الزعماء وليخشع العلماء وليسكت الأدباء وليخرس المتكلم؛ حتى تنتهي عن وصفه عليه الصلاة والسلام، فهو ﷺ ليس بحاجة لوصفنا، فهو عبد الله ورسوله، رفعه سبحانه وتعالى، والله أثنى عليه قبل أن

يثني عليه المثنون، حتى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] بالله ماذا يجدي مدح شاعر الآن أو كاتب في رسول الله ﷺ، والواحد الأحد فوق العرش سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] عظيم خلقك، عظيم صبرك، عظيم تواضعك، عظيم كرمك، الله يزيكه ويقول له: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ اللَّعْلَبُ لَا تَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويقول له: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يقول: سوف يبعثك يوم القيامة مقاماً محموداً وهو موقف الشفاعة التي يغبطه الأولون والآخرون عليها - بأبي هو وأمي ﷺ - حتى تأتي كل الأنبياء يعتذرون من الشفاعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كل يقول: نفسي نفسي، فيأتي الخلائق كلهم: أمة نوح وأمة إبراهيم، وأمة موسى، أمة كل نبي وأمة عيسى عليهم السلام، فيقولون: «يا رسول الله، اشفع لنا، اشفع لنا عند ربك يقضي بيننا هذا اليوم، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما أصابنا؟ قال: أنا لها أنا لها، فيأتي ﷺ ويسجد تحت العرش ويفتح الله عليه من الثناء والمحامد، فيقول له ربه: ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع».

هو نبي معصوم عليه الصلاة والسلام، وضع به المحجة وقام الدليل ودخل دينه في كل مكان وسمعت منه العجوز، مثلما سمع منه الملك، مثلما سمع منه الأمير، مثلما سمع منه العالم، كما قال أبو الطيب:

خذْ مَا رَأَيْتَ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يَغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ

جاءتك الشريعة الإسلامية المحمدية الخالدة، وتبحث عن آراء سقراط وبقرات والينيوس الذين ما اهتموا أصلاً، ضلال في ضلال، هم في التخمين والشك وأتانا نور ساطع على يدي رسول الله ﷺ.

فالمتمني شاعر بلا شك لكننا لاحظنا عليه كغيرنا ملاحظات؛ لأنه بشر يتكلم ببشريته وليس بنبي معصوم، ولو أننا نعترف بقدرته وبعبقريته وبلموعه

ولذلك سميناه الأسطورة، فأنت تجريه كما أردت؛ لأنك تأخذ منه الحكمة والمديح والهجاء، ولكنني أوصي من يطالع ديوان هذا الرجل أن يحاكمه إلى الشريعة، وأن يأخذ منه ما وافق الكتاب والسنة، وأيضاً يستفيد من إبداعاته وفصاحاته في أسلوبه في كتابته، وقصدي هذا القارئ إذا كتب إذا خطب، إذا وعظ، إذا حاور، فإن له فرائد من الأبيات سارت بها الركبان وشهد له العلماء وأقر له النقاد، حتى كان عند الكثير منهم الشاعر الأول في مجموع الشعراء، لا أعلم شاعراً في الإسلام ولا في الجاهلية سار شعره في الناس وسارت حكمه على المنابر وفي بطون الدفاتر وحمله أصحاب المحابر مثل هذا الرجل.

وتعجبني كلمة لابن حزم الظاهري أبي محمد علي بن أحمد من أهل الأندلس، المجدد في علم الحديث والأثر، وهو عبقرى بلا شك لولا بعض الأخطاء التي لا يسلم منها البشر، وهو صاحب المحلى، وهو أديب موسوعي نظار.. محدث.. يقول:

وَأَنِّي لَشَمْسٌ فِي السَّمَاءِ مُضِيَّةٌ وَلَكِنْ عَيْبِي أَنَّ مَطْلِعِي الْغَرْبُ

فهو من الأندلس نشأ هناك، يقول: أنا لست من المشرق، وإنما جئت خلاف ما تأتي عليه الشمس، فالشمس تأتي من المشرق، وأنا جئت من المغرب.

والعظماء والعباقرة دائماً يجدون أحياناً قهراً اجتماعياً وعدم اعتراف من الآخرين، فيجعل الواحد منهم يعبر عن نفسه بنفسه، وبعضهم ينتظر أحداً يمدحه، فإذا لم يجد أحداً يمدحه استعان بالله سبحانه ومدح نفسه.

ويقول أحدهم في ممدوحه:

إِذَا حَلَّ الشِّتَاءُ فَأَنْتَ شَمْسٌ وَإِنْ حَلَّ الْمَصِيفُ فَأَنْتَ ظِلٌّ

وَلَا يُدْرَى مِنَ التَّجْوِيدِ يَوْمًا أَكْثَرُ فِي عَطَائِكَ أَمْ يَقِلُّ

يقول: أنت لا تدري عن عطائك، هل تهب كثيراً أو لا من كثرة السماحة وكثرة العطاء، فأنت عندنا مثل الشمس في الشتاء. فالشمس في الشتاء من أحسن ما يكون.

وقد قرأت لأحد السجناء الذين سجنوا ما يقارب خمسة عشر عاماً، وهو من المفكرين المعاصرين الكبار، يقول: كنا في الحبس لا نرى الشمس، فكان في الباب ثقب في جهة المشرق، فينسل منه كالدرهم علينا، فكنا نتناوب نحن السجناء سريعاً قبل أن ترتفع الشمس فيختفي هذا الضوء من ثقب الباب، حتى نجعله على أجسامنا، علنا ندفعاً لا يجدون الشمس إلا في هذه المدة، الدقائق البسيطة، تنعش أجسامهم، ثم يقول: وأنتم أيها الأحياء، الذين خارج السجن، أنتم تسبحون في نهر الشمس وفي ضوء الشمس وفي شعاع الشمس وذهب الشمس.. ألا تشكرون رب الشمس سبحانه وتعالى، سبحانه الذي أعطانا الضياء والهواء والماء والغذاء والدواء وسخر لنا جميع الأشياء، وأعطانا من كل ما سألناه تعالى رب الأرض والسماء. وهذا من نعم الشمس التي نراها!

وحدثنا مفتي ألبانيا يقول: سجنه الشيوعيون في يوغسلافيا، وكان الرئيس هذا اسمه تيتو، سجنه عشرين سنة تحت الأرض، يقول: لم أر الشمس عشرين سنة، مع الأعمال الشاقة، حتى إن أظفاره كانت محدبة من كثرة ما كان يعمل في الأعمال الشاقة، قال: كنت إذا أردت أن أصلي فإنني أختفي عن الجنود الشيوعيين، وأدخل في طرف غرفة، قريباً من دورة المياه، فأصلي الصلاة سريعاً؛ لأنه كان صاحب عقيدة وصاحب إيمان، ثم أخرجه سبحانه وتعالى.

فانظر لهذه المشاهد التي نراها الآن ولا نتفكر، وسبحان الله فكثير من الناس لا يتفكر، وإلا فإن الشمس آية عظيمة على قدرة الباري جل في علاه لا إله إلا هو، يقول سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] ففي حساب الواحد الأحد أنه لا يمكن يوماً من الأيام أن تصطدم الشمس بالقمر، لا يمكن هذا، كما قال القائل:

فَلا تَلْهَكِ الدُّنْيَا بِلْهَوِ فَإِنَّهُ يَعَاقُ مَسِيرُ الشَّمْسِ بِالْدُّوَرَانِ

يقول: أحياناً يأتي نجم كبير فيعوق الشمس فيأتي الكسوف، عند بعضهم، وبعضهم يقول: إن الأرض تحل بين الشمس والقمر، فقلت في هذا أبياتاً:

لا تلهك الدنيا بل هو فإنه يعاق مسير الشمس بالدوران
فقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهد وخرب فأر ما بنى اليمان

لأن صاحب اليمان لما بنى سد مأرب خربه الفأر، والهدهد دل على مملكة بلقيس، وهذا من تفاهة الدنيا، والبعوضة قتلت النمرود بن كنعان، والذباب تحدى الله به العالم، والحمار جعله الله وصفاً لأعدائه، والكلب جعله وصفاً للعالم السوء.

فهذا يبين لك ببساطة كيف يهدم الله سبحانه مجد الظلمة والطغاة بأشياء بسيطة من الحيوانات والزواحف والحشرات، حتى تحداهم سبحانه وتعالى بالذباب، وجعل العنكبوت مثلاً لقوتهم وقدرتهم، فسبحان القادر، لا إله إلا هو!

يقول: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيُلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

فكل بحسبان، وكل بأجل مسمى، وكل بمنازل معلومة محسوبة محدودة معدودة، حتى إن أينشتاين المشهور صاحب النظرية النسبية يقول: إن من ينظر إلى الكون فينظر إلى إبداعه وينظر إلى تناسقه وجماله يعلم أن مبدعه حكيم سبحانه لا يلعب بالنرد.

والنرد هي اللعبة المعروفة، تتفق أو لا تتفق، لا كل شيء بحسبان، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] فالعزيز العليم بعزته سبحانه حكم، ولعلمه قضي باتقان وإحسان وإبداع في الكون، فغزة بلا علم فيها هوج وطيش في غير صفات الله، وعلم بلا عزة ضعف، ولا تكون العزة والعلم إلا لله سبحانه وتعالى.

يذكرون أن الشمس اشتد ضياؤها مرة في عهد النبي ﷺ واشتدت الحرارة على الناس وأصابهم قحط بسبب شدة الشمس، فلا سحاب ولا غيم في السماء، ولا موسم لنزول الغيث؛ لأنه في شدة القيظ والصيف، فرسول الله ﷺ كان يخطب الناس في خطبة الجمعة، فدخل أعرابي من باب المسجد، فصاح بأعلى صوته.. والرسول ﷺ يتكلم عن الإيمان ويرسخ العقيدة في قلوب الناس، لم يتكلم عن الغيث عليه الصلاة والسلام أو القحط، فتأدى بأعلى صوته: «يا رسول الله، - وقيل لجفائه قال: يا محمد، - جاع العيال، وضاع المال، وتقطعت السبل، فادعُ الله أن يغيثنا، ففضى ﷺ كلامه، ثم قال: اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا» بيديه الطيبتين المباركتين، فما هي إلا لحظات حتى فار كالترس من جبل سلع المعروف، فغطى المدينة وغشاها وأبرقت وأزبدت وهلت غيثاً، فنزل الماء في لحظة وصب الماء من على وجه النبي ﷺ الشريف، وكان يقول: «أشهد أني رسول الله».

فنشهد أنه ﷺ رسوله ونبيه المصطفى وخليفه، إنما قلت هذا على سبيل ذكر الشمس.



المتنبى في المبراة

محاكمة المتنبى تعني النظر إلى معانيه،
فسوف نضعه أمام العدالة، لكننا لن نظلمه ولن
نبخسه حقه، فقد اعترفنا له كمعظم النقاد
بأنه مبدع، اعترفنا بأنه عبقرى، اعترفنا بأنه
إمبراطور الشعراء، أنه قائدهم، أنه متفوق عليهم
بلا شك، وجئنا بمحاسن شعره وبحكمه، ولكن
وجب علينا أن نقف معه وقفة؛ لأنه تجاوز الحد
في بعض الأبيات وطفى به فرسه وجمع به، وزل
به قدمه، فخشية أن يفتر الجيل ببعض الأبيات
في ديوانه أردت أن أعقد مناظرة ومحاكمة له

بإنصاف وبعدل فلا ن ظلمه؛ لأنه ليس عالم شريعة حتى يعرف الخطوط المرسومة والخطوط الحمراء، وليس هو طالب علم وإنما أراد الشهرة وأراد الدنيا وعنده ملكة في الشعر، وعنده قوة وعنده فصاحة وبلاغة، فتجاوز في كثير من الآيات ولذلك نبه عليها الأدباء، حتى بعض النقاد الكبار من غير علماء الشريعة، نبهوا على تجاوزاته هذه، ومن ضمنها قوله في بعض الآيات:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

وهذا عند الكثير أنه يقصد التوحيد الذي هو الدين والشريعة، توحيد الله سبحانه وتعالى الذي بعث الله به أنبياء ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقال بعضهم: إنه لا يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، بل يقصد نوعاً من التمر في العراق اسمه التوحيد، وقيل العنب من أسمائه وهذا بعيد، وقيل المسكر، وبعضهم حمّله على محامل أخرى، لكن الظاهر المتبادر للذهن أنه يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، سبحانه الله! هذه الرشفات التي في فمه أحلى من التوحيد الذي بعث الله به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو حق الله على العبيد، ولذلك - حتى ولو كان يقصد تمرّاً مثلاً أو يقصد خمراً أو يقصد عنباً - لا يجوز الإيهام على الناس في مثل هذه الألفاظ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فلما كان اللفظ موهماً، (راعنا) مثل انظرنا، أي: انتظرنا وراعنا أي: اصبر علينا، لكن اليهود لما استخدموه استخداماً آخر، فقالوا: راعناً، يعني: من الرعونة والحمق، أمر الله عباده المؤمنين ألا يأتوا بهذا اللفظ؛ لأنه ملتبس، فإذا كان اللفظ فيه شبهة، فلماذا تقف عنده؟ لماذا تحير الناس؟

القارئ البسيط والمبتدئ يفهم أنك تقصد التوحيد الذي هو أعظم الرسالات المنجية من غضب الله وهو الذي يدخل العبد في جنات النعيم، وهو دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الذي تقوم به الشرائع، وهو حق سبحانه وتعالى على الخليقة، فهذا مما أخذ عليه، ونقول: إن كان يقصد هذا، فلماذا ما اختار اللفظ؟ المتنبّي مقتدر على صنع الحرف وعلى إبدال الجمل فلماذا يقف عند هذه؟

ثم انظر إلى قصيدة أخرى يقول:

أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ

يقول: أنا أمشي دائماً من بلدة إلى بلدة ومن موطن إلى موطن، لكن العجيب أن نجمي في نحوس، فكأنه يأخذ بتأثير النجوم، «ومن تعلم شعبة من النجوم تعلم شعبة من الشرك زاد ما زاد» كما ورد عن سيد الخلق ﷺ، فالذي يؤمن بأن النجوم مؤثرة فهو مخطئ ضال منحرف عن منهج الله عز وجل وهي شعبة من الشرك لمن يتعلمها ويرى تأثيرها في الناس، حتى إن أبا تمام - ولو أن المنتبى أشعر منه في الجملة - أقرب إلى الدين والهداية منه؛ فهو يقول:

أَيْنَ الرِّوَايَةِ أَمْ أَيْنَ الدِّرَايَةِ كَمْ صَاغُوهُ مِنْ زَخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
بِهَارِجٍ وَأَحَادِيثُ مَنْمَقَةٍ لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرْبِ

يقول: المنجمون قالوا للمعتصم: لا تغز، فخالفتهم أنت وغزوت، قال: هذا كله تدليس وكله كذب، لكن انظر لهذا يقول: (أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ) يعني: مشؤوم منحوس، لا يتفق له شيء، فلا يوفق ولا ينجح. قال: (وَهَمَّتِي فِي سُعُودٍ) فهو سعد، يمدح همته يقول: أنا ما قصرت من جانبي، لكن حظي أن نجمي هكذا؛ لأن بعض الجهلة والضلال يرون النجوم تؤثر في الناس، ثم العجيب أنه متناقض في قصيدة ثانية يرد على أهل النجوم، ويقول:

فَتَباً لِدِينِ عِبِيدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَعْقِلُ

يقول: كذبهم الله وخيب سعيهم، الآن يناقض نفسه في قصيدة ثانية. يقول: هي لا تعقل ولا تدري، كما يقول أبو تمام:

يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ مَا دَارَ فِي فَلَكَ مِنْهَا وَفِي قَطْبِ
لَوْ بَيَّنْتُ قَطْ أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعِهِ لَمْ تَخَفِ مَا حَلَّ بِالْأَصْنَامِ وَالنَّصَبِ

يقول: لو أنها تبين لعلمت الروم أن المعتصم سوف يغزوهم ويدوسهم بالخيـل، فإنه يقول: يقضون عنها وهي غائبة. النجوم زينة للسماء ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوم للشياطين، ثلاث فوائد، أما من يعلق عليها غير ذلك فقد أخطأ وافترى على الله وكذب وأساء، فهنا رجع يقول:

(فتباً لدين عبيد النجوم) الذين يظنون أنها تؤثر، يقول: خيب الله سعيهم، سحراً لهم، هي لا تؤثر أبداً وهو في البيت الأول يقول: إنها تؤثر، (ونجمي في نحوس)، ثم يقول: ومن ادعى أنها تعقل فقد ضل؛ فهذه مخلوقات من مخلوقات الله عز وجل، لا تؤثر في الحمل، لا تؤثر في الحظوظ، لا تؤثر في الأرزاق ولا في الإنجاب ولا في شيء، هي مخلوقة كالجبال والشجر، يقول في بيت آخر من قصيدة أخرى- وانظر الطفيان والجموح، والإنسان إذا ما لم يكن عنده رابط من وعي ومن عقل ومن إيمان ومن شريعة، فإنه يتجاوز الحد- يقول:

فاطلب العز في لظى وذر الذل لَوَ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

يقول: اطلب العز في الدنيا ولو كان في جهنم، همه فقط الرئاسة الدنيوية، الشهرة، الظهور، الصدارة في الناس، لا والله بل يُطلب رضا الله وطاعته سبحانه وتعالى ولو كان الإنسان خادماً، ولو كان ينام على الرصيف، ولو كان يحمل الحطب على ظهره، أهم شيء أن يرضي الله؛ لينال جنات النعيم. فما يوصلك إلى الجنة إلا كل عمل طيب، وليس الذل هذا؛ لأن العمل الصالح الذي يوصلك إلى الجنة كله خير ورفعة، ومهما يقيم به الإنسان؛ بأي خدمة شريفة فإنه في عز، لكن هو انعكست عنده الأمور، يريد الشهرة الظاهرية وشرف الدنيا، وجاه الدنيا، فنسي تلك المنازل، فلذلك عاد يتجاوز ويجمع به جواده حتى لامه السقاف صاحب العود الهندي في شرح مجالس الكندي، الكندي: يقصد أبا الطيب المتنبّي؛ لأنه من كندة هو، اسمه: أحمد بن حسين الكندي، فشرح له بكتاب العود الهندي الذي هو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، وهذا عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف



المتنبى في الميزان

من حضرموت توفي قبل خمسين سنة، كتابه في ثلاث مجلدات، فلامه وبكت المتنبى في هذا، يقول: كيف تطلب العز في جهنم، بل العز يكون في طاعة الله الموصلة إلى رضوانه وجناته، فهذا خطأ فيه، ونرده ونقول للجيل: انتبهوا لأبيات عند المتنبى ما يقارب مئة بيت قموا عندها ولا تغتروا بها، يكفي أنه أبدع في مئات الأبيات، لكن هذه نحذر عندها.

يقول في القصيدة نفسها:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

يقول: إن الأمة تداركها الله بالمتنبى.

وهذا خطأ، فإن الذي أنقذنا الله به هو محمد عليه الصلاة والسلام، وهو النبي المعصوم المؤيد بجبريل عليه الصلاة والسلام، أما المتنبى فشاعر من الشعراء ويجهل كثيراً من قضايا الدين، بل لو تسأله عن سجود السهو، هل هو قبل السلام أم بعده، ربما لا يعرف ذلك، وما يحفظ كثيراً من القرآن، الرجل مهموم بالشهرة وعنده إبداع في القافية وعنده تلاعب بالألفاظ وعنده قوة في الفصاحة والبلاغة، لا ننكر ذلك فهو سيد الشعراء، أما في الشرع فلا، ثم ما هو مردود المتنبى على الأمة؟ فلو لم يكن المتنبى موجوداً، فماذا سيضير الأمة؟، حتى إن ابن تيمية يقول: لو ما خلق الله البخاري ومسلم لم ينقص من الدين شيء، دين الله تام، ودين الله كامل، بل نزل على الرسول ﷺ في عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] قبل الأئمة الأربعة وقبل أن يأتي البخاري ومسلم، فضلاً عن المتنبى الذي هو شاعر لم يشتغل بعلوم الشريعة، ولم يحفظ القرآن، ولم يقرأ الحديث، فكيف يكون غريباً كصالح في ثمود؟ يقصد النبي صالحاً عليه السلام في قومه ثمود، وهذا غاية البطلان والخسران والخذلان، فقد رفع الله قدر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وأتى يمدح رجلاً آخر، وانظر الآن إلى الطغيان والجموح، يريد الجائزة، يخلع قلب الممدوح هذا؛ لكي يعطيه أي شيء من الذهب، اسم الممدوح محمد قال:
لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ
 أي: وظني أنه لن يخلق مرة ثانية.

تعالى الله سبحانه وتعالى. أولاً: قد خلق الله من هو خير من هذا الرجل وهو سيد الخلق ﷺ محمد، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدون، والصديقون، والشهداء والأولياء والعباد الزهاد، أما قد خاب ظنك وأخطأ حدسك، بل الله سبحانه وتعالى له الحكمة المطلقة، وله المشيئة وهو على كل شيء قدير، وأنت لا تعرف الناس، وأنت أجهل من أن تتحكم في القدرة، وتقوم آلاف السنوات التي مرت ومليارات البشر الذين فيهم البر والراشد وفيهم الصالح والطالح، فالواجب أن يؤدب على مثل هذا المدح.

ويمدح رجلاً آخر، فقال:

أَلَا كُلُّ سَمَحٍ غَيْرِكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضِيعٌ

بل مدح الله عز وجل ليس مضيعاً وهو الأعظم، وعند مسلم في الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله» ولذلك مدح نفسه سبحانه وتعالى، وعند الإمام أحمد عن الأسود بن سريع في المسند: «أما إن ربك يحب المدح».

والذي يستحق المدح أيضاً بعد الله عز وجل أنبياء الله ورسله والأخيار، لكنه الجموح وطغيان اللفظ وعدم مراقبة الله عز وجل فيما يقول.

ويقول في بيتين له ثانيين:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُّهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَاذِرُهُ
لَا يَكْسِرُ النَّاسُ عِظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهْيِضُونَ عِظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وهذا هو غاية الخذلان، يقول لبشر: إني ألوذ بك فيما أؤمله، ولا يلاذ إلا بالله، ولا يسأل إلا الله، ولا يعاد في الملمات إلا للواحد الأحد؛ لقوله ﷺ عند الترمذي وأحمد: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». فهذا مما تجاوز فيه، يقول ابن تيمية لما سمع البيتين هذين: إني أدعو بمضمونهما في سجودي لله رب العالمين، يعني: بمعناهما، فكيف هذه التي لا تصلح إلا للواحد الأحد؟ كيف يأتي هذا البشر فيصرفها لبشر مثله لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهو يمدح ممدوحاً آخر ويتجاوز أيضاً ويستمر في الطغيان اللفظي وفي الجنوح المعنوي يقول:

يَا مَنْ نَلُوذُ مِنَ الزَّمَانِ بِظُلْمِهِ أَبْدًا وَنَطْرُدُ بِاسْمِهِ إِبْلِيسَا

يقول: إذا داهمنا الخطر، ووقعت بنا ملمات من الدهر - على مذهب الدهريين - لذنا بك، يقصد ممدوحاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، مخلوق ضعيف بشر، لكن انظر إلى المجاملة الزائدة والإفراط في المدح إلى درجة المحرم، تجاوز الحد في الشرع؛ فلا يلاذ إلا بظل الواحد الأحد، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، ولا يكشف البلوى إلا هو جل في علاه.

ولا يطرد إبليس إلا باسم الله، وأعوذ بالله، وبالأذكار الشرعية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أما اسم البشر فلا يطرد به إبليس. وهؤلاء أصلاً

قاصرون، هؤلاء بشر يهجم عليهم الشيطان ويأتيهم الغضب والضعف ونحو ذلك، فالعجيب أنه بالغ لقلّة الورع عند الرجل وقلّة الإيمان والتقوى وعدم مراقبة الواحد الأحد، وهو غريب من هذا الأسطورة في بيانه وإبداعه وحكمه وعبقريته وفصاحته ونبوغه، والهدف التنبيه على الأشياء التي وجدت فيه، كبشر كشاعر كإنسان يخطئ، فمنها هذا البيت.

ويقول في القصيدة نفسها في آخرها:

أو كان صادقاً رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

يقول: إن من شجاعتك لو أنك أيها الشجاع، قتلت عزرائيل الذي هو ملك الموت بسيفك، وجاء عيسى عليه السلام الذي يحيي به سبحانه وتعالى الموتى بإذنه لما استطاع أن يرد رأس هذا ويحييه لقوة ضربة السيف.

أعوذ بالله، أعوذ بالله من المبالغة، ولا أدري كيف يرضى هذا الممدوح بهذا الكلام الذي لا يوافق عقلاً ولا نقلاً، بل يخالف شرائع الله سبحانه وتعالى، إنسان بشر بسيفه يقتل ملك الموت، ملك الموت الذي يدخل على الملوك ويدخل على الأقوياء، ويدخل على الجيوش، ويدخل على الدول، وهذا يا هو الهجاء، إذ كيف يصدق الممدوح هذا، ويسكت على العبارة. والله أعلم إن كان قالها أو دسّت في أشعاره.

ويقول في قصيدة أخرى يرثي:

وكأنما عيسى ابن مريم ذكره وكأن عازر شخصه المقبور

أنبياء الله أجل وأعظم، وملائكته سبحانه وتعالى كذلك، فانظر إليه في المبالغة، يقول: إنك مثل عيسى ابن مريم، وذكرك مثل ذكر عيسى، أعوذ بالله، بل أنبياء الله أعظم وأرفع، الله شرفهم وعصمهم سبحانه وأيدهم بالنبوة، ونزههم من العيوب ومن الأخطاء وطهر قلوبهم وزكّى ضمائرهم سبحانه وتعالى ووفّقهم

وألهمهم وسددهم وأرشدهم، فتأتي إلى بشر مقبور مرتهن بعمله، ضعيف عن المدافعة عن نفسه، مقيد بحسناته وسيئاته وتصفه بهم؟ وعازر: يقصد عزرائيل، يقول: كأن ملك الموت مات في هذا القبر، وهذا كله جموح، حتى الجماليات لا توجد في القصيدة، خلاف قصائده التي كان فيها اعتدال وكان فيها نبوغ وكان فيها حكمة، التي سارت في الناس، ولذلك تجد هذه الأبيات في ديوانه مية ما سارت في الناس، وما جعل الله لها الانتشار مثل أبياته القوية التي يقول فيها:

مَنْ يَهْنُ يسهلِ الهوانُ عليه	ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ
لعلَّ عتبك محمودٌ عواقبه	فربَّما صحتِ الأجسامُ بالعللِ
على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ	وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
ومنْ نكدِ الدنيا على الحرِّ أنْ يرى	عدواً له ما منْ صداقته بُدُ
أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيا سرجُ سابحٍ	وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ
لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ	فليسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ
وإذا أتتْكَ مذمتي منْ ناقصٍ	فهِيَ الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ
إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونه	وصدقَ ما يعتاده منْ توهمِ

ونحو هذا اللموع، لكنه أساء بهذه الأبيات التي ما نقلت ولا حفظت وليته ما قالها، ونعوذ بالله من هذا الخذلان الذي وقع فيه في هذه الأبيات، يقول:

ملكٌ تصوّرَ كيفَ شاءَ كأنما يجري بفصلِ قضائه المقدورُ

يقول: إن هذا الملك قد تصور كما شاء، يعني: هو صور نفسه في بطن أمه، جنين يصور نفسه، إنسان لا يدري متى يموت ولا يدري عن رزقه ولا أجله أشقي هو أم سعيد؟

يقول: كأن المقادير تجري على قلم هذا الملك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والله على كل شيء قدير، بل الذي قدر الله وحده سبحانه، وسبق علمه المقادير والكتابة والتقدير، والقضاء، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، كل شيء في كتاب مسطر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، هذا قضاؤه سبحانه وتعالى، لكن هذا من تجاوزه وجموحه.

ويقول في قصيدة أخرى:

فما ترزقُ الأقدارُ مَنْ أَنْتَ حارِمٌ ولا تحرمُ الأقدارُ مَنْ أَنْتَ رازِقٌ

هذا الكذب، يقول: إنك إذا حرمت إنساناً ومنعته فإن الله لا يرزقه، يعني: كأن الرزق منك. إذاً من رزق الخليقة منذ خلق السموات والأرض؟ وهذا البشر جاء من ضمن المليارات من البشر عمره خمسون أو ستون سنة مثل ذرات الرمل في العالم، وهم مليارات البشر، هذا الذي يرزق العالم. يقول: وإذا رزقت إنساناً فإنه لا يُحرم أبداً، وهذا هو الخطأ والتجاوز؛ فالذي يرزق الخليقة هو الله وحده سبحانه، وهو يقول سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وفي جامع العلوم والحكم: (يقول الله لموسى: يا موسى، يقول بنو إسرائيل: إني فقير) سبحانه، (وكل الخليقة منذ خلقت السموات والأرض أرزقهم ولم يفيض مما في يميني...) أو كما ورد في الحديث، فدل على أن الرزق من عند الله عز وجل، لا إنسان يمنعه ولا يقدمه ولا يمكن أن يملك الإنسان حرمان الناس، فإن كتب الله لك رزقاً لتأخذه على أنوف العالمين أجمعين، وإن حرملك من رزق قلن تناله أبداً وإن اجتمع الناس أجمعون، وإنما أتيت بهذا لأنبه على هذا الطغيان وهذا التجاوز غير المشروع.

ويقول: مادحاً قوماً:

وَلَوْ يَمَّمْتَهُمْ فِي الْحَشْرِ تَجِدُوْا لَأَعْطُوكَ الَّذِي صَلُّوا وَصَامُوا

يقول: من كرمهم فإنك لو أتيت يوم القيامة وتقول: أعطونا حسنات، قالوا: خذ أجر صلاتنا وصيامنا، وهذا كذب، فإن الإنسان يتنكر حتى لأمه التي أرضعته وربته وحملته واحتضنته يقول: نفسي نفسي، والأب يقول لابنه الذي هو أعز شيء عنده: نفسي نفسي، يطلبه حسنة.

فهذا هو الكذب وهذا هو العدوان؛ لأن المتنبى لا ينطلق من ثقافة شرعية، ولا علم بالكتاب والسنة، فتجاوز الحد، فأنبه على ذلك؛ حتى لا يؤخذ كل نتاج المتنبى، وتنتشر في الخطب والمساجد، وإلا فإن العلماء أكثر شعر يستشهدون به شعر المتنبى حتى ابن تيمية، الغزالي صاحب الإحياء، ابن حزم الظاهري، الشوكاني، الصنعاني، ابن الوزير، علماء الإسلام الكبار والصغار كلهم يستشهدون بهذا، ابن القيم، ابن الجوزي، كلُّ يأخذ وينهل من هذا العبقرى الشاعر العجيب، ولكن لا يقولنَّ إنسان: أصبح كلام المتنبى مسلماً، بعد هذه السقطات الموحشة التي تجرح في المعتقد والتي لا يوافقها عقل.

ويقول في بيت آخر:

فَلَقَدْ دُهِشْتُ لِمَا فَعَلْتَهُ دُونَهُ مَا يَدْهَشُ الْمَلِكُ الْحَفِيزُ الْكَاتِبُ

يقول: إنني لما رأيت كرمك أصابتنى الدهشة واعتراني الذهول، فلو كنت تفعل أقل من هذا الفعل في الكرم لدهش به الملك الحفيظ الكاتب الذي يكتب الحسنات والسيئات. سبحان الله! الملك موكل بالحسنات والسيئات لا يدهش، أعطاه الله القدرة فيحصى أعمال الناس، ويكتب الحسنات والسيئات ولا يصيبه خوف ولا وجل ولا حيرة ولا ذهول ولا اندهاش، إنما يندهش مثل المتنبى وأمثاله من البشر الضعاف المحاويج المهازيل، أما ملك يخلقه سبحانه للحسنات والسيئات، وملك يخلقه للقطر ليكيل القطر، وملك يخلقه للوحي مثل جبريل عليهم السلام أجمعين، فإن الله يعطيهم من القدرة ويعطيهم من الثبات، ومن القوة ما لا يعطيه لغيرهم.

يقول سبحانه في جبريل: ﴿ذُومِرَ فَاَسْتَوَى﴾ [النجم: ٦] شدة، فتوافق، توافق الأوصاف- حسب بعض التفاسير- الجسدية، فلا تباين في الأعضاء، ونقل في الصحيح أن جبريل رآه ﷺ بصورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح، كل جناح سد ما بين المشرق إلى المغرب، فأغمي على رسولنا عليه الصلاة والسلام.

وهذا تجوُّز غير مقبول ومرفوض ومردود على شاعرنا، ونعوذ بالله من ذلك. ويقول في بيت آخر:

نَفَذَ الْقَضَاءُ بِمَا أَرَدْتَ كَأَنَّهُ لَكَ كُلَّمَا أَرْمَعْتَ شَيْئاً أَرْمَعَا

يقول: القضاء نفذ بما أردت أنت، فأنت إذا نويت شيئاً جاءك القضاء مثلما نويت، وهذا كذب وبهتان وخذلان، الإنسان أحياناً يريد أن يكسب شيئاً فلا يكسب، فيقول للممدوح: القضاء طوع أمرك وأبشر.

من هو؟ أهو نبي مرسل يتكلم عن علم الغيب؟ فهذا خطأ وكذب وخذلان وتجاوز فتنبه عليه.

ويمدح آخر، فيقول:

مَنْ يَزُرُّهُ يَزُرُّ سُلَيْمَانَ فِي الْمَدِّ لَكَ جَلالاً وَيُوسُفُفَا فِي الْجَمَالِ

يقول: زارك أيها الملك، في الملك فكأنك سليمان بن داود عليه السلام الذي ملك الدنيا والذي يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، والذي أجرى الله له الريح، وسخر له الجن والإنس، والذي أعطاه سبحانه وتعالى من العطاء ومن الكنوز ما الله به عليم.

(ويوسفُ في الجمال) يوسف الذي أعطاه الله شطر الحسن. فانظر إلى هذا التطاول وهذه المبالغة، يقول: أنت كأنك سليمان بن داود في قوتك وملكك، علماً

المنتبج في الميزان



بأن أحداً لا يعرف هذا الممدوح، ويقول: (يوسفُ في الجمالِ) وتجد أنك إذا رأيت هذا الممدوح لا تأكل التمر ثلاثة أيام، انظر فقط هكذا خذلان وتجاوز وطغيان.
وإنما المقصود ألا يغتر الناس بشعر هذا العبقري؛ إذ إنه لا يخلو من سقطات وقلبات وجدت في ديوانه وإن كان قالها فقد علمها الله، كما يعلم من دسّها في ديوانه إن كانت كذلك.



الحكم والدار

عقدت في كتاب المقامات مقامة للمتنبّي
تستطيع أن تقول: إنها مقابلة معه، هو يجيب
بالشعر ونحن نسأله بالنثر وهذه المقامة بينت
لنا شخصيته وأظهرت لنا طموحه، نسأله نثراً
فيجيبنا شعراً.

السؤال الأول: من أنت؟ هي البطاقة
الشخصية، نسأله عن نفسه، وإنما ركزت على
المتنبّي؛ لأنه صار له وقع في الأدب العربي وصار
هوقائد زمام الشعر والحكمة، وكثير من الشراح
قدموه أو من النقاد من يجعله إمام هذا الفن؛ فن

الشعر وفن الحكمة، وسموه تسميات: كملك الشعراء، إمبراطور الشعراء، ووقع له من الحظ والشيوع، حتى إنه ما شرح ديوان مثلما شرح ديوانه، قلت: من أنت؟ قال -يجيبنا بشعره-:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي مَنْ بهِ صممُ

قلت: أما ترى السفهاء ينالون العظماء؟ قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأنِّي كاملُ

تستطيع أن تقول نثراً كثيراً بدلاً من هذا البيت، لكنه لن يحفظ ولا ينقل، ولا يستشهد به، تستطيع أن تقول في محاضرة: يا إخوة، إذا رأيتم الناس السفهاء ورأيتم التافهين ينالون الكرماء والعظماء والأخيار والعلماء فهذه شهادة صدق لهؤلاء العلماء أنهم على حق وعلى خير: لأن الذين نالوهم هم أهل سوء، وأهل سفه وأهل طيش، ثم تبدأ في هذه المعاني، وهو يختصر لك هذا كله ببيت.

فلذلك إذا رأيت أهل الانحراف ينالون أحداً، فاعرف أنه من أهل الاستقامة، وإذا رأيت أهل الاستقامة يجمعون على انحراف شخص فاعرف أنه هو من أهل الانحراف... وهكذا.

قلت: أراك تعبت في طلب المجد! قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

ليس الكبر الحسي، إنما كبر المعنوي، يعني: النفس كبيرة، النفس لها طموح، لها همة، فلا يرضيها القليل مثلما يقول هو:

إذا غامرت في شرف مرومٍ فلا تقنّع بما دون النجوم

اجعلها حرب نجوم، الحياة غلاب، مثلما يقول أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتَّمَنِّي ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فلن يهدي لك المجد أحد على طبق من ذهب، ولا يمكن لأحد أن يعطيك النجاح ويرسله لك رسالة هدية، النجاح عرق وجهد وسهر وتعب، سواء في العلم أو في الدنيا، أو في المال، أو في أي حرفة أو مهنة أو فن أو عمل، فهذا هو، يقول: وسبحان الله ترى منازل الناس في الجنة على حسب همهم في الدنيا، بعضهم لا يرضى بالقليل، أنا رأيت من بعض الناس لا يرضى بحفظ ثلثي القرآن أو نصف القرآن، بل لا بد من أن يحفظه كله، وإذا حفظه قرأ القراءات السبع، وتجده في الحديث لا يكتفي بالأربعين النووية، فنفسه كبيرة، حتى تجد عنده أحيانا من الضمور والهزال في الجسم، لكن له همة تمر مر السحاب ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ولهذا يقولون: إن أبا إسحاق الشيرازي العالم الشافعي هذا الرباني كان نحيف الجسم، يقولون: إنما هو جلد على عظم، قالوا: لماذا هذا النحف والهزال؟ قال: واللّه ما من درس أدرسه طلابي إلا أكرره مئة مرة قبل أن أدرسه، وإنّي أعيد القياس الواحد ألف مرة، وكان يسهر الليالي، حتى حفظ علوماً كثيرة.

راه شاعر فإذا هو جلد على عظم، فقال:

تَرَاهِ مِنَ الذِّكَاءِ نَحِيلَ جَسْمٍ عَلَيْهِ مِنْ تَوْقُودِهِ دَلِيلُ
إِذَا كَانَ الْفَتَى ضَخْمَ الْمَعَالِي فَلَيْسَ يَضُرُّهُ الْجَسْمُ النَحِيلُ

وهذا مثل قول المتنبي يقول لسيف الدولة:

كَفَى بِجَسَمِي نَحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مَخَاطِبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي

يقول: إنك تسمع صوتي وإلا فأنا نحيف، كان نحيفاً، فقط ثياب على عظام وعصب؛ لأنه مشبوب وعبقري، لكنه صرفه في غير الوجهة التي ينبغي أن تكون،

صرفها للدنيا وللظهور وللشعر، بخلاف همة مثل الشافعي وابن تيمية كيف صرفوها للآخرة ومرضاة الله، لكن سيقول لي سائل: فما دام أنك تؤمن بهذا وترى أنه صرفها في الدنيا، فلماذا أشغلتنا بهذه الآيات من شعره؟

قلت: لنأخذ الحكمة كما أخذها العلماء، ونأخذ منه المعاني، وتنفعنا في دعوتنا، وفي رسالتنا، وفي محاضراتنا، وفي دروسنا، كما استفاد من شعره العلماء الراسخون الربانيون في كتبهم وفي دروسهم، فالرجل - بلا شك - دقيق النظر وحكيم، ما تجد عالماً يأتي بمثل هذه المعاني ولو حفظ الكتب الستة؛ لأنها مواهب يقسمها الله ﷻ، يعطي هذا فقهاً، وهذا حديثاً، وهذا خطابة، وهذا أدباً، وهذا شعراً، وهذا حكمة، وهذا مالاً، وهذا جاهاً، وهذا شهرة، يوزعها سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَأَسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

فهنا يقول: إذا كانت نفس الإنسان كبيرة ولها طموح ولها همة فإن جسمه يتعب، يتعب عالي الهمة، تجده يريد الصلاة في الليل ويحضر صلاة الجماعة من أول الصف، ويحفظ القرآن، ويبرر والديه، ويزور أرحامه، ويدعو إلى الله، ويصلح بين الناس، ويضيف، وينفق، ويؤلف، ويدعو، ويذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً، أما الخامل فلا شيء، عطل الحقوق، جثة هامة: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، يخرج للمسجد وإذا الناس خارجون، تقول له: زرت الوالدة؟ قال: سأزورها، سمعت أن أخبارها طيبة، ولا يصلح بين أحد، ولا يهتم بأحد، ولا يضيف أحداً، ولا يحفظ شيئاً من قرآن ولا حديث، فهو يعيش هكذا، فهم أصفار.

قلنا له: أما ترى المجد يُتعب؟

لو كان غيره يجيب عن السؤال لقال: نعم، المجد يتعب كثيراً، ويسهر الإنسان، ويجعل الإنسان دائماً متلهفاً، ودائماً سهران، ودائماً يواصل جهده وكفاحه، فهو يعرق وهو يبذل من الطاقة. وهو اختصر ذلك، فقال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

يعني: لو أن الأمور تتحصل بلا مشقة لكان الناس كلهم أخيلاً وأبراراً، لكن انظر في الكرم الآن تجد الكرماء قليلاً، لماذا؟ لأن إنفاق المال نذير بأنه يتلف المال، وأيضاً كانوا شجعاناً، لكن الشجعان قليل، لماذا؟ لأن الشجاعة توصلك إلى أن تفقد نفسك، الإقدام قتال، يعني: أنك تخاطر بنفسك، فيقل أهل المجد بسبب هذه المشقة.

قلت: رأيت السلف يتأثرون عند سماع القرآن ونحن لا نتأثر؟

لو كان غيره يجب لقال: السلف على خير وعلى بر، وهم أخيار وأبرار، ونحن ابتعدنا عن الصواب والسنة، وعن التقوى والورع، والخشية والمراقبة. لكنه قال:

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

يقول: إذا رأيت إنساناً مشتاقاً مولهاً، إنساناً يعيش معاناة، وتجد عليه آثار هذه المعاناة فلا تعذره، فقلبك ليس في قلبه وأحشاؤك ليست في أحشائه، هو يعيش معاناة أنت لا تدري بها، فأنت لم تعيش التجربة، فلا تلمه.

قلت: أرى المنافق أحياناً يبكي؟ فبعض الناس يتصنع البكاء، حتى بعض السلف يقول: إن المنافق يرسل دموعه متى شاء، أما المؤمن فتغلبه دموعه. قال:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

يقول: سوف يظهر مع الأيام الدمع الصادق من الدمع الكاذب، وتجد من حالة الإنسان وهويكي أنه صادق أو كاذب، بعضهم يفتعل، لكن الدمع الصادق يغلب الإنسان، تجد ما افتعله الإنسان، له وقع، لكن دمع المجامل الكذاب ينكشف مباشرة، تجد على آثاره التمثيل، وتجد أنه يهول، وتجد أنه يريد أن يحسن من صورته ومن مظهره أمام الناس.

قلت: أرى واحداً من الناس يعدل أمةً في الفضل؟

بإمكانه أن يقول: نعم لأن الله سبحانه وتعالى يعطي بعض المواهب لبعض الناس فيفوق كثير من الناس بما عندهم من العلم أو العقل أو القدرة أو الموهبة. لم يقل هذا، ولكن قال:

وإن تَفَقَّ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمُ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

هو يمدح سيف الدولة، يقول: أنت أصلاً من الأنام، وأنت من البشر مثلهم وهم مثلك، خلقت من آدم وحواء، وهم خلقوا من آدم وحواء، وأصلك من طين وهم من طين، لكنك تفوقت عليهم، فالمسك الذي يتهداه الملوك وهو من أغلى ما يكون في العالم من دم الغزال.

قلت: أرى لك حساداً كثيراً؟

فيقول يرد على حساده:

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِي فَمَا أَنْكَرُ أَنِّي عَقُوبَةُ لَهُمُ

يقول: صحيح أنني ألوم حاسدي لكن الله أرسلني عقوبة لهم، الله عذبهم بي، يريد أن يشفي جراحه في هذه المسألة، ويقول في موطن آخر:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسَّوِّ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَاهَوَانَا

هو لم يسجد له أحد، لكنه يريد أن ينتصر، تحس حين تقرأ الديوان أنه مقهور، وأنه مظلوم، وأنه ما أخذ حقه من المجد، وأنه شخصية منسية، وأن الواجب على الناس أن يعيشوا قضيته، ويعترفوا به، ويكون الأول.

يقول: أصفح عنهم ولا أهينهم ولا أعاتبهم؛ لأنك إذا أتيت إلى الحاسد وتركته وأخملتة ولم تلتفت له قتلته موتاً؛ ولذلك إذا أتتك قصيدة هجاء فاتركها، وكلمة

سب فلا ترد عليها، ومقالة تتعرض لك فلا تحاول أن ترد عليها، وكلمة سفيه تبدر منه فتغافل، فإنك تميته بهذه الطريقة، ويبقى عرضك مصوناً وتبقى مكانتك محفوظة، والناس يقدرّون لك صبرك.

قلت له: بعض الناس غلب عليه سوء الظن فتجده لا يرى إلا بنظارات سوداء. شاكّ في الناس، يرى الناس عنده عقدة مؤامرة ويرى الناس متآمرين عليه، متربصين عليه، وهودائماً مظلوم، حتى إذا ذهب إلى المحكمة قال: القاضي متربص بي وإلا ما قال كلمة الحق، لو قال كلمة الحق لكان عرف، وإذا قابلته قال: ما أعارني انتباهه، وإذا بايع إنساناً قال: غشاش، فالناس كلهم يغدرون إلا هو، والناس يظلمون إلا هو، فالمتنبى يجيب:

إِذَا سَاءَ فَعَلَ الْمَرْءُ سَاءَتْ ظَنُّونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهَمٍ

فهو لسوء عمله يتصور أن الناس سيئون، ويصدق الوهم الذي يحمله فيقع في الخطأ وهو واهم؛ لأنه ما اتبع الحقيقة وما وقف مع الحق.

نطرح على المتنبى سؤالاً آخر في هذه المقابلة، فنقول: القوميون العرب يهددون إسرائيل من خمسين سنة؟

هو يجيب فيقول:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضِ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحَدَّه وَالنَّزَالَ

إنسان ليس عنده من يبارزه، فقط عبر الإذاعات حتى يقول البردوني في العرب:

وَقَاتَلَتْ دُونَنَا الْأَبْوَاقُ صَامِدَةً أَمَّا الرِّجَالُ فَمَاتُوا نَمَّ أَوْ هَرَبُوا

فقط الإذاعات والبيانات والتديد والشجب، يقاتل الأشباح ويقاتل الهواء، لكن إذا جد الجد فلا شيء.

قلت: أعرف أغنياء ألسنتهم سخية وأيديهم بخيلة؟

قال يجيب:

جودُ الرجالِ مِنَ الأيدي وَجودُهُمُ مِنَ اللسانِ فلا كانوا ولا الجودُ

بعض الناس جيد باللسان سخي، يقول: نتبرع وأبشروا بخير، والرقبة سداة، ولا يهتمكم يا إخوان، وإذا جاء الجد جاء بسبعين عذراً، لا يعطيك شيئاً ولا ترى شيئاً، فهذه مشروعات شفوية، حتى إن بعض البخلاء يلوم الكرماء، إذا تبرع إنسان قال: هذا رياء وسمعة، الإخلاص لك أنت، وإذا ألقى محاضرة قال: أشغلونا يا أخي، الدين معروف مفهوم، فهو دائماً يتصيد العيوب، وهؤلاء يسمون أعداء النجاح، فهذا يرد عليهم.

قلت: من يتأمل الشريعة يملكه حبها؟

قال هو:

وما كنتُ ممنُ يملكُ الحبُّ قلبه ولكنَّ مَنْ ينظرُ عيونك يعشَق

فإنه يقول: أنا من عادتي لا أملك الحب، لكنه لما غلب الجمال والحسن، فقد أسر في حبها. فقط الإنسان يتأمل في مقاصد هذا التشريع العظيم، وهذه الحكم في الكتاب والسنة، وهذا الدين الخالد، وهذه الرسالة الربانية في كل ناحية من مناحي الحياة، والله إنه يحبها ويعشقها قلبه، ويسير وراءها في كل شأن: في المال، في الأسرة، في الولاية العامة، في العلاقات الاجتماعية، في القضاء، في الحياة الزوجية، في حياة الطفل، في الأخلاق، في الآداب، في السلوك، في كل أموره، حتى مع البهائم والحيوانات، تقول: سبحان الله! أشهد أنها شريعة من عند الله.

قلت: أسمع لأعداء الإسلام شبهات يثيرونها عنه؟ يثيرون شبهاً ضد الإسلام، لكن أبشركم الإسلام يجتاح العالم، الدين الأول هو الإسلام، أكثر كتاب يوزع الآن

في العالم وينشر هو القرآن الكريم، الإسلام هذا دين من عند الله يقبله أهل العقول، ولهذا يقول أحد العلماء: أبشروا أيها المسلمون، وأملوا، فأفوق الإسلام أوسع من أوطانكم، وغد الإسلام أطول من أراضيك، الإسلام أكبر من هممكم، الإسلام سوف يبقى أمام الزحف، ولذلك يقول هو يجيب هنا:

وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عِلَاكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

يقول: هو كذب كلام الوري في هذا الدين الخالد.

قلت: فما رأيك في الدنيا؟

الآن فلسفته في الدنيا، ما هو قوله؟ قال:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ الْهَمُّ فِيهَا مَعْدَبٌ

يقول: لا بارك الله فيها، كل إنسان له همة عالية يعذب فيها تعذيباً؛ لأنها دنيا غدارة غرارة، لا يسكن فيها إلا الجبناء، حتى يقول هو في مشهد آخر:

تَصَفُّو الْحَيَاةَ لَجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَلَمَنْ يَغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمَحَالِ فَتَقْنَعُ

يقول: والله لا تصفوا الحياة إلا لجاهل أو غافل، جاهل بآثارها، أو غافل عن مصائبها، وغافل عما مضى منها، فلا يفكر في شيء؛ وإلا لو عرف الإنسان حقيقة الحياة لارتدع؛ لأن صاحب العقل تجده متوجساً دائماً خائفاً يفكر في الحساب ولقاء الله عز وجل لا يريد أن يخطئ، إذا أخطأ ندم، إذا أذنب تأسف، إذا عثر تاب، أما هذا المجرم، فالذنوب عنده مثل الطاعات، ويضحك حتى يقول:

دُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

تجد العاقل وهو في النعيم يريد عملاً؛ فإذا فاتته تكبيرة الإحرام أقام الدنيا وندم، ما صلى الفجر في جماعة، قال: الله المستعان، حسبنا الله ونعم الوكيل،

بعض السلف كان يمرض شهراً إذا فاتته تكبيرة الإحرام في الجماعة، بعضهم تفوته صلاة الفجر فيبقى مريضاً، الآن يقول أحدهم يضحك ويمزح: يا إخوان، ما انتهت اليوم إلا وصليت الساعة العاشرة، سبحان الله! يا إخوان النوم، في الشتاء بركة: لأن النوم في البرد طيب، ولا درى أنه ارتكب إثماً! هذه المصيبة، تقول له: كم قرأت؟ قال: والله يا أخي، سبحان الله من زمن ما قرأت المصحف أقرأ يوم الجمعة، يا أخي، الحمد لله الدين هذا طيب يقول: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] ولو آية يا أخي، لكن أموره في الدنيا كما يقول ابن القيم: بعضهم يستخدم أنواع الإنكار الثلاثة في الدنيا: القلب واللسان واليد، فهؤلاء أموات أصفار، يقول:

عَدُوَّ الْحَصَى وَالرَّمْلِ فِي تَعْدَادِهِمْ فَإِذَا حُسِبَتْ وَجَدْتُهُمْ أَصْفَارًا
مِنْ كُلِّ مَفْتُونٍ عَلَى قِيَاثَةٍ كَلَّا وَجَدَتْ بَفْنُهُ بِيْطَارًا

قلت: ألا تحتاج الدنيا إلى مجاملة؟

قال: نعم.

وَمَنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرَّانِ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدْ

يقول: من شؤم هذه الحياة نعوذ بالله منها، ومن نكدها: أنك تبتلى بإنسان عدو لكن تعامله حتى تسير أمورك، فلا صفاء إلا في جنات النعيم، اطلبوا داراً غير هذه الدار، اطلبوا دار الوفاء، دار الصفاء، دار الخلود، لا مرض فيها، لا نصب، لا وصب، لا هم، لا غم، لا حزن، هذه:

دَارُ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا أَبْكْتَ غَدًا قَبْحًا لَهَا مِنْ دَارِ

قلت: كان للعلماء قدر عند الناس واليوم جهل قدرهم؟

قال:

أتى الزمان بنوه في شببته فسرهم وأتيناه على هرم

يقول: زماننا هذا مدبر، العلم فيه والمعرفة والكرم والجود قليل، هذا في القرن الرابع، فكيف لو أدرك زماننا، حتى يقول لببب كما في الصحيح:

ذهب الذين يعيش في أكنافهم وبقى في خلف كجلد الأجر

قالت عائشة: «كيف لو أدرك زماننا لببب» قال عروة: كيف لو أدركت زماننا عائشة؟ قال الزهري: كيف لو أدرك زماننا عروة؟ فأخذ الرواة يمشون به إلى أن وصلوا إلى أبي نعيم الفضل بن دكين وغيره من العلماء، أقول: كيف لو أدركوا زماننا نحن، فيقول: كان قبلنا أجواد كثير والأخيار، أما نحن فأتينا الزمان، فسرهم وأتيناهم على هرم.

قلت: أرى العظماء لا يبالون بالمصاعب؟

قال:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحو

يقول: إذا كان الإنسان معتاداً على المصائب والأزمات والمنايا والموت، فأهون شيء الوحل هذا الطين الذي يمشي فيه، فتجد بعض الناس همته عالية قوية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ابن تيمية أتمه حمى هزته، فدخلوا، قالوا: يا أبا العباس، ماذا أصابك؟ قال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

الشكوى لله سبحانه وتعالى.

فلذلك يقول هنا: (إذا اعتاد الفتى) إن كان الفتى معتاداً على المنايا وعلى الصعوبات فبقية الأمور عنده سهلة، حدثوني عن رجل من الأعيان، له أولاد كثير،

ومشهور عنه الصلابة، فجاءته مصائب مات له أبناء في حوادث سيارات، يقول بعض المشايخ: والله إنا جالسون في مجلس معه والقهوة تدار وهو يذكرنا بالله عز وجل يقول: كأنه جبل، قال: ودخل ابنه الذي أتى من المستشفى، قائلاً: أخي قتل في حادث سيارة ومات، قال: الله المستعان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وإذا به صابر، قال: أين أنتم؟ قال: في المستشفى، قال: أنهوا الإجراءات وأعلموني، قال: وما التفت لهم، قال: يا إخوان، سبحانه الله قضاء وقدر.

فهذا متعود عنده صبر وعنده احتمال وعنده قوة، لكثرة المراس.

قلت: بعض الناس يستفيد من نكبات الآخرين؟

يقول هو يرد:

كَذَا قُضِيَ الْإِيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

فالعاقلة الحصيفة يستفيد من المصائب التي تقع عند الآخرين، إن مصائب الآخرين التي تكرها تثمر لك حكماً وتجارب أنت ما قمت بها، والسعيد من اعطى بغيره، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَاتِيكَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] يقول: انتبهوا أما ترون القرى كيف وقع فيها ما وقع من بين يديها وما خلفها وجعلناها موعظة.

فأحياناً تقع مصيبة عند قوم، لكن الجيران منهم وبعض الناس يستفيد من هذه المصيبة في أن يجعلها فائدة يستثمرها وتجربة وعبرة ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِلْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أن أهل الأبصار يعتبرون بمصائب الآخرين.

قلت: ما رأيك في الزمان؟

قال:

رَبِّمَا تَحْسُنُ الصَّنِيعَ لِيَايِيهِ ۖ وَلَكِنْ تَكْدُرُ الْإِحْسَانَا

يقول: الأيام تأتي لها حلاوة أحياناً، أحياناً يأتيك منصب، أحياناً يأتيك مال، تبشر بولد، تبشر بثروة، ولكن بعد مدة وإذا بك يأتيك حادث سيارة في الولد، ومرض في الجسم، والثروة ذهبت والرصيد ذهب في الأسهم لم يبق شيء، بشرت بولاية مثلاً ومنصب وإذا برقيات التهنئة، قليلاً وإذا العزل، قال: الله المستعان، يقول:

تَوَلَّاهَا وَلَيْسَ لَهُ عَدُوٌّ ۖ وَفَارَقَهَا وَلَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ

يقولون على ذكر الولاية: تولى القضاء قاضٍ من الظلمة الكبار فضاقت الناس في دمشق في القرن الخامس، فأتى أحد الشعراء فقال:

وَلَمَّا أَنْ تَوَلَّيْتَ الْقَضَايَا ۖ وَفَاضَ الظُّلُمُ مِنْ كَفِيكَ فَيَضَا

ذَبَحْتَ بَغِيرَ سَكِينٍ وَإِنَّا ۖ لَنَرْجُو الذَّبْحَ بِالسَّكِينِ أَيْضَا

لأنه يقال: من تولى القضاء، فقد ذبح بغير سكين.



الكلمة الأخيرة

يقول أبو الطيب المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً

وحسبُ المنيا أن يكنْ أمانياً

تمنيتها لما تمنيت أن ترى

صديقاً فأعيا أو عدواً مداجياً

يقول: إذا وصلت إلى مرحلة أن تتمنى الموت،

فقد بلغ بك الداء مبلغاً عظيماً والوجع والضنى

والمرض والألم إلى أن طلبت أن يكون علاجك

من ذلك هو الموت، فإذا أصبح الإنسان في مرحلة

يطلب الموت فهو في أشد البلاء، وحسب الموت

فضاعة ورزية أن يكون أمنية يتمناها الإنسان.

ثم قال: لقد وصلت إلى حالة من الإحباط إلى درجة أنك لم تجد حتى صديق، فضاقت عليك الأرض بما رحبت وأصبحت الحياة ضيقة عليك، وأغلقت عليك الأفق وانغلقت عليك الآمال، حتى ما تلقى صديقاً ولا عدواً مداجياً، حتى العدو الذي يستخدم معك المجاملة ما تلقاه، فما ثمة إلا عدااء ظاهر مكشوف، حينها إذا انقطع الإنسان وأصبح بلا صديق ولا رفيق ولا مؤانس فإن الحياة تضيق عليه، لكنه نسي ملمحاً آخر أنه إذا ضاقت عليك الدنيا وقطعك الأصدقاء والخلان والأحباب والأصحاب بقي معك الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فَالزُّمُ يَدِيكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مَعْتَصِماً فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ

فحسب الإنسان ربه سبحانه وتعالى وهو كافيه إذا توكل عليه وصدق في الإيمان به جل في علاه.

يقول في هذه القصيدة: إن بعض الناس يطلب الموت، فهذا أبو العلاء المعري تلميذه من المعجبين به، يقول:

فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنْ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنْ أَمْرِكَ هَازِلٌ

يقول بعدها:

إِذَا عَمِرَ الطَّائِيُّ بِالْبَخْلِ مَادِرٌ وَعَمِرَ قَسَاً بِالْفَهَاةِ بِاقِلٌ

الطائي يقصد حاتم الطائي، يقول: إذا وصل الحال عند الناس أن يعيب مَادِرٌ أبخل العرب حاتماً الطائي الذي هو أكرم العرب، إذا وصل الحد إلى ذلك وصار السفهاء يتناولون على العظماء وأن التافهين ينالون من الأخيار الصالحين المصلحين فعلى الدنيا السلام.

وباقل من أعيان الناس لا يستطيع الكلام، يصاب بالحصر وبالإعياء والانتقطاع إذا تكلم، وقس بن ساعدة خطيب العرب في الجاهلية، الذي إذا تكلم بذَّ الخطباء

الكلمة الأخيرة

وغلِبهم وأفحم كل الأدباء، فيقول: إذا وصل الحال إلى أن باقلاً هذا يعيب قساً
بالفصاحة ويقول: أنت لست بفصيح يا قس، فعلى الدنيا السلام.

وقال الدُّجى للشمسِ فأنتِ كسيفةٌ وقال الدُّجى للبدرِ: وجهُك حائلٌ

يقول: إن الليل إذا قال للشمس: أنت كسيفةٌ وهوليل أسود بهيم والشمس ساطعة
لامعة. والدجى وهو ظلمة الليل قال للبدر: ليس فيك نور؛ فعلى الدنيا السلام.

إذا وصل الحال إلى هذا، فما عاد للإنسان قيمة وأصبح هناك أناس لا يقدرّون
صاحب الموهبة ولا يقدرّون من له مكانة ولا من له مناقب عالية، لا يقدرّون الشيخ
الكبير، ولا المسؤول المقسط العادل ولا العالم الرباني ولا حامل القرآن ولا الخير
ولا العابد ولا الجواد.

وعلى ذكر تمني الموت، فإن أهل النار- والعياذ بالله- إذا دخلوا النار واشتد
عليهم حرها تمنوا الموت: ﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] من شدة
حر النار والعياذ بالله، من شدة العذاب والنكال وما وجدوه هناك من حريق
وسعير وزمهير، قالوا لمالك الذي هو خازن النار: ﴿يَمْلِكُ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾
[الزخرف: ٧٧] يقولون: نسألك يا مالك، أن تسأل الله أن يقضي علينا فيميتنا؛ لأن
الإنسان فيها لا يموت فيرتاح ولا يحيا حياة كريمة طيبة، ولا يخرج منها، وهذا
عذابه سبحانه وتعالى الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فالواجب
على الإنسان أن يخاف ويخشى هذا ويأخذ كل العدة؛ لينجو من النار، وذلك
بطاعة الله وذكره، وبالتوبة النصوح، بالاستغفار، بفعل الحسنات، بترك الخطايا
والذنوب، بالاستعداد للقاء الواحد الأحد.

ولذلك يقول مرة أحد الأخيار، بعدما انقطعت به الحال وكثرت عليه الديون
وخانه أصدقاؤه وأصاحبه، فمر بمقبرة:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فعيشٌ حياتنا لا خير فيه

فكأنه يطلب الموت فيشتريه منه.

ألا رحم المهيمن نفساً حرّاً تصدّق بالوفاة على أخيه

يقول: جزى الله خيراً من تصدق علينا بالموت، حتى نخلص من هذه الحياة.

يقول المتنبّي: (كفى بك داء أن ترى الموت شافياً).

إذا وصلت إلى هذه الحالة فقد وصلت إلى حالة ما بعدها حالة من المرض، ومن الإعياء ومن المصائب ومن النكبات، حتى يصل بعض الناس إلى درجة الانهيار والانتحار، تغلق أمامه الأبواب، أكثر ما يكون هذا عند من يشك في قدرة الله ومن يقل الإيمان عنده، ومن لا يرجو ثواب الله عز وجل، ومن ليس عنده عمل صالح، فيصل إلى درجة الله أعلم بها، ولكن المؤمن بالله لا ينتحر؛ لأنه يعرف أن الله يغفر الذنوب وأن مع العسر يسراً وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وأن هناك فرجاً وأن هناك غداً مشرقاً، وأن هناك أملاً، وأن هناك فتحاً قريباً بإذن الواحد الأحد، لكن هذا الذي يبأس من رحمة الله ويقنط من روح الله ويصيبه التشاؤم، وذلك بسبب بعده عن التدين وعن الإيمان، تجده يقدم على الانتحار، وأحياناً يوجد مثل هذا الفعل من بعض الصالحين، فقد يتمنى الموت، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنى، وإلا فإن في الصحيحين يقول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إن كان خيراً فلعله أن يزداد، وإن كان على سوء فلعله يستعقب - يعني: يتوب - ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» فنهى النبي ﷺ عن تمني الموت عند الرخاء، فالأصل في الإنسان كلما ازداد عمره كان خيراً له؛ لأنه يصلي الصلوات الخمس ويذكر الله ويقرأ القرآن ويفعل الخير. فتضاف له حسنات، وإذا كان الإنسان مقصراً فلعل الله أن يمن عليه بتوبة وباستغفار فيعود إلى الله، لكنه يجوز للإنسان عند العلماء في الفتن، لكنه لا يطلقها، وإنما يقول: اللهم، أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي.

الكلمة الأخيرة

أما عمر بن الخطاب فقد صح أنه تمنى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خاف أن يضعف في العدل بين الرعية، وربما يقع في فتنة أو مشكلة لا يستطيع القيام بها، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهم، إنه رَقَّ عظمي وشاب رأسي فاقبضني إليك غير مفرط ولا مفتون، اللهم، إني أسألك ميتة في بلد رسولك وشهادة في سبيلك. فيقول له أصحابه: يا أمير المؤمنين، تطلب الشهادة وتشترط أن تكون في بلد رسول الله ﷺ! - لأن المعلوم أن من يطلب الشهادة يطلبها في الثغور في ساح الوغى في ملاقات الأعداء - قال: هكذا سألته وأسأل الله أن يلبي لي ما سألت.

فرزقه الله الشهادة في صلاة الفجر في المحراب، وهو إمام المسلمين، وهو طاهر في كل وقت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في عدله وهو يصلي بالناس، وفي الركعة الأولى وقيل الثانية، وفي بلد رسول الله ﷺ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة.

مولى المغيرة لا جادتك غاديةً من رحمة الله ما جادت غواديها
قُلْ للملوك: تنحوا عَنْ مناصبكم فقد أتى آخِذُ الدُّنْيَا ومُعْطِيهَا

فالشاهد أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل ذلك.

والتعلق بالحياة جانب آخر. فمن لا يريد ملاقات الله فهو عاصٍ ومُسرف على نفسه وخادم للدنيا وهذا دليل على الإفلاس والإحباط، حتى قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن اليهود: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] يعني أنهم أكثر حرصاً على الحياة حتى من وثنيي العرب مشركي العرب، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] يقول: يتمنى أحدهم أن يبقى في الحياة ألف سنة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْزَحٍ مِنْهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] افترض أنه عمَّر ألف سنة، المعذب سوف يعذب، إذا مات فسوف يعذبه ربه، هل يمنع أن يعيش ألفاً أو ألفي سنة، أليس المصير إلى الله؟ أليس الملجأ إليه؟ أليست النهاية الموت؟

فلذلك يقول: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

أما على ذكر الموت فإن للناس توقعات في الموت للأبرار وللفجار، للمؤمنين وللکفار، كلمات صادقة في سكرات الموت؛ لأن سكرات الموت يصدق الإنسان فيها، فينتهي فيها الطلاء، ينتهي البهرج، ينتهي الزخرف، ينتهي الدجل والخرافة والكذب، يبدأ الإنسان يصدق، سكرة الموت أو ساعة الموت هي ساعة الصفر التي يجبن فيها الشجاع ويضعف فيها القوي ويفتقر فيها الغني، إلى درجة أن فرعون قال وهو ذاك الطاغية لما رأى الموت وهو في البحر: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم ينفعه ذلك؛ لأنه قال ذلك في الوقت الضائع.

فهنا سيد الصالحين وسيد الأخيار محمد ﷺ يقول في سكرات الموت: «بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى» وقال: «اللهم أعنّي على سكرات الموت» وقال: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات» هذا كلام أصدق الناس أجمعين ﷺ.

ونقل عن الصالحين مثل الشافعي الإمام المعتبر رحمه الله وأرضاه لما حضرته سكرات الموت يقول:

ولمّا قسا قلبي وضّقت مذاهبي جعلت الرّجا ربّي، لعفوك سلماً
تعاطمّني ذنبي فلماً قرنّته بعفوك ربّي، كان عفوك أعظماً

وهذا من أجمل الأبيات التي فيها من الرجاء ومن حسن الظن بالله؛ لأنه صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» فمن حسن الظن بالله في سكرات الموت أن تظن بالله خيراً، وأنه يغفر الذنوب، وأنه يتجاوز عن السيئات، وأنك تقدم على رب كريم، فمن هذا المعنى أخذ الشافعي وهو الإمام البحر العلامة غفر الله له وأكرم نذله.

الكلمة الأخيرة

وذكروا عن أبي نواس المقصر المسرف الذي بان ذلك من شعره، نسأل الله أن يتجاوز عن جميع المسلمين، يقول:

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمَجْرِمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلَ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسَلَّمٌ

وهذا من الكلمات الجميلة، وإلا فقد ذكر عنه أنه قال كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير أنه ذكر في بعض الروايات أن الله غفر له، قالوا: بماذا؟ قال: بوصفي الوردة النرجسة، قلت فيها:

تَأْمَلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَيَّ آثَارَ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عَيُونُ مَنْ لَجِينَ شَاخِصَاتٌ بِأَحْدَاقِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى كَثَبِ الزَّبْرَجِدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وهذا من أجمل الأبيات في الوجدانية، فإن كل زهرة ووردة وورقة وورقة وقطرة ماء ونسمة هواء وقطعة ظلماء تدل على رب الأرض والسماء. وصدق القائل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ
فِيَا عَجَباً كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاوِدُ

ففي سكرات الموت كلام ينقل للأدباء والعلماء والحكماء والشعراء.

ومالك بن الريب الذي يرثي نفسه في قصيدة مؤثرة قالها بعدما لدغ بحية وهو في سكرات الموت، كان مالك بن الريب هذا من اللصوص الذين يقطعون طريق القوافل، فهذه الله سبحانه وتعالى، رأى جيش عمرو بن عثمان بن عفان، وقيل: أبان بن عثمان بن عفان ذاهباً للغزو، وقال بعضهم: بل سعيد بن عثمان ابن عفان ذهب يقاتل في الشمال مجاهداً، فتاب على يديه، وترك اللصوصية

والسرقات، ولما سار في الطريق وجاء الليل لدغته حية، فغشيه السم وتغير لونه وأشرف على الوفاة، وحضروا قبره، وأرسل رسالة للناس في قصيدة صادقة لا تجد في الشعر العربي أصدق منها تأثيراً ووقعاً، حتى يقول:

فلله دري يوم أترك طائعا بني بأعلى الرقمتين وماليا
أبناؤه وأمه وأبوه كانوا بأعلى الرقمتين، فاستبكي الحضور، واستدر الدمع من الناس، حتى رثى الفرس ورثى سيفه ورثى حياته:

وأشقر خنديد يجر لجامه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
يقولون: لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

فإن من عادة العرب أن يقولوا: لا تبعد.

ولا يوجد أبعد من مكاني، هذا هو البعد كله، فهذا الذي قاله في سكرات الموت، وهي كلمات صادقة مؤثرة.

وقد نقلوا في حديث صحيح: أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أتت عائشة ابنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «صدق الشاعر يا أبتاه» وكانت فصيحة وأديبة، وكانت تحفظ الشعر، وعندها من الأدب الرصيد الكثير، وهذا البيت لحاتم الطائي، قالت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
يقول: والله ما ينفع المال إذا خرجت الروح أو كادت. فحاتم يقول في قصيدته لزوجته ماوية:

أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

يعني: السمعة، يريد السمعة والثناء الحسن والمديح والذكر الجميل. أي: والله لا ينفع المال ولا القناطير المقنطرة ولا الأرصدة البنكية إذا ضاق الصدر بها.

الكلمة الأخيرة

وعلى ذكر الحشجة فقد بنى هارون الرشيد قصراً مشيداً في بغداد جميلاً، وقال للشعراء أن يدخلوا؛ ليمدحوا القصر ويمدحوه، فدخلوا وأثنوا ومدحوا وباركوا وهنّؤوا، ولما خرجوا دخل أبو العتاهية فوقف أمام هارون الرشيد، فقال:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِماً فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ

قال هارون: هيه! أي: إنه طرب وانتعش واهتز بهذا المطلع الفخم والتبريك والتهنئة.

قال:

تَجْرِي عَلَيْكَ بِمَا أَرَدُ تَ مَعَ الْغُدُوِّ مَعَ الْبُكُورِ

فاهتز وانتعش.

قال:

فَإِذَا النُّفُوسُ تَغْرَغَرَتْ بِزَفِيرِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ

فَهَنَّاكَ تَعْلَمُ مَوْقِنَاً مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فدمعت عيناه.

والآن أين أبو العتاهية؟ أين هارون الرشيد؟ أين القصر الذي بناه؟ أين الوزراء الذين حضروا؟ أين العلماء الذين احتفلوا؟ أين الشعراء والأمراء؟ أين الأغنياء الذين حضروا ذلك المكان؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

وإنما أقول هذا على ذكر الكلمات التي تحضر الناس عند الموت.

ونعود إلى المتنبي الذي يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنيّا أن يكنّ أمانيا

في أبيات جميلة، وهذه بعض منها، يقول مادحاً نفسه:

خلقتُ أَوْفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لِفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيا

أنا في وفاء دائم - والله أعلم به - ومن وفائي أنني لو شئت وطلب مني أن أرجع إلى الصبا؛ لأن الصبا محبب عند الناس، لكنني فارقته الشيب وأنا أبكي عليه؛ لأنني إذا صاحبت أحداً وفيت له ولا أغدر.

ومن ضمن القصيدة هذه ذكر الوصل إلى كافر، يقول:

قَطَعْتُ الْفِيَا فِي وَالشَّنَاخِيْبَ دُونَهُ وَجُبْتُ هَجِيرًا يَتْرُكُ الْمَاءَ صَادِيَا

الفيافي والشناخيب: يعني الجبال. والهجير: يعني: القيظ والصيف وشدة الحر.

أَبَا كُلِّ طَيْبٍ، لَا أَبَا الْمَسْكِ وَحْدَهُ وَكُلَّ غَمَامٍ لَا أَخَصَّ الْغَوَادِيَا

يقصد نوعاً من الطيب، والمسك نوع من الكافور.

ثم يقول في القصيدة:

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى أَكَاَنَ سَخَاءَ مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا

يقول: يُعرف الإنسان من حركاته أهو سخي جواد أم يجامل ويتساخى ولا يستمر؛ لأن بعض الناس يظهر الكرم، فتجده يرحب لكنه لا يستمر، ينقلب ويرجع إلى حاله.

وتجده يتكلف ويحاول لكنه لا يقدر، تجده إذا أتاه ضيف يهمل ويكبر ويخرج من البيت يكبر ويدخل يهمل. ويذبح ذبيحة ويستعين بالله عز وجل، ويتعوذ من الشيطان قائلاً: أعوذ بالله منك يا شيطان، الله يخزي هذا الشيطان، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، هل الأحسن أن يذبح شاة

الكلمة الأخيرة

أم الأحسن ألا يذبح، ثم يأتي يسن الشفرة، ثم يدخل على الضيف يقول: إن الدنيا فانية - لأنه قد ذبح هذه الشاة - ويقوم بإلقاء مواعط، فإذا ذبحها دمعت عيناه من خشية الله وخاف. فيقول المتنبى: تظهر هذه العلامات على الإنسان البخيل، ليس مثل إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] سبحانه الله! ما هذا الكرم!؟ ذهب إلى هذا الثور الكبير وقدمه لهم بمجرد أن دخلوا عليه وألقوا عليه السلام.

ويقول في سورة هود: (حنيد)، وإبراهيم له روغتان: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣] على الأصنام التي عبدها الجهلة والكفرة، حطمها، والروغة الثانية روغة الكرم، فكان كريماً شديداً الكرم، يقدم أحسن ما عنده وفوق هذا يقول: سامحونا على التقصير.. أما البخيل فيخرج العشرة الريالات ثم يطلق ثلاثاً ألا يحاسب إلا هو..! وإن جاء الشاي بريال ونصف فيقسم بالطلاق ألا يتولى الحساب إلا هو، ثم يلقي محاضرة بعدما يحاسب.. يقوم قائلاً: يا أخي، ماذا نريد بالمال؟ هذا واجب علينا، وعسى الله يعوضنا خيراً، والدنيا ذاهبة، ما عند الإنسان إلا أخلاقه وكرمه.

أما السخي فتجده في جبلته يحب الكرم، يحب الجود، تجده رحباً.. وأهلاً وسهلاً.. كأنك تعطيه، كما يقول أحدهم:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلَّلًا كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وفي بيت من قصيدة أخرى يقول:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

فبعض الناس سبحانه الذي أعطاه! سهل في أخلاقه، في خدماته، في كرمه، يقول: ما عملنا شيئاً، سامحونا على التقصير، يغدي.. ويعشي.. ويعطي.. ويهدي.. ويقول فوق ذلك: سامحونا على التقصير، أما البخيل فسبحان الله!

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] فهو وإن أخفى ما في نفسه فلا يستطيع أن يخفيه كثيراً.

والصالحون كان لهم كلمات في سكرات الموت، فمعاذ بن جبل قائد علماء الجنة رضي الله عنه وأرضاه العلامة البحر، قائد العلماء وقبلهم برمية حجر، والذي قال له رضي الله عنه كما في السنن: «إني أحبك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم، أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» فمعاذ رضي الله عنه يقول في سكرات الموت: «اللهم، إنك تعلم إنني لم أحب الحياة لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور، وإنما أحببت الحياة لأمرغ وجهي ساجداً لك في السحر وأجالس أقواماً ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب التمر، وأصوم لك يوماً شديداً الحر» هذه الربانية، هذا الاهتداء، يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩] أي: لا تكونوا كالبطالين العاطلين ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّينَ﴾ بما كنتم تعلمون الكُتُبَ وبما كنتم تدرسون ﴿[آل عمران: ٧٩] فجزاه الله خيراً وجزى إخوانه من الصحابة من المهاجرين والأنصار خير الجزاء وجمعنا بهم في جنات النعيم.

ومنهم المأمون الخليفة العباسي، فإنه قال كلمات في سكرات الموت قوية مؤثرة لما حضرته الوفاة، قال: أخرجوني إلى العسكر وإلى الجيش، فأخرجه، قال: يا من، لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه.

لا الجيش ينفعه ولا الأطباء ولا الأمراء ولا الأثرياء ولا الثروة ولا العسكر ولا السيوف.. كل شيء ذهب، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فالبقاء لله سبحانه وتعالى، إنما هذه بعض الكلمات التي قالوها.

وفرعون في سكرات الموت قال: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بُنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يقول في سكرات الموت: يا ليتني ما توليت الخلافة. فسمع سعيد بن المسيب هذا الكلام وهو سيد التابعين.. العالم.. المجتهد.. البحر.. المحدث.. الزاهد.. العابد.. قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت ولا نفر إليهم. ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وسمع مرة عبد الملك وهو في مرض الموت غسلاً.. وكان في قصر في دمشق، والرجل في وادٍ، سمع الرجل يغني، وليس عنده خبر بالخلافة ولا بعبد الملك أنه في مرض الموت، ينشد مرتاحاً، ليس عنده إلا ملابس يغسلها للناس ويأكل وينام مرتاحاً، قال عبد الملك: يا ليتني كنت غسلاً، يا ليتني ما توليت الخلافة، يا ليتني ما عرفت الملك.

وأذكر أن المحدث أبا زرعة رحمه الله وهو من الحفاظ الكبار، وقرين لأبي حاتم، حضرته سكرات الموت فأغمي عليه، فأراد الطلاب أن يذكروه بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لأنه كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» فاستحيوا أن يذكروه؛ لأنه عالم وحافظ وبحر، فأتوا بالحديث لكي يرووه فنسوا سند الحديث، قالوا: حدثنا فلان.. فغلطوا، فاستفاق من غيبوبته وقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» ثم قال: لا إله إلا الله، ثم مات. رحمته الله وأرضاه.

ومسلم صاحب الصحيح، مسلم بن الحجاج، وهو عالم رباني، رزقه الله القبول مع صحيح البخاري، أراد أن يبحث عن حديث ليلة من الليالي، حديث للرسول ﷺ يبحث عن صحته، فأتى بالكتب وعنده سلة كبيرة من التمر، هناك نوع من التمر من خراسان حار، إذا أكثر منه الإنسان يؤثر فيه، فنسي مع البحث عن الحديث نفسه وذهل، وأخذ يأكل التمر.. ثم أكل، حتى انتهى من السلة كلها،

ولما أصبح الصباح أثر عليه وهو يبحث الحديث، فقال: آم. ثم مات- غفر الله له- مات في سبيل طلب الحديث وطلب العلم، يخدم سنة النبي ﷺ، ولذلك أعطاه الله من القبول هو والبخاري، والآن في كل مسجد، في كل قنطرة.. في كل مجمع.. في كل جامعة.. في كل مجلس.. في كل مدرسة.. رواه البخاري ومسلم، فجزاهما الله خيراً على ما قدماه.

يقول أحد المحدثين، وقد كان في سكرات الموت، فسمع طلاب علم وراء جدار يقولون: حدثنا.. حدثنا... وكان في حياته يقول: حدثنا... لأن المحدثين يستخدمون كلمة حدثنا وأخبرنا، قال: أسندوني أسندوني، يعني: انتعش، وهو في سكرات الموت، فلما أسندوه قال:

سُقُونِي وَقَالُوا: لَا تَغْنُ وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سَلِيمٍ مَا سَقِيَتْ لَغْنَتْ

والبيت هذا لأحد العرب؛ لأنه سقوه مسكراً فقال له.

يقول: لو سقوها ما سقيت من الخمر لغنت. فنسأل الله عز وجل أن يلفظ بنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها.



نائل الليل

يقول أبو الطيب المتنبّي:

أزورهم وظلامُ الليلِ يشفَعُ لي
وأنتني وبياضُ الصبحِ يغري بي
في قصيدة بديعة له من ضمنها يقول
- يخاطب نفسه -:

كَمْ زورةٍ لك في الأعرابِ داهيةٍ
أدهى وقد رقدوا من زورةِ الذيبِ
لأن الذئب يزور سريعاً ويعود سريعاً، يخطف
خطفاً.

فشبه ظلام الليل بشخص يعاونه ويستره، يقول: فإذا رجعت فضحني ظلام الصباح وأغرى بي حتى يدركوني، يحاولون أن يلحقوا بي، فالظلام يسترني يشفع لي عند محبوبي حين أزوره.

وهذه من أحسن المقابلات في الأدب العربي، وعد هذا البيت من أجمل أبياته على الإطلاق، وهو صاحب فرائد، إذا أراد أن يبدع أبدع، ويتوسط أحياناً، وأحياناً قليلة يسف في أبياته ويضعف شأن العبقرية والأعمال العظيمة التي ينتجها مثل هؤلاء العباقرة، فإن أجل ما ينتجونه هو من جنس العبقرية ومن جنس الإبداع، حتى إن له أبياتاً يقول فيها:

زارنا في الظلام يطلب سترأ فافتضحنا بنوره في الظلام
ورد عليه ابن المحصد فقال:

فالتجأنا إلى خيام محب ألبأتنا من أعين اللوام

فالقصد أنه صاحب إبداع في الزيارات وفي الهجر وفي المحبة ونحو ذلك؛ لأنه مقتدر على الكلمة، مقتدر على الكلام، حتى إنه في الزيارة يقول عن الحمى، أتته الحمى وهو في مصر، ذهب إلى كافر، فأطلق لنا القصيدة البديعة قصيدة الحمى، وسبحان الله! ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] رب ضارة نافعة، فلولا أن قدر الله عليه هذه الحمى لما أخرج لنا ذلك الإبداع البياني الخلاب الجذاب الذي قاله في قصيدة الحمى، يقول:

ملوكمما يجل عن الملام ووقع كلامكم فوق الكلام

إلى أن يقول:

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

الغالب في الحمى أنها لا تأتي إلا في الليل.

بذلتُ لها المطارفَ والحشَايا فعافَتْها وباتتُ في عِظامي
أبنتُ الدهرَ عندي كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزحامِ

يقول: عندي مصائب وعندي أزمات ومشكلات، فكيف وصلت من هذه المصائب حتى وصلت إلى جسمي، لأن حولي أزمات في جسمي، وحولي مشكلات وكربات، فكيف استطعت أن تنفذي من هذه المشكلة حتى وصلت إلي، ومن ضمن الأبيات الجميلة في هذه القصيدة:

وأنفُ من أخي لأبي وأمي إذا ما لم أجده من الكرامِ
يقول: أغضب عليه وتأخذني غيرة إذا لم أجده كريماً شهماً، ولو كان أخي لأبي وأمي، لا أرضاه إذا لم يكن عنده من المكارم.

ولمَّا صارَ ودُّ الناسِ خباً جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
يعني: الخداع والمكر والمجاملة، وليس حقيقياً، وليس نابعاً من القلب.

رددت البسمة مثلها، كلها مجاملات، وضحكت لمن ضحك لي، ومزحت لمن مزح لي، مثل تصرفاتهم هم.

وصرتُ أشكُ فيمنَ أصطفِيه لعلمي أنه بعضُ الأنامِ

يقول: كل واحد أختاره لل صداقة أشك فيه؛ لأنه من جنس الناس، سوف يعود لطبيعة الناس، سوف تأتيه طبائع الناس من الغدر والختل والمرآغة وعدم الوفاء؛ لأنه طبع في الناس، لكن الإنسان لا يعرف عيب نفسه.

ثم جاء بالبيت الفريد الذاهب الشارد في الحكمة، حتى إنني قرأت في الأدب الفرنسي أن بنبيدو الرئيس بعد فلرسكارد ديستان أمر أن يترجم هذا البيت ويكتب على الدبابات الفرنسية:

ولم أر في عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ
أكبر عيب أن تستطيع أن تكون وافياً وناجحاً ثم تنقص، تستطيع أن تكون
مبدعاً فلا تفعل، عندك قدرات عندك مواهب ولا تستغلها فهذا عيب كبير، ما
دمت لا تستوفي طاقتك ولا تدفع بقوتك وجهدك لتكون ناجحاً، فتنقص عن هذا
فهذا عيب كبير.

فذكرني بهذه الزيارة بالشهرزوري وله قصيدة بديعة في الزيارة، حتى يرى
علي الطنطاوي أنها أجمل قصائد الزيارات والبدائع، حتى ذكرها ابن خلكان في
وفيات الأعيان، يقول وهو يتكلم عن زيارة الأحباب في الظلام:

لَمَعَتْ نَارُهُمْ وَقَدْ عَسَسَ اللَّيْلُ لُومَلُ الْحَادِي وَحَارُ الدَّلِيلُ

يقول: الذي يحدو الإبل تقطع وتعب، والدليل ضيعنا في الصحراء، حتى
لمعت نارهم ورأينا نارهم وقد كنا شارفتنا على الموت.

فَتَأَمَّلْتُهَا وَفَكَّرِي مِنَ الْبَيْدِ مِنْ عَلِيلٍ وَطَرْفُ عَيْنِي كَلِيلُ
وَفَوَادِي ذَاكَ الْفَوَادُ الْمُعْنَى وَغَرَامِي ذَاكَ الْغَرَامُ الدَّخِيلُ

فهذا من أجمل ما قيل، والشهرزوري هذا كان ذا علم وفقه وشعر. يقول أحد
الشعراء:

وَكُنَّا قَاصِدِينَ إِلَى الْمُحْيَا إِلَى بَلَدِ الْمَعْنَى الشَّهْرَزُورِي
وَعَدْتُ أَنْ تَزُورِي كُلَّ شَهْرٍ فَهَذَا قَدْ تَقَضَّى الشَّهْرُزُورِي

الشهرزوري الأول هو العالم الفقيه القاضي. أما الثاني: فيعني: تقضى الشهر
وزال الشهر، فزوري، وهذا هو الجنس، وهو مثل الشقر في الجنوب؛ الكلمة واحدة
والمعنى مختلف.

وعلي بن جبلة العكوك هذا شاعر يستولي على القافية، يقول عندما زاره حبيب في الليل:

بأبي من زارني مكتماً حذراً من كل واشٍ جزعا

يقول: جاء يزورنا خائفاً من اللوام والعذال والجيران.

يقرع السن على تلك الخطا ثم ما سلم حتى ودعا

يقول: لم يمكث طويلاً عندنا. فما لبث أن ودعنا.

وهو صاحب البدائع، وقد قتله شعره هذا، فهو من الشعراء الذين ذكرتهم في قصائد قتلت أصحابها، علي بن جبلة؛ لأنه مدح أبا دلف الأمير بقصيدة لم يقل مثلها، التي يقول فيها:

فَارْعَوَى وَالْغَيَّ مِنْ وَطْرِهِ	دَادَ وَرْدَ الْغَيِّ عَنْ صَدْرِ
فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ	دَغَ جَدَا قَحْطَانَ أَوْ مُضَرِّ
حَجَرُ الْأَيَّامِ فِي حُجْرِهِ	وَأَمْتَدِحٍ مِنْ وَائِلِ رَجُلَا
وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفْرِهِ	الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ
بَيْنَ بَادِيهِ وَمُحْتَضَرِّهِ	إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دَلْفٍ
وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ	فَإِذَا وَلَّى أَبُو دَلْفٍ
بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ	كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ
يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهِ	مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٍ

يقول: كل العرب يكتسون المفاخر منك، كل العرب كباراً وصغاراً لا يأخذون المجد إلا منك أنت، فهو الأمير، وكان الخليفة المأمون، فمعنى ذلك أن المأمون يدخل في هذا، فغضب المأمون واستدعاه وأتى بالناس وحكم عليه بالإعدام، قتله بسبب هذا البيت.

لكن المأمون طبعاً أمام الرأي العام لا يظهر أنه قتله من أجل هذه الأبيات، قال: ابحثوا عن أبيات له في المعتقد؛ لكي نقول للناس وللأمة:

أَنْتَ الَّذِي تَنْزِلُ الْأَيَّامَ مِنْزِلَهَا وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
وَمَا كُتِبَتْ بِأَقْلَامٍ مَرْتَلَةٍ إِلَّا قُضِيََتْ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

قدح في الشريعة، وقد أخطأ في هذا وغلط، وأعوذ بالله، أتى بكلام يحاسبه عليه الله، فضرب رأسه على هذا.

ونعود إلى الشاهد وهو الزيارة، أبو نواس ذهب إلى الخصيب وهو أمير في مصر من قبل هارون الرشيد، فانطلق أبو نواس وقصده الجائزة، يقول بعد أن بدأ يتكلم عن فراق زوجته في العراق:

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي: رَحِيلُكَ فِي هَذِي الْفَلَاحِ عَسِيرُ
دَعِينِي أَسَلَّ الْهَمَّ عَنْكَ بِسَفْرَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ
إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيُّ دِيَارٍ بَعْدَهُنَّ تَزُورُ
فَتَى يَشْتَرِي حَسَنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
فَإِنْ أَنْتَ أُعْطِيتَ الثَّنَاءَ فَأَهْلُهُ وَلَا فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشُكُورُ

وهي من أحسن الأبيات، وقصدي هنا منها الزيارة.

وقد كان جبريل يزور رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين يقول ﷺ: «أَلَا تَزُورُنَا يَا جَبْرِيلُ، أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قال: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] يعني: نزوله بأمر من الله وبحكمة منه سبحانه وتعالى، فهو عبد مأمور، ينزل متى كتب الله سبحانه وتعالى نزوله، حتى إن الصحابة يعيشون الذكريات في زيارة سيد الخلق ﷺ لهم، فكان عليه الصلاة والسلام يزور أصحابه، يقول أبو ذر: «زارني



زائر الليل

رسول الله ﷺ مرة فما وجدني في بيتي، فدخلت وهو ﷺ على سريري...»
انظر إلى معلم الخير ﷺ سيد البشر، يزور أحد أصحابه، وتفاعلاً وإذا بسيد
البشر ﷺ على سريرك وفي بيتك! قال: «فلما رأني التزماني فكانت أحسن...»
أي: كانت أحسن من الأولى، كان في الغالب أن النبي ﷺ يصافحه، لكن لما تأخر
عليه التزمه، فكانت أحسن ما يكون.

وزار عليه الصلاة والسلام أبي بن كعب بعدما أظلم الليل، أمره الله عز وجل
أن يذهب إلى أبي بن كعب سيد القراء من الأنصار، هو سيد القراء في التلاوة
على الإطلاق، أبي المنذر، حتى إنه ﷺ سأله قال: «يا أبا المنذر، أي آية في
كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم. فأعاد السؤال، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فضرب ﷺ على صدره وقال: ليهتك العلم أبا
المنذر، فزاره النبي ﷺ وطرق الباب فخرج، فلما رأى النبي ﷺ حياه واستقبله،
جلس أكرم ضيف في العالم، قال: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة.
قال: وسماني في الملأ الأعلى؟ قال: نعم سماك. فبكى أبي، بكى من هذا الفرح،
هذا العبد الصالح يسميه ربه سبحانه وتعالى؛ إكراماً له في الملأ الأعلى عند
الملائكة! ويأمر رسول الله ﷺ أن يذهب ويقرأ عليه سورة البينة، فيكون هو سيد
القراء رضى الله عنه وأرضاه. فهذه من الزيارات.

ويقول أنس: «زارنا رسول الله ﷺ في بيتنا، وعندي أخ اسمه أبو عمير،
وعنده طائر اسمه النغر، فمات النغر هذا فحزن أبو عمير، فقال النبي ﷺ: يا
أبا عمير، ما فعل النغير؟ والحديث في البخاري، يداعبه ويؤانسه عليه الصلاة
والسلام، ويعيش قضيته، كأن القضية تخص الرسول ﷺ، وهو مشغول بإصلاح
العالم ﷺ، قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير».

حتى يقول الملاحدة: إن أهل السنة والمحدثين يروون أحاديث لا معنى لها مثل: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» وهي في البخاري، فذكر الشافعي ما يقارب ستين فائدة من هذا الحديث.

فقصدي أنه ﷺ كان يزور أصحابه، وصلى بهم ﷺ ومع أنس عجز، قال: «فصفت أنا والغلام في الصف الأول خلف رسول الله ﷺ والعجوز من ورائنا».

وكان الشافعي يزور الإمام أحمد، والشافعي أكبر سنًا من الإمام أحمد، فقال له بعض أصحابه: يا أبا عبد الله، كيف تزور الإمام أحمد وهو أصغر منك سنًا وأنت أجل وأكبر؟ فقال:

قَالُوا: يَزُورُكَ أَحْمَدُ وَتَزُورُهُ قُلْتُ: الْفَضَائِلُ لَا تَغَادِرُ مَنْزِلَهُ
إِنْ زَارَنِي فَلِفَضْلِهِ أَوْ زَرْتَهُ فَلِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالِينِ لَهُ

وهذا من تواضع الشافعي غفر الله له، وإلا فمنزلته عالية، وأحمد يعرف من هو الشافعي ويقدره، ويدعوله في السحر، حتى يقول أحمد رحمه الله لابن الشافعي: أبوك من السبعة الذين أدعو الله لهم في كل سحر.

فهذا يحترم وهذا يحب وهذا يتولى. حتى كتب الشافعي لأحمد بن حنبل مقطوعة يقول فيها:

أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةً
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمَعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سِوَاءَ فِي الْبِضَاعَةِ
تَعَمَّدَنِي بِنَصْحِكَ فِي أَنْفَرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النَّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنْ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ أَمْرِي فَلَا تَجْرَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَةً

فرد عليه أحمد بأبيات منها:

تَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَمِنْكُمْ قَدْ تَنَاوَلْنَا الشَّفَاعَةَ

فإنه من بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: الشفاعة تخرج من بيتكم والعلم النافع والنور والهداية، ويجعلون السلام ينوب عن نصف الزيارة، حتى يقول أحدهم:

جَدُّ لَنَا بِالسَّلَامِ إِنْ لَمْ تَزُرْنَا إِنْ بَذَلَ السَّلَامُ نَصْفُ الزِّيَارَةِ

وفي حديث حسنه بعض أهل العلم، وذكره الألباني في الجامع الصحيح: «زر غياً تزدد حباً» يعني: قلل الزيارة يزدد حبك عند الناس؛ لأن من يكثر التردد كما يقول ابن دريد يواجه بالملل، مثلما يقول العامة: خفف درجك يحل هرجك.

فأنت إذا أكثرت من الزيارة على الناس ملوك، فالواجب أن تقتصد في ذلك وأن تكون في أوقات محددة برتابة، «زر غياً تزدد حباً» على أن بعض المحدثين يجعله موقوفاً على بعض السلف، وبعضهم يحسنه.

ولأحدهم قول عندما لم يستطع أن يزور بعض محبيه، قال:

فِي حَالَةِ الْبَعْدِ نَفْسِي كُنْتُ أَرْسِلُهَا تَقْبَلُ الْأَرْضَ عَنْكُمْ وَهِيَ رَائِدَتِي

يقول: أنا لم أستطع أن آتي بجسمي فأرسلت نفسي لكم، وهذا من مبالغات الشعراء. ثم زار فيما بعد فقال:

وَهَذِهِ دَوْلَةُ الْإِصْبَاحِ قَدْ حَضَرْتُ فَا مَدُّ يَمِينِكَ؛ كَيْ تَحْظِيَ بِهَا شَفَتِي

يقول: أريد أن أقبل يمينك بشفتي، وعلى ذكر ذلك يقول عمارة اليمني الشاعر المشهور، للمعز الفاطمي عندما ذهب إليه من مكة من الحرم، وقد كان المعز الفاطمي يحكم مصر، فلما وصل إلى هناك قال:

فهل درى البيت أني بعد فرقتَه ما سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ

وهذه من المبالغات، ولما خرج من عنده قبل يده وقال:

وَإِذَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وَخَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلوُكُ يَمِينِي

يقول: لأنني قبلت يده يأتيني الملوك يلثمون يميني. وهذه مبالغات على جمال الشاعرية عنده.

وعلى ذكر الزيارة يقول أبو العلاء المعري وقد ذهب إلى الشريف المرتضى وهو من المعجبين بأبي الطيب المتنبي، فذهب يزور الشريف المرتضى في العراق قال:

وَرَدْنَا مَاءَ دِجْلَةٍ خَيْرَ مَاءٍ وَزُرْنَا أَشْرَفَ الشَّجَرِ النَّخِيلِ

يقول: أنت أيها الشريف المرتضى، شريف في الناس مقدم فيهم مثلما أن النخل يشرف على سائر الشجر، ولهذا يذكر السقاف صاحب العود الهندي على أبيات الكندي يقصد المتنبي، وهو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، قال مقطوعة في الشريف المرتضى، والشريف الرضي غير الشريف المرتضى، أو جده علي بن موسى الرضا الذي كان ولي العهد في عهد المأمون، المأمون كان ذا ميل لأهل البيت، فجعل ولي العهد منهم ولم يجعله من بني العباس بعدما اختلف مع أخيه الأمين، فأتى أبو نواس ومدح الوزراء والأمراء ونسي ولي العهد الذي هو علي بن موسى الرضا، من بيت النبوة على نبينا الصلاة والسلام، قال له الناس: تترك يا أبا نواس، علي بن موسى الرضا وهو من بيت النبوة وتمدح فلاناً التاجر وفلاناً البقال وفلاناً الحطاب..! فأتى يعتذر وذهب إلى علي بن موسى الرضا يعتذر لنفسه، قال:

قِيلَ لِي أَنْتَ وَاحِدُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَعْنَى مِنَ الْكَلَامِ بَدِيهِ

لك في جوهر الكلام بديع يثمر الدر في يدي مجتنيه
فعلام تركت مدح ابن موسى بالخصال التي تجمعن فيه
قلت: كيف أهتدي لمدح إمام كان جبريل صاحباً لأبيه

قال السقاف بعد هذه القصيدة: يكسر القلم من جودتها ويحرق القرطاس،
ليس بعدها شيء، فهو أنصفه ومدحه مدحاً راقياً.

وأبو العلاء عندما صار عند الشريف المرتضى، والشريف المرتضى يكره
المتنبي حسداً منه، فلما وصل أبو العلاء في البلاط، وكان الشريف المرتضى
يعرف أن أبا العلاء يموت حباً في المتنبي، قال: شيخك الضال الذي تستشهد
به... وهو يقصد المتنبي شيخه وأستاذه.

قال: لا تسبه أيها الأمير، لو لم يكن له إلا قصيدته الرائعة التي يقول فيها:

لك يا منازل في القلوب منازل أقضرت أنت وهن منك أو اهل

قال الشريف: اطروده من المجلس، فلما أخرجوه قالوا: يا أيها الأمير، ما قال
بأساً، إنما قال قصيدة فقط، فقال الأمير: لا! هو قصده آخر القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني كامل

فانظر إلى بداهة وقريحته كيف فهم! وإلا فللمتنبي أجمل من هذه القصيدة،
لكن أبا العلاء المعري يريد نفس هذا البيت، وهذا ذكاء يوجد عند الشعراء يدركه
بالذائقة بعض الأذكياء، مثل أبي جعفر المنصور الذي اعتمر، ثم ذهب إلى مدينة
الرسول ﷺ، قال: ابحثوا لي عن شيخ يدلني على الديار وعلى القرى وعلى بيوت
الصحابة وبيوت المهاجرين والأنصار.. فوجدوا شيخاً كبيراً، فقال للشيوخ: فقط
البيت؛ فأتى الشيخ الكبير: هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت زيد بن ثابت.. هذا

بيت أبي بن كعب.. هذا بيت مصعب.. هذا بيت عمر.. مضت تلك الليلة ولم يعطوه الأجرة، نسوا، وفي اليوم الثاني أتى الشيخ يعرض بشعر؛ لكي يفهم الخليفة، فلما وصلوا إلى بيت شاعر قال: هذا بيت الأحوص يا أمير المؤمنين الذي يقول:

يا بيتَ عاتكةَ التي أتغزلُ حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ موكلُ
إنِّي لأمنحك الصدودَ وإنني -قسماً إليك- مع الصدودِ لأُميلُ

فسكت أبو جعفر وعاد إلى الوزراء في المجلس، فقال: أكملوا لي القصيدة؛ لأن هذا الشيخ لم يأت بهذه الأبيات إلا لغرض، وأنا قد أخبرته ألا يذكر إلا اسم البيت فقط، لماذا يأتي ببيت؟

فأكملوا القصيدة، وإذا في آخرها:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضهم مدقُّ الكلامِ يقولُ ما لا يفعلُ

قال: أما أعطيتموه الأجرة؟ قالوا: لا، قال: إذاً هو يقصد هذا، أعطوه حقه، فهو استشهد بشعر الأحوص في مدحه رجلاً.

كلامه معسول لكنه لا ينفذ، يقول: أبشروا بما يسركم، أبشروا بالشيب، وليس عنده شيب ولا خير، لا ينفذ شيئاً، فعرف أبو جعفر.

وكان من أبخل الناس، اسمه أبو الدوانيق، أتى بمغنٍ في الطريق إلى طريق الحج قال: أنشد لي نشيداً، فأنشده يوماً كاملاً، فأعطاه درهماً، قال: سبحان الله! والله إن الوليد بن يزيد أنشدته هذه الأبيات، فأعطاني مئة ألف درهم، وأنت تعطيني درهماً! فقال: رد المال الذي عندك من الوليد؛ لأن الوليد سرقها من بيت مال المسلمين وأنت سرقته منه، قال الوزراء: فما زلنا به حتى عفا عنه؛ لكي لا يرتد المال الأول الذي أخذه من الوليد بن يزيد.

زائر الليل

وزار أحد المحدثين أحد الأمراء، فقال:

مَنْ زَارَ أَبَاكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ
تَرْوِي أَحَادِيثَ مَا أُولِيَتْ مِنْ مَنِ
وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ
فَالْعَيْنُ عَنْ قَرَّةَ وَالْكَفُّ عَنْ صَلَةٍ

على نظام المحدثين.. يقول: (مَنْ زَارَ بَابَكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ): لأن هذا محدث. (تروي أحاديث ما أوليت من منن): من خير وعطايا.

(فَالْعَيْنِ عَنْ قَرَةٍ) يقال: عين قريرة وقرة عين. وقرة بن شريك هذا محدث، يقول: نروي عن قرة. (وَالْكَفُّ عَنْ صَلَاةٍ) يقول: توصل صلاة وتعطينا هدايا. وصلة هو صلة بن أشيم العابد الزاهد.

(وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ): جابر بن عبد الله رضي الله عنه، يعني أنك تجبر قلوبنا.
(وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ): من أحسن ما نسمع، وهو يقصد الحسن البصري المحدث
العالم الكبير.

وزار أيضاً رجل^{٢٥} الأمير تميم، فقال فيه:

أَصْحٌ وَأَعْلَى مَا سَمِعْنَاهُ مِنْ نَدَى
عَنِ الْغَيْثِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمٍ

انظر إلى السرد: عن .. عن .. عن .. لأن المحدثين يقولون: عن فلان .. عن فلان .. عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ.

وعند اللقاء يستحسن أن تتشد شعراً، حتى إذا لقيت إنساناً أن تقول له بعض الأبيات إذا كان ذا صدارة ووجاهة، فهذا من أحسن ما يقدم، كما قال عمر: «نعم الرجل يقدم بين يدي حاجته شيئاً من الشعر» وقد كان السلف يفعلون ذلك.

التقى الزمخشري العلامة المعتزلي الكبير صاحب الكشاف وابن الشجري
النحوي اللغوي، ما كان يعرف أحدهما الآخر، قال ابن الشجري: أنت الزمخشري؟
قال: نعم، قال: لا إله إلا الله!

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تَخْبِرُنَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ أَرُوْعَ الْخَبْرِ
حَتَّى التَّقَيْنَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي

قال الزمخشري: أنت ابن الشجري؟ قال: نعم. قال: لا إله إلا الله، أنت كما
قال أبو الطيب المتنبي:

وَأَسْتَعْظُمُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقَيْنَا صَغَرَ الْخُبْرُ الْخَبْرِ

نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين متحابين فيما بينهم، ويتزاورون في الله.



الرأي قبل الشجاعة

يقول أبو الطيب المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشُّجعانِ

هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

فإذا هُما اجتمعَا لنفسٍ حرّةٍ

بلغَا من العلياءِ أيَّ مكانٍ

ولربّما طعنَ الفتى أقرانه

بالرأي قبل تطاعنِ الأقرانِ

هذه القصيدة بديعة؛ لأنه بدأها بحكمة،

وهذه الحكمة موقع عليها من العلماء والحكماء،

فإنه يقول: إن الرأي يقدم على الشجاعة فإنك

تدرك بالرأي السديد ما لا تدرك بالشجاعة؛ لأن الشجاعة يصحبها التهور أو الطيش أو نحو ذلك أحياناً، أما الرأي السديد فإنه تأتي بعده الأمور على خير، فقدم صاحب الرأي على صاحب الشجاعة. لكن إن اجتمع الرأي والشجاعة تكن للنفس مروءة وشهامة وبلغت من العلياء مبلغاً عظيماً.

وهذا مما يشكر له، هذا الإبداع وهذه الحكمة التي قالها، والحقيقة أن الرأي موهبة من الله سبحانه وتعالى يهبه من يشاء، فتجد رأي بعض الناس يعادل ألفاً، وأسدُّ الناس وأكثرهم رأياً وأغزرهم حليماً وحكمة هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك كانوا يشاورون، فكان سيد الخلق ﷺ يشاور أصحابه، ففي بدر لما نزل ﷺ ذاك المنزل قال له الحباب بن المنذر الأنصاري: «أهوى يا رسول الله، رأي أراك الله إياه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» قال ﷺ: «هو الرأي والحرب والمكيدة» أي: يقبل الشورى، فأشار على رسول الله ﷺ أن ينزل عند آخر الآبار؛ حتى يجعل الماء خلف ظهره ويجعل حصاراً عن الماء على المشركين وحصل ذلك؛ فالرسول ﷺ شاورهم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فلا يستغني الإنسان مهما كان له من الرأي السديد ومن الخبرة والتجربة أن يشاور الرجال؛ فإن منهم أهل الآراء، وما أحسن من تلقيح عقول الرجال بالمشورة؟

يقول أبو تمام:

وَلَوْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ تَأْتِي عَلَى الْحِجَابِ هَلَكْنَ إِذَا مِنْ جَهْلِهِنَّ الْبَهَائِمُ

إن ميزة الرجال والناس هي العقول، وهذا هو الصحيح، وميزها الله سبحانه وتعالى عن البهائم، فلو كان لا يرزق إلا عاقل، فلن يرزق الله البهائم، لكن الله رزقها سبحانه وتعالى، يعطي العاقل وغير العاقل، ويقول أبو تمام يعزي:

أَتَصْبِرُ لِلْبُلُوى رَجَاءً وَحَسْبَةً فَتَوْجُرُ أَمْ تَسْلُو سَلْوُ الْبَهَائِمِ

الرأي قبل الشبابة

يقول: إنك إذا لم تصبر وقت الصدمة ووقت الحادثة حتى تؤجر فسوف يمر بك وقت تسلو مثلما تسلو البهائم؛ فإنك تجد بعض الناس لا يصبر فيفوته الأجر وبعد أوقات وسنوات وأعوام تجده يسلو مثلما تسلو البهائم.

فالرأي هذا موهبة، وقد تميز به أناس في التاريخ العربي، حتى وصل إلى درجة الدهاء، وإذا ما كان هناك سداد ومراقبة الضمير وخوف من الله صار خبثاً وصار مكرراً، والإسلام ينهى عن المكر وينهى عن الخبث.

ومن دهاة العرب الذين ذكرهم التاريخ: عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن أبيه والمغيرة بن شعبة.

قالوا: المغيرة بن شعبة لكبارها، وعمرو بن العاص لسريعها (للمفاجآت)، وزيد بن أبيه للكبار والصغار، ومعاوية للأناة، والعجيب أن الأربعة اجتمعوا مع معاوية، فلذلك صراحة كانوا جبهة من الدهاء ومن الرأي وذهبوا إلى ربهم سبحانه وتعالى.

حتى إن عمرو بن العاص قال لمعاوية: أنا أدهى أم أنت؟ قال: ما أدري ولكن ادن مني أكلمك - وهما وحدهما - فدنا منه، فقال له معاوية: أمعنا أحد حتى تقرب مني؟ وهذا من باب المزاح الأدبي الذي يذكر عنهما.

ومن دهاة العرب وأهل الحلم والرأي فيهم قيس بن عاصم المنقري وهو سيد بني تميم قبل الأحنف بن قيس، حتى قال فيه الشاعر:

عليك سلام الله قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحمًا
تحية من أوليته منك نعمة	إذا زار عن شطط بلادك سلما
وما كان قيس هلكه هلك واحد	ولكنه بنيان قوم تهدما

فصار في الحلم والرأي مضرب المثل، والأحنف تولى مشيخة بني تميم وقيادتهم بعد قيس بن عاصم وهو من عشيرته.

وقد وفد قيس بن عاصم على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويروى في بعض كتب السير: أنه ﷺ قال له: «يا قيس، إن معك قريناً تدفن معه وأنت ميت، ويدفن معك وهو حي وهو عملك، يا قيس، إن مع الغنى فقراً، وإن مع العزة ذلة، وإن مع القوة ضعفاً» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وعند أبي داود: أنه لما أسلم أمره ﷺ أن يغتسل، في بعض الألفاظ: «ألقِ عنك شعر الكفر واغتسل» يعني: احلق رأسك واغتسل، فغسل رأسه واغتسل، ويستدل العلماء بوجوب الغسل إذا أسلم الإنسان: يغتسل لإسلامه بحديث قيس ابن عاصم عند أبي داود هذا.

أما الأحنف فقليل له: من أين تعلمت الحلم؟ قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم، قالوا: كيف؟ قال: كنا جلوساً معه في مجلس مرة وهو محتبٍ - والاحتباء أن يلف عليه قماشاً أو كساء أو نحو ذلك ويجلس رافعاً رجله إلى ركبتيه - قال: وكان يقص علينا، فدخل أحد أبنائه، وقال: يا أبتاه - يخاطب قيس بن عاصم - فلان قتل أخي، قال: فوالله ما أنهى قصته ولا حل حبوته، فلما انتهى قال للابن هذا بحلم وبسعة وب عقل: اذهبوا إلى أخيك ففسلوه وكفنوه ثم اتئونني به أصلً عليه، ونعط أمه - يعني: زوجته - مئة ناقة دية له، فدفع الدية، وعفا عن القاتل، وأمر بغسل هذا الابن. فتعلم الأحنف، يقول: تعلمت الحلم من هذه المدرسة التي لا يوجد مثلها، فهو حلیم العرب، هذا قيس بن عاصم إذا ضرب الحلم فهو حلیم على الإطلاق.

ثم جاء الأحنف بن قيس من دهاة العرب ومن علمائهم ومن أهل الرأي فيهم، حتى ذكره ابن تيمية في كتاب الفرقان يقول: إنه كان يصلي في الليل وكان يلذع

الرأي قبل الشبابة

أصابه بالنار، ويقول: ذق قبل أن تذوق، حتى يخوف نفسه من نار جهنم ويبكي، غفر الله له.

وممن اشتهر بالدهاء وجودة الرأي والعقل ابن عباس، عبد الله بن عباس الحافظ العالم حبر الأمة وبحرها وترجمان القرآن، حتى يقول لعلي بن أبي طالب: من جعلت مقابلاً ونديداً لعمرو بن العاص؟ لأن معاوية اختار عمرو بن العاص في يوم الحكمين؟ قال: جعلت أبا موسى الأشعري، قال: لا يا أمير المؤمنين، إن عمراً رجل قارح باز مرس-يعني: داهية- فافقرني به، اجعلني قريناً له، والله ما يفتح باباً إلا أغلقته، ولا يغلق باباً إلا فتحت، فعلم أنه من أدهى الناس، مع العلم الذي آتاه سبحانه وتعالى ومع الفصاحة والنباهة، بل إن الموسوعية العلمية تختار ابن عباس لهذا الأمر، حتى إنه لما عمي رضي الله عنه كان يعزيه بعض الناس قال:

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْرَهُمَا فَفِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نَوْرٌ
عَقْلِي ذَكِيٌّ وَقَلْبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ وَفِي فَمِي صَارُمٌ كَالسَيْفِ مَشْهُورٌ

ومن الدهاة وأهل الذكاء: إياس بن معاوية القاضي، وهو مضرب المثل، وفي سيرته يقول: إني أذكر اليوم الذي ولدت فيه (يوم خرج من بطن أمه). والله أعلم، ويأتي بأخبار عجيبة، وفي القضاء له ذهن وقاد، فأبو تمام مدح المعتصم، فقال:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ

يقصد إياس القاضي.

وهو في الذكاء جد عجيب، أتت إليه مجموعة من النساء فقال: إحدهن بكر، والثانية: حامل وحامل بولد، والثالثة ثيب، ودخل عليه رجل فقال: هذا رضع مع كلبة، قالوا: كيف عرفت؟ قال: البكر فيها حياء ولا تمد نظرها فعرفت أنها بكر، والثيب: رأيتها جريئة وتتكلم، وهذه الحامل بولد رأيت في صوتها ضعفاً، والمرأة

إذا حملت بغلام ضعف صوتها، فبحثوا فوجدوها كما قال، وأما هذا فإنني رأيته يرتعد وفي كلامه هوج فأظنه رضع من كلبة، فسألوا أمه، فقالت: ذهبت للبادية عند فلانة فانقطع لبنها فوجدوا كلبة وأشرف على الموت فحلبوا له من لبنها فشرب، فأنته اللوثة والهوج من هذا، فهو أول العجب في هذا.

واختصم مرة عنده رجلان، فقال أحدهما: لي مال على فلان، قال ذاك: ما له علي شيء، قال إياس: أين أعطيته المال؟ قال: أعطيته بجانب شجرة كبيرة في الطريق - قريباً من البصرة أو كذا - قال: اذهب إليها لعلك تجد المال قريباً منها والتمس، قال: أيها القاضي، لن أجد، قال: اذهب لعلك تجد المال هناك، فذهب وتغافلوا إياس، وذاك المنكر للمال جالس، وتغافل عنه وأخذ يكتب، ثم رفع طرفه، وقال: أظن أنه اقترب من الشجرة؟ قال: لا، هي بعيدة، فكتب إقراره وأخذ منه بذلك. وهذا من ذكائه، وله في ذلك قصص عجيبة وغريبة، وهو من سادات القضاء على الإطلاق.

وذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي في الأذكياء وغيره، قال: لما حضرت نزار ابن معد الوفاة، قسم ماله بين بنيه، وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، وقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من المال لربيعة، وهذه الخالة وما أشبهها من المال لإياد، وهذا المجلس لأنمار يجلس فيه. ثم قال لهم: إن أشكل عليكم الأمر في ذلك واختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى بن الأفعى الجرهمي. وإنه لما مات نزار توجهوا إلى الأفعى، وكان ملك نجران، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاً قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا أعور، فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبز، وقال أنمار: وهو شرود. فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزور؟ قال نعم. قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، هذه صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا

له إنهم ما رأوه، فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟! ثم سار معهم، حتى وصلوا نجران ونزلوا بالأفعى الجرهمي. فقال الشيخ صاحب البعير: هؤلاء أصابوا بعيري فإنهم وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره أيها الملك، فقال الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئه لازوراره. وقال إياد: رأيت بعره مجتمعاً، فعلمت أنه أتر، ولو كان ذياً لمصع به. وقال أنمار: رأيته رعى الملتف نبتة، ثم جاوزه إلى مكان آخر أرق منه، فعلمت أنه شرود. فقال الأفعى للشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهم: من هم؟ فأخبروه، فرحب بهم. ثم قال: أحتاجون إلي وأنتم كما أرى؟ فدعا لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً أجود، لولا أنها على مقبرة. وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أجود لولا أنه ربي بلبن كلبة! وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أثري منه لولا أنه ليس بابن أبيه الذي يدعى إليه! وقال أنمار: لم أر كاليوم خبزاً أجود لولا أن التي عجنته حائض!

وكان الأفعى قد وكل بهم من يستمع كلامهم، فأعلمه بما سمع منهم فطلب صاحب شرابه، وقال له: الخمرة التي جئت بها ما قصتها؟ قال هي من كرمه غرستها على قبر أبيك، لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها. وقال للراعي: اللحم ما أمره؟ قال: من لحم شاة أرضعناها بلبن كلبة، لم يكن في الغنم أسمن منها. فدخل داره، وسأل الأمة التي عجن العجين، فأخبرته أنها حائض. ثم أتى أمه وسألها عن أبيه؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملك، فأمكن رجلاً نزل بهم من نفسها فوطئها، فأنت به، فعجب من أمرهم، وأرسل لهم من يسألهم عما قالوا؟ فقال مضر: إنما علمت أنها من كرمه غرست على قبر؛ لأن الخمر إذا شربت أزال التهم، وهذه بخلاف ذلك؛ لأننا لما شربناها دخل علينا الغم. وقال ربيعة: إنما علمت أن اللحم لحم شاة رضعت من لبن كلبة:

لأن لحم الضأن وسائر اللحوم، شحمها فوق اللحم إلا الكلاب، فإنها عكس ذلك، فرأيتها موافقاً له، فعلمت أنه لحم شاة رضعت من كلبة، فاكتسب اللحم منها هذه الخاصية. وقال إياد: إنما علمت أن الملك ليس بابن أبيه الذي يدعى إليه لأنه صنع لنا طعاماً ولم يأكل معنا، فعرفت ذلك من طباعه؛ لأن أباه لم يكن كذلك. وقال أنمار: إنما علمت أن الخبز عجنته حائض؛ لأن الخبز إذا فت انتفش في الطعام، وهو بخلاف ذلك فعلمت أنه عجين حائض.

فأخبر الرجل الأفعى بذلك، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم أتاهاهم فقال لهم: قصوا قصتكم، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوههم، وما كان من اختلافهم. فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر، فصارت له الدنانير والإبل وهي حمراء فسميت مضر الحمراء. ثم قال: وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصارت له الخيل وهي دهم فسميت ربيعة الفرس. ثم قال: وما أشبه الخالة، وكانت شمطاء، من مال، فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض. فساروا من عنده على ذلك.

فقصدي أن الرأي والذكاء هذا موهبة؛ حتى يقول المتنبى في القصيدة:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

يقول: لو كانت المسألة بغير العقل لكان الأسد أشرف، ومعلوم أن الأسد شجاع ومقدام، لكن لما سلب الله عقله فقد سلب هذا الشرف. الله شرف الإنسان بالعقل، والعقول تختلف، والناس درجات في العقل، فمنهم من يعادل ألفاً كما قال ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

ومنهم من لا يساوي شيئاً، ومنهم من سلب العقل أصلاً؛ ولذلك يقول الحكماء: إذا أردت أن تحمد الله دائماً فاحمده على العقل، زر المارستان

الرأي قبل الشجاعة

(مستشفى المجانين) لتحمد الله على العقل، وزر المستشفى لتحمد ربك على العافية، وزر المقبرة لتحمد ربك على الحياة، وزر السجون لتحمد ربك على الحرية، وزر المسجد كل يوم خمس مرات؛ لتعرف ربك.

هذه زيارات إيمانية، وأنت إذا أردت أن تنظر فانظر كيف انصرف أهل العقول بعقولهم بالمعاصي، مثلاً المخدرات، كيف تجد الإنسان سميعاً بصيراً كان بإمكانه أن يكون نافعاً ورجلاً مصلحاً وحامل مبدءاً وصاحب فضيلة ثم يسلب عقله تماماً، وكذلك السكران أو من أصيب بالمعاصي ثم ضعف عقله؛ لأن المعاصي تضعف العقول بإجماع العلماء، بخلاف (أولي الأبواب) الذين مدحهم الله سبحانه وتعالى بالفهم عنه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام.

فإنما قلت هذا لأدلل لكم أن كلام المتنبي في مكانه، وأنه لا يفضل الشجاع الأهوج على العاقل الرزين صاحب الرأي ولو كان جباناً؛ لأن صاحب الرأي سيحتال لجبنه ويسدد برأيه، أما الشجاع المتهور فإنه أحياناً يخطئ وأحياناً يضر أكثر مما ينفع.

فالمقصود الرأي المسدد لا الرأي الذي فيه مكر؛ لأن بعض الشعراء يمدحون الماكر الذي يمكر بالناس، والخبيث في رأيه الذي يتدهى لأخذ أموالهم ويغلبهم، وهذا في الإسلام محرم، والمطلوب الرأي السديد الذي يوصلك إلى النجاح وإلى الفضيلة وإلى الحق والعدل، لا الرأي الذي يتحول إلى دهاء وإلى خبث وإلى مكر حتى تلدغ به الناس وتحتال عليهم وتسيء إليهم؛ ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: لست بالخب ولا الخب يخدعني؛ أي: لست ماكرأ أمكر بالناس، وأيضاً لا أرضى أن يمكر بي أحد، وهذا غاية العقل، فإن الإنسان لا يكون ماكرأ خبيثاً ولا يرضى أن يضحك عليه الناس ويلعب عليه الناس ويستهزئ به الناس.

وقد يستخدم الرأي في نصرة الإسلام لمن وجهه، حتى لو كان في دهاء، إذ تجوز الخديعة في الحرب بأعداء الله عز وجل، يقول عليه السلام: «الحرب خدعة»؛ لأنها تقوم

على ذلك، ما دام الخصم يخدع بك ويخطط لك، فخطط أنت له، الجزاء من جنس العمل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠] كما يقول نابغة بني جعد:

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبراً
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] قوة الرأي.. قوة المكر..
قوة السلاح.. قوة العلم.. قوة الاقتصاد.

ولما تألفت الأحزاب ضد الرسول ﷺ والصحابة في معركة الخندق اجتمع المشركون من قريش وقبائل العرب ومعهم اليهود، فأتى نعيم بن مسعود أحد الدهاة، فأسلم، وقال للرسول ﷺ: يا رسول الله، ائذن لي أن أنقل كلاماً بين اليهود فأفسد بينهم، يعني: يشق عصاهم، بالدهاء.. بالذهن.. بالرأي السديد.. بالمكر؛ لأنهم أعداء لله عز وجل، فيحاربهم بهذا السلاح، فأذن له ﷺ، وهو لما يعلن إسلامه بعد، فذهب إلى قريش واليهود، يضرب ما بينهما ويشتت شملهم، فذهب أولاً إلى اليهود في المدينة وقريش أتون من مكة يقاتلون، قال: سوف تأتي قريش يقاتلون محمداً، فإذا إذا انتصرتهم أخذوا الغنائم وذهبوا، وإذا غلبتم ذهبوا إلى مكة سالمين غانمين وأنتم سوف يقع فيكم القتل والأسر وسوف يستبد بكم محمد، وأنتم الذين تدور عليكم الدائرة، قالوا: صدقت، قال: أما تعرفونني ناصحاً- وكان لهم صديقاً- قالوا: أنت ناصح لا نتهمك، قال: ألسنت بصديق لكم وصاحب؟ قالوا: أنت الصاحب والصديق، قالوا: فما هو الرأي؟ قال: خذوا من قريش خمسين رجلاً رهينة، قولوا: فإن انتصرنا أطلقناهم، وإن وقعت علينا الغلبة فأنتم معنا حتى تنصرونا؛ لأننا نخشى أن تأتوا معنا فإذا غلبنا تركتمونا ورجعتم إلى مكة، وسوف يستولي علينا المسلمون قتلاً وأسرًا، قالوا: نعم الرأي الذي أشرت به.

ثم ذهب وما درى اليهود، ووصل إلى كفار قريش، قال: ألسنت صديقكم؟ قالوا: بلى، قال: ألسنت بصاحبكم؟ قالوا: بلى، قال: ألتهمونني؟ قالوا: ما نتهمك- وهو أسلم بحمد الله- قال: فإن اليهود سيطلبون منكم ستين أو خمسين رهينة،

الرأي قبل الشبابة

وقد اتفقوا مع محمد يسلمونهم هؤلاء الرهائن يقتلهم، فإذا طلبوا منكم فلا تفعلوا- وهو الذي أشار على أولئك- فاجتمع هؤلاء وهؤلاء، قال اليهود: ما نفع إلا بخمسين من الرهائن والأسارى، فقال كفار قريش: هذا الذي نصحننا نعيم ابن مسعود، قالوا: ما نفع وأقسموا ما يفعلون، قال اليهود: هذا الذي حذرنا نعيم ابن مسعود، فاختلفوا فتنازعوا فتشتت شملهم، فهزمهم الله سبحانه وتعالى بهذا الرأي المتين، فشكر له ﷺ هذا الرأي وهذا الدهاء الذي يحتاج إليه المسلمون؛ لأن الغبي كما يقول أبو تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

الغبي لا يكون سيداً ولا ما جداً، لكن من يتغابي وهو داهية. فمن التغابي أن تتغافل عن زلات الناس، أمح الزلة واتركها تمر، مثلما قال حاتم:

وكلمة حاسدٍ من غير جرمٍ سمعتُ فقلتُ مري فأنفذيني
وعابؤها عليّ ولم تعبني ولم يند لها أبداً جبيني

يقول الإمام أحمد: التغافل تسعة أعشار حسن الخلق، تسمع الزلة فقل: لا يقصدنا، وجد له تبريراً، الله أعلم بمراده، لا ترد على كل كلمة وتجازيه على كل سيئة، بل تدفع بالتي هي أحسن، وهذا من جودة الرأي، ومن جودة الرأي الذكاء، ومما نقل عن الشافعي أنه كان آية في الذكاء وجودة الرأي، ومنهم الشعبي العالم الكبير والزهري وغيرهم.

وأبو بكر الباقلاني من العلماء الكبار أرسله الخليفة العباسي إلى ملك الروم، وملك الروم أراد أن يهين أبا بكر الباقلاني، قالوا: هو لا ينحني، وأبو بكر عالم جليل وصاحب شريعة إمام لا ينحني لملك الروم، ومن عادة الوفود إذا أتوا عند ملك الروم أن ينحنوا، وهذا محرم في الشرع، عندنا في الإسلام لا تنحني لأحد

إلا لله، ولا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا لله، فقالوا لملك الروم: أبو بكر الباقلاني إذا جاء لن ينحنى لك أمام الناس، قال: سوف أجعله ينحنى، فأمرهم أن يقصروا في الباب، بحيث يكون الدخول على قدر الراكع، قال: فإذا دخل غض من رأسه وانحنى ودخل إلينا، ثم جمع الوزراء والمستشارين من علماء النصارى عنده، وأمر أبو بكر الباقلاني أن يدخل عليه، فلما رأى الباب قصيراً عرف المكيدة، فرجع على الخلف ومشى إلى ظهره ورجع يمشي على الوراء إلى الخلف، ثم التفت فجلس عنده، وكان عند ملك الروم راهب، والراهبان عندهم حرام أن يكون لهم أولاد وذرية، فقال أبو بكر يبدأ معهم النقاش: كيف حال الأبناء؟ كيف حال البنات والأهل؟ قال: أما تستحي أنا يكون لي أبناء وبنات؟ لا بد أن يكون الراهب منقطعاً عن الدنيا.. منقطعاً عن الأبناء.. منقطعاً عن البنات. قال: سبحان الله تنزه نفسك من الأولاد والبنات وتنسبها إلى الله- لأنهم ينسبون عيسى ولد الله ﷺ - فاحمر وجهه وغضب- لأنه صاده صيدة، يعني: أنت بشر تأنف أن يكون لك ولد وبنت، وتنسب عيسى تقول: ابن الله، قال: ماذا قيل في عائشة زوجة رسولكم ﷺ - يعني: كلام المنافقين- قال: قيل فيها وبرأها الله كما برأ الله مريم وعند مريم ولد- يقول أبو بكر: لو كان بشيء كان عند مريم ولد وقد قالوا فيها وبرأها الله، فمن باب أولى عائشة ما عندها ولد والله سبحانه وتعالى برأها فهي البريئة مثل براءة مريم- فعجب الناس لذكائه؛ ولذلك اختاره الخليفة ليرسله لمثل ذلك.

وأما سرعة البداهة فهي من الذكاء والرأي، مثلما يقول أبو الطيب. ومن أسرع الناس بديهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، سأله رجل: كم بين الأرض والعرش؟ قال: دعوة مستجابة.

يعلمون بأمور ربانية، ما عندهم أميال ولا مقاسات هندسية، دعوة مستجابة؛ لأن النبي ﷺ يقول لمعاذ: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، وفي بعض الآثار: «إن الله يقول لدعوة المظلوم: وعزتي وجلالي لأنصرتك ولو بعد حين»، فالدعوة السريعة هي دعوة المظلوم.

الرأي قبل الشبابة

قال رجل لعلي بن أبي طالب: كم بين الشرق إلى الغرب؟ قال: مسيرة الشمس يوماً.

قال: ما للناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قال: لأن رعية أبي بكر وعمر أنا وأمثالي، ورعيتي أنت وأمثالك.

قال: أنت أحسن الناس، قال: أنا فوق ما في نفسك ودون ما تقول، فأنت في نفسك أني لست بذاك، فأنا فوق ما في نفسك، وأنت بالغت في القول وأنا دون ذلك. هو يصنع الكلمات رحمته الله، الكلمة المشهودة التي يقول ابن عبد البر: ما قيل مثلاً: قيمة كل امرئ ما يحسن.

ومن الدهاة في سرعة البداهة ابن أبي العيناء الذي ألف فيه كتاب: أخبار ابن أبي العيناء للشيخ العبودي؛ فعنده سرعة بديهة للجواب، وكان أعشى وكان مجدر الوجه، فرآه رجل من حساده، فقال: كأن وجهك وجه قرد، قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨].

ومرة مرّ بوزير اسمه ابن عبيد الله كان في الدين متساهلاً، ليس بصاحب صلاة ولا دين، فقام يتنفل، قالوا: ما رأيك يا ابن أبي العيناء الوزير يتنفل؛ يصلي الضحى؟ قال: لكل جديد لذة، ذاق طعم الصلاة، فوجد لذة.

والعمري كان رئيس وزراء اليمن وأديباً له كتاب: سفينة الأدب والتاريخ، يقول: كان هناك رجل سريع البديهة من العلماء، فجلسوا يتغدون عند أحد الأعيان في اليمن، وهذا الرجل مشهور عنه أنه يتعامل بالسحت، يتعامل بالربا، ومشهور عنه الكذب، فهم على مأدبته على الغداء عند السفارة عنده وهو لم يجلس معهم، جلس يناظر فيها ويحكي لهم كذباً، يحدثهم قصصاً خرافية، ثم التفت إلى العالم وقال: كيف حالكم يا فلان؟ قال: ﴿سَمِعُوكَ الْكَذِبَ أَكَلُّونَ لِلْسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وهذا لفظ القرآن، الله سبحانه وتعالى يقول عن بني إسرائيل: ﴿سَمِعُوكَ

لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَسَنَةِ ﴿[المائدة: ٤٢]﴾ يقول: يسمعون الكذب ويعملون به، ويأكلون السحت، فانظر كيف أجابه، يقول: نحن نأكل على مآدبتك السحت ونسمع الكذب، لكن لا يأتي بمثل هذه إلا قليل من الناس، وابن الجوزي أتى في كتاب الأذكياء بنقولاً من هذا، ومن أذكى الناس سيد الخلق ﷺ.

وأبوسفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ كان من الذين يهجون رسول الله ﷺ، وكان يحاربه في الغزوات، وكان ضده، فلما أتى الفتح، والرسول ﷺ يريد فتح مكة يقيم دولة العدل ويلغي دولة الظلم والاستبداد والكفر، فجاء أبو سفيان فأخذ أطفاله يريد الفرار بهم إلى البرية، فلقبه علي بن أبي طالب، قال: إلى أين يا أبا سفيان؟ قال: أذهب بأطفالي، والله لئن وجدني محمد ليقطعني إرباً إرباً، قال: والله ما صدقت، والله إنه أبر الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، انظر إلى ذكاء علي! عد إليه يا أبا سفيان، وأسلم، فإذا أسلمت فسلم عليه بالنبوة أي: على الرسول ﷺ - وقال له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، لأنهم قرابة وأبناء عمومة، ويعلم علي أن الرسول ﷺ سوف يأتي بالآية التي بعدها، جواب يوسف عليه السلام؛ لأن يوسف لما قال له إخوانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فجاء أبوسفيان - وحفظه علي - في الطريق قال أبوسفيان: ما هي الكلمة؟ قال: قل: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] مع العلم أنه قاتل، وسب رسول الله ﷺ بقصائد، وشارك في إيدائه وشارك في طرده، لكن انظر أحلم الناس عليه الصلاة والسلام، ورسول الله ﷺ جالس، مثلما قال البوصري:

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلَقَّاهُ وَفِي حَشَمِ

الرأي قبل الشبابة

وحيد كأن الدنيا معه عليه الصلاة والسلام، عليه من المهابة والجلالة والصدق والكرم والوفاء ما يعلم الله من حسن ومن كرم، فأتى ومن الصحابة من هو واقف، فأتى أبوسفیان وقال: السلام عليك يا رسول الله، ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وبكى الناس من هذا الموقف، ودخل ﷺ منتصراً وقال لأعدائه: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

بدو وحضر وفي عرب وفي عجم	إن كان أحببت بعد الله مثلك في
ولا تفوه بالقول السديد فمي	فلا اشتفى ناظري من منظر حسن
اللهم سددنا، وآتنا قولاً رشداً.	



شعر الشكوى

يقول أبو الطيب المتنبّي:

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى

فَوَادِي فِي غَشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ

نسب الرمي إلى الدهر والدهر إنما هو ظرف
لمقدورات الله عزّ وجلّ ومقدراته جل في علاه، والله
سبحانه وتعالى هو الفاعل، وهو سبحانه وتعالى
المقدر، وهو الذي يقضي لا الدهر، لكن هذا من
تجاوز الشعراء فإنهم ينسبون الحوادث إلى الدهر
والأيام والزمان والليالي، والذي يتصرف فيها هو
الله سبحانه وتعالى، حتى في الحديث الصحيح

في البخاري قال: «يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك» يعني: يسب الدهر، ومن سب الدهر فإنما يعود السب على من أحدث الحوادث أو من قدر الحوادث وهو الله سبحانه.

يقول: من كثرة ما أتاني من سهام الدهر والأيام والمصائب أصبح فؤادي وقلبي في غشاء من كثرة السهام التي وقعت علي.

فصرتُ إذا أصابتني سهامُ
تكسرتِ النصالُ على النصالِ
لكثرتها يتكسر بعضها على بعض.

فعشتُ ولا أبالي بالرزايا
لأنّي ما انتفعتُ بأن أبالي
يقول: ما دمت باليت فما نفع عدم مبالاتي؟ واهتممت من هذه الأمور فما نفع اهتمامي ولا حزني، فلن أحزن ولن أهتم ما دام ذلك لم ينفع، وهي قصيدة من قصائده البديعة التي مطلعها:

نعدُّ المشرفيّة والعوالي
وتقتلنا المنونُ بلا قتالٍ
يعني: نجهز السيوف والرماح ونعلقها حتى ندفع الأعداء ونردّ الخصوم لكن الموت يدخل علينا فلا يردّه سيف ولا رمح ولا صاروخ ولا دابة، يقتحم علينا بيوتنا.
ونرتبطُ السوابقَ مقرباتٍ
فما ينجينُ منْ خببِ الليالي

يقول: الخيول نربطها قريبة منا؛ لكي نكرّ بها ونفرّ ونصول ونجول فما ينجينا من مصائب الليالي، تأتينا الليالي بسرعة لنا والخيول ما تنجينا منها.

ومن أبدع أبيات هذه القصيدة قوله يمدح سيف الدولة:

وإنْ تَفَقَّ الأَنامُ وأنتَ منهمُ
فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ
وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتّى
وحالكُ واحدٌ في كلِّ حالٍ

شعر الشكوى

يقول: تتقلب بك الأمور، وتتقلب بك الأيام ولكن حالك واحد، فالأيام سرور وحزن وشدة ورخاء، ولكن أنت في الشدة وفي الرخاء وفي السرور والحزن واحد من الثبات والرسوخ والشجاعة، وقد سار الشعراء على هذا المعنى، يقول شاعر كبير:

تَنكَرَ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدِرْ أَنَّنِي أَعَزُّ وَأَحْدَثُ الزَّمَانِ تَهُونُ
فَبَاتَ يَرِينِي الدَّهْرُ كَيْفَ اعْتَدَاؤُهُ وَبَتُ أَرِيهِ الصَّبْرُ كَيْفَ يَكُونُ

وأعود إلى القول: إن الدهر لا يتنكر، ولا يقدر شيئاً ولا يضر ولا ينفع، إنما الذي يضر وينفع ويقدر هو الله وحده سبحانه وتعالى.

يقول: باتت الأيام والمصائب تريني قوتها، وأنا أريها الصبر الذي عندي.

ويقول شاعر آخر:

تَسْتَرْتُ مِنْ دَهْرِي بِظُلِّ جَنَاحِهِ فَعِينِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسَأَلَ الْأَيَّامُ عَنِّي مَا دَرْتُ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

وهذا من أبداع الأبيات. فكلُّ يشتكي؛ لأن الحياة طبعت على كدر كما قيل، فهي منغصة ودار نكد ودار هم حتى يقول الشاعر:

كُلُّ مَنْ لَا قِيَتُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شَعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنْ

خلقت لمن؟ يعني: لا أحد مرتاح عليها، المرتاح تكون له قصة وغصة، ما ملئت دار حبرة إلا ملئت عبرة، في كل وادٍ بنو سعد، مصائب وفجائع وأزمات ومشكلات، هذه هي الدار، يقول التهامي:

طَبَعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفُّوا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمَكَلَفَ الْأَيَّامِ غَيْرَ طَبَاعِهَا مَتَطَلَّبُ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارِ

فكلهم يسير على هذا المعنى، والواجب على الإنسان أن يفزع إلى الواحد الأحد في هذه، ليخفف عنه، والله سبحانه وتعالى خلاف ما قال الشعراء يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] ويقول: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] يأتي فرج وسوف تيسر الأمور وتسهل الأزمات، وبعد الليل نهار، وبعد القحط غيث، وبعد الجوع شبع، وبعد الظمأ ري، سنة ماضية.

هِيَ الْأَيَّامُ وَالْغَيْرُ وَأَمْرُ اللَّهِ يُنْتَظَرُ
أَتْيَأْسُ أَنْ تَرَى فَرْجاً فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدْرُ

وكما يقول أحد الشعراء الشعبيين:

لَا تَشْتَكِي يَا وَاحِدِ بَاتٍ مَهْمُومٍ تَرَى الْفَرْجَ عِنْدَ اكْتِرَابِ الْحَزَامِ
وَأَنْتَ تَنَامُ وَخَالِقُكَ مَا يَنَامُ وَإِنْ كَانَ عَيْنُكَ خَالَفَتْ لَذَّةَ النَّوْمِ

فما دام الله سبحانه على العرش استوى، فإنه يقلب الأمور إن شاء الله من العسر إلى اليسر. وأبو تمام لخص هذه الأيام جميعاً كما في بعض المناسبات يقول:

مَرَّتْ سَنِينَ بِالسَّعُودِ وَبِالْهَنَاءِ فَكَأَنَّهَا مِنْ قَصْرِهَا أَيَّامُ

يقول: في حياتنا مرت بنا سنون، سنوات جميلة من الرغد والراحة والاستقرار والأمن مثل الأيام التي تمر بك وتمربي. فكأن السنة يوم؛ لأن أيام الخير وأيام الرغد وأيام السكينة قصيرة، ولكن أيام الشقاء وأيام الحبس وأيام المرض وأيام الضنك وأيام المشقة طويلة، قال:

ثُمَّ انْتَنَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ بَعْدَهَا فَكَأَنَّهَا مِنْ طَوْلِهَا أَعْوَامُ

جاءت أيام شدة وأيام صعوبات كل إنسان لا بد أن يمر بها ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن
طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، شدة ورخاء، وجوع وشبع، وفقير وغنى، ومرض وصحة..
وهكذا. هذه الأيام كأنها أعوام من الهم والنكد.

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السِّنِينَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ

وهذه أيام الناس لم يبقَ أحد، الذين عاشوا السرور، الذين عاشوا الراحة، الذين
عاشوا الضنك، الذين عاشوا المرض، كلهم ذهبوا، من اغتنى ومن افتقر، من صح
ومن مرض، من وصل ومن هجر، كلهم ذهبوا، حتى إن من اللطائف الأدبية ما يروى
أن هناك سجنًا اسمه سجن عارم، وعارم هذا كان مولى لعبد الرحمن ابن عوف
غضب عليه فسجنه في بيت في مكة، فسمي سجن عارم، ثم اشترى البيت ابن الزبير
وسجن فيه محمد ابن الحنفية؛ لأنه لم يبايعه، فمحمد ابن الحنفية من ولد علي بن
أبي طالب رضي الله عنه، فسجنه، فأتى جيش من العراق وأخرجوا محمداً الرجل الشريف
العظيم هذا من السجن، فغضب كثير عزة على ابن الزبير وقال:

تَحَدُّثُ مَنْ لَا قِيَتَ أَنْكَ عَائِدُ بِلِ الْعَائِدُ الْمَظْلُومُ فِي سَجْنِ عَارِمِ

لأن ابن الزبير رضي الله عنه يسمى نفسه العائد ببيت الله، يعني: تخندق في الحرم
وسمى نفسه: العائد ببيت الله، قال: هو محمد ابن الحنفية المظلوم العائد لا
أنت، فيريد أن يقول: لا تفرح كثيراً أنك والٍ وأنتك سجنته.

فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا جَمَالٌ لِأَهْلِهَا وَمَا الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا بِضْرَةٍ لِأَزْمِ

يعني: الشر لن يستمر.

لِكُلِّ زَمَانٍ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي وَيَصْبُحُ مَا لَا قِيَتَهُ حِلْمٌ حَالِمِ

كل الدنيا سيصير أحلاماً.

الآن أين ابن الزبير؟ أين سجن عارم؟ أين محمد ابن الحنفية؟ كلها تاريخ
﴿هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، والمصائب أتت الكبار

والصغار، وممرت بهم على حسب إيمان الإنسان، كما قال ﷺ: «يبتلى العبد على حسب إيمانه» وكما قال ﷺ: «ويبتلى الأمتل فالأمتل» «واذا أحب الله قوماً ابتلاهم»، وفي الصحيح: «من يرد الله خيراً يصب منه»، فذلك يقول عروة بن الزبير لما بترت رجله ومات ابنه محمد في يوم واحد:

لعمرك ما مديت كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا دلني فكري ولا نظري لها ولا دلني سمعي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ من الله إلا قد أصابت فتى قلبي

وهذه الأبيات لمعن بن أوس، ولكنه استشهد بها.

فيقول: إن هذه المصائب تمر بالناس جميعاً؛ ولذلك عليك أن تتسلى وتتغزى، فهذه الدار مفجعة والقرار عند الواحد الأحد، وما دمت مؤمناً تحمل الإيمان فهذا الذي يجعلك تفوض الأمر إلى الله، ولذلك تجد الشعراء مثل المتنبى يبتلى بضعف إيمان، فقلما يتوكل على الله؛ يتشكى من الزمان، ومن تقلب الناس، ومن الغدر، ولو كان صاحب طاعة وعاد إلى كتاب الله ﷻ وسنة الرسول ﷺ لوجد الهناء.

وابن تيمية لما سجن غفر الله له قال: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وسجني خلوة.

وزاروه مرة وهو مريض قالوا: ماذا يوجعك يا أبا العباس ويؤلمك؟ قال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدْرِ عَوَاذُها ما بها
وما أنصفت مهجةٌ تشتكى أذاها إلى غير أحبابها

فالشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

شعر الشكوى

وهذا أبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء في الطاعون، فقال:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبُهَا تَتَوَجَّعُ وَالدهِرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ
ومن ضمن الأبيات:

وَإِذَا الْمَنِيَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَتَجْلُدِي لِلشَّامَتَيْنِ أَرْيَهُمُ أَنِّي لَرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرُوءٌ بِصَفَا الْمَشْقَرِ كُلِّ يَوْمٍ تَقْرُعُ

أبيات جميلة، لكنَّ فيها شكوى وتبريحاً، والإنسان أحياناً ينفس عن نفسه بيتاً، مثلما قال الأول:

وَلَا بَدْءَ مَنْ شَكَوَى إِلَى ذِي قَرَابَةٍ يُوَاسِيكَ أَوْ يَسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ
فإذا أحسست بإنسان من أهل الفضل والإحسان والخير فلك أن تشاجيه وتحدثه دون أن تشكو الله إلى عباده سبحانه وتعالى، يقول المتنبي:

لَا تَشْكُونُ إِلَى عَبْدٍ فَتَشْمِتَهُ شَكَوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغَرْبَانِ وَالرَّخِمِ

إنسان مجروح ويذهب عند الغربان التي تتمنى المجروح، والرخم يتمنى أن تأكل من المجروح، فيقول: إن الناس مثل الغربان والرخم تشكو لهم جراحك وهم يتمنونها، اشكُ للواحد الأحد سبحانه وتعالى الذي هو يعلم السر وأخفى، والذي بيده اللطف سبحانه، وهو المعافي والمشافى وهو الكافي، وهذا شأن المؤمنين؛ فلما أخبر ﷺ بأن الكفار يجمعون له قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فنقلت هذه في أجمل صورة في القرآن: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: الكفار، ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قال عن المؤمنين والرسول ﷺ: ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ وَفَّيْلٌ لِّمَن يَمْسَسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ ﴿آل عمران: ١٧٤﴾، ولهذا أحياناً تأتي الإنسان مصائب، حتى يضطر إلى أن يقبل بأي شيء، ولو كان لا يقبل به في أيام المعافاة والصحة، يقول:

يَقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مُحَنَّتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

شيء ليس بحسن لكنك مضطر فتري أنه حسن، مثل قول المتنبي:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرَّانِ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ

يقول: إنها تضطرك إلى أن تجامل، تأتي عدواً لكنك مضطر فتجامله حتى تقضي أمورك، ولو ما فعلت ذلك لما حصل من ذلك شيء، وهذه من نكدها، ويقول آخر:

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا صَرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

يقول: كنا نبكي من أيام ونقول إنها قاسية وشديدة، وجاءت أيام أغلظ منها وأفطع فبكينا على تلك الأيام، قلنا: يا ليت تلك الأيام ترجع لنا، وبكينا عليها وقلنا: ليتها تعود لنا، وأبو الطيب له قصيدة أخرى فيها تفجع يقول:

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بِغَصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا

ونعود للمتنبي في قصيدته التي يقول فيها:

رِمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَزْزَاءِ حَتَّى فَوَّادِي فِي غَشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

هو يرثي أخت سيف الدولة، ومن ضمن الأبيات يقول:

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
فَمَا التَّأْنِيثُ لَاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ

فتحن نسميها شمساً بالتأنيث. وليس الرجل على إطلاقه أفضل من المرأة، فبعض النساء أفضل من الرجال، ولو أنها أنثى، فالشمس اسمها مؤنث، وهي أفضل من الهلال المذكر، وهذا من نبوغه وعقله وعبقريته وذكائه ومن ألمعيته أن يأتي بمثل هذه الأمثال.

ونعود إلى كلامه في القصيدة، ولا بد من أن أقف معه وقفة، فهو يقول في نفس القصيدة:

وحالاتُ الزَّمانِ عليكَ شَتَّى وحالكُ واحدٌ في كلِّ حالٍ

يعني سيف الدولة؛ لأنه في فجعية من موت أخته، وتأتيه مصائب وتأتيه انتصارات وفتوح، ولكنه في الشدة وفي الرخاء واحد ثابت على منهج واحد، وهذه حال المؤمن فهو دائم مستمر في الصيف، في الشتاء، في السلم، في الحرب، في الغنى، في الفقر، فيقول: في ثباتك وفي رسوخك أنت ثابت دائم، ثم أتى بذلك البيت الفريد:

وإنْ تَفُقَ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دِمِ الْغَزَالِ

وهذا المعتمد بن عباد الأمير الملك في الأندلس كان آية في الجود والكرم والعلم والفهم وفي الأخير غلبه على مملكته يوسف بن تاشفين المرابطي قائد المرابطين، وقاده مقيداً إلى السجن، فما رُئي أصبر منه ولا أحزم منه، ووضعه في سجن أغمات وجاءت بناته يعدنه في العيد وهو في السجن بعدما سلب ملكه وأخذن يغزلن للناس بالأجرة، وجئن حافيات حسيرات جائعات، ويوم رآهن من وراء الباب دمعت عيناه، وسلمن عليه، فقال يخاطب نفسه:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا فزارَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورًا

يقول: كنت ملكاً ذاك الوقت والدنيا معك. والآن أنت محبوس.

تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ بِالْيَةِ يَطَانُ فِي الطِّينِ مَا يَمْلِكُنْ قِطْمِيرَا
يَطَانُ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورَا

كأنهن ما مشين في القصر قبل، القصر الملكي، والبلاط الملكي على
المسك والكافور؟

ولذلك لا يغتر بهذه الدنيا إلا مخدوع، يسمي الإنسان ثرياً ويصبح فقيراً، ويصبح
معافى ويمسي وهو مريض، ويمسي شاباً وتجد فيه قوة وما يأتي الغروب إلا وينقل إلى
المقبرة، فلا أمان، الأمان في جنات النعيم، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول له ابنه
عبد الله: متى الراحة - يعني في الدنيا - قال: إذا وضعت رجلك اليماني في الجنة
فقد ارتحت، أما قبلها فلا، يعني: قبل أن تتجاوز الصراط لا تظن أن لك راحة، إذا
تجاوزت الصراط ودخلت الجنة فتلك الراحة، نسأل الله أن يحقق لنا ذلك وإياكم.

والبرامكة أيضاً نكبوا، سيقوا في عهد هارون الرشيد وأخذهم إلى الحبس
وقتل جعفر البرمكي وسجن الفضل وسجن يحيى بن خالد وكانوا يسمونهم: عروس
الدنيا، وقبة الفلك، عندهم من الجود والعطاء والبذل، وأقبلت الدنيا عليهم،
وكان الأعيان يقفون لهم، والدنيا تحييهم، والزمان يصفق لهم، ثم غضب عليهم
هارون الرشيد، فأخذهم وبددهم، ووضعهم في الحبس، وقتل بعضهم، حتى جاء
أمير متأخر يحسدهم بعدهم بمئة سنة، وبعض الناس يحسد من قبله، فبعضهم
يأتي الآن يحسد المتنبّي، وبعض طلبة العلم يحسد ابن تيمية يقول: ليس بصحيح
مثلاً القصص التي تروى عن حفظ ابن تيمية، فالناس يبالغون، وأظن الشافعي لا
يحفظ هذا العدد، وهو لا يحفظ أركان الصلاة.

وابن أبي العيّن هذا الداهية الدهياء صاحب سرعة البداهة أديب وكان
مباشرة يجيب، عنده سرعة بديهة وجواب حاضر، حتى ألف فيه الشيخ العبودي

الرحالة كتاب أخبار ابن أبي العيناء، فقال هذا الأمير وهو متأثر: إن الناس يذكرون البرامكة، وقد مات البرامكة وقتلوا وذهبوا، لكن كرمهم إلى الآن يذكر، قال: ليس بصحيح كثرة ما ينقل عن البرامكة في الكرم، الناس يكذبون، فقال ابن أبي العيناء: أيها الأمير، أنت حي ترزق وترجى وتخاف لماذا لا يكذب الناس عليك ولو كذبة في الكرم، وهؤلاء أموات لا يرجون ولا يخافون والناس يكذبون عليهم فسكت، فكأنما ألقمه حجراً.

فالبرامكة لما سجنوا قيل ليحيى بن خالد: بعد النعيم وبعد العز وبعد السؤدد توضعون في الحبس؟ قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها، وحتى إنهم في الحبس يستشهدون بقول الشاعر:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
لسنا في الدنيا ولا في الآخرة.

(إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة) إذا فتح العسكري الجندي فتح الباب.

(عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا) الدنيا التي يسمونها، جاء عندنا يزورنا.

وهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي يقول: جمعت أيام السعادة في حياتي فما وجدت إلا ثلاثة عشر يوماً، التي ما جاء فيها تعكير، بالرغم من أنه ملك وجاءت الأموال والجيوش والعسكر والوزراء والناس والأمة.

ويقولون: إن أحد الخلفاء الأندلسيين وأظنه الناصر قال: أريد أن أبقى يوماً ما أسمع خبراً سيئاً، فدخل في بستان وقال للحرس والحجاب والوزراء والجنود: لا تخبروني بشيء، فلما جلس وحده وقرب الظهر وإذا بسهم فيه دم وقع بجانبه، قال: لن أرتاح يوماً واحداً، لا بد من إزعاجات، هذه حال الدنيا.

وذكر ابن كثير: إن ابن مقلة كتب المصحف ثلاث مرات، خط ابن مقلة خط مشهور في العالم الإسلامي، هذا ماذا فعل؟ سطا على دار لعجوز مسكينة هناك فدعت عليه فقطعت يده، حتى يقول:

(يا حياتي، بانت يميني فيميني)

من قصيدة ذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية.

وأتى بعده ابن بقية الوزير فأطعم المساكين، وحفظ القرآن، ونشر الخير، وأخذ الناس يدعون له، والخطباء يذكرونه يوم الجمعة، فأخذت الغيرة الملك عضد الدولة فن خصره الديلمي، وهو بطاش قتل أربعة ملوك من قرابته وأتى برؤوسهم يوم عيد الأضحى وركبها فوق بعضها، وجاء يسلم عليه أحد الشعراء، فقال:

صَلِّ يَا ذَا الْعُلَا لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ كُلُّ ضِدٍّ وَشَانِي لَكَ أَتَبَرُّ
أَنْتَ أَعْلَى مِنْ أَنْ تَكُونَ أَصَاحِي لَكَ قُرُومًا مِنَ الْجَمَالِ تَعْفُرُ

يسلم عليه يوم العيد ويبارك له يوم العيد، وإذا الرؤوس معلقة، هؤلاء الأربعة ملوك وقادة الجيوش رؤوسهم معلقة في المجلس كلهم؛ لكي يري الناس أنه مهيب، وهو من أبطش ومن أجبر من تولى في التاريخ واسمه عضد الدولة مدحه المتنبى بقصيدته اللامعة التي يقول فيها:

فِدَا لَكَ مَنْ يَقْصِرُ عَنْ مَدَاكَ فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَ
أَرْوَحُ وَقَدْ خَتَمْتُ عَلَى فَوَادِي بِحَبِّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سُوَاكَ
إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمُوعٌ فِي خُدُودِ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

هذه القصيدة التي مدح بها عضد الدولة.

فدخل عليه ذلك الشاعر وإذا برؤوس الملوك وقادة الجيش الذين قاتلهم معلقة يوم عيد الأضحى فقال: أنت لا تضحي بالجمال ولا بالبقر ولا بالغنم.

بَلْ قُرُومًا مِّنَ الْمُلُوكِ ذَوِي الدِّ
سَوْدُدٌ تِيْجَانُهُمْ أَمَامَكَ تَنْثَرُ

في المعركة، يقول: تنثر تيجانهم وتقطع رؤوسهم.

كَلِّمًا خَرَّ سَاجِدًا لِّكَ رَأْسُ
مِنْهُمْ قَالَ سَيْفُكَ: اللَّهُ أَكْبَرُ

يقول سيفك: الله أكبر وتنزل رؤوسهم يقطعها، وهذا من أجمل ما قيل في المدائح، ولو أن فيه شراسة وفيه تهيج على الاعتداء ولكن هكذا التاريخ كتب.

فهذا ابن بقية الذي كان مطعماً أخذت الغيرة منه عضد الدولة فافتل ضده إشكالاً وقتله وصلبه عند باب الطاق وخرج أهل بغداد وإذا هو مصلوب اليدين وصدره مكشوف، فبكى العلماء وتأثر المساكين الذين كان يطعمهم والأيتام والمحاييج وقفوا، وقام أبو الحسن الأنباري؛ لأن أعطياته وطلابه في المسجد كثيرة فمنهم عالم ولغوي وشاعر فوقف عليه وسلم وبكى، وقال:

عَلَوْ فِي الْحَيَاةِ فِي الْمَمَاتِ	بِحَقِّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا	وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ وَقَفْتَ فِيهِمْ خَطِيبًا	وَهُمْ وَقَفُوا قِيَامًا لِلصَّلَاةِ
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً	كَمَدَّهُمْ إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ	يُؤَارُوا فِيهِ تِلْكَ الْمَكْرَمَاتِ
أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاذُوا	عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
وَمَا لَكَ تَرَبُّهُ فَأَقُولُ تُسْقَى	لَأَنَّكَ نَصَبُ هَطْلِ الْهَاطِلَاتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَغْدُو	بِتَبْرِيكِ الْغَوَادِي الرَّائِحَاتِ
لِعَظَمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيْتُ تُرعى	بِحِرَاسِ وَحْفَاطِ ثِقَاتِ

لأنهم وضعوا عسكرياً حوله وجنوداً؛ لكيلا ينزله أحد من الجبل.

وَتُوقِدُ حَوْلَكَ النِّيرانُ لَيْلًا كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ

مبكية، مفاجئة، مفزعة، لا يوجد في الأدب مثل هذه القصيدة، حاول الشعراء أن يعارضوه فما وجدوا لذلك من سبيل.

يقول: ولو أنني استطعت القيام بحقه علينا والقيام بالحقوق والواجبات؛

مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي وَنَحْتُ بِهَا خِلاَفَ النَّائِحَاتِ

وهذه من الوقفات فيمن أصيب، فيمن فجع، فيمن أقته داهية دهياء وهو ابن بقية، وفي الناس كثير ممن أصيبوا، والتاريخ مليء بهذا.

اللهم احقن دماء المسلمين.



ليل الشعراء

يقول أبو الطيب المتنبّي:

وَكَمْ لظِلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ
تَحَدِّثُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

ما معنى هذا الكلام؟ هو طبعاً يمدح كافوراً،
والمناوية: مذهب أرضي كفري يرى أن النور إله
الخير، وأن الظلام (الليل) إله الشر، فيرون أن من
يقاتل في الليل لا ينتصر؛ لأنه معه إله الشر، وأنه لا
بد أن يقاتل الإنسان في النهار حتى ينتصر، فكافور
قاتل في الليل فانتصر، فيقول: أنت الآن ترد على
المناوية؛ لأنك انتصرت، وهذا دليل على أن المتنبّي
كان مطلعاً وكان مثقفاً، وهذه عبقرية طبعاً، قال:

(وَكَمْ لظلامِ الليلِ عندَكَ مِنْ يَدٍ): من جميل، (تحدّث) هذه اليد، (أَنْ المانويةَ تكذبُ) والدليل أنها تكذب أنك انتصرت في الليل، وهذا صحيح أنها كاذبة في زعمها، فالله وحده سبحانه الذي يقدر الخير والشر، والإله الواحد سبحانه هو الذي يستحق العبودية لا إله إلا هو، لكنه تفنن في هذا البيت فكان جميلاً، وهي من قصيدته الرائدة التي قال فيها:

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقَ أَغْلِبُ وَأَعْجِبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجِبُ

إلى أن أتى بهذا البيت وذكر فيه الليل. والعرب تذكر الليل على ضرب: فمنهم من يشكو من طول الليل، كما فعل امرؤ القيس في معلقته التي يقول فيها:

وَلَيْلٌ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُودَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصَلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكُلْكِ:
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجِلْ بِصَبْحٍ وَمَا إِلَّا صُبْحُ مَنْكَ بِأَمَثَلِ

فامرؤ القيس أحسن مَنْ وصف الليل من الشعراء، على أن بعض العلماء يقدم وصف النابغة فيقول: ليلة نابغة، ففي المرتبة الثانية النابغة أَوْ زهير، أما المرتبة الأولى فهي لامرؤ القيس في الشعر؛ ويقولون: اليمين البارة هي للنابغة الذبياني واليمين الفاجرة هي لامرؤ القيس؛ لأن امرأ القيس يقول:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالِي

وأما النابغة الذبياني فإنه حلف يميناً بارة وذكر الله في ذلك فقال:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

يقول: ما وراء الله مقصود للحالف، الله أعظم من كل شيء، فجعل العلماء يمين النابغة هي اليمين البارة، وأما يمين امرؤ القيس فهي يمين فاجرة.

نعود لليل، ليلة نابغية التي تشبه ليلة النابغة التي يقول فيها:

كَلِينِي لَهْمٌ يَا أَمِيمَةً نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاعِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ: لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بَأَيِّبِ
وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبٍ هَمَّهُ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ثم مدح الملوك إلى أن يقول فيها:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بِهِنَ فُلُوقٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
وَعَلَى الْبَحْرِ وَالْقَافِيَةِ هُنَاكَ قَصِيدَةٌ لِأَبِي تَمَامٍ، وَقَصِيدَةٌ لِلْمَتَنَبِيِّ يَقُولُ فِيهَا
مِنْ ضَمَنِ أَيْبَاتِهِ:

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا كَانَ إِلَّا حُجَّةً لِلنُّوَاصِبِ

وأما أبو تمام فقصيدته بديعة مدح فيها أميراً من بكر بن وائل، يقول:

لَئِنْ فَخَرْتُ يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا وَزَادَتْ عَلَى مَا أُسِّسَتْ مِنْ مَنَاقِبِ
فَأَنْتُمْ بِذِي قَارٍ أَمَأَلْتُمْ سَيُوفَكُمْ عُرُوشَ الَّذِينَ اسْتَرَهُنَا قَوْسُ حَاجِبِ
مَنَاقِبُ أَقْوَامٍ إِذَا قَرْنُوا بِهَا مَنَاقِبُ أَقْوَامٍ تَكُنْ كَالْمَنَاقِبِ

ومعنى الأبيات يقول: أنت أيها الوائلي الأمير، من بكر بن وائل أجدادك انتصروا على فارس في معركة ذي قار، ومعركة ذي قار كانت في العام الثاني للهجرة، حتى إن رسول الله ﷺ دعا لهم ولم يكن معهم ﷺ، وكانوا وثنيتين لكنهم عرب، فرسول الله ﷺ، طبعاً غضب لعروبيته ﷺ ولقومه وقال: «اللهم انصرهم على فارس اليوم» سأل الله أن ينصرهم على فارس.

وقصة القصيدة: أن تميمًا عطّلوا قافلة لكسرى تذهب إلى اليمن، فأخذ منهم خمسين رهينة من تميم، فذهب حاجب بن زرارة وهو من ساداتهم ومعه

قوس لا تساوي درهمين، لكن عنده عزة وعنده مكانة في العرب وفي الناس، وهذه القوس مربوطة بعرق من جلد، فدخل على كسرى، فقال: أبيت اللعن أيها الملك- كلمة تقال للملوك في الجاهلية- أطلق لي الأسارى من بني تميم وهو سيدهم، قال: وما هو الرهن؟ ارهن لنا شيئاً، قال: هذه القوس، فضحك كسرى، وقال: في خمسين من بني تميم تعطيني قوساً، والربيع بن زياد كان عنده وهو عبيسي، وقيل: إنه رجل آخر من العرب، قال: أيها الملك، والله لو كسرت هذه القوس ليقتلن من العرب مئة ألف، من عزة حاجب وقوة بني تميم، فأخذ القوس وأطلق الخمسين، فجاءت قافلة أخرى فعطلها بكر بن وائل فأخذ منهم خمسين، فاجتمع بكر بن وائل قالوا: ما عندنا مثل قوس حاجب، ولا عندنا مثل حاجب بن زرارة يشفع لنا عند الملك فماذا نفعل؟ قال هانئ بن قبيصة شيخهم: نقاتلهم مقاتلة، قال: فخرجت قبيلة بكر وقاتلوا فارس فانتصروا عليهم، حتى يقول شاعرهم الأعشى وهو شاعر بكر ابن وائل الذي كان يسكن في منفوحة في الرياض:

لَمَّا التَقِينَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاعِمْنَا	لِيَعْلَمُوا أَنَّنَا بَكْرٌ فَيَنْصَرِفُوا
قَالُوا: الْبَقِيَّةُ وَالْهَنْدِيُّ يَحْصُدُهُمْ	وَلَا بَقِيَّةٌ إِلَّا السَّيْفُ فَانْكَشَفُوا
لَوْ أَنَّ كُلَّ مَعْدٍ كَانَ شَارَكَنَا	فِي يَوْمِ ذِي قَارٍ مَا أَخْطَاهُمُ الشَّرْفُ
لَمَّا أَمَالُوا إِلَى النِّشَابِ أَيْدِيَهُمْ	مَلْنَا بَبِيضَ فَكَانَ الْهَامُ تَخْتَطِفُ

أتوا بالنشاب، بالسهم يضربون بها فهم رماة. فأخرجنا البيض من أغمادها يعني السيوف.

فانتصروا عليهم، فهذا أبو تمام يذكر الأمير الوائلي من بكر في القرن الثالث بعد الإسلام بهذا.

وكذلك يتناول ليل المحبين أو المشتاقين أو أهل السهر ويطول عليهم الليل، يقول أحدهم:

يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقْيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

وهذا مما ينقل من نهاية القصائد، وقال أحد العباد:

قُلْتُ لَيْلٍ: هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ عَامِرٌ بِالْحَدِيثِ وَالْأَسْرَارِ

قَالَ: لَمْ أَلْقَ فِي حَيَاتِي حَدِيثًا كَحَدِيثِ الْأَحْبَابِ فِي الْأَسْحَارِ

ما هو حديث الأحباب في الأسحار؟ جلسة السحر يوم يتنزل ملك الملوك سبحانه جل في علاه الأحد الصمد إلى سماء الدنيا، فيقول: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟» هذه الجلسة أحسن شيء، لا يعدلها شيء، وهي التي يجيب الله فيها الدعوة، كما يقول أحد الشعراء الشعبيين وهو ابن حميد:

وخير منها ركعتين بالأسحار لَا طَابَ نَوْمُ اللَّيْلِ حَيَاتِهِ خَسَارَةٌ

فهذه الجلسة ما مثلها جلسة، وهي التي يثاب بها العبد ويفتح عليه حين يقوم يصلي الركعتين.

ومن العصر الحديث يقول أحد الشعراء يصف الصحابة رضوان الله عليهم:

عُبَادُ لَيْلٍ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ بِهِمْ كَمْ عَابِدٍ دَمَعُهُ فِي الْخَدِّ أَجْرَاهُ

وَأُسْدُ غَابٍ إِذَا نَادَى الْجِهَادُ بِهِمْ هُبُوا إِلَى الْمَوْتِ يَسْتَجِدُّونَ رُؤْيَاهُ

يَا رَبِّ فَابْعَثْ لَنَا مِنْ مِثْلِهِمْ نَفْرًا يُشِيدُونَ لَنَا مَجْدًا أَضْعَانَهُ

حتى ذكر ابن القيم من يقول:

فِي اللَّيْلِ عُبَادٌ وَعِنْدَ لِقَائِهِمْ لَعْدُوهُمْ مِنْ أَشْجَعِ الْفُرْسَانِ

وهذا مثل أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنهم رهبان في الليل
فرسان في النهار، رضوان الله عليهم، وهنا قصيدة للمتنبي يقول:

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلِبُ وَأَعْجِبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجِبُ
أَمَّا تَغْلُطُ الْأَيَّامُ فِيَّ بِأَنْ أَرَى عَدُوًّا تَنَائِي أَوْ حَبِيبًا تَقْرُبُ

ألا تخطئ الأيام مرة واحدة فتقرب لنا حبيبنا وتبعد عدونا، وهذا فيه من
التشاؤم؛ لأن الرجل لا ينطلق من عبادة ولا ينطلق من خشية، هو عنده عبقرية
متمردة ثائرة، فهو دائماً يخاصم الزمان والمكان، حتى انظر سبحان الله من
الطغيان اللفظي وجموح النفس يقول:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ
يقول: لو عرفتم الناس مثلما أعرفهم، لرويتهم رماحكم من دمائهم.
وهذا خطأ واعتداء معارض للشرع، لكنه تمرد عبقري؛ لأنه يقول: ما أنصفه
الناس وما أعطوه حقه.

وقبل هذا البيت يقول:

مَنْ الْحَلِمُ أَنْ تَسْتَخْدِمَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا كَثُرَتْ فِي الْحَلِمِ طُرُقُ الْمَثَالِمِ
وَأَنْ تَرَدَّ الْمَاءُ الَّذِي نَصْفُهُ دَمٌ فَتَسْقَى إِذَا لَمْ يَسْقَ مَنْ لَمْ يَزَاحِمِ
فَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ وَلَا فِي الْقَضَا الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَأْثَمِ

يقول: والله لو ظفروا بك ما رحموك.

ومثل هذا نأخذ منه الفيوضات البيانية والأدبية والفصاحة، ولكننا نحاكمه
إلى الشريعة التي تنهى عن قتل النفس المعصومة وعن سفك الدم وعن الاعتداء
على الآخرين، فإننا نحكم بشريعة الله التي أنزلها على رسوله ﷺ.

ومن أبياته في القصيدة:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مَنَاخاً لِرَاكِبٍ فكلُّ بَعِيدٍ أَلْهَمَ فِيهَا مَعَذِبُ

يقول: لا رد الله هذه الدنيا، ولا بارك فيها، كل إنسان ذو همة عالية معذب في هذه الدنيا، وهو صحيح، تجد من يطلب العلم ذا همة عالية يسهر ويتحسر إذا فاتته وقت، والعابد إذا أخطأ وكذلك التقي إذا أذنب، وأيضاً من يريد المجد الدنيوي يأتيه دغلات، ويأتيه عشرات، ويأتيه ضربات، ويأتيه كلام من الحساد، ويأتيه تجريح، ويأتيه تهكم.

وهذا من قصيدته التي قالها في كافور، والتي يقول من بيتها الذي قصدنا شرحه في هذا الباب.

وَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تَحَدَّثُ أَنَّ الْمَانُوِيَّةَ تَكْذِبُ

فالشعراء يذكرون الليالي؛ فأبونواس يقول:

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طَوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلُ عِنْدَنَا

لأن ليل المحب تراه يطول، الهاجر.. المشتاق.. المريض.. المهموم.. المكدر.. المحزون يطول ليله. ولما شكونا وقلنا لهم: ليلنا طويلة، قالوا: أما نحن فما أقصر الليل عندنا، ما هو السبب؟

وَذَاكَ بِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عَيُونَهُمْ يَقِينَا وَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَعْيُنَا

قال: لأنهم ناموا، فقصر عليهم الليل، ويقول بشار:

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أُنَمْ

يقول: الليل أصلاً ليس بطويل، ولكني لما سهرت صار طويلاً علي.

فتجد الإنسان إذا كان مريضاً طال الليل عليه، خاصة إذا ما كان يجيد فن العبادات، والأذكار، وتلاوة القرآن، حتى إن بعضهم الآن ما يدري ما يفعل في

الفراغ، فتجده سهران في لهو وفي عبث، يقول: متى يصبح الصباح، يريد أن يجلس مع أصحابه ومع أحبائه، ولو عرف الكتاب والسنة والعلم والعبادة والسجود لله لقصر الليل عليه.

والمتنبى في نفس القصيدة هذه يقول من ضمنها ومن أبياتها الفريدة الرائعة:

كُلُّ امْرِئٍ يُولِي الْجَمِيلَ مُحِبٌّ وَكُلُّ مَكَانٍ يَنْبُتُ الْعَرْزَ طَيِّبٌ

يقول: كل إنسان يحسن فهو محبب إلى القلوب، مثلما قال أبو الفتح:

أَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبُهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

يوم تحسن لإنسان تملك قلبه.. تملك مشاعره.. تملك أحاسيسه.. تستولي على نفسه، حتى يقول سبحانه وهذا أجل الكلام: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]؛ لأنك إذا قلت للناس حسناً أطفأت العداوة، ويقول سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فيقول أبو الطيب: كل من أعطى جميلاً فهو محبب عند الناس، لكن الذي يعطي السوء فهو السيئ، السيئة تدفع معك في القبر، ولكن الحسنه تجدها عند الله، وسبقه أبو بكر رضي الله عنه بأحسن وأروع وأجمل؛ فقد قام رجل يسب أبا بكر قال: والله لأسبنك سباً يدخل معك قبرك، قال أبو بكر: «يدخل معك قبرك ولا يدخل قبري»؛ لأن السوء الذي يقدمه الإنسان يدخل معه هو لا مع الآخر، حتى يقول ابن سعدي شيخ ابن عثيمين في رسالته في الوسائل المفيدة عن الحياة السعيدة: اعلم أن الكلام الخبيث الذي يوجه لك يضر صاحبه الذي قاله ولا يضرك أبداً.

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا خِلَافَكَ لَمْ يَقُلْ

يقول: إن الذي يولي الجميل من الكلمة الطيبة والفعل الجميل والخير وإسداء المعروف والوقفات العظيمة الجليلة مع الناس، فهذا محبب عند الناس.

وله فرائد في الحكم، ما سبق لها، يقول في بيت ثان:

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً لِمَنْ بَاتَ فِي نِعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

انظر الكلام، يقول: أظلم أهل الدنيا الذي يحسد إنساناً هو سبب لنعمته التي هو فيها، يعني: إنسان أسدى لك جميلاً ووقف معك ثم تحسده على ما أعطاه الله، يقول: أصلاً هذا الجميل الذي عندك هو من عنده فكيف تحسده؟! هذا الظلم.

وإنما قلنا هذا؛ لأننا أصلاً بدأنا بمسألة الليل؛ لأن البيت الأول هو:

وَكَمْ لظلامِ الليلِ عندَكَ مِنْ يَدٍ تَحَدَّثُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وفي سنن أبي داود يقول عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى في الليل» ولذلك يستحسن السفر بالليل، وهذا مجرب، يعني فضلاً من الله عز وجل كأن الأرض تخف على المسافر، النهار تبعد فيه المسافات، وفيه حرارة الشمس، لكن بالليل -ياذن الواحد الأحد- يكون السفر ميسراً، وهذا مجرب عند العقلاء، قال: «عليكم بالدلجة» الدلجة: هي السير في الليل، وقيل: هي آخر الليل، «فإن الأرض تطوى بالليل».

والله وصف عباده في الليل، فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] فليلهم أحسن ليل: يقومون.. يذكرون الله.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] فهؤلاء هم الأولياء ولولم تصل إلا ركعتين، لكن تعلن الولاية له سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] بعض المفسرين يقول: قليلاً يعني: أنهم يصلون قليلاً من الليل، وقال بعضهم: بل كانوا ينامون قليلاً ويصلون كثيراً، على اختلاف في التفسير، والآن الليالي تتعاقب على الناس، يقول العرب: الليالي أكثر من الأيام؛ لأنها هي المشهورات، لذلك تقدم الليالي على الأيام، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿الفجر: ١-٢﴾ فقدم الليالي على الأيام؛ لأن ليلة اليوم تتقدم عليه.

علي بن جبلة العكوك هذا الشاعر المشهور، قوي في شعره وبديع، شعره كله نخب كما يقول الذهبي، قتله المأمون؛ لأنه مدح أبا دلف بقصيدة من سبعين بيتاً، هي سبعون بيتاً تخلع القلب إذا سمعتها، فلما مدح علي بن جبلة أبا دلف الأمير الكريم هذا، قال له أبو دلف: احتكم في ثلاث: إما أن تأخذ على كل بيت مئة ألف درهم - مثل مليون الآن -، أو أقاسمك حكم الإمارة الذي عندي، أو تحتكم أنت، قال: أعطني على كل بيت ألفاً، فأعطاه بالأكياس والقطم، لكن من يسمعها يفور دمه، أتى عنده قال:

دُعْ جَدَا قَحْطَانٍ أَوْ مَضِرٍّ	فِي يَمَانِيهِ وَفِي مَضِرِّهِ
وَامْتَدِحْ مَنْ وَائِلٍ رَجُلًا	حَجَرُ الْأَيَّامِ فِي حَجَرِهِ
الْمَنَايَا فِي شِدَائِدِهِ	وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظَفَرِهِ

إلى أن يقول:

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دَلْفٍ	بَيْنَ بَادِيهِ وَمَحْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دَلْفٍ	وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ	بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٍ	يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مَفْتَخَرِهِ

يقول: من يفتخر من العرب كلهم لا يفتخر إلا بك، ومن يريد شيئاً من المجد يجد شيئاً من مجدك، ونسي أن خليفة المسلمين ذاك المأمون العباسي، هذا أمير يراجع ذاك، ثم قال: تعالوا به، فأثوا به وقيدوه، والمأمون طبعاً أمام الرأي العام لن يقتله بحجة أنه مدح أبا دلف، فقال: أخرجوا لنا أبياتاً من ديوانه؛ الملفات

السابقة، يعني: ابحثوا لنا في الأدراج، قالوا: يا أمير المؤمنين، عنده بيتان طاغية في الشريعة والعلماء سيفتون بسفك دمه، قالوا: ما هما؟ أخرجوهما، قالوا: يقول لأبي دلف في قصيدة سابقة:

أَنْتَ الَّذِي تَنْزِلُ الْأَيَّامَ مَنْزِلَهَا وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

كذاب عدو الله، الذي ينقل الدهر من حال إلى حال هو الله وحده.

وَمَا قُضِيَتْ بِأَقْلَامٍ مَرْتَلَةً إِلَّا قُضِيَتْ بِأَرْزَاقٍ وَأَجَالٍ

من الذي يقضي الأرزاق والآجال إلا الله، ولو عفا عنه ولو استتابه لكان أحسن، فقتله، فالشاهد أنه يقول:

وَأَرَى اللَّيَالِي مَا طَوَتْ مِنْ قَوْتِي رَدَّتْهُ فِي عِظَتِي وَفِي إِفْهَامِي

يقول: صحيح أننا ضعفنا وضعفت قوتي وبدأت أجدودب وبدأت أهزل، لكن زاد عقلي تجربة، لذلك تجد الشيخ الكبير جسمه ضعيف لكن عقله عقل نير مجرب، عنده حكم، وتجد الشاب أقوى شيء ولكن دماغه هايس، ما فيه شيء، فيه هوى، تجده يندفع مرة، أحياناً تجد في الشباب طيشاً وسفهاً، فهو يقول: الحمد لله، لو ضعفنا في أجسامنا استفدنا من الليالي التجربة؛ ولذلك تجد الشيخ الكبير وهو في الستين والسبعين معه عصا واحودوب، لكن عنده حكمة ونضوجاً، وتجد الشاب يسبق الريح، لكنه يتكلم سريعاً ويفعل سريعاً، وفيه طيش وفيه سفه وفيه اندفاع وفيه حدة إلا من رحم الله، يعني: بعض الشباب يكون أعقل، لكن يقول المتنبي:

وَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانَعَةٍ قَدْ يَوْجَدُ الْحِلْمُ فِي الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ

وهذا كلام عجيب، يقول: حداثة السن ما تمنع، فلما دخلت الوفود عند عمر بن عبد العزيز تكلم شاب، قال عمر بن عبد العزيز: اجلس أيها الغلام، في المسلمين من هو أولى منك - يعني: أكبر منك - قال: يا أمير المؤمنين،

لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أولى منك أنت، فتبسم عمر بن عبدالعزيز، وكان عمره في ذلك الوقت ثمانية وثلاثين عاماً وهو أمير المؤمنين، وكل الدول العربية والإسلامية هو أميرها، فتبسم.

وقال بعضهم:

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنْ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

يقول أحد الشعراء:

تَرِيدُ عَجُوزًا أَنْ تَعُودَ فَتِيَةً وَقَدْ يَبْسُ الْجَنَابُ وَاحِدُودَ الْظَهْرِ

يقول: سنوات هدمت هذا الجسم، فهو صحيح أنه يتهدم الجسم، لكن التجربة تكبر والعقل ينمو والحكمة تزداد.

وعلى ذكر الليالي عند المسلمين، يقول أبو بكر: لي ثلاث ليال: ليلة الغار مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وليلة الهجرة، وليلة بدر: ليلة الغار يوم بات مع رسول الله ﷺ، قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وليلة الهجرة يوم هاجر مع رسول الله ﷺ مرة على اليمين، ومرة على الشمال، ومرة قبله، وليلة العريش في بدر، هذه ثلاث ليالٍ، ويقول الشريف الرضي:

مَشْرُوفَةٌ بِخِلَافٍ لَوْ أَقُولُ لَهَا: يَوْمَ الْغَدِيرِ لَقَالَتْ: لَيْلَةُ الْغَارِ

ومن الليالي العظيمة في الإسلام ليلة الأحزاب، وهذه ليلة ما أشد منها على المسلمين على الإطلاق، تكاثفت الأحزاب من المشركين وغطفان وبعض قبائل العرب واليهود وتحزبوا كلهم ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وحاصروا المسلمين في المدينة وطوقوا المدينة من كل الجهات، فأمر ﷺ بحفر الخندق والمشورة من سلمان الفارسي، وضافت الدنيا: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَنَظْنُونُ بِاللَّهِ الظُّنُونُ ﴿[الأحزاب: ١٠]﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ١١]﴾ يا لها من ليلة وعاصفة! وأتى من الهم والغم والكدر، وجاء الصحابة وجاءت ريح شديدة وأتى ﷺ يحفر الخندق مع الصحابة فعرضت لهم صخرة كبيرة، فأخذ ﷺ المعول فبرق بارق في الجو قال: «أريت قصور كسرى وقصر وسوف يفتحها الله علي» قال كبار المؤمنين: صدق الله ورسوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] هذا في سورة الأحزاب، فضرب ﷺ الضربة الثانية فبرق بارق فقال: «أريت كنز كسرى الأبيضان والأحمران وسوف يفتحهما الله علي» أما المنافقون فقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] قالوا: كلمات، فخبب الله سعيهم، ونصر الله رسوله ﷺ.

الشاهد: قبل أن ينجلي الكرب قال رسول الله ﷺ: «من يذهب إلى القوم يأتيني بخبرهم؟» الليل ظلام وبرده قارس، يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله إن الإنسان يمد يده ما يراها».

قال: «من يأتيني بخبر القوم؟» يقول ﷺ، واحد منكم يتبرع، فجلس الأبطال: جوع وتعب وسهر وإعياء وخوف وظلام ما ترى الطريق أصلاً، قال: «من يأتيني بخبر القوم وله الجنة؟ قال حذيفة: أنا»، (له الجنة) ضمان من محمد ﷺ، قال: فمشيت مرة أطيح، يعني: يطيح في الأرض يمشي، مرة يسير ومرة يقعد ومرة يحبو ومرة يقوم، ويوم وصل عند المشركين؛ لكي يأخذ الخبر، قال: فجلست بينهم، فقال أبو سفيان قائد المشركين: ليتعرف كل منكم إلى من بجانبه، فإننا لا نأمن من محمد أن يرسل هذه الليلة من يأخذ خبرنا، قال: فبدأت أنا بالذي جنبي قبل أن يبدأ، قلت: من أنت؟ قال: فلان، قال: وسكت، ومن أنت؟ قال: فلان، لكي لا يبدأ هو بالسؤال، انظر الذكاء، قال: فرأيتهم فأرسل الله عليهم الريح الذي ذكر في القرآن، قال: والله ما تركت قدراً إلا أطاحت به، وقلعت الخيام، قال سبحانه:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]،
فنصرهم الله وحاز حذيفة في تلك الليلة جنات النعيم من وعد محمد عليه الصلاة
والسلام.

فهذه ليلة الأحزاب إذا ذكرت هذه من أدهى الليالي، ويقول: عدت وإذا رسول
الله ﷺ يصلي في الليل وعليه شملة ﷺ فدخلت وأخبرته فدعا لي، يصلي في
الليل ﷺ مع السهر والجوع، فهذه ليلة الأحزاب.
يا ليلة الجزع هلاً عدتِ ثانية سقى زمانك هطالاً من الدائم



مقابلة مع المتنبي

أبو الطيب المتنبي الشاعر المشهور شاعر
الحكمة والإبداع والفصاحة اتخذ مكاناً عند أهل
العلم وأهل الفهم وأهل التجربة وأهل الخطابة،
حتى صار هو بحق الأول عند كثير من النقاد في
عالم الأدب، ونحن ندرس مثل هذه الشخصيات؛
حتى نستفيد من أدبهم، ونستفيد من حكمهم
فتوظف في خدمة الرسالة الخالدة، توظف في
الإقناع، توظف في نشر الفضيلة؛ لأنه أحياناً
يجمع لك كلاماً كثيراً في بيت واحد، ثم إن
المنظوم يسري في الناس، وقد صح عنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة»، وكان-
بأبي هو وأمي ﷺ- يسمع الشعر ويستنشد حسان، ولما ركب معه أحد بني ثقيف
قال ﷺ - كما في صحيح مسلم -: «هل تحفظ لأمية شعراً» فأنشده مئة بيت
والرسول ﷺ يقول عند كل بيت: «هيه هيه» فنحن نأتي إلى هذا الرجل نقصد
حكمه ونقصد إبداعه، فلذلك نسأله وهو يجيبنا.

سؤال: ما هي حقيقة الأمن والخوف؟

يقول هو:

وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى وَمَا الْأَمْنُ إِلَّا مَا رَأَاهُ الْفَتَى أَمْنًا

معنى الكلام: إن الخوف هو الذي تعيشه أنت وتعتقد أنه خوف ولو لم يكن
مخوفاً، فإنه يكفي اعتقادك وخوفك من الشيء أنه قد وقع بك الخوف، أحياناً
أمور عند بعض الناس لا تخوف، لكنه هو يعيش الخوف، إذاً فهو خائف، بغض
النظر عن الأمر الذي يعيشه أمخوف هو أو لا؟ ولذلك بعض الناس تجده في هم
من أشياء يتوقع أنها سوف تقع وهي أصلاً قد لا تقع، فيقول له الناس: أنت ما كثر
في خوف أصلاً؟ بينما هو خائف، إذاً فهو يعيش الخوف.

وتعيش آمناً مستقراً وأنت في عين العاصفة وأنت في أزمة وأنت في كرب فما
دمت آمناً فهذا الأمن، باختصار: ليس الأمن أن تتجرد من كل المزعجات حولك
ومن كل كربات قد تكون فيها ولكنك آمن، إذاً فأنت آمن، وليس الخوف أن يكون
عندك مشكلة أحياناً أو يكون شيء مخوف، لا، أو ليس عدم الخوف أن يكون عندك
مشكلة، هو الشعور الذي تعتقده أنت، الآن كثير من المحزونين تراه محزوناً وعنده
أسباب السعادة، فنقول هو ذا محزون، وإذا قلت: هو مسرور لأن عنده مالاً وعنده
أبناء وهو صحيح ومعافى، نقول: لا، هو يعيش الحزن، ما الفائدة من هذا؟ فهو في
عين العاصفة، والخوف والرجاء، قال بعضهم:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

يقول: أحسن الهوى أن تشك في الوصل؛ لأنك ما تدري هل تستمر المحبة أو تنقطع، ترجو وتتقي وتخاف؛ لأنك إذا أمنت انقطع عنك محبوبك انقطع تماماً، فلا تتعلق به، سلوت عنه، وإذا اقترب منك وتملكته ما تجد عندك شوقاً، لكن أحسن شيء أنه بعيد قريب تخاف من الوصل وترجو اللقاء، فهو دارس لنفسيات الناس يأتي بحكمة.

ولذلك بنى الله سبحانه وتعالى الأمر على الخوف والرجاء منه سبحانه وتعالى فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا تأمن مكره، ولا تيأس من روحه سبحانه وتعالى، فكن بين الرجاء وبين الخوف، وهو أتى بها في حب البشر فكيف بحب رب البشر سبحانه وتعالى.

السؤال: ما بال الدهر يبقى ويبلى الإنسان؟ الأيام متجددة والناس يموتون قرناً بعد قرن، يذهب الوجهاء، يذهب الناس جميعاً: الشباب والكبار والصغار والرجال والنساء، قال:

إذا ما لبست الدهر مستمتعاً به تخرقت والملبوس لم يتخرق

أنت لبست الأيام تستمتع بها. لبست الدهر والأيام كأنها لباس عليك، أنت تفنى ويذوب جسمك، أما الملبوس عليك فباق كما هو، انظر: أفنت الأيام بإذن الواحد الأحد الأجيال الأولى والقرون السابقة ولم يبق إلا الليل والنهار، الشمس تطلع علينا كل يوم، ذهب عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً والملوك والجبابرة والأكاسرة والأغنياء والأثرياء والحكماء والشعراء والأدباء كلهم ذهبوا، وتطلع الشمس، يقول الصلتان السعدي:

أشباب الصغير وأفنى الكبير كراغدة ومر العشي

إذا ليلةً هَرَمْتُ يومَها أتى بعدَ ذلكَ يومٌ فتِي
نروحُ ونغدو لحاجاتِنا وحاجةٌ مَنْ عاشَ لا تنقضي
تموتُ معَ المرءِ حاجاتُه وتبقى له حاجةٌ ما بقي

سبحان الله! اليوم يبقى نشيطاً، كل يوم تطلع الشمس، كأنه أول يوم والأجيال يموتون والناس يزحفون إلى المقابر.

السؤال: يحاول الإنسان كتم مشاعره فما يستطيع؟ فأحياناً تريد أن تضغط على نفسك ما تظهر السرور في بعض المواقف ولا تظهر الحزن ولا تظهر الفرح، تحاول، لكن مهما حاولت يغلب عليك الأمر، تحاول أحياناً عند الجزع والفراق أن تكتم دموعك، قال هو:

بادِ هواك صبرتِ أم لم تصبرِ وبكاك إذا لم يجرِ دمعك أو جرى

يقول: أنت تحاول، لكن ما يستطيع الإنسان كبت مشاعره وعواطفه؛ تظهر في عيونه.. تظهر في خجلاته.. تظهر في التفاتاته.. تظهر في تحركاته.. تظهر في لحظاته.. تظهر في تصرفاته، ما تستطيع، مهما كان، وهذه في قصيدته التي مدح بها ابن العميد الكاتب المشهور التي يقول فيها:

مَنْ مَخْبِرُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُم جالستُ جَالِنْيُوسَ وَالْإِسْكَندَرَا
ودرستُ بطليموسَ دَارِسَ كَتَبِهِ متبدياً متعلماً متحضراً
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِهِ وقطفتُ أنتَ القولَ لما نوراً

وهي من أحسن قصائده، لكن الشاهد: إنك ما تستطيع أن تكتم مشاعرك، لا بد ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] كما قال سبحانه وتعالى.

السؤال: بعضهم يضع من شأن علماء الإسلام، والرموز والأخبار، فقال يرد المتنبي:

مقابلة مع المتنبي

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ

إذا بلغ الإنسان من المنزلة مثل فوق الشمس، فهذا لا يستطيع أحد أن يرفعه فوق، فليس هناك أرفع، ولا تستطيع أن تخفضه؛ لأنه وصل وأصبح فوق بساط الشمس.

يقول زهير في أبناء هرم:

لَوْ كَانَ يَقَعْدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعْدُوا

لو كان هناك مقعد يستحقه بعض الناس بكرمه ومجده وسؤدده لجلس أبناء هرم بن سنان هناك، فيقول المتنبي: إذا ارتفع الإنسان وصار ذا مكانة اجتماعية قوية وأسس ذلك بأخلاق نبيلة وسيرة محمودة عطرة وثناء جميل ومواهب ربانية فلا يزيده القدح إلا رفعة ولا يزيده كلام الحساد إلا مجداً، فلا يضعه أحد، ولا يستطيع رفعه؛ لأنه أخذ من المكانة ما لا توصف.

السؤال: ما وصف من أراد العليا؟ ما هي صفاته؟ ما هي بطاقته الشخصية؟
ما هي الأمور التي يقوم بها؟

فيذكر هو أن من صفاته:

كَثِيرٌ سَهَادُ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يُوَرِّقُهُ فِيمَا يَشْرَفُهُ الْفَكْرُ

يقول: إن النابه الذي يريد عمل الآخرة، حتى المجد الدنيوي تجده كثير السهر، ما تجده يستولي عليه النوم في الليل والنهار، إنما ينام مثل نوم الذئب، فهو دائماً عنده تحرك وتوقد ذهني، يتفكر في المعلومات، يفكر في القراءة، يفكر كيف يصلح بين الناس، يفكر كيف يكون له ثناء حسن، يفكر كيف يكون له ثروة ينفع بها ويتصدق بها، ويصل قرابته، (كثير سهاد العين) يعني: السهر، (من غير علة) ليس بمريض، لكنه سبحانه الله كأنه ثعبان في منامه، ليس كبعضهم ينام، ويناوم عن الصلاة، ويناوم عن القراءة، ويناوم عن النفع، وإذا جلس يسممر

جلس ست ساعات وكله ضحك ليل نهار، ولا دمت عينه، ولا قرأ آية، ولا تدبر موعظة، ولا يفكر في لقاء الواحد الأحد، ولا في صلة الرحم، ولا في نفع العالم، هذا هامد ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١] جثة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، وذلك يختلف عنه.

وفد بنو عامر بن صعصعة إلى النعمان بن المنذر، وكان معهم الشاعر المشهور لبيد بن ربيعة، وهو شاب صغير، فلما صلوا إلى هناك ولهم خصم عبيسي اسمه ربيعة بن زياد؛ لأن عبيساً قبيلة لا تريد السؤدد لبني عامر بن صعصعة، فقالوا للنعمان بن المنذر: ائذن لوفود العرب إلا وفد عامر بن صعصعة الذي منهم لبيد الشاعر الشاب، فأتى سادتهم ولبيد كان يرعى الإبل؛ لأنه صغير ما يدخل مع الوفد، وكان النعمان بن المنذر قد بسط خياماً في الصحراء في يوم الربيع، فدخلت الوفود إلا وفد عامر بن صعصعة ردهم، قال: ليس لكم قبول عندي؛ لأنه وشى بهم عنده وزير من قبيلة أخرى، فرجعوا مهمومين متأسفين، فقال لبيد: ما لكم؟ قالوا: ردنا من عند الباب، وشى بنا الربيع بن زياد العبيسي قال: دعوني، أنا أذهب معكم غداً وأدخل على الملك وأتركه يرحب بكم، قالوا: نحن عجزنا ونحن سادة كبار، وأنت شاب صغير ترعى الإبل، قال: لا، دعوني أنا عندي كلام لو قلته ليدخلنكم النعمان، قالوا: ننتظر لغد إن شاء الله، ننظر هذه الليلة ونعطيك خبراً، فقال سيدهم سيد القبيلة: انظروا له في الليل، إن كان نام في الليل ولا يتحرك، فليس بصاحبنا ولن يذهب معنا، وإن رأيتموه كأنه الثعبان يتقلب على الرمضاء فهو صاحبنا، فأتوا وناموا وجعلوا واحداً يراقبه وهو شاب صغير لا زال غلاماً، فكان يتقلب على جنبه الأيسر ثم إلى الأيمن ثم من الأيمن إلى الأيسر ثم الأيسر كأنه ثعبان في الليل، إلى أن طلع الفجر، فأخبروا سيدهم، قال: والله ما نام وإنه يتقلب تقلباً كأنه ثعبان على الرمضاء في شدة القيظ، قال: هذا صاحبنا، قال: صف لي هذه النبتة؟ نبتة صغيرة؛ لكي ينظر فصاحته، قال:

مقابلة مع المتنبي

هذه جسم هزيل، ومطلع ضئيل، ولكن المنظر جميل. بسرعة كلام مثل المواسي، قال: تذهب معنا، فأصلحوا من شأنه ووضعوا له عمامة وألبسوه، شاب صغير لبيد بن ربيعة ولما دخل أول شيء في المهرجان عند النعمان بن المنذر والوزراء ووجوه العرب موجودون، فأدخلوه فلما انتصب قبل النعمان بن المنذر، قال:

أَكُلْ يَوْمَ لِمَتِي مَقْرَعَةً إِنَّ بَعِيدَ الضِيقِ يَأْتِيكَ السَّعَةُ
نَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةَ وَمَنْ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ
الْمَطْمَعُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدْعَدَةَ وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخِيضَةَ

الجفنة الكبيرة، يطعمون. (مدعدة) يعني: باللحم والثريد، يقول: نحن كرماء. وإذا التقينا بالأعداء وصار الصوت والويليل نضرب الهام والرؤوس، ثم جاء بسبب مقذع في الربيع بن زياد، سب ما يدخل البيوت في الوزير هذا الذي وشى بهم.

فالملك قال: أدخلوا وفد عامر بن صعصعة واطردوا هذا الوزير. والله ما تأكل معي بعدها، والله ما تواطئني، فصار هو شاعرهم وصار خطيبهم بسبب هذه الحادثة.

فقصدي قول المتنبي:

كَثِيرُ سَهَادُ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عَلَّةٍ يُوَرِّقُهُ فِيمَا يَشْرَفُهُ الْفِكْرُ

في الليل يتفكر دائماً في الخطابة، يتفكر كيف يقرأ، يتفكر في المسألة العلمية.

الشافعي نام عند الإمام أحمد إلى الفجر وأخذ يتقلب والإمام أحمد وضع له إناء على مذهب العلماء في قيام الثلث الأخير في السحر وإرسال سهام الدعاء في مناجاة ملك الملوك إذا نزل نزولاً يليق بجلاله سبحانه وتعالى فيقول، في الثلث الأخير: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داع فأجيبه؟»

فالإمام أحمد مضيف صاحب البيت وضع إبريقاً وإناء ليتوضأ، ولما جاء الفجر وإذا الماء بحاله، قال: سبحان الله! قال: أنت قمت ونمت، أما أنا فما نمت أبداً، لقد فكرت في خمسين مسألة وأنا مستلقٍ على ظهري وأجبت عنها والحمد لله، فكان في عبادة وفي علم وهذا الذي يؤرقه فيما يشرفه الفكر، يتفكر في معالي الأمور، يتفكر فيما يقربه من الله ويجعل له مكانه.

نعود إلى المتنبى ونسأله: هل يهرب من الموت؟ الناس قاموا بالحيل في الهروب من الموت، العلاج والدواء والدعاء بطول العمر وأخذوا يهربون من الأزمات والمشكلات والأوبئة، فنسأل المتنبى: هل يستطيع الإنسان أن يهرب من الموت؟ والقرآن أجاب أحسن جواب في ذلك: ﴿قُلْ إِنْ أَلْمُوتُ أَلَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، الذي يفر من الشيء أين يكون الشيء؟ وراءه خلفه، قال: ﴿فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] يقول: إنه قبلكم، أنتم تفرون منه وأنتم تلقونه.

قال: (نعد المشرفية): السيوف (والعوالي) والرماح. (وتقتلنا المنون بلا قتال).

يقول: نحن مستعدون أصلاً، حتى الأعداء نستعد لهم بالسيوف والرماح العوالي، لكن المشكلة أن الموت يدخل علينا ويقتلنا بلا قتال، فما نستطيع دفعه، يعني: أنت تجهز الجيش الجرار والحرس والعسكر والجنود وتتخذ الاحتياطات الأمنية وتحاول أن تدافع عن الملك، ثم يأتيك ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] يأتيك وأنت تشرب الشاي، وأنت جالس، وأنت في الطائرة، وأنت في السيارة، وأنت مستلقٍ، في أي مكان إذا حانت الوفاة قطفت الروح، فيقول: (وتقتلنا المنون بلا قتال) ما نقاتلها تصرعنا وتأخذنا.

وبعضهم لا يرضى إلا بالمحل العالي، بعض الناس همته عالية لا يريد في العبادة إلا أجودها وأحسنها وفي العلم أرقاه، وفي العمل الصالح، وفي الكرم،

مقابلة مع المتنبي

وفي العطفية، وفي البذل والتضحية يريد أن يكون هو المذكور والمصدر والمتوج دائماً لهمته العالية، كما قال:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعِزُّ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

فأنت بعزيمتك وبهمتكم يعطيك الله مثلما تمنيت؛ لأن الذي يريد معالي الأمور همته عالية؛ ولذلك لاحظت أنت الذي يريد الصف الأول دائماً تجد أنه يعرف عند الناس صاحب الصلاة، صاحب الصف الأول، فيوفقه الله للنواهل ويفتح عليه سبحانه وتعالى في أموره، ويسهل له، تجد الذي يحفظ كل القرآن، ليس كالذي يحفظ بعضه، الذي يطلب العلم والقراءة تجد عنده من الفهم وتصور الأمور، الذي يريد أن يعطي لا يأخذ، تجد الناس يثنون عليه ويعطونه ويبدلون الثناء له، كما بذل ماله لهم، فهذا هو الذي يقصد هنا.

قلنا: فما رأيك في الحمى؟ هو أصابته الحمى ووعكته، والمرض يقدره الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده، وفي المرض يتجرد الإنسان من زخرف الحياة ومن زهوها، حتى يقول الشهرزوري لما زار محبوبة، فقال:

مَرَضَ الْحَبِيبُ فزرتُه فمرضتُ مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ
وَأَتَى الْحَبِيبُ يزورُنِي فشفيتُ مِنْ نظري إِلَيْهِ

يقول: لما مرض وذهبت إليه خفت من المرض، لما رأيته مرضت من خوفي عليه، فأصابني المرض، ولما أتاني ورأيت طلعت البهية تشافيت من المرض الذي كان بي، وهنا يقول المتنبي:

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ

يقول: الحمى هذه الزائرة ما تأتي في الغالب إلا في الليل، يقول: سبحان الله تتركني في النهار، فكأنها مستحية ما تزورني إلا في الليل، فإذا أنست في الفراش أنت فوعككتني، يقول:

(بذلتُ لها المطارفَ والحشايا) يقول: قربت لها الفرش والكنب والبسط الوفيرة.

(فعافَتْها وباتَتْ في عظامي) قلت: تفضلي اجلسي. وهذا من تصويره ومن دقته ومن خياله ومن ريشته المعبرة، يقول: إنها تأتي الحمى الزائرة هذه، فأريد أن تجلس وأن تتفضل بالجلوس على المطارف، وعلى الزرابي المبتوثة، وعلى البسط فعافتها وباتت في عظامي، مباشرة في العظام، يقول:

بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافَتْها وباتَتْ في عظامي
أبنتَ الدهرَ عندي كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزحامِ

يقول: أنت مصيبة يا بنت الدهر، وعندي مصائب كيف استطعت أن تدخل من كثرة المصائب التي في، تجدين من الزحام طريقاً إلي، فعندي مصيبة الهجر والفقر والغربة والضنا وحسد الحساد والأزمات والمكائد، وأنا قلت له: لو أنه اتصل بالواحد الأحد لكان كفاه، ولذلك إذا كثرت عليك الأمور فارع اليدين واسأل الواحد الأحد وسوف يكفيك في كل شيء، لا يوجد كفاية إلا معه سبحانه وتعالى، لا عيش إلا معه سبحانه وتعالى، ولا حياة ولا أمن ولا استقرار، ولذلك هؤلاء الشعراء والأئمة ما ننكر أن عندهم عبقرية وعندهم حكمة، لكن عندهم من التمزق والقلق والاضطراب والهم والغم، بخلاف أهل الرضا وأهل الاطمئنان وأهل السكينة وأهل الطمأنينة، مع طاعة الباري سبحانه وتعالى والأنس بقربه جل في علاه.

فمثل شيخ الإسلام ابن تيمية اجتمعت عليه الدنيا تحاربه وضع في السجن، أغلقوا الباب من الحديد والسجان من ورائه فتبسم شيخ الإسلام بصدر رحب وثقة في الله وتوكل عليه وتفويض الأمر إليه سبحانه قال، وهو ينظر إلى السجان وهم يردون الباب، وقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الحديد: ١٣] عنده يعني ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] يقول: تركنا العذاب والمشكلات والشقاء لكم في الدنيا، الرحمة هنا في الزنانة، الرحمة ما دام أنك مع الواحد

مقابلة مع المتنبي

الأحد، مع ذكره، مع طاعته، مع عبادته، مع الاتصال به، فأنت في أحسن حال وفي أحسن مقام، ثم قال بقلب المؤمن الواثق بموعد الله: ماذا يفعل أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري - جنة الذكر والطاعة والعبادة وحفظ القرآن وصلاة الليل والرضا بموعد الله سبحانه وتعالى وحب الخير للناس - أنا جنتي وبستاني - انظر التصوير الدقيق؛ ولذلك يعدونها من أجمل المقطوعات الأدبية التي قالها ابن تيمية - أنا جنتي وبستاني في صدري أنى سرت فهي معي، العلم والحكمة والبيان والفقه، حتى يقول الشافعي:

علمي معي حيثما يممّت يتبعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق

ليس عندي مكتبة محفوظة مثل المكاتب.

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

فيقول ابن تيمية: أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة. إن قتلوني فأنا شهيد؛ لأنه يرفع لا إله إلا الله علم التوحيد، يدعو إلى الرسالة الخالدة، يدعو إلى المبدأ الحق؛ لتكون كلمة الله هي العليا، أن يكون الدين كله لله، ابن تيمية لم يطلب منصباً ولا حكماً ولا ثروة ولا داراً ولا قبيلة ولا دافع لقطعة أرض، وإنما لمنهج الله في الأرض؛ ليقيم الحق والإيمان والعدل ورسالة سيد الخلق ﷺ.

أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، وإذا نفوني وطرودوني من الوطن وكتبوا علي بالنفي الإجباري، فأنا سوف أسيح في الأرض، أطلع في الكون في كتاب الكون المفتوح.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أتفكر في الجبال وفي السماء وفي النجوم وفي الحقائق وفي السهول، يقول إيليا أبو ماضي:

وكتاب الفضاء أقرأ فيه صُوراً ما قرأتها في كتاب

سوف أطلع في الكون في حروف القدرة وفي أسطر الوجدانية وفي جمل الصمدانية، والله يكتب بيدع صنعه في الخلق، ويقول للناس: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

قال: وسجني خلوة، قال: وإن سجنوني في الزنزانة فسوف أختلي، أسجد وأتعبد وأتفرغ للطاعة وأذكر الله وأتوب وأتهجد وأصوم وأتلو القرآن بتدبر، وأطلب العلم، وأكتب وأؤلف، هذا ملخص ابن تيمية في حياته، فانظر إليه حتى مرض في السجن وزاره أصدقاؤه، فقالوا: السلام عليكم يا أبا العباس، سلامات ما ترى بأساً، بارك الله فيك، ولكن عسى لا يوجد خلاف، ماذا تحس به؟ قال بيتين من شعر لشاعر قديم:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدْرِ عَوَاذُهَا مَا بِهَا

تموت بأمراضها، وما درى الناس بها.

وما أنصفت مهجة تشكي أذاها إلى غير أحببها

يقول: والله ما أنصفنا إن كنا نشكو إليكم ماذا تجني إن اشتكيت إلى إنسان فقير معدم، والإنسان مهما بلغ سؤدده لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الزكام لو ملك الدنيا كلها، قال: ما نشكو إلا إلى ربنا سبحانه وتعالى، فانظر لحياة أحمد بن تيمية، وهو صاحب شريعة، صاحب كتاب وسنة، وأحمد المتنبى عبقرى بلا شك وصاحب حكمة، لكنه ممزق يريد الدنيا، يريد الشهرة يريد الإمارة، يريد الحكم، يريد المنصب، يريد البهرج، ولذلك تجد في مدحه طغياناً لافتاً، ويتجاوز في ذمه تجاوزاً مهلكاً، فهذا كلامه في الحمى.

قلنا له: ما رأيك في الفراق؟ فراق الأحبة، البعد عن الأحباب والأصحاب، قال:

لولا مفارقةُ الأحبابِ ما وجدتُ لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلًا

انظر المبالغة في الوصف، لو لم نفارق ما كان الموت اهتدى لأرواحنا ولا وجد طريقاً يقصف أرواحنا، فالفراق هو الذي علم الموت الطرق إلى أرواحنا، فعند الفراق نموت، تجد الفراق هذا من أصعب ما يكون، ولذلك له في الفراقيات كلام يقول فيه:

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مَذْمُومٍ وَأَمَّ وَمَنْ يَمُمْتُ خَيْرُ مَيِّمٍ

ويقول

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ

ويقول الأندلسي ابن خفاجة.

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَصْعَبُ يَوْمٍ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

قلت: صف لنا نفسك؟ في الوفاء وفي مكارم الخلق وفي التواضع، ما هي الخصلة التي فيك؟ قال:

خَلَقْتُ الْوَفَاَ لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مَوْجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا

يقول: من عادتي أني ألوف وآلف، آلف وأؤلف، عندي وفاء، كل يمدح نفسه، لكن انظر التصوير عنده.

يقول: أنا من عادتي أني ألوف، حتى الصبا الذي يتمناه الإنسان لو شخت أنا وشبت وفارقت الشيب الذي في، وأرجع إلى حياة أحسن لبكيت على الشيب المكروه الممقوت، فكيف لو كنت مفارقاً شيئاً أسوأ إلى شيء أحسن؟! فأنا في شيبتي وقد شاب رأسي لو فارقت هذا الشيب، مع العلم أنه ثقل الشيب على الناس وعلى المحبين، ورجعت إلى الصبا الذي هو أحسن عمر، وهو عمر الشباب، وعمر القوة، والفتوة؛ بكيت على الشيب؛ لأنني ألفت الشيخوخة وألفت سن الهرم، فلذلك يبكي

عليه، فارقتة موجع القلب باكياً، فأنا ألوف مع أحبابي إذا فارقتهم بكيت، أحن لهم، أحن لأيامهم، أنا وفي، كل يصف نفسه، وإلا فهو خرج من عند سيف الدولة وأعطاه، وذهب إلى كافور ومدحه ثم ذمه، مرة يمدح إنساناً ومرة يهجو.. وهكذا.

قلنا له: بعض الناس يخشع ظاهره فحسب. قال هو:

وَإِطْرَاقُ طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمُطَرِّقٍ

يقول: إن المقصود هو القلب، بعض الناس يظهر الخشوع، يظهر عليه سيماء الخشوع والتباكي، قلبه في شعاب الدنيا، قلبه يحب الانحراف والشهوات، فيقول المتنبّي: ترى إطرارق العين وهذه الحركات الظاهرة ما تنفع، إذا ما كان الخشوع قلبياً والإيمان داخلية في القلب وفي النفس، وإلا فبعض الناس يطرق بعينه، وبعضهم قد يجامل ويبكي، ولكنه لا يتورع عن الحرام، وأكل أموال الناس، وغش الناس، وأذية الناس، والظلم، فهذا ما ينفعه، يقول: فكما أن طرف العين مطرق فلا بد أن يكون القلب راضياً ساكناً خاشعاً مخبتاً بالطاعة؛ لأنه كما قال سيد الخلق ﷺ فيما صح عنه: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» فالقلب محل نظر الرب سبحانه، فإذا كان القلب مطرقاً خاشعاً منيباً ظهرت على الجوارح، أما التكلف الظاهري الذي يفعله بعض المنافقين تجده يتخشع ويتباكى، بينما في قلبه سعار المعصية يريد الانحراف والغش والظلم < فما يجدي.

قلنا: هل للموت من طبيب؟ هل نستطيع أن نأتي بطب يدفع الموت؟

قال:

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحِبَّةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءَ الْمَوْتِ كُلُّ طَبِيبٍ

يقول: الأحبة قبلنا مثلما فارقتنا حبيينا قد فارقوا أحبابهم، كم تعلقوا بهم، وهذا داء الموت أعيا كل طبيب، كم من طبيب أراد أن يكتشف دواء يدفع الموت فما

استطاع، لا ابن سينا ولا أبو بكر الرازي ولا جالينيوس ولا بقراط ولا غيرهم من أطباء العالم، حاولت الدول، حاولت الشركات والمؤسسات والمنظمات والهيئات الصحية العالمية، فما استطاعوا، لا بد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقد فارق الناس الأوبة قبلنا وأعياء دواء الموت كل طبيب

سؤال: ماذا قلت لسيف الدولة لما أصابته الحمى؟

بإمكان الإنسان العادي أن يصل إلى ملك من الملوك أو إلى عالم أو إلى فاضل من الفاضلين أو إلى أحد الأعيان فيقول: لا بأس عليك، وأتيناك وقد حزنا لما مرضت، لكنه يختصر المعاني، أتى إلى سيف الدولة ووجده مريضاً، فقال: المجد عوفي إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الأثم وما أخصك في برء بتهنئة إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

فهذان البيتان يختصران لك مسافة من الكلام، وكما هائلاً من الحديث، فهو يجمع لك من الحكمة والرصانة، فيقول: لما تعافيت من الحمى يا سيف الدولة، فقد تعافى المجد، فإن المجد كان مريضاً بمرضك، ولما مرضت مرض المجد. وكذلك الكرم والجود والبذل والسخاء مرضا لما مرضت؛ لأنه مدحه بالشجاعة ومدحه بالسخاء، فالشجاع تجده إذا أصابه وهن أصاب الشجاعة وهن، وكذلك الرجل الكريم يتأثر الناس الذين يستفيدون منه، فكأنه لتأثره ولمرضه تمرض هذه الصفة التي هي الشجاعة والكرم.

قال: (وزال عنك إلى أعدائك الأثم) قال: نسأل الله أن ينقل عنك هذا الأثم إلى أعدائك الذين ناوؤوك وشنؤوك.

قال: (وما أخصك في برء بتهنئة) يقول: أنت إذا برئت وشفيت فلا نهئك وحدك؛ لأن شفاءك بإذن الله شفاء الناس؛ فإذا سلمت فكل الناس قد سلموا.

وهي أبيات جميلة من قصيدة جميلة.

وأذكر بالمناسبة أن الشيخ ابن عثيمين - غفر الله له - لما عولج في أمريكا في مرض موته، ثم رجع كنا في مجلس، فسألني: ما أخبار الشعر؟ وكان المشهد لا يناسب أن تأتي بقصائد وتتفصح للحدث؛ لأن الشيخ كان موجعاً مريضاً، فقلت:

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم
وزال عنك إلى أعدائك الألم

وما أخصك في بُرءٍ بتهنئة
إذا سلمت فكلُّ الناس قد سلموا

فقصدي من هذا: أنك تجد للمتنبّي أحياناً بعض الوقفات، فلا يحسن إلا هذا الكلام، ولا يحسن إلا أن تقول هذا الحديث.

وأذكر من الوقفات أن ملك النصارى في طرف أسبانيا في البرتغال كان يقاتل المسلمين، وكان متجهزاً بجيش كبير، فأرسل ليوسف بن تاشفين قائد المرابطين رسالة يتهده فيها، فقلب ابن تاشفين الرسالة - وكان مجاهداً رجلاً صالحاً - وإن كان من أخطائه التاريخية عدوانه على المعتمد بن عباد في قرطبة أو في إشبيلية، المقصود أنه كتب له تهديداً، وجهاز جيشاً يريد غزو بلاد المسلمين، فقلب يوسف بن تاشفين الرسالة، وكتب في ظهرها: (ولا كتب إلا المشرفية عنده) المشرفية عنده: يعني: السيوف.

(ولا رسل إلا الخميس العرمرم) يقول: نحن لن نكتب لك رسائل، ولن نتفصح، ولن نكثر، فما عندنا إلا سيوف مصلطة مهيأة مؤمنة سوف تحصّدك وتحصد من وراءك.

ولن نرسل لك بريداً ورسولاً يقنّعك، وقد تفاوضي استشاري بمحادثات دبلوماسية، فعندنا خميس عرمرم وهو الجيش، وهذا من أبيات المتنبّي. وبالفعل تجهز يوسف بن تاشفين ونزل أسبانيا التي هي الأندلس وحطم النصارى وسحقهم

مقابلة مع المنتبه

سحقاً ما بعده سحق، وكان هو من المؤمنين الكبار بالله، ومن المجاهدين الصادقين، أسس دولة الموحدين في مراكش، لكن اعتدى فيما بعد على المعتمد ابن عباد في إشبيلية في كلام طويل، والله سبحانه وتعالى سوف ينصفهم يوم القيامة، ينصف المظلوم ممن ظلمه، نحن لا نقف إلا مع استشهادات الناس.

ومن الاستشهادات أن أحد الزعماء مر بطريق، وكان هناك جزار لا يدري أن هذا الزعيم قد مر، فرمى أشياء من بقية الذبيحة فوقعت على هذا الزعيم وهو في موكب، فأراد أن يختلع رأس هذا الجزار، فقال أحد مرافقيه من الأدباء: أيها الملك، أو أيها الزعيم، أو أيها الأمير:

لا يسلّم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم

وهذا البيت أيضاً لأبي الطيب، فقال: عفوت عنه لأجل هذا البيت، وإنما نستشهد بهذا؛ لأنه مطلوب منا في الإسلام من حملة الكلمة الراشدة أن يكونوا بلغاء، ويكونوا فصحاء، وعندهم من التأثير الأدبي ما يقنع السامع، حتى في باب الوعظ؛ لأن باب الوعظ باب شريف يحتاج إلى قافية وإلى آية وإلى حديث وإلى قصة، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَظُّهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] القول البليغ ما يتأتى إلا بفصاحة تقرأ، وبأبيات يستشهد بها وبجملة مفيدة ناصعة وبيان خلاب، وببلاغة متناهية في الحسن، أما أن يلوك الإنسان الكلام لوكاً للناس، ويعجنه عجنًا ويتفأفأ ويتمتم فإنه لا يقنع السامع، لا بد أن يكون الإنسان مؤثراً في بيانه؛ ولذلك كان سيد الخلق ﷺ من أفصح الناس فلا يتلثم ولا يتوقف، وكان يتقن الجملة، من الإقناع، ويهدي أمماً بكلمة واحدة لا كما يقول الزبيرى:

ما بنا جملة من اللفظ إلا وابتلى اللفظ أمة من عفاء

سؤال: أما ترى أن بعض الناس محظوظ؟ فبعض الناس عندهم حظ، يقول سبحانه وتعالى في الحظ: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥].

فيقول هو:

هو الجدُّ حتَّى تفضِّل العينُ أختها وحتَّى يكونَ اليومُ لليومِ سيِّداً

يقول: حظ من الله سبحانه وتعالى حتى تجد العينين وهما في رأس واحد، وتجد أن إحداهما أقوى نظراً أو أكثر ملاحظة من الأخرى، فيقول: قد يتساوى الناس والأيام، لكن بعضها أفضل من بعض.

وحتَّى يكونَ اليومُ لليومِ سيِّداً: فيوم الجمعة أفضل من يوم السبت، فيعطي الله سبحانه وتعالى بعض الناس من الحظ والقبول والحظوة، مع أنهم من أب وأم ويلتقون إلى آدم وحواء وهم بشر، لكنه الحظ من الله.

يقول هذا؛ لأنه يبارك لسيف الدولة في قصيدته التي مطلعها:

لكلِّ امرئٍ من دهره ما تعودا وعاداتُ سيفِ الدولة الطعنُ في العدَا
إلى أن يقول:

هو الجدُّ حتَّى تفضِّل العينُ أختها وحتَّى يكونَ اليومُ لليومِ سيِّداً

فيقول: هذا حظ من الله؛ لأنك لما برزت للناس، وتفوقت عليهم فإن الله أعطاك هذا الحظ فكنت أنت أكثرهم مقاماً وأكثرهم قبولاً ورفعة، كما أن عيناً أحياناً تكون أفضل من عين، وهي أختها.

سؤال: كيف يعاقب الحر إذا أخطأ؟ فالناس فيهم رجل شهم وصاحب مروءة، ويعثر أحياناً، يخطئ. وكما يقول الشاعر:

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

وأحياناً رجل سفيه طائش كثير الخطأ، كثير الزلات فهل يستويان؟

قال:

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحَرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا

يقول: إذا أردت أن تقتل الإنسان فلتعف عنه، خاصة الحر؛ لأنه يتأثر من العفو، ويصبح لك عليه منة، فتجده يستحيي وتجده يأكل نفسه غبناً وندماً على الإساءة التي سلفت، أما اللئيم فإنك إذا عفوت عنه يتصور أن ذلك لقوته هو ولشجاعته وأنت جبان أو أنك خائف منه، ولذلك يقول:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وهذا من بدائعه التي سار بها الركبان وانتشرت مثلما قال الشوكاني: قال أحد ملوك اليمن لما أتى شاعر له: قال: أنا أشعر من المتنبي قال: كذبت، بل المتنبي أشعر منك ومن أبيك وجدك، فإن له ثلاث مئة بيت تدور على أسنة الملوك، فضلاً عن غيرهم ومنها: (إذا أنت أكرمت الكريم ملكته) فإن بعض الناس إذا أكرمته ووجد إحسانك ويدك البيضاء طوقته وعرف أن المنة لك بعد الله عز وجل، فتجده يحفظ الجميل ويحفظ الإحسان، وكلما مرت به إساءات منك أو أتاه نقص، قال: أنا أذكر أن له مواقف فلن أنسى مواقفه الجميلة التي مرت، وإحسانه، هل ننسى تلك الشفاعات وتلك الإكرامات، وتلك المواقف العظيمة، لا يمكن أن ننساها. قال:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

فاللئيم يزداد انحرافاً ويزداد تمرداً، ويزداد بغياً، يعني: ألا تعامل الناس كلهم سواء؛ ولذلك يقول في بيت بعده:

فَوْضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا مُضْرُكُوضِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

يعني: إنك في موقف يحتاج منك حزم، ويحتاج منك شجاعة، فتأتي بحلم وسهولة ولين فلا تصلح، وموقف يحتاج إلى سهولة ولين ورقة فتجعل مكانه الحزم والغلظة والشجاعة، فلا يصلح، فأحياناً بعض المواقف تحتاج إلى صرامة وإلى قوة وإلى شجاعة فهذا وقتها، ما يقدر ذلك إلا الحكيم، وأحياناً تحتاج الأمور إلى بساطة وإلى لين وإلى عفو وإلى مسامحة، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ ولذلك فإن بعض الناس على ما آتاه الله سبحانه وتعالى من قدرات تجده يتغافل عن الزلات، حتى يقول الإمام أحمد: تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل. إنك إذا تغافلت مع الزوجة، مع الأخ، مع الابن، مع القريب، كأنك ما سمعت؛ لكي تصلح الحياة، ولهذا يقول أبو تمام:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فتجد عند بعض الناس من الذكاء أنه يتغابي ويتغافل عن أخطاء الآخرين وعن زلاتهم، فالغبي لا يكون سيِّداً ولا يقود الجموع، لكن هذا الذكي الذي يتغافل ويرتفع عن الزلات والأخطاء هو الذي يسود الناس بلا شك، وهذه من بعض بدائعه.

سؤال: ألا ترى كيف يتقلب الزمان بأهله؟

قال:

وَصَرْنَا نَرَى أَنَّ الْمَتَارِكَ مُحْسَنٌ وَأَنْ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُولُ

يقول: تقلب بنا الزمان، وأصبحنا في دهر نرى الذي يتركنا من أذاه قد أحسن إلينا، جزاه الله خيراً، لا نريد أن ينفعنا ولا أن يجود علينا، ولا أن يقف معنا ولا أن يشفع لنا، نريد فقط أن يكف أذاه، فقط لا يؤذينا ولا يتعرض لنا، ولا يشتمنا، ولا يجرح مشاعرنا.

مقابلة مع المنتبى

ولذلك ورد في الصحيح عند مسلم من حديث أبي ذر أن الرسول ﷺ لما أوصى أبا ذر قال له: «فإن لم أجده - يعني ما يجد من المعروف ما يسدي - قال: كُفَّ أذاك عن الناس فإنها صدقة تتصدق بها على نفسك» أو كما قال ﷺ، يعني: إنك إذا كففت أذاك عن الناس، فقد تصدقت على نفسك، فما عاد عند الإنسان نفع للآخرين ولا شفاعاة ولا إكرام ولا صدقة ولا ضيافة، فليكن يده ولسانه، ويترك الناس من أذاه، يلزم بيته، هذه صدقة، فانظر كيف صاغ المعنى، انظر لهذه العبقرية الملهبة اللامعة، يقول:

وَأَنْ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَصُولُ

حتى صاحبنا وصديقنا وحبيبنا الذي ما ضرنا فهو وصول، جزاه الله خيراً وصلنا؛ لأنه ما ضرنا؛ لأن الأصدقاء قليل منهم من يفي.

ونعود فنسأل المنتبى في تجربة أخرى من تجارب الحياة، ونقول له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟ المخطئ هل يشعر بخطئه؟ هل يشعر مثلاً الجاهل أنه جاهل؟ هل يشعر الأحمق أنه أحمق؟ المصيبة أن بعض الناس لا يدري ولا يدري أنه لا يدري كما يقول الخليل بن أحمد: أخط الناس الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

على منهج القرآن: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] فهم واقعون في الفساد، ولكن لا يشعر أحدهم أنه مفسد، وهذا أشد الناس وأشر الناس، جاهل ولا يدري أنه جاهل؛ لأن الذي يدري يتعلم، فقلنا له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟

قال:

كَدَعَوَاكَ كُلُّ يَدْعِي صَحَّةَ الْعَقْلِ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

فيقول: مثلما ادعيت أنت فكل يدعي أنه صحيح العقل، فتجد غالب الناس راضياً بوضعه، ويرى أن عنده من الحكمة ومن البصيرة ومن الفتوحات الربانية ويخاف على نفسه من العين وهو لا يحفظ آية الكرسي، ولم يسمع بابن خلدون، ولا يحفظ حديثاً من صحيح البخاري، وإذا قلت له: يا أخي، تعلم، قال: واللّه عندنا خير الحمد لله، ونحن تعلمنا وسمعنا من المشايخ كثيراً، والدين واضح والحمد لله.

فإذا قلت له: سجود السهو قبل السلام أو بعده؟ قال: الحمد لله نحن نشأنا على خير وعلى دين ولا تدخلونا في مسائل، وإذا قلت له في الكرم قال: الله سبحانه وتعالى يعلم أنني لا أحسب للدنيا حساباً، وأن الدراهم عندي مثل التراب. وإذا قلت له: لو تحرص على التواضع، قال: الله يعلم أنني مثل النسيم، ويعرف الناس كلهم أن قلبي أبيض، وهو لا يعرف أحداً ولا شيئاً، وقلبه أسود من الليل، فهذه المشكلة؛ لأنه لا يريد أن يتعالج، فلا يستطيع أن يتداوى، فيقول المتنبّي:

(كدعواك كل يدعي صحة العقل) فأكثر الناس على الدعاوى، حتى تجد من الناس من قد يكون ذا علم، لكنه يزيد في ألقابه، فإذا قلت له: ما شاء الله أنت عندك خير وعلم، قال: أنا أبشرك، فإذا قلت له: أت حفظ الصحيحين؟ قال: بل الستة، أبشرك، لكن لا تخبر أحداً، وقد لا يقيم ثلاثة أحاديث، فالمشكلة الدعاوى.

يقول البوصيري:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات؛ أي: أصحاباً وأدعياء.

يقول أحد العلماء: كل نفس فيها النمرود بن كنعان، لكن منهم من يظهر ومنهم من يكتُم، وإنك لو بحثت العالم الآن لوجدت تسعين في المئة منهم كل يدعي فوق ما له، فتجد بعضهم ذا ظلم، لكنه يقول: الله يعلم أنني أتحرى في المسائل الدقيقة والجليلة، وهو مظلوم دائماً، هو يقول: يتهمونني ويعلم الله أنني بريء من هذا، فهو سبحانه وتعالى يطلع على ما في نيتي، وتجد العالم قال: الحمد لله هذه

المسائل انتهينا منها، وعرفناها، وقرأت الحمد لله الكتب، وبدأت أحقق مسائل خفيت على بعض العلماء المتقدمين، سبحان الله! فقد يأتي المتأخر ويدرك ما لا يدرك المتقدم، يعني أنه أدرك هو ما لم يدرك مالك والشافعي. وحتى الشعراء إذا جاؤوا في المقابلة قال: هذه القصيدة قد ألقيتها وحظيت بالاستحسان، وقد نلت جوائز من جمعية خيرية، ومن مدرسة ابتدائية ليلية لمحو الأمية، فيرى نفسه مقدماً؛ لأن من حوله يلبسون عليه، فهم يسقونه كأس خمر المديح، فأصبح رأسه طاشاً، فأصبح يتكلم بجهل، فيقول:

كدعواك كلٌ يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

لكن من يصوغها إلا أبو الطيب بهذه الألفاظ ويرسلها لك في بيت محفوظ؟ ولذلك له ألف سنة الآن، ألف سنة هذا الشعر وباق في الناس، حتى عقدوا له مؤتمرات عالمية في العالم العربي، منها في المربد لقاء باسم المتنبي وحضر عبد الله البردوني شاعر اليمن الذي توفي قبل سنوات، وكان المؤتمر عن المتنبي فحضر النقاد والشعراء والعلماء، من كل العالم العربي؛ لأنه شاعر العربية، فجاء البردوني يمدح هذا المتنبي، فقال فيه:

من تلظي لموعه كاد يعمى كاد من شهرة اسمه لا يسمي
من تداجي يا ابن الحسين أداجي أوجهاً تستحق ركلًا ولطمًا
كم إلی كم أقول ما لست أعني وإلی كم أبني على الوهم وهما

هذا هو المتنبي الذي يمدحونه، فهذه الدرر هي التي خلده، وإلا فعدنا بعض الشعراء المعاصرين عنده ثمانية دواوين، كل ديوان مثل كيس الإسمنت، ما تحفظ منها بيتاً؛ لأنه يشعر في كل مناسبة، تزوجت بنته فعمل ثلاث قصائد، باعوا غنهم فعمل قصيدة، افتتحت صوامع الغلال فعمل قصيدة، جاء مخيم صيفي فعمل قصيدة في الافتتاح وأخرى في الختام، نقلوا الخيمة فعمل فيه

قصيدة، مدح رئيس المركز والطباخين والسفرجية، ثم أخرج لنا دواوين، فهذا قد مات هو وشعره.

المتنبى له ديوان فقط، ستة آلاف بيت أو خمسة آلاف ونصف، لكنه طائر في الناس، يقول: هو يطير والشعراء يمشون، هذا هو الشعر؛ ولذلك أخذ العلماء والخطباء شعره القوي هذا، أرسلوه على المنابر وأرسلوه عبر القنوات وأرسلوه عبر الكتب؛ لأنه متفوق عليهم كما يقول:

وما الدهرُ إلا من رِوَاةٍ قصائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ منشدًا

حتى الدهر ينشد معي، وهو الذي يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي من به صمم

حتى العمي لا بد أن أريهم أدبي وأطلعهم عليه، وكذلك الذي فيه صمم أدخل المعلومة في ذهنه من أذنه حتى يسمعها رغم أنفه، هذا هو الإبداع. سؤال: بيننا علماء بين أظهرنا ونرى الناس لا يستفيدون منهم؟

يقول:

وليس الذي يتبع الويل رائداً كمن جاءه في داره رائد الويل

يقول: ليس من يبحث عن المطر في واد - كأهل البادية ينظرون إلى الغمام فيلتمسون مواقع القطر من واد إلى واد فتعبوا - ليس حاله مثل من فوجئ وإذا المطر عليه في واديه والغيث صب عليه في منزله ومراته فما سافر، قال: هذا مثل من عندهم العلماء بين أظهرهم ولا يستفيدون شيئاً.

قرأت عن سيرة مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمته الله يقول: كان طلابه قد أتوا من خرسان وأتوا من الأندلس وأتوا من المغرب يطلبون العلم عنده وابنه يطارد حمامة، فقالوا: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: الهادي هو الله سبحانه. الذي

مقابلة مع المتنبي

يوفق هو الله، سبحانه الله تجد عم الرسول ﷺ مثلاً أبا لهب غوى وانحرف عن منهج الله وهو هاشمي قرشي عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأما بلال من أرض الحبشة وصهيب من الروم وسلمان من أرض فارس، فهم ينافحون عن الملة ويدافعون بدمائهم وبأنفسهم عن هذه العقيدة الصحيحة الخالدة.

سؤال: ما خلاصة تجربتك مع الناس؟

يأتي بتجربة طاغية لكننا لا نوافقها عليها، لكن هذا تصويره في الحياة وفي الناس، جربهم، لدغ منهم، شوهوا سمعته، تعرضوا له.

قال:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا مِنَ النَّاسِ رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ

يقول: ليتكم تعرفون مثلما أعرف، فمن عرف الأيام والناس معرفتي بها وبهم، فلن يرحمهم أبداً، بل يروي رمحه من دمائهم، ويشفي غليله منهم.

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمَ بَأْثَمٍ

يقول: والله لو يظفرون بك فإنهم يقصمون ظهرك، لا تقل: إنهم إخوانك، نحبكم في الله، وندعولكم بظهر الغيب، ونسأل الله أن يجمعنا بكم، يقول: لا، هذا فقط لأنهم في منفعة يريدونها منك، لكن يوم يجدون فرصة فإنهم ينقضون عليك.

وهذا ليس بصحيح من حكمه، ففي الناس لئيم وفي الناس غدار وفي الناس مكار، لكن هذا ليس حكماً عاماً، لا والله ففي الناس أوفياء وشرفاء وصلحاء، وفي الناس والله من يقف معك، ويدعوك وهو صادق في حبه.

لكنه طغى، الرجل هذا عرف الحياة بهذا المنظر؛ لأنه وجد من الصعوبات ومن المناوءات ومن المكائد الكثير؛ لأن العبقرية دائماً تحف بالنكبات، تحف

بالمكائد، والرجل بارز، الرجل يستولي الحضور، يخطف الأضواء، له حضور طاغ، فهو مشروع فكري ثقافي وجد في تلك الحقبة، فصارت تضرب عليه السهام، يحضر المهرجان مثلاً عند عضد الدولة، فحضر ثمانون شاعراً وهو من ضمنهم، شعراء كبار وعضد الدولة ملك كبير - اقرؤوا ترجمته عند ابن كثير والذهبي - طاغ، قتل من قرابته نحو ثلاثة ملوك، وقتل من الملوك الآخرين، حتى ذهبوا في عيد الأضحى، ليسلم عليه الناس والشعراء والأدباء، وإذا هو قد نظم رؤوس الملوك الذين قتلهم، والجماعم علقها، فيقول أحد الشعراء له:

صَلِّ يَا ذَا الْعُلَا لِرَبِّكَ وَانْحَرْ كُلُّ ضِدٍّ وَشَانِيٍّ لَكَ أَبْتَرُ
أَنْتَ أَعْلَى مَنْ أَنْ تَكُونَ أَضَاحِي لَكَ قَرُومًا مِنَ الْجَمَالِ تَعْفَرُ

يقول: لا تضحي بالجمال ولا البقر ولا الغنم، خل هذه في المجزرة والمسلخ للناس يضحون بها؛ فأنت أكبر من أن تكون أضاحيك قروماً من الجمال تغفر، بل قروماً من الملوك.

كَلَّمَا خَرَّ سَاجِدًا لَكَ رَأْسُ مِنْهُمْ قَالَ سَيْفُكَ: اللَّهُ أَكْبَرُ

وهذا من أبلغ المدح على الإطلاق الذي قيل في عضد الدولة.

هذا عضد الدولة أقام مهرجاناً في بغداد، مهرجاناً كبيراً حافلاً ودعا له ثمانين شاعراً منهم المتنبي، وحضر الشاعر السلامي الذي يقول لعضد الدولة قبل المتنبي - لأنهم بدؤوا والمتنبي يتأخر؛ لكي يكتسح الحضور ويأخذ الجائزة ويتركهم في خبر كان - قام السلامي قال:

إِلَيْكَ طَوَى عَرْضَ الْبَصِيرَةِ جَاعِلًا قَصَارِي مَنَاهُ أَنْ يَلُوحَ لَهُ الْقَصْرُ
فَكُنْتُ وَعِزْمِي وَالظَّلَامُ وَصَارِمِي ثَلَاثَةَ أَشْبَاهٍ كَمَا اجْتَمَعَ النَّسْرُ
وَبَشَرْتُ آمَالِي بِشَخْصٍ هُوَ الْوَرَى وَدَارِ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٌ هُوَ الدَّهْرُ

فالشخص عضد الدولة والدار بغداد، وهذا من أجمل الأبيات، لكن جاء الصاعقة، فقام المتنبي، فقال:

فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فَدَاكَ	فَدَى لَكَ مَنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ
دَعُونَا بِالْبَقَاءِ لِمَنْ قَلَاكَ	وَلَوْ قَلْنَا: فَدَى لَكَ مَنْ يَسَاوِي
بِحَبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سَوَاكَ	أَرْوَحُ وَقَدْ خَتَمْتُ عَلَى فَوَادِي
طَوِيلًا لَا أَطِيقُ لَهُ حِرَاكَ	وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا ثَقِيلًا
فَلَا تَمْشِي بِنَا إِلَّا ابْتَرَاكَ	وَحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا
فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ	إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بَدَاءٍ
تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى	إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمُوعٌ فِي خُدُودٍ

ومضى بها في قوة وفي أسر وفي إبداع وفي سحر في موج كالجبال حتى أكمل ثمانين بيتاً، فبهت الناس، دهش الناس، أخذ الجائزة على الثمانين، فهو -بلا شك- مبدع في هذا الباب، وسبحان الذي أعطاه الحكم، وأعطاه قوة الأسر، وهذا أمر معلوم.

سؤال: هل تحب الهدية ممن تحب؟ هل تحب الناس من أجل الهدايا والمنافع الشخصية؟

قال:

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحَبِّ رَشْوَةً ضَعِيفُ هَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابَا

يقول: ما أريد رشوة على الحب، أنا حبي مجرد، أنا لا أحب الناس من أجل الأعطيات، انظر كيف صاغ العبارة، أنا لست ضعيف هوى يريد مصالح من الناس، أحبهم من أجل أن يقفوا معي ويشفعوا لي، من أجل أن يعطوني شيئاً، لا، حبي مجرد صادق للنفس.

وهو طبعاً ما يحب في الله ولا يبغض في الله عسى الله أن يتجاوز عنا وعنه،
لكن هو يقول في الدنيا: أنا حبي شخصي لنفس الإنسان، ولمناقب الإنسان.

لأن ضعيف الهوى يريد أن تعطيه وتسدي إليه وتمنحه وتهدي له، أما قوي
المحبة، فإنه لا يريد منك مكافأة، يحبك لما فيك من المعاني، وهذه قصيدة
رائعة، ومع العلم أنه يناقض نفسه في القصيدة التي قالها لكافور:

وفي النفس حاجات وفيك فطنة
سكوتي بيان عندها وخطاب

هو يريد إمرة، يريد أن يعطيه قرية أو محافظة يتولاها، يقول: عرضنا وسكتنا،
فافهم المطلوب، ففي نفسي شيء مطلوب وأنت ذكي وأنت تعرف الموضوع، دعنا
نتفق من الآن، تحرينا وانتظرنا، فأعطني مرادي.

وبهذا كله لا يخفى على القارئ لديوان المتنبّي ما فيه من حكم، وما فيه من
إبداع، وغير ذلك.



الشعر والعبود

يقول أبو الطيب المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره

إذا استوتَ عنده الأنوارُ والظلمُ

يقول: كيف ينتفع الإنسان بعينه أو ببصره

إذا كان الظلام والنور عنده سيان، لا يميز بين

الحق والباطل، ولا بين الخير والشر، إذا فُكَّونه

يبصر أو كونه أعمى سيان، وهذا من حكمه

الفريدة، وقصيدته هذه التي منها هذا البيت هي

من أجمل قصائده، حتى يقدمها بعضهم على كل

القصائد، ومطلعها:

واحرق قلباه مَمَّنْ قلبه شِبْمَ
وما لي اَكْتَمُّ حبا قد بَرى جسدي
وَمَنْ بجسمي وحالي عنده سقمُ
وتدعي حب سيف الدولة الأُممُ

إلى أن يقول فيها:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
والخيل والليل والبيداء تعرفني
وأسمعت كلماتي مَنْ به صممُ
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
سيعلمُ الجمعُ مَمَّنْ ضمَّ مجلسنا
بأنني خيرُ مَنْ تسعى به قدمُ

وبعد عنه ذلك؛ فما هذا إلا خير البرية رسول الله ﷺ. ثم يقول:
أعيدُها نظراتٍ منك صادقةً
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره
أنْ تحسبَ الشحمَ فيمَنْ شحمُه ورمُ
إذا استوتَ عنده الأنوارُ والظلمُ

فالناظر هنا البصر والعين.

والعين أكثر من ذكرها الشعراء في قصائدهم وفي أشعارهم وهم يصفونها
بأنها الباكية وأنها المتأثرة وأنها التي تظهر سرور النفس وتظهر جزعها عند لقاء
الأحبة أو فراق الأحبة.

والسعد الشيرازي الشاعر الإيراني العالمي المشهور يقول:

بَكَتْ عيني غداةَ البين دمعاً
وأخرى بالبكا بخلتْ علينا
يعني: الثانية.

فعاقتُ التي بالدمعِ ضنَّتْ
بأنْ أغمضْتُها يومَ التقينا
والأعور السلمي يقول لما بكى على ابنه، وكانت إحدى عينيه ذاهبة، فقال:

بكيتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ وعينٌ بها ريبٌ منَ الحَدَثانِ
عذيرُك يا عيني الصحيحةُ والبُكا فما لكِ يا عوراءُ والهملانِ

فهم يصفون العين؛ لأن أكثر ما تفجع فيه العرب بالفراق والبعد والسفر عن الأحباب.

فهذا أبو هلال العسكري يقول:
يا عينُ، صارَ الدمعُ عندك عادةً تبكينَ في فرحٍ وفي أحزانِ
طفحَ السرورُ عليَّ حتَّى إنني منَ عَظُم ما قد سرَّني أبكاني

أحياناً يطفح السرور على الإنسان إلى درجة أنه ما يستطيع أن يعبر إلا بالبكاء، مثل الأم التي يأتي ابنها فجأة من سفر أو مغيبة فتبكي من الفرح.

يقول أنس رضي الله عنه: «ما كنت أظن أن الإنسان يبكي من شدة الفرح، حتى رأيت الأنصار لما تشافى عليه الصلاة والسلام من مرضه قبل مرض الموت وخرج ليصلي بهم صلى الله عليه وسلم ووجهه كورقة المصحف، فلما رأوه بكوا من شدة الفرح»، وقال في بعض الروايات: «إنه لما قدم صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خرج الأنصار للقاءه فبعضهم بكى من شدة الفرح».

ومن شدة الفرح بكى أبي بن كعب لما أخبره عليه الصلاة والسلام أن الله سمى أبي بن كعب في الملاء الأعلى، قال: «وسماني في الملاء الأعلى؟ قال: سماك، فبكى من شدة الفرح رضي الله عنه وأرضاه».

وتفنن الشعراء في ذلك، ومن ذلك بيت جرير المشهور:

إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يُحيينَ قتلانا
يصرعنَ ذا اللبِّ حتَّى لا حراكَ به وهُنَّ أضعفُ خلقِ الله إنسانا

وهذه من أجمل قصائده، ومطلعها:

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُوِّعَتْ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حَبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا
كَادَ الْهَوَى يَوْمَ سَلْمَانِينَ يَقْتُلْنِي وَكَادَ يَقْتُلْنِي يَوْمًا بَيِّدَانًا
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ دُنْيَاكَ مِنْ أَسْبَابِ دُنْيَانَا

وهورقيق الحاسة، هذا جرير الذي يقول: لو تركني الفرزدق- لكن أشغله الفرزدق- لأبكيك العجوز على شبابها.

وهنا نعود للمتنبى في مسألة العيون؛ لأن له في البكائيات كثيراً، حتى إنه يقول في قصيدة له مشهورة:

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقَّرُقُ
ويقول في أخرى:

إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمْعُوعٌ فِي خُدُودِ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وهو صاحب ذاك البيت الفريد الذي يقول فيه:

وَأَنَا الَّذِي جَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ فَمِنْ الْمَطَالِبِ وَالْقَتِيلِ الْقَاتِلُ

يقول: تسببت أنا في النظر، فلما نظرت فتنت وتعبت من هذا النظر فكدت أشرف على الموت، فمن أطالب، من يأتيني، أنا الذي قتلت نفسي، القاتل هو القاتل، وهذا من حكمته وبراعته في صوغ الألفاظ؛ فإنه يأتي بأمور حتى يقول عن الدنيا بيتاً، الشوكاني تعجب من هذا البيت في رسائله، وقال: لا إله إلا الله! ما أدق نظره- يعني نظر المتنبى- فإنه يسقط على الحكمة بامتياز، يقول:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفِكَ الْيَدَيْنِ مِنْهُ تَخْلَى

يعني الدنيا، يقول: لا تصدق الواحد إذا بكى من الدنيا أنه يتوجع، فهو لا يبكي منها متوجعاً، بل يبكي عليها شفقة وحباً لها.

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ آهَ فَمَا مَلَّ مُقَاماً وَإِنَّمَا الْعَيْشُ مَلًّا

يقول: لا تظن الشيخ الكبير السن إذا قال: آه، قد ملَّ، هو ما ملَّ، يريد الحياة متشبهاً فيها، لكن العيش هو الذي ملَّه، هذا في بعض كلام الشراح، أبدأ الإنسان متشبث بالحياة، وكما صح عنه عليه الصلاة والسلام: «يهرم ابن آدم ويشب فيه شيئان: الحرص على المال، والحرص على الحياة» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه من فلسفة أبي الطيب. وعلى ذكر العيون والسهر يقول أبو نواس:

شَكُونَا إِلَى أَحِبَابِنَا طَوَّلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا

يقول: إنا سهرنا نحن في فراقهم وفي بعدهم، ولكنهم على عكسنا فالليل عندهم قصير. حتى يقول المتنبّي:

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحُشَّةً لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرُّ مَرِيرِي وَارَعَوَى الْوَسْنُ

يقول: سهرنا الليالي، ثم نسينا، ثم جاء النوم، ثم رقدنا، ثم نمنا، فأبو نواس يقول:

شَكُونَا إِلَى أَحِبَابِنَا طَوَّلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا: مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا

لأن أولئك ينامون ونحن لا ننام.

وَذَاكَ بَأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عَيُونَهُمْ يَقِينًا وَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَعْيُنَا

وهذه من أجمل الأبيات.

ويقول خالد بن يزيد، وقيل: إنه يزيد بن معاوية وكان شاعراً يقول الشعر:

لَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَغْيِيرًا لِمَا فَعَلْتُ نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرْتُ عَيْنِي عَيْنَاهَا

فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

وعلى ذكر الليل وليلى وهذا من الجناس، فقد استخدمه شاعر في ليلي
حبيبته، فهو مقرون الليل بليلى قال:

ليلى وليلى نوى نومي اختلا فُهما في الطُول والطُول طوبى لي لو اعتدلا
يجود بالطُول ليلى كلما بخلت بالطُول ليلى وإن جادت به بخلًا

وهذا تلاعب بالألفاظ، وهذه من الأبيات المرقصة المنعشة المدهشة، ولا
يستطيع أن يقولها إلا كبار الشعراء.

ويستحسن البكاء الذي ليس فيه جزع عند الوفاة- وفاة الحبيب- حتى إن
سيد الخلق ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم قال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا
نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم، لمحزونون» فجمع ﷺ بين
الإيمان بالقضاء والقدر والرضا والصبر والرحمة.

ويقول أبو تمام لما قتل محمد بن حميد الطوسي، بطل قتل في معركة مع
الروم، وهو من القادة العسكريين لكبار للمعتصم يقول:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر
ثوى طاهر الأردن لم تبق بقعة غداة ثوى إلا اشتهدت أنها قبر

والقصيدة المليحة هي من أحسن المراثي، وإنما الشاهد: (فليس لعين لم
يفض مأوها عذر) لأننا نتكلم عن العيون، حتى يقول عبد الله الصغير الأمير
الأندلسي لما ضيع الملك، اشتغل باللعب واللهو فضاع ملكه في الأندلس، كان
أميراً فذهب ملكه، فأنت أمه تقول له:

ابكٍ مثل النساءِ مجداً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال، ونقلها بعض الأدباء، فقال:

ابكٍ مثل النساءِ ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وكل الشعراء في الغالب يذكرون الحنين والبكاء، مثلما يقول امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فكلهم يتعاورون هذا المعنى ويتبادلونه بينهم، ولكن بكاء الندم على التقصير في جنب الله أجمل من ذلك؛ أجمل من الهوى والشجا والغرام والوصل، فهذا منته، حتى يقول لسان الدين بن الخطيب الأديب الأعجوبة الأندلسي:

جزى الله عني زاجراً الشيب خيراً ما جزى ناصحاً فازت يدها بخيره

سلكت طريق الحب حتى إذا انتهى تعودت حباً الله عن حب غيره

فهؤلاء يدركون المجد، حتى إن أحد الشعراء الكبار أحالك إلى ما هو أحسن لمن يكون الحب الأحسن والأرقى؟ ولمن تسكب الدموع؟ فقال:

إذا كان حب الهائمين من الورى بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا

فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي سرى قلبه شوقاً إلى العالم الأعلى

يقول: هؤلاء سيكون من أجل الدنيا وهي شيء منته متصرم، فكيف بمن بكى أو أحب وصعد قلبه وعرج بروحه إلى الملاء الأعلى إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه الذي يحب سبحانه، وحبه الباقي وحبه الذي ينفع الإنسان في الآخرة، ولذلك ينبغي أن تصرف الدموع له سبحانه، والحب له سبحانه، أما هذه فأغراض منتهية: النساء.. الثروة.. الجاه.. المال.. الشهرة، كلها منتهية، أين من ساد وشاد؟ أين من ملك وسفك؟ أين من علا وغلا؟ أين من صعد وسعد؟ كلهم انتهوا، أصبحوا: ﴿هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولذلك يقول أبو العتاهية في البكاء:

بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعِ عَيْنِي فَمَا أَغْنَى الْبُكَاءُ وَلَا النَّحِيبُ

يعني: كان شاباً ثم فجأة وإذا هو قد شاب.

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأَخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

وهناك شاعر من الشام ذكر في أبيات له أن امرأة جميلة ذهبت إحدى عينيها، فقال:

لَهَا عَيْنٌ أَصَابَتْ كُلَّ عَيْنٍ وَعَيْنٌ قَدْ أَصَابَتْهَا الْعَيُونُ

يقولون: لو اكتفى بهذا البيت لكان أشعر الناس، بيت أحسن من الديوان كله.

أصابتها عين في العين الثانية.

وعلى ذكر الخلاصة من الشيء والزبدة منه:

قالوا: خذِ العَيْنَ مِنْ كُلِّ فَقَلْتَ لَهُمْ: فِي الْعَيْنِ فَضْلٌ وَلَكِنْ نَاضِرَ الْعَيْنِ

ذاك النون الذي في العين أنك تأخذ الخلاصة وتأخذ الموجز وتأخذ الزبدة من كل شيء.

وعلى ذكر العيون، فقد كان عمر بن عبد العزيز رحمته الله وأرضاه يرسل عسسه في الليل، ممنوع في منتصف الليل أن يدور أحد؛ لأن معنى ذلك لمن يدور في منتصف الليل أن عنده شبهة أو ريبة، خاصة في القرون الأولى؛ لأنه لم يكن هناك مثل الكهرباء ولا أسواق مفتوحة، فالناس يغلقون محلاتهم ويغلقون دكاكينهم ويعودون إلى بيوتهم، فأمر العسس إذا وجدوا أحداً يدور بعد منتصف الليل أن يسلموه إلى بيت الخلافة، وإذا بثلاثة شباب، فألقى العسس القبض عليهم ورفعوهم، فقال عمر بن عبد العزيز: أدخلوهم علي، ودخلوا عليه، قال: أنت ابن

الشعر والعيون

من؟ قال: أنا ابن فلان الذي كان والياً لعبد الملك بن مروان، يعني: الخليفة، فما أعاره اهتماماً، سيان أمر الدنيا عند عمر بن عبد العزيز، فأتى الثاني فقال: وأنت؟ قال: أنا ابن فلان بن موسى بن نصير القائد المشهور، قال: وأنت للثالث؟ وكان شاباً ذكياً أديباً وهذا ابن قتادة بن النعمان وقاتدة بن النعمان صحابي، أو جده صحابي حضر مع رسول الله ﷺ في معركة أحد وقاتل مع رسول الله ﷺ فضربه أحد المشركين بالسيف فسقطت عينه وتدلّت بعرق وأصبحت كالغلبة في خده، فأتى وعينه معلقة في خده بعرق، فردها النبي ﷺ وقال: (باسم الله) فردها مكانها بيده الشريفة المباركة ﷺ، فأصبحت أجمل من الأخرى. فقال هذا الشاب:

أنا ابن الذي سألت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فصارت إلى حسن كأول مرة فيا حسنها عينا ويا حسن من رد

قال: فسالت عينا عمر بن عبد العزيز متأثراً باكياً، وقال مستشهداً:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعاداً بعد أبوالا

وهذا البيت لأمية بن أبي الصلت قاله يسلم به ويبارك لسيف بن ذي يزن في غمدان في اليمن لما انتصر على الأحابيش قال: الذي يريد المجد فليفل فعلتك ليس مثلنا نحن الواحد منا يكون في خيمة من شعر إذا مر غوث أعطاه قعباناً من لبن، يعني: قدحين، يشربها وتعود أبوالاً، أما أنت فإنك أسست كياناً وطردت الأحابيش وحررت بلادك، وفعلت يوم الجلاء للدولة، فبارك له ذلك.

وهذا البيت عند العرب استشهد به في موطن، فأحد المحدثين كان قبله ألف محبرة، أي: ألف طالب، مع كل طالب محبرة، ألف محبرة وألف عمامة، يوم جلس، قال:

إِنِّي إِذَا احْتَوَشْتَنِي أَلْفٌ مُحْبِرَةٌ يَرُوءُونَ: حَدَّثَنِي طَوْرًا وَأَخْبَرَنِي
نَادَيْتُ فِي الْجَمْعِ وَالْأَقْلَامُ مَائِلَةٌ تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانُ مِنْ لَبَنِ

فأخذ نصف البيت، واستشهد به شمس الدين الحلبي الخطيب لما دخل
صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس وفتحه وردّه إلى المسلمين جزاءه الله خيراً عن
الإسلام والمسلمين، قال الخطيب:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانُ مِنْ لَبَنِ وَهَكَذَا السَّيْفُ لَا سَيْفُ ابْنِ ذِي يَزَنٍ

لأن ابن ذي يزن كان على ملة الكفر، لكن القائد صلاح الدين الأيوبي الكردي
البطل الفاتح قاد المسلمين وحرر بيت المقدس من النصارى آنذاك فاستحق
المدح بذلك. علماً بأن سيف بن ذي يزن توسم في عبد المطلب كما مر معنا: أن
من نسله سوف يكون رسول الهدى عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك.

ثم نعود إلى بشار، حيث ذكر العين والأذن يقول:

يَا قَوْمِ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأَذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

لأنه أعمى، حتى إنهم يقولون: إنه أعمى القلب وأعمى البصر؛ يعني: لم يكن
ذا بصيرة في العلوم والإيمان، ولذلك يشكك في معتقده فيما كتب أمره إلى الله
سبحانه وتعالى. وغضب عليه الخليفة المهدي وهو يسوق له أشعاراً فائقة، وهو
من كبار الشعراء على كل حال، فلما ذهب بصره قال ذلك البيت.

وقد قدّم الله السماع في القرآن على البصر فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾
[النحل: ٧٨] فبدأ بالسمع قبل الأبصار؛ لأن مصدر التلقي الأكثر هو السمع،
والأضبط هو السمع؛ لأن الإنسان قد يكون أعمى فيسمع، وقد يكون في الظلام
فيسمع، أما البصر فإنه قد يطرأ عليه العمى ويطرأ عليه الظلام.

ونعود إلى صاحبنا المتنبّي يقول:

وما انتفاع أخِي الدنيا بناظرِهِ إذا استوتَ عندَهُ الأنوارُ والظلمُ

فإذا كانت الحقائق مشوشة أمامه فلا يميز بين الهدى والضلال، ولا يميز بين الصلاح والفساد، ولا يختار لنفسه فماذا ترجو منه؟! فمثله كمثل الإنسان الذي في الظلام ولا يميز بين النور والظلام، فلذلك وصف الله أعداءه بأنهم عمي، ولم يستفيدوا من الآلات والجوارح التي أعطاهم، فقال: ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وما بكى أحد واستخدم عينيه في سكب الدموع وصور ذلك في شعره كما فعل العرب، ومن ذلك ما رواه الترمذي: إن عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وقفت على قبر أخيها عبد الله في مكة في الحجون فبكت وقالت: «مثلي ومثلك يا عبد الله كما قال الأول:

وكنّا كندمانِي جُذيمةَ برهَةٍ من الدهرِ حتّى قيلَ لنْ يتصدّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياةِ وقبلنا أصابَ المنيا رهطَ كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كائِي ومالكاً لطولِ اجتماعٍ لم نبثْ ليلةَ معا

وهذه الأبيات استشهدت بها عائشة، وإلا فهي لمتمم بن نويرة في أخيه مالك، لما قتل ساق هذه الأبيات إلى أن يقول فيها:

فليتَ المنيا كنّ خلّفنَ مالكا فعشنا جميعاً أو ذهبنا بها معا
فهي مبكية، حتى إنه يقول في قصيدة أخرى: إن الحساد أو اللوام والعدال يقولون:
وقالوا أتبكي كلَّ قبرِ رأيته لقبرِ ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلتُ: فدعني فالشّجا يبعثُ الشّجا يقينا فهذا كله قبرُ مالك
يقول: القبور هذه ذكرتني مالكا.

وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكين مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي

ونعود إلى بكاء العرب على الأطلال وتأثرهم بذلك، فهم دائماً يذكرون ذلك، حتى يقول البوصيري في قصيدته الجميلة، الأعجوبة في مدح رسول الله ﷺ، مع العلم أنه غالى فيها مغالاة لا توافق الشريعة في آخرها، لكن في أولها يقول:

أمن تذكر جيران بني سلم مزجت دمعاً جرى من مقله بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت: اكفأ همتا وما لقلبك إن قلت: استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقى لذكر البان والعلم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقني والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم
عدتلك حالي لا سرى بمستتر عن الوشاة ولا دائي بمنحسم
محضتني النصح لكن لست أسمع إن المحب عن العذال في صمم

وهذا من أجمل ما يكون في الأدب، وبدأها بذكر إضم وسلمى وذي سلم.. ونحو ذلك؛ لأن العرب تحب ذكر الديار، وإذا أردت أن تهيج مشاعرك فاذكر الديار في شعرك، حتى يقول أبو تمام:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط جيران

وابن الفارض يقول:

مَنْ لِقَلْبٍ حَلَّ جِرْعَاءَ الْحُمَى ضَاعَ مِنِّي هَلْ لَهُ رُدُّ عَلَيَّ
فَاسْأَلُوا سَكَانَ وَادِي سَلَمٍ فَهُمَا بَيْنَ كَدَاءٍ وَكُدَيَّ

حتى إن ابن الخياط يقول على ذكر الديار والأوطان:

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بَلْبُهُ
وَيَاكُمَا ذَاكَ النَّسِيمُ فَإِنَّهُ مَتَى يَسِرْ كَانَ الْوَجْدُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ

فكان العرب يتأثرون. وإنما أذكر هذا لإعادة ذكر البصر.. ذكر العيون..
ذكر الدموع، فإنهم يستحضرونها عند الفراقيات، فيسفكون دماءهم، حتى يقول
أبو الطيب:

إِنَّ الْمَحَبَّ مُضِرَجًا بَدْمَوْعِهِ مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضِرَجًا بَدْمَائِهِ
فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:
الْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ
فَوْمَنْ أَحَبَّ لِأَعْصِيكَ فِي الْهَوَى قَسَمًا بِهِ وَبِحَسَنِهِ وَبَهَائِهِ

ولا يجوز القسم إلا بالله. إلى أن يقول في البيت الفريد الذي ذاع في الناس
واشتهر:

لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ
يقول: لا تعذل إنساناً مولعاً متأثراً، فأنت لا تعيش مشاعره ولا تدري ما هي
النار التي يصطلي بها قلبه، إذ إنه يقول:
وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعَشْقِ حَتَّى ذَقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعِشُ
وَعَدَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي عَيْرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُ مَا لَقُوا

هذا من تجلياته في الأدب ومن عبقرياته، العجيب أن هذا الرجل يأخذ المعنى فكأنه الذي سبق له تماماً لما يكسوه من حسن لفظ وديباجة ثم يقدمه لك في تحفة من جماليات الأدب ومن اختيار اللفظ في حل لم يسمع بمثلاً؛ ولذلك فاق الذين قبله، إلى درجة أن يقول الواحد: لما أتى المتنبي أعرض الناس عن شعر الشعراء حتى الجاهليين، فاشتغل العلماء بديوانه، واستشهدوا به في المجامع، ودار شعره عند الملوك، وسار مع السمر، وحدا به الحداة، فكأنه يعيش هذه التجربة، أو كأنه يتصورها وينظر الغيب من ستر رقيق وهو يقول:

وما الدهرُ إلا من رِوَاةٍ قصائدي إذا قلتُ شعراً ردَّدَ الدهرُ منشداً

فهو يصنع الكلمة ويرسلها، بل هو يرى أنه لا يمكن أن يجارى في هذا الباب، ويطلب من سيف الدولة أن يترك كل الشعراء، وألا يلتفت لأحد؛ لأنهم أصلاً يأخذون منه ويستفيدون منه، وهو المقدم في الجميع، والحقيقة أنه تفوق في هذا الباب، سواء في الرثاء.. في الحب.. في الوصف.. في المديح. ولو أن الذي ميزه الحكمة بلا شك، حتى إنه أرسل للعالمين قصائد أو أبياتاً من الحكمة يستفيد منها النابه والذكي والعالم، وأذكر آخر ما قرأت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي:

وإن لم تَمُتْ بالسيفِ يوماً مكرماً تمت وتذوقُ الذلَّ غير مكرِّمٍ

يعني: إنك إما أن تموت ميتة شريفة أو تموت ميتة فيها هوان.



المتنبى والخروج على النضر

هذه وقفات مع أبي الطيب المتنبى الأسطورة،
تقف معه تناقشه ونحاوره ونحدثه ويحدثنا، ولكننا
نعتب عليه، نحن اعترفنا بإبداعه وبعبقريته
وبنبوغه وفصاحته، ولكنه إذا تجاوز وتناول على
مقام الشريعة ومقام الدين ومقام الملة، القضاء
والقدر، المبالغة المجحفة المتجاوزة أوقفناه
بالعلم والدليل عند حده.

ففي قصيدة له يمدح أحد الأمراء يقول:

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مَقْسَمًا

فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ إِلَهُ رَسُولًا

يقول: العلم الذي عندك بالله لو قسمته على البشرية لاستغنت البشرية عن أن يرسل الله لهم سبحانه وتعالى رسولاً من رسله عليهم السلام، وهذا غاية الجور وغاية العدوان، فأنى ذلك لبشر مسكين ممدوح في قرية أو في مدينة صغيرة وهذا ليس بصحيح؛ فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لحاجة الناس إليهم، فإن الناس قبل إرسال الرسل كانوا في ظلام وفي جهل وفي تخبط وفي انحراف عن منهج الله عز وجل، فانظر إليه ما اكتفى أن يمدح ممدوحه بالكرم والشجاعة وسداد الرأي ونحو ذلك، بل تجاوز، ولذلك وقف العلماء عند هذا البيت والذي بعده: فتحن لا نعرف عن ربنا سبحانه وتعالى شيئاً إلا ما أخبرنا به رسله عليهم الصلاة والسلام وسيدهم وخاتمهم وخيرهم محمد بن عبد الله ﷺ، ثم يقول:

لو كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أُنْزَلَ الـ قُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

أعوذ بالله يقول لهذا الممدوح: لو أنك نشرت على الناس لفظك هذا والفصاحة، لو أنك وزعتها على العالمين، تصدقت بها على الأقوام وعلى البشر ما كان أنزل الله القرآن على محمد ﷺ والتوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وهذا غاية الخذلان والطغيان والعدوان، فإنه اعتدى في هذا وجمع وأتى بشيء مذهل، إنسان لا يملك شيئاً إن تكلم وأجاد في دقائق، فلا يستطيع الإجابة في بقية عمره، ثم يقول: إنه يقوم لفظه مقام القرآن والتوراة والإنجيل يعني: باختصار هذه هي الإساءة، ما أدري كيف سكنت هذا الممدوح وكيف قبل الأمور وتركها على هذا الظاهر؟ لأنه ما نقل عن الممدوحين أنهم غضبوا أو زجروه أو شيء من ذلك؛ لأن الإنسان أحياناً لا يستمالته للمديح يقولون: يسكر بخمر المديح، فتجده يقول: لا، هو ما قصد هذا إنما قصده كذا وله معانٍ ومقاصد؛ لأن المدح فيه هو.

وهذا من قصيدة له يمدح بدر بن عمار بن إسماعيل الذي قتل الأسد، كان في عَمَّان وأتى الأسد فجأة، فاجأ أهل المدينة ودخل، وبدر بن عمار هذا من

شجعان الرجال، كان أميراً هناك في الأردن، معاصراً للمنتبى، فذهب المنتبى ومدحه، فالواقعة هذه: جاء الأسد فدخل فجأة في المدينة وكان سلاح بدر بن عمار في جهة من قصره والطريق تفصل بين دار هذا وهذا، فما وجد إلا عصا إلا السوط، فنزل والناس ينظرون وصعدت النساء والأطفال على سطوح المنازل وبدر هذا من شجاعته خرج يلاقي الأسد بسوطه، فلما نزل أمام الناس توثب هو والأسد، فضرب الأسد ضربات متتابعة على رأسه حتى أسقطه في الأرض، ثم صعد على رأسه وأخذ يفتك به حتى قتله، فيقول المنتبى بمدحه يقول:

أَمْعَزَ اللَّيْثِ الْهَزْبِ بِسَوْطِهِ لَمِنْ أَدْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا

لكنه طغى، فليته بقي على هذا الإبداع الأول.

يقول: أنت بسوطك دمغت الأسد كيف لو كان السيف معك، ادخرته لمن؟ ثم يصف الأسد يقول:

(يَطَأُ الثَّرَى مَتَرَفَقًا مِنْ تِيهِهِ) من كبره، يقول: الأسد أتى يطاءً الطين والثرى من الكبر والعجب والطفيان وقوة الأسد، طبعاً جموح هو ملك الغابة.

(فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلِيلاً) كأنه طبيب يجس مريضاً في جسمه وينظر علته، وهذا من أميز وصف المنتبى ومن بلاغته وفصاحته المشرقة في هذه الأبيات، لكنه يسيئ فيعود فيتجاوز، فيطغى به بيانه إلى شيء يخالف الشرع والعقل، يقولون: إن بدر هذا انتصر في معركة مع النصارى فقام الخطيب يوم الجمعة قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ [آل عمران: ١٢٣] والآية في بدر أعني الموقعة، وفهمت أنها في الأمير الذي اسمه بدر بن عمار؛ لأنه قاد المعركة فانتصر قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وهذا من الإشراقات ومن الخطب الإشارية التي تنفع أحياناً في الموضوع.

يقول المتنبى في بدر في قصيدة أخرى:

يا بدرُ إنَّكَ والحديثُ شجونُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِمِثَالِهِ تَكْوِينُ

يقول: ما مثلك أبداً في الناس ولا كون الله مثلك، وهذا تجاوز وطغيان، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل والخلفاء وكثير من الصالحين الأبرار والشهداء الأخيار، لكن هو الطغيان.

ثم يقول في البيت الثاني:

لعظمتَ حتَّى لو تكونَ أمانةٌ ما كانَ مؤتمناً بها جبرينُ

يقول: إنك عظمت، حتى لو كنت أمانة ما أوثمن عليها جبريل عليه السلام، وجبريل ينطق: جبرين، وجبريل (باللام) وجبرائيل، وله أسماء كثيرة، يعني: في تصاريف الكلمة ألفاظ، فهذا خطأ غاية الخطأ، فإن الله ائتمن جبريل على الوحي، على الشريعة المقدسة المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام واصطفاه، وهو أمين على ذلك وأتى بها ولم ينقص حرفاً، فائتمنه سبحانه وتعالى على أعظم شيء وهي رسالة التوحيد والإيمان والشريعة المحمدية الخالصة والله ائتمنه وهو يرسله إلى رسله عليهم الصلاة والسلام فجبريل أمين وهو روح القدس، وهو له مكانة عند ربه، فأخطأ هذا الرجل، إذ يقول: لو كنت يا بدر، أمانة ما كان ائتمن الله جبريل على هذه الأمانة، فأخطأ المتنبى وأسرف وأساء وتعدى والله الموعود.

ويقول في قصيدة له أخرى في بدر:

ما يرتجى أحدٌ لمكرمةٍ إلا الإلهُ وأنتَ يا بدرُ

فأتى بالواو المشركة، فالله وحده سبحانه وتعالى هو المرتجى «وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» فلا يملك الضر ولا النفع ولا أن يصل

ولا يقطع ولا يحيى ولا يميت ولا يعافى ولا يشافى إلا هو وحده سبحانه، وانظر إلى الجموح، حين يقول: (وأنت يا بدر) الله وأنت، حتى قال ﷺ وقد سمع رجلاً يقول ما شاء الله وشئت قال: «ويحك ويحك أجعلتني لله نداً، بل: ما شاء الله وحده» فلا يؤتى بالواو المشتركة بين الخالق سبحانه القوي، الغني، الماجد، الواجد، الأحد، الفرد، الصمد، وبين العبد الضعيف المذنب المقصر، لا يجمع بين الخالق والمخلوق بواو، فهذا من خطئه، وإلا فإبداعه وفصاحته في جانب، لكن متى تعلم الشرع هو؟ متى جلس في حلقات العلم وفي مجالس الذكر، وتعلم الحديث والعقيدة والشرعية؟ ما تعلم، هو تعلم البيان، نعم، الشعر والقافية وهو صاحب حكمة وقوي في إirاده، ويستفاد منه في بدائع شوارده وفوائده وقلائده، ولكننا نقف معه إذا طغى على شرع الله وتجاوز ما ينبغي ألا يتجاوز فيه، إذا وصل إلى الخطوط الحمراء أوقفه أهل العلم، وقد ألف بعضهم رسائل في هذه الأبيات وردوا عليه، كابن الجوزي وحتى ابن القيم لمح له، وابن كثير في البداية والنهاية، ومنهم من أفرد رسائل يعالج شعره؛ لأنه شغل الناس في حكمته وفي مديحه وفي طغيانه وعدوانه وفي تجاوزه اللفظي وفي تشبيهاته، وفي مشكلاته، هو رجل مثير، ثم قال:

أَمَا وَحَقُّكَ وَهُوَ غَايَةُ مَقْسَمٍ تَلْحَقُ أَنْتَ وَمَا سُوءُكَ الْبَاطِلُ

انظر يقسم بحقه ولا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى أو بصفة من صفاته جل في علاه، أو بكلامه، فيقول هنا: (وحقك) وهذا أقسم بغير الله سبحانه وتعالى، ثم انظر التجاوز يقول: (وهو غاية مقسم) إذا أقسمنا بك، وأخطأ فالغاية: القسم بالله، وتالله، وايم الله، ووالله، فلا يقسم إلا بالله وهو غاية القسم حتى الجاهلي النابغة الذبياني كان أعقل منه مع العلم أنه في الجاهلية وهذا في الإسلام، المنتبى في آخر القرن الثالث وأول الرابع، والنابغة الذبياني قبل مبعث الرسول ﷺ؛ ولذلك تجد النابغة يقول:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبَةً وليس وراءَ الله للمرءِ مذهبٌ

يقول: واللّٰهُ إِنِّي حلفت لك باللّٰه وليس وراء الله مقصد آخر، لا أعظم من الله ولا أكبر من الله، يقول النابغة الذبياني لكي يعتذر منه، فانظر إلى هذا وهو في الإسلام يقول:

أَمَا وَحَقُّكَ وَهُوَ غَايَةُ مَقْسَمٍ لِّلْحَقِّ أَنْتَ وَمَا سِوَاكَ الْبَاطِلُ

وهذا خطأ، بل الحق هو الله وحده سبحانه، وكذلك قوله حق، ونبيه حق عليه الصلاة والسلام، والأنبياء حق عليهم السلام، واليوم الآخر، والقرآن والجنة والنار، فانظر إليه يقول: سوى هذا الممدوح باطل وهذا تجاوز، ثم جاء إلى سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، فقال:

لَحَبُّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَوْلَىٰ فَإِنَّهُ بِهِ يَبْدَأُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَيَخْتَمُ

يقول: حبك أولى يا سيف الدولة، فإننا نبدأ بك الكلام ونختم بك في الحديث، فأنت يبدأ به، وقد أخطأ وزل وسقطت به قدمه، كيف يكون سيف الدولة يبدأ به الكلام؟! بل يبدأ باسم الله سبحانه وتعالى، بسم الله الرحمن الرحيم، «وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أجذم» فبالله يبدأ الكلام ويختم، وبالصلاة والسلام على رسوله عليه الصلاة والسلام، قال: يبدأ الذكر الجميل ويختم بذكرك أيها الأمير، فقبل أن يخلق سيف الدولة وبعدها مات، كل الذكر يبدأ بالواحد الأحد فهو البداية سبحانه وتعالى، وابدأ بما بدأ الله به سبحانه وتعالى مثل البسملة، وذكره سبحانه وتعالى الحمد لله، الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين ﷺ، ولكن هذا من تجاوزه.

ويقول له في القصيدة نفسها:

فَلَا مَوْتَ إِلَّا مِنْ سَنَانِكَ يُتَقَى وَلَا رِزْقَ إِلَّا مِنْ يَمِينِكَ يُقَسَمُ

يقول: الموت ما يأتي إلا من سنانك من رمحك، ولا يتقى إلا منه، والرزق لا يأتي إلا من يمينك.

أخطأ وكذب، بل الرزق يأتي من عند الواحد الأحد، فهو الذي رزق الخليقة قبل أن يخلق هذا وأمثاله، قبل أن يخلق الممدوح سيف الدولة والله رزق الكائنات في البر والبحر والجن والإنس: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وأيضاً الموت كتبه سبحانه وتعالى على العالم من قبل أن يخلق هذا، فالله الذي قدر الموت والحياة، وهو الذي خلق الموت والحياة سبحانه وتعالى، وهو الرازق وحده لا إله إلا هو.

والآن نعود إلى المتنبي ونقف معه في بعض تجاوزه يقول في الممدوح:

الَّذِي لَيْسَ عَنْهُ مَغْنٍ وَلَا مِنْهُ لَهُ بَدِيلٌ وَلَا لِمَا رَامَ حَامٍ

يقول: أنت أيها الممدوح، لا غنى عنك ولا أحد يغنيك عنك، والله سبحانه وتعالى هو الذي يغني، وهو الذي أغنى وأقتى، لكنه تجاوز؛ ليريد ما لا مقطوعاً، ما لا قليلاً منتهياً زائلاً من هذه الدنيا المزخرفة المنتهية الزائلة الغدرة الغرارة، ولو كان عنده علم راسخ، وفهم وعمل صالح وورع لما كان تجاوز؛ فمن الذي يرزق من في السموات ومن في الأرض إلا الله، وتكفل بأرزاق الخلائق إلا هو جل في علاه، قال: (وَلَا مِنْهُ بَدِيلٌ) يقول: ما لنا عنك بديل، إذاً فمن الذي ينصر ويكفي ويشفي ويعافي، بل الله سبحانه وتعالى يغني عن الجميع، حتى يقول أحد الصالحين: إذا كان الله معك فمن تخاف، وإذا كان الله ضدك فمن ترجو؟ ويقول: من وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء، فالغنى معه سبحانه والعز والمكانة والمغفرة والشرف، لكن انظر إليه يذهب إلى بشر مذنب مخطئ مقصر ويتجاوز في حده في المديح، ويقول: (وَلَا لِمَا رَامَ حَامٍ): إذا قصد شيئاً فلا يحميه حام، هو إذا أراد أن ينتقم لا يمنعه مانع، وهذا كله لله سبحانه وتعالى وإنما تجاوز بلا شك.

وفي قصيدة أخرى يقول:

لا تعدل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وهو من أجمل الأبيات، لكنه في القصيدة نفسها يقول في أولها:

فومن أحب لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه

يقول هو: أقسم بحب من أحب؛ بمحبوبته إنني أعصيك يا لائمي في الهوى، فلا أسمع للومك، قسماً بمحوبي وقسماً بحسنه وقسماً ببهائه، وقد أخطأ وتجاوز الحق والحد، والقسم بغير الله شرك، وعند أهل العلم من أهل السنة أنه شرك أصغر، فلا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى.

«إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم» وفي حديث صحيح قال عمر: «فما حلفت بغير الله أو بآبائي ذاكراً أو أنثى» فلا يجوز أن يحلف الإنسان لا بالشمس ولا بالقمر ولا بالسماء ولا بالإنسان، إنما يقسم بالله العظيم وحده سبحانه وتعالى، وويل لمن أقسم بغير الواحد الأحد، فالقسم تعظيم، ولا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، لكنه لجهله بالشريعة قال هذا.

وسبحان الله! بعض الناس يصرف عمره - انظر لهذا النابغة العبقري المتنبى - كله ستة وأربعون أو ثمانية وأربعون، صرفه كله في القافية ومطاردة الدنيا، يريد شهرة ويريد ظهوراً ويريد جاهاً دنيوياً منتهياً، ما تعلم من العلم شيئاً، حتى لا يعرف الحديث الصحيح ولا الضعيف، ولا درس الروايات ولا شيئاً من الفقه، وحتى لو تسأله في نواقض الوضوء لما أجاب، فعبقريته ذهبت وجنحت، حتى يطفئ في أفاط الشرع.

ويقول في مرض سيف الدولة:

وكيف تعلق الدنيا بشيء وأنت لعل الدنيا طبيب

يقول: كيف تمرضك الدنيا، وأنت الطبيب لكل علة في الدنيا؟ والطبيب حقيقة هو الله؛ كما قيل لأبي بكر وهو مريض: «ألا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب قد رأني، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد» ولذلك قال بعض الصالحين:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي قد أصابني من طبيبي

فهذا لا يطلق، إنه وصف لله عز وجل، ليس من أسمائه، لكن من أفعاله سبحانه وتعالى إنه يدوي وإنه يعالج، وهو يقول هنا: (وكيف تعلق الدنيا بشيء) الدنيا لا تستطيع أن تمرضك؛ لأنك أنت الطبيب العالم الذي تعالج من كل علة من الدنيا، وهذا هو التجاوز، حتى إن ابن سينا كان يعالج من مرض القولون، ابن سينا الطبيب المشهور أبو علي هذا الرئيس، كان داهية من دهاة الناس ومن أذكائهم، لكن على غبش في تصويره في بعض المسائل، وقد رد عليه الغزالي وغيره من العلماء، فهنا يقول ابن سينا لعجبه بنفسه: أنا لو مرض الجن بالقولون لعالجتهم، كان يعالج الملوك من مرض القولون، فابتلاه الله بمرض القولون - نفس الطبيب أبي علي - فراح يتناول العلاج والعقاقير والأدوية وأخذ يتقلب ظهراً لبطن ويميناً ليسار ويصيح صياحاً، قالوا: فأين طبك وعلاجك ودواؤك؟ قال: الطبيب الأعظم أمرض الطبيب الأصغر، فمات.

فالواحد الأحد هو الذي يشفي ويعافي هو سبحانه وتعالى، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فلا يشفي إلا الله سبحانه وتعالى، «لا شفاء إلا شفاؤك» كما صح عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

ثم يقول في أبيات أخرى للممدوح:

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارق هلكى وتلقاه سجداً

يقول: إنها تخشع لك الملوك. ولا يخشع الناس إلا للواحد الأحد سبحانه

وتعالى، ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، ويقول: إنها تفارقك هلكى، أنت تقاثلها فتهلك فيها هلاكاً، وإذا لقيتك سجدت لك، والسجود لا يكون إلا لله وحده، ففي حديث يقول عليه الصلاة والسلام، حديث حسن: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» لعظم حقه عليها، ونهي الناس أن يسجدوا إلا لله وحده سبحانه، حتى إن المتنبى من تجاوزه في ألفاظه يقول:

أبدؤ فيسجدُ مَنْ بالسوءِ يذكرُنِي فلا أعاتِبُه صَفْحاً وإِهْواناً

يقول: إذا رآني الناس الحساد سجدوا، وهم لا يسجدون حقيقة، ولا سجد له أحد، لكنه الطغيان اللفظي وجموح النفس، وحب الصدارة الدنيوية، والشهرة في الأرض المنقطعة، ولذلك أين ذهب؟ حياته الآن منتهية، مات الزاهد ومات العابد والمتكبر والفقير، مثلما يقول الكاتب الأمريكي إستيفون كوفي: إني زرت المقبرة فوجدت قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر العامل البسيط، ولاعب الكرة المشهور بقبر الخامل. فتعجبت من هذه المسرحية التي تسمى الدنيا، فأين ذهب الآن؟ هو يحاسب بألفاظه عند الواحد الأحد، لماذا قلت كذا؟ ولماذا تجاوزت؟ ولماذا تعديت؟

ثم يعود إلى تجاوزات أخرى في بعض الأبيات، فيقول لابن العميد:

عربيٌّ لسانُه فلسفيٌّ رأيُه فارسيَّةُ أعياده

قيل: إن القصيدة في ابن العميد، وقال بعض الشراح: بل هي في عضد الدولة فنخصره، وابن العميد الكاتب قد مدحه المتنبى بقصائد، ومنها:

بادِ هواك صبرتِ أم لم تصبري وبكاك إذ لم يجرِ دمُك أو جرى

إلى أن يقول في القصيدة:

مَنْ مَخْبِرُ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهُمْ جالستُ جالينوسَ والأُسكندرا
وقرأتُ بطليموسَ دارسَ كتبه متبدياً متعلماً متحضراً
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباته وقطفتُ أنتَ القولَ لما نورا

فلو أنه استمر على هذا الإبداع وهذه الفصاحة والعبقرية لكنا سكتنا عنه وسكت عنه علماء الشريعة، لكنه يتجاوز، ولذلك لما ذهب لعضد الدولة يقول:

مغاني الشَّعبِ طيباً في المغاني بمنزلةِ الربيعِ من الزَّمانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
فما يُسمَى كفنْخَصروُ مسمى ولا يَكُنَى كفنْخَصروُ كانِ

وعضد الدولة اسمه فنخصرو، فهنا يقول: عربي لسانه، يقول: فصيح على اللغة العربية، فلسفي رأيه؛ لأنهم يعجبون بالفلسفة من عهد المأمون مثلما يعجب بها بعض المثقفين الآن ولو ما في رأسه حبة ولا كلمة ولا فائدة ولا شيء، فيريد فقط أن يحبك لك الكلام ويزوقه. يقول أحدهم: إنها تنطلق من أطروتنبتق في بوتقة، ولنتقي على أرضية مشتركة؛ لنخاطب الأيدولوجية بخطاب مركزي إستراتيجي. وتبحث عنه وإذا هو لا يعرف شيئاً، فالفلاسفة في عهد المأمون كانوا يعجبون بتزويق الألفاظ، حتى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إني بحثت عن بضاعتهم فوجدت بضاعة الفلاسفة كلحم جمل غث على رأس جبل لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، وهذا جزء من حديث أم زرع الذي في صحيح البخاري وروته عائشة عن الرسول ﷺ: «فأنا كأبي زرع لك» عليه الصلاة والسلام.

الشاهد: يقول ابن تيمية: إن الفلاسفة -يعني المنحرفين عن منهج الله- لهم حظ من قوله: ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وأهل الحديث لهم حظ من قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فهم يمدحون بالفلسفة.

ويقول: (فارسية أعياده) والأعياد الفارسية محرمة في الإسلام، فإن فيها من التقرب إلى آلهتهم وإلى النار، نار المجوس، وفيها عيد النيروز المخالف لدين الله ﷺ، فيمدحه ويقول: الحمد لله أن أعيادك فارسية، لكنه لا يعرف الحلال والحرام طبعاً، لكننا نقف لننبه الجيل؛ لأنه قد يقرأ ديوانه أحد الإخوة فيغتر ويقول: لعل الأعياد الفارسية جميلة وما دام المتنبّي زكاها فإن لها أهمية، فنقول: المتنبّي ليس بعالم شريعة، ولا يفتي في هذه المسائل.

ثم يقول:

لَنَا مَذْهَبُ الْعِبَادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ وَاتِيَانُهُ نَبْغِي الرِّغَائِبَ بِالزَّهْدِ
رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ بِأَرْجَانٍ حَتَّى مَا يَيْسُنَا مِنَ الْخَلْدِ

يقول: إننا نذهب مذهب الزهاد الذين تركوا الدنيا ومالوا إلى ما عند الله ﷺ، فتحسن مثل الزهاد لكننا تركنا كل الدنيا وملنا إلى هذا الرجل الملك الذي قصدناه، قيل: إنه يقصد عضد الدولة وقيل: بل ابن العميد، لكنني أرجح عضد الدولة.

(رجونا الذي يرجون في كل جنة) يعني: نحن نرجو من هذا الملك مثلاً يرجو الزهاد والعباد في الجنة، نحن نرجو من هذا ونطلب من هذا ونطمع من عند هذا وما عنده ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] عنده الفقر والله، كل الذي فوق التراب تراب، حتى هو قال في أبياته التي فيها:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِجٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

يقول لسيف الدولة:

فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاءُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيْنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ تَرَابُ

الزعماء، الأغنياء، الأثرياء، العلماء، المفكرون، التجار، تراب يمشي على تراب، ثم يتحول التراب إلى تراب، ثم يدخل التراب إلى أصله تراباً، ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصاص: ٨٨].

يقول: نحن نرجوك مثلما يرجون زهاد الدنيا، كم يساوي العمر هذا؟ أن تذهب عقيدتك وشريعتك ودينك وإيمانك من أجل الدنيا، ثم لو أعطاك كنوز الدنيا.

وأرجان: بلد.

يقول: (حتى ما يؤسنا من الخلد) يقول: لما دخلنا أرجان هذه نريد أن نخلد فيها مثلما يريد أهل الجنة أن يخلدوا في الجنة، وهو يقول في أرجان هذه وكان وادي شعب بوان في الشمال جميلاً وأخضر يقول:

ملاعبُ جنةٍ لو سار فيها سليمانُ لسارَ بترجمانٍ

وهذا من أبياته الخاطئة يقول: لو كان سليمان موجوداً وهو الذي يكلم الطير والوحش لما استطاع، ولاحتاج إلى من يترجم له، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى يقول على لسانه: ﴿عَلَّمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، كان سليمان عليه السلام يكلم الحمامة، يكلم النملة، يكلم القمري، تأتي الغزال توقفه وتكلمه ويكلمها، سبحان الذي أعطاه هذا الملك يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، ولذلك لا يفرح بالملك بعده، أين سليمان؟ أين قصوره؟ أين الإنس؟ أين الجن؟ أين تلك المملكة التي عبرت في التاريخ أكبر مملكة في الدنيا؟ ولذلك أخطأ المتنبي وتجاوز حين يقول:

ملاعبُ جنةٍ لو سار فيها سليمانُ لسارَ بترجمانٍ

يقول: الجن يتلاعبون في هذه الغابة من سوادها ومن شجرها ومن التفاف حدائقها، حتى إن فيها من الحيوانات والطيور، لدرجة أن سليمان يحتاج إلى من يترجم له. وهذا خطأ؛ فسليمان عليه السلام لا يحتاج إلى من يترجم له؛ لأن الله علمه منطق الطير. نسأل الله أن يحفظ ألسنتنا من الزلل وقلوبنا من الرياء.

عمر الفنى الثانى

يقول أبو الطيب المتنبي:

ذَكَرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ
مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا أتى به في قصيدته البديعة التي يقول

في مطلعها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ
فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وفيها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدُ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ
فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَدَالُ

ثم ختمها بتلك الأبيات الشائقة الرائقة البديعة التي يقول فيها:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وقبلها:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لَمَّا يَشِيقُ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالُ

ومن ضمن القصيدة:

ذَكَرُ الْفَتَى عُمُرَهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

ومعنى البيت أن الذكر الحسن للإنسان بعد موته عُمر ثانٍ يُضاف إلى عمره الأول، وحاجة الإنسان ما قاته، أي: إن الإنسان يكفيه في الحياة القوت؛ فإن القوت يقوم بأمورك ويكفيك إذا كنت من المقتصدين الذين يفهمون تبسيط الحياة ويفهمون القناعة ويريدون العيشة الساكنة الهنيئة.

وفضول العيش أشغال: أكثر الأمور التي يتزود بها الناس ويسمونها الرفاهية أو الزيادة على الحاجة، إنما هي أشغال تُشغلُ الذهن ولا معنى لها كما يقول أبو العتاهية، إذ يرى السعادة في الكفاف ويرى أنها في الهدوء، ولذلك يقول:

رَغِيْفٌ خُبْزٍ يَابِسٍ تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ
وَكُوْزٌ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
وَمَصْحَفٌ تَدْرُسُهُ مُسْتَنَدًا لِسَارِيَةٍ
خَيْرٌ مِنَ السُّكْنَى بِظِلِّ لَاتِ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ

أي: مع المعصية والمخالفة.

مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ تُصَلِّي بِنَارِ حَامِيَةٍ

فهو هنا يدعوك إلى أن تحسن من سيرتك، حتى يكون لك ذكر آخر وسيرة حسنة، كما يقول ابن دريد، حين لخص حياة الإنسان إلى أن يُصبح حديثاً بعد

وفاته، ولا يبقى منه شيء في الحياة، من جسمه وبصره وعيونه فلا يبقى إلا حديث، يقول **عزّز**: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. وإبراهيم **عليه السلام** سأل الله **عزّز** مسألة وهي من أحسن ما يُسأل: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. قال المفسرون: هو الثناء الحسن. أي: اجعل لي يا رب العالمين، السنة تنثني عليّ وتسلم عليّ وتذكرني بالخير، فما دام أنه «في الليل والنهار وعلى إخوانه المرسلين» فانظر كيف طلب الثناء الحسن للباقي؛ لأن الثناء الحسن هو تاريخ ومجد؛ لأن الناس شهداء الله في أرضه، فإن شهدوا لإنسان من أهل الخير بخير فهو من أهل الخير وإن شهدوا عليه بشر، فهو من أهل الشر والسوء، كما صح عند البخاري وغيره: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ: وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ. وَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ ثَانِيَةٍ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، قَالَ: وَجِبَتْ وَجِبَتْ وَجِبَتْ». فسئل فقال: «الْأَوَّلَى أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتُ: وَجِبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَالثَّانِيَةُ أَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجِبَتْ لَهَا النَّارُ؛ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ».

ولكن سعى كثير من الناس بجوده وشجاعته؛ حتى يكسب ذكراً، حتى يقول في صحيح مسلم عدي بن حاتم **رضي الله عنه**: «يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ أَبِي كَانَ يُقْرِئ الضَّيْفَ وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: إِنْ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئًا فَأَصَابَهُ».

فهو طلب الذكر والسمعة في الناس، فأعطاه الله **عزّز**، وأما الدليل على أن حاتمًا يريد الصيت والسمعة، لا أنه يفعل هذا الجود يريد الثواب، فقوله:

أَمَاوِيَّ، إِنْ أَلْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ وَيَبْقَى مِنَ أَلْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فهو يريد بجوده أن يُذكر في الناس ويريد أن يتحدث الناس بجوده، فأعطاه الله ما تمنى في الدنيا؛ لأنه طلب وقصد ذلك، وإنما الأعمال بالنيات، فلذلك تجد

أشهر الناس بالكرم حاتم الطائي، يضرب به الناس المثل في الكرم قديماً وحديثاً، فهو طلب هذا الشيء فحصل له، فقال ﷺ: «إِنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئاً فَأَصَابَهُ». وهو المقصود من حاتم في قوله:

أَمَاوِيٍّ، إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ وَيَبْقَى مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالذِّكْرِ

فهو يريد الأحاديث والذكر، ولهذا يقول في أبيات عجيبة في الحماسة لأبي تمام:

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى
وَيُخَيِّ الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهِيَ رَمِيمُ مَخَافَةَ يَوْماً أَنْ يُقَالَ: لَنِيْمُ

فطلب شيئاً فحصل عليه، والله عز وجل يجزي في الآخرة من أراد وجهه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]. لكن من أراد ما عند الله جمع الله له بين الثناء الحسن والأجر العظيم عنده عز وجل. وابن بقية الوزير لما قُتل ورثاه أبو الحسن الأنباري؛ قُتل وصلب في بغداد وسُمرت يداه ف قيل فيه قصيدة باقية لا تُنسى أبداً، وهي من أجل المراثي، يقول أبو الحسن الأنباري فيه:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقُّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ وَقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدِّهِمْ إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ

إلى آخر ما قال. فهي من أجل الثناء الحسن الذي يؤرخ.

وأحد الشعراء مر بقبر سلم بن سعيد بن قتيبة بن مسلم - جده قتيبة بن مسلم، وكان كريماً جواداً - وقد أحسن إليه في الحياة الدنيا، فأراد أن ينصفه، فقال:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ
وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٍ
سَأْبِكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغَضَّ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ - وَإِنْ جَلَّ - جَاوِزُ
فَإِنْ حَسُنْتَ فِيكَ الْمَرَاتِي وَذَكَّرَهَا
وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ مَادِحُ
عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَاصِحُ
وَكَانَ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّفَائِحُ
فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ
وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
لَقَدْ حَسُنْتَ مِنْ قَبْلِ فِيكَ الْمَدَائِحُ

إن من أراد الثناء الحسن والمدح الجميل فعليه أن يفعل فعلاً جميلاً ، ولا يقصد مدح الناس ، إنما يقصد رب الناس ويقصد الثواب من الله فيؤتيه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ويسوق له الثناء الحسن ويجعل له ذكراً جميلاً ومكانة وقبولاً ، أما من يطلب الدنيا فلا يحصل له الثواب وقد يحصل له الذكر المنقطع في الدنيا ، كما حصل لحاتم ونحوه ، وبالمناسبة فإن عبد الله بن جدعان كانت له جفنة كبيرة يطعم فيها يحملها أربعة من العمال فيملؤها براً وعسلاً وتمراً ، أتى ﷺ وهو شاب وأبو جهل معه يتسابقون إلى هذه المأدبة ، فزاحم أبو جهل الرسول ﷺ وكان سنهما متقارباً - أكرم الله الرسول محمداً ﷺ - فازدحما فتصارعا أمام الناس ، فطرح رسول الله ﷺ أبا جهل وطرحه على ركبته ووطأه أرضاً ، فلما جاء أبو جهل في بدر قُطِعَ رأسه فاختلفوا في جثته ، إذ أصبح بلا رأس ، فقال ﷺ : «الْتَمِسُوا فَإِنَّ فِي رُكْبَتِهِ أَثَارَ جَرْحٍ قَدْ صَرَعْتُهُ عَلَى مَائِدَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ وَنَحْنُ شَبَابٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ» . فكشفوا الثوب فوجدوا آثار الجرح الكبير أسفل من آثار الشباب ، فوجدوا جثته فساقيه وسحبوه كالعير ، حتى أنزلوه في بئر بدر في القليب ، فهذه من قصة عبد الله بن جدعان التي حضرها سيد الخلق ﷺ ، فكانت مأدبة عبد الله بن جدعان التي كان حضورها مع من حضر أشرف خلق الله ﷺ ، ولكنه كانت لطلب المديح الدنيوي ، فالذكر الحسن هو ملك بلا شك وهو حياة كما يقول أبو الطيب :

ذِكْرُ الْفَتَى عُمَرُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وبإمكانك أن تعلق هذا البيت الحكمة فائدة لك توظفه في سمعة حسنة، وفي قناعة وفي اكتفاء برزق حلال طيب يكفيك.

وعلى ذكر هذا الثناء الذي يشير إليه أبو الطيب المتنبّي يرى الحكماء والعلماء أن المال ينتهي وأن المال يبقى، وأن أعراض الدنيا تفنى وأن السيرة الحميدة هي الباقية، ولذلك كم من مسؤول ومن وزير عَزِلَ وما عَزِلَتْ فضائله، بل بقيت في الناس تذهب وتأتي، وكم من إنسان يتولى من مسؤول ووزير ونحوه وهو على رأس منصبه وليس له ذكر حسن ولا سيرة عطرة، إذا تعود المسألة إلى مسألة الذكر الجميل والسيرة الحسنة، فلا يكتب تاريخ الإنسان إلا هو، وإن تاريخاً يكتبه غيرك عنك تاريخ مغلوط، يقول برناردشو: إذا رأيت مؤرخاً يكتب عن إنسان فاعرف أن الحقيقة غائبة. لأنه لا يعرف إلا أنت، ولن يتصدق عليك أحد بعد موتك بمحاسن، فالتناس والمؤرخون لا يجعلون البخيل جواداً ولا الجبان شجاعاً ولا الفاجر عابداً، فأنت في حياتك هذه العابرة المنصرمة القصيرة، عليك أن تبني مجداً من البر والإيمان والخلق والتواضع والإحسان، فتجده عند الله عز وجل.

كان عمر رضي الله عنه جالساً فأتى أبناء هرم بن سنان - وهرم بن سنان من مشايخ غطفان - وقد توفّي أبوه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانُ رضي الله عنه وَمَاذَا أُعْطِيَتْ مُوَهَّ؟». قالوا: مدحنا وأعطيناه. أي: مدح آبائنا. وزهير بن أبي سلمى كان شاعراً وكان يقول: لن أسلم على هرم؛ لأنني كلما سلمت عليه وقلت: عم صباحاً؛ أقسم هرم أن يعطيني جائزة، فخرجت من كثرة العطاء. فكان يقول: عُمُو صَبَاحاً إِلَّا هَرِمَ وَخَيْرُكُمْ مَنْ اسْتَنْتَيْتُ.

يقول: إلا هرم؛ لأنه كلما صبح عليه زهير يعطيه جائزة أو هدية، فاستحيا من كثرة الهدايا. فعموا صباحاً: هذه تحية الجاهلية قبل الإسلام تحية أهل الظلام والشرك، ولذلك يقول امرؤ القيس:

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُنْعَمٌ
وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الرَّبْعِ الْخَالِي قَلِيلُ الْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وهي اللامية، وليست هي من المعلقة، لكن بعض العلماء يقدمها على المعلقة؛ لأن فيها حكماً وفيها لموعاً أكثر وسطوعاً، والمعلقة مطلعها:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

الشاهد قال عمر رضي الله عنه: «مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانُ رضي الله عنه وَمَاذَا أُعْطِيْتُمُوهُ؟». قالوا: مدحنا وأعطيناه. قال عمر رضي الله عنه: «ذَهَبَ - وَاللَّهِ - مَا أُعْطِيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أُعْطَاكُمْ». فَإِنْ مَا أَعْطَوْهُ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ ثِيَابٍ أَوْ طَعَامٍ انْتَهَى وَبَقِيَ الثَّناءُ الْحَسَنُ، فَتَحْنُ الْآنَ نَحْفِظُ كَلَامَ زَهِيرٍ فِي هَرَمٍ، حَتَّى يَقُولَ:

قَوْمُ آبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْدُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسَدُوا

أبوهم سنان، أي: أبوهرم. محسدون: محسودون من الناس. وفي الحسود يقول أبو تمام:

اعْذُرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصَتْ بِهِ إِنَّ الْعُلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِ مَا حَسَدُوا

يقول: ما أحسن الحسد عليك؛ لأنك عندك نعمة!

ابن الوزير محمد بن إبراهيم صاحب (العواصم والقواصم) أعلم علماء اليمن على الإطلاق، حتى يقول الشوكاني: لو جُمِعَ علماء اليمن في ذاتٍ واحدة ما أتوا مثل ابن الوزير، وكتابه (العواصم والقواصم) طُبِعَ في تسعة مجلدات، وليس المقصود

كتاب (العواصم والقواصم) كتاب العربي الأندلسي، هذا لمحمد بن إبراهيم الوزير العلامة المجتهد النظار المحدث المفسر الفقيه، وهو في القرن الثامن، وشكا من ظلم حساده لما لمع وبسط - كما يقول أحد الكتاب: إذا رأيت الحساد ينالونك، وسهام النقد تتوجه إليك والناس يرمونك بالطوب فاعلم أنك قد وصلت إلى بلاط المجد وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة لاستقبالك. فهذا محمد بن الوزير شكا من ظلم حسّاده، يقول أحد العلماء وكتب له فقال:

وَشَكَوْتَ مِنْ ظُلْمِ الْوُشَاةِ وَلَمْ تَجِدْ مَا زِلْتَ يَا سِبْطَ الْكِرَامِ، مُحَسِّدًا
ذَا سُودٍّ إِلَّا أُصِيبَ بِحُسَدٍ وَالتَّافَهُ الْمُسْكِينُ غَيْرُ مُحَسَّدٍ

من يحسد المسكين الجالس على الأرض؟ لا يسقط الضعيف الهزيل الفاشل، ومن يتمنى أنه مكانه؟ إنه يمر صفراً وهل للصففر قيمة؟! ولذلك يقول زهير:

مُحَسِّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا

الله يبقي هذه النعمة التي سببت الحسد لهم: لأن كل ذي نعمة محسود، فما دامت هذه النعمة تسوق لهم الحسد، فأسأل الله ألا ينزع عنهم هذه النعمة، حتى يقول الأسطورة أبو الطيب المتنبّي:

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِي فَمَا أَنْكَرَ أُنِّي عُقُوبَةَ لَهُمْ

انظر إلى هذه القوة والعصف والقصف يكسر الرؤوس، فيقول: الله أرسلني عقوبة لهم، الله ابتلاهم بي، الله أحرق أكبادهم وكسر أضلاعهم بي، أنا عقوبة. ويقول:

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلَا تَطْمَعُنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

كان يضطرم ويتوجع ويحترق، لكن يثور ويقول: ما عندي بأس، لست متأثراً،
أنا صامد. لا بد أن يلتفت له ولا بد أن يكون هو الرقم الأول، فيقول:
أَبْدُو فَيَسْجُدْ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي.

حتى يقول ابن الفارض:

وَإِذَا الْحُسْنُ بَدَأَ فَاسْجُدْ لَهُ.

ولا يسجد إلا لله وحده عز وجل ولكنها تجاوزات الشعراء..

فَسُجُودُ الشُّكْرِ فَرَضٌ يَا أَخِي.

حتى إن نزار قباني يقول في دمشق:

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَهْلُهَا عَبَدُوا الْجَمَالَ وَذَوَّبُوهُ وَذَابُوا

ولا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ عز وجل، قصيدة جميلة بائنة يقول فيها:

الْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَيْنَمَا أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدُولٌ يَنْسَابُ

الشاهد قوله:

أَبْدُو فَيَسْجُدْ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْوَانَا
كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسِّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي أُغْتَابُ سِرّاً وَيُثْنَى فِي إِعْلَانَا

الثناء الحسن من السنة المؤمنين؛ لأن السنة الخلق أقلام الحق، فمن شهد
له المؤمنون بأنه خير فهو خير ومن شهدوا عليه بسوء فهو سيئ.

أتى رجل يثني على أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يبالغ وهو لا يجب علياً (عليه السلام)
لكن أتى يبالغ، فقال (عليه السلام): «أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ». أي: أنت في

نفسك لا تراني في المنزلة الرفيعة وبالغت في القول. قال: ما للناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قال: «لَأَنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ «أَنَا وَأَمْثَالِي وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ». وهذا من الجوابات الساطعة، فلا يأتي بهذا الكلام ولا يأتي بهذا الجواب إلا علي (رضي الله عنه).

فله عز وجل الثناء والمجد، فله الثناء كله والشكر أوله وآخره وله الحمد أجمعه، ولذلك مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون وحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، فهو جمع المدح كله ويحب الثناء عز وجل حتى نقول في الدعاء: «أَنْتَ كَمَا أَتْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ». كما صح عن النبي ﷺ، فالثناء الذي لا نستطيعه هو الثناء الذي أتى به على نفسه عز وجل، فما أتى على الله مثل ثنائه عز وجل في نفسه ولذلك يحمد عند النعم وعند وقوع النقم لأعدائه من الأمم؛ لأنه محمود على المكروه فلا يحمد على المكروه سواء عز وجل، فلما أوقع البأس بأعدائه قال: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. لو كان غير الله من البشر لقال: أنزلنا البأس بآل فلان. والله المستعان فهم يلجؤون لهذا، أو يقولون: انتقمنا من آل فلان. وحسبنا الله ونعم الوكيل، لكنه عز وجل قال: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. فإن إيقاعه بهم وعذابه للطفة وأخذه للفجرة والجبايرة عدل منه عز وجل يوجب علينا أن نحمده، فهو أهل الثناء والمجد جل في علاه ولذلك يحب المدح.

وعند مسلم في الصحيح: «لَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ». ولذلك مدح نفسه، وأتى الأسود بن سريع في مسند أحمد، قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَظَّمْتُ قَصِيدَةً أَثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. قَالَ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ». ولذلك فالمتنبي يقول في مخلوق، ولكني أعيدها إلى الله الواحد، الأحد فهو يستحقها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَدَالٌ

وهذا لا يكون إلا لله عز وجل فإن المدح كله والثناء الحسن والشكر لله وحده عز وجل
إذ إنه: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل:
٥٣]. فهو الذي استوجب منا أن نمدحه ونحمده جل في علاه ولذلك مدح كثير من
الشعراء الله عز وجل كقول أبي نواس:

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عُيُونٌ مِنْ لَجِينِ شَاخِصَاتٍ بِأَحْدَاقِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى كُتُبِ الزَّبْرَجِدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقلت في قصيدة:

يَا رَبِّ حَمْدًا لَيْسَ غَيْرُكَ يُحْمَدُ يَا مَنْ لَهُ كُلُّ الْخَلَائِقِ تَصْمُدُ
أَبْوَابُ كُلِّ مُمْلِكٍ قَدْ أُوصِدَتْ وَرَأَيْتُ بَابَكَ وَاسِعًا لَا يُوصَدُ
الصَّالِحُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ آمَنُوا عَافُوا بِحُبِّكَ نَوْمَهُمْ فَتَهَجَّدُوا

ومنهم من مدحه عز وجل فقال:

إِلَيْكَ وَإِلَّا لَا تَشُدُّ الرُّكَّابُ وَمِنْكَ وَإِلَّا فَالْمُؤْمَلُ خَائِبُ
وَفِيكَ وَإِلَّا فَالْغَرَامُ مُضَيِّعُ وَعَنْكَ وَإِلَّا فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فهو أجل من يمدح عز وجل ولذلك أوصيكم بكثرة ذكره وتسبيحه ومدحه عز وجل،
والثناء عليه في المجامع العامة والخاصة وفي الأذكار وفي كل مناسبة.

وأبو الطيب على بلاغته وفصاحته وعبقريته أسرف في مدح الناس، ولو أننى
على الواحد الأحد الذي يستحق المديح لكفاه؛ لأنه يأتي إلى مخلوق مثله يأكل
ويمشي في الأسواق، فيقول:

جَزَى اللَّهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرًا وَإِنْ تَرَدَّ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

بل جزى الله المسير إلى رب العباد خيراً، وأسأل الله أن يتولانا وإياكم
بالخير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت،
أستغفرك وأتوب إليك.

